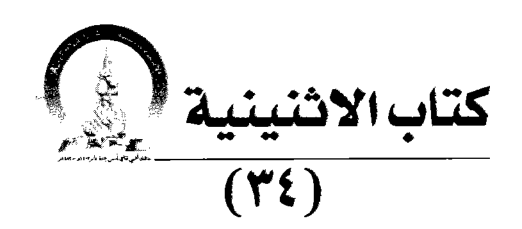


(٣٤)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

أحمد قنديل

الجزء الخامس

النثر

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ⓒ عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

قنديل ،أحمد

الأعمال الكاملة ./ أحمد قنديل .- جدة ١٤٢٧هـ

(٦ مج ٣٤٣٢ ص) الجزء الخامس ٤٦٤ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٣٤)

ردمك ٥-٥٦٤-٥٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٥٦٩-٥٦-٩٩٦٠ (ج٥)

١ - الأدب العربي - السعودية - مجموعات أ- العنوان

ديوي ٨١٠,٨٠٠٩٥٣١ ١٤٢٧/٥٥١٤

رقم الإيداع : ١٤٢٧/٥٥١٤

ردمك : ٥-٥٦٤-٥٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٥٦٩-٥٦-٩٩٦٠ (ج٥)

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة



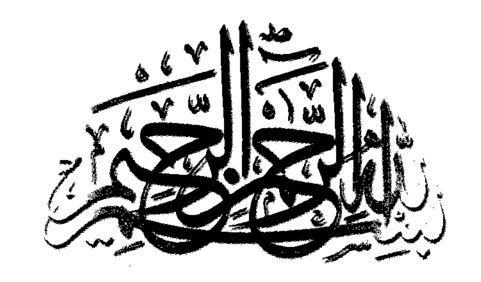
منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

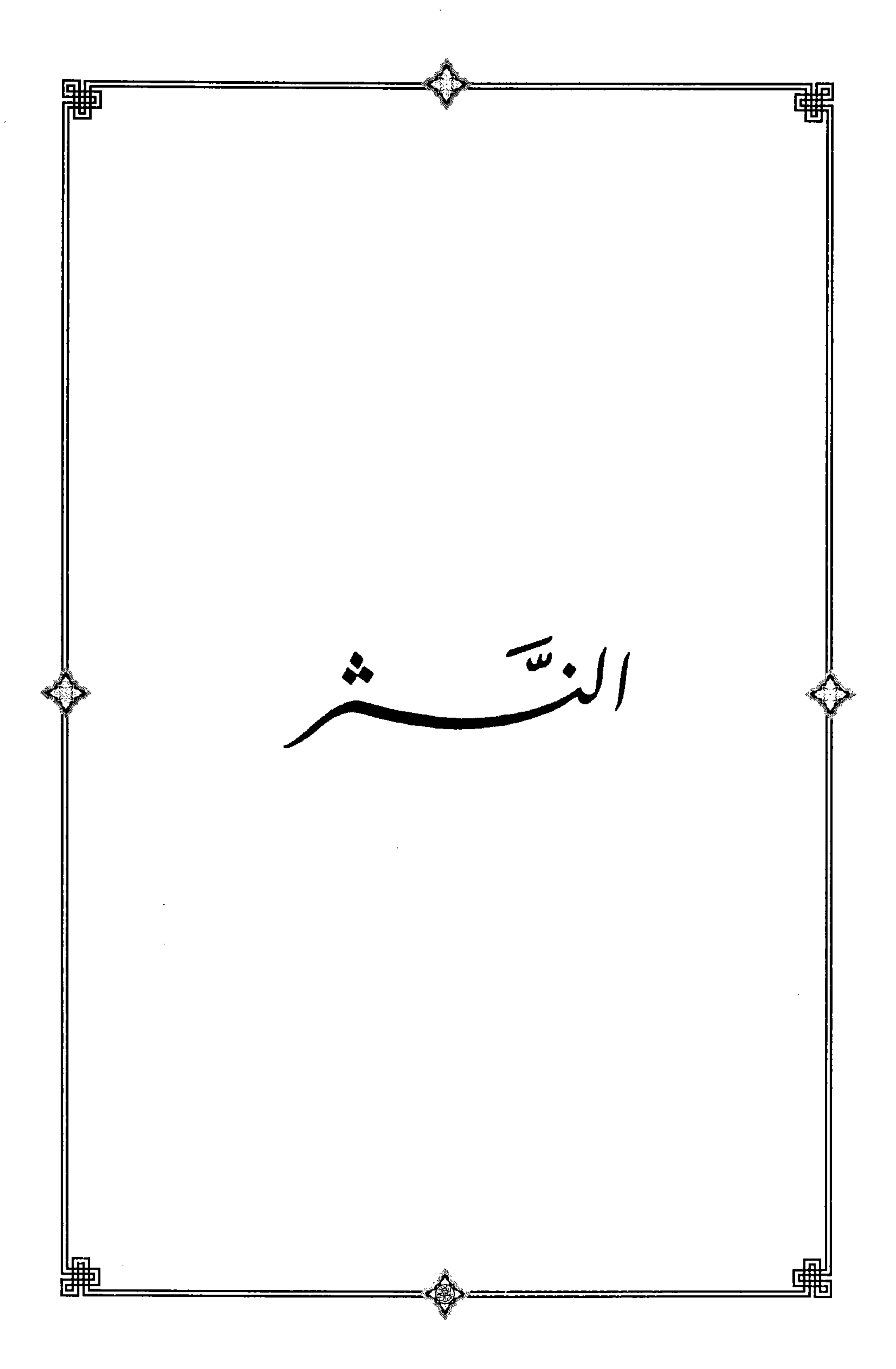
الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ

أحمد قنديل

الجزء الخامس

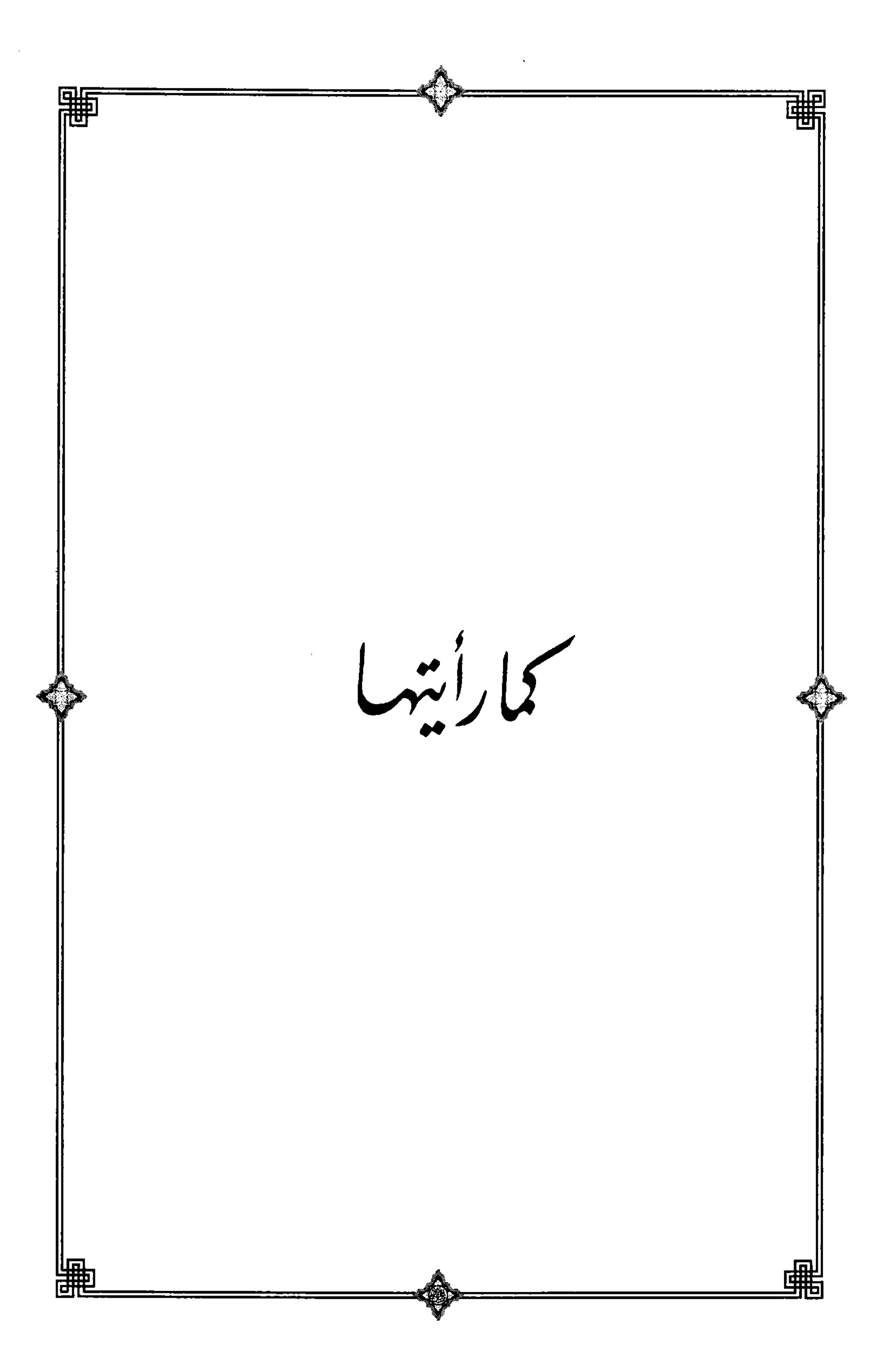
النثر


بسم الله الرحمن الرحيم



النَّثر





كما رأيتها



الإهداء

إلى التي آمنت بها.. حين كفرت ببعض ما فيها..

إلى التي أشعلت لي المصباح.. فسلَّطْتُه عليها..

إلى مصر الحبيبة.. دائماً؟

المؤلّف



تمهيد

زرت مصر عام ١٣٥٨ هجرية.. وقضيت بها حوالي شهرين.. كما زرتها عام ١٣٦٥ هجرية.. وقضيت بها حوالي شهرين ونصف شهر.. فعرفتها قبل الحرب.. وأنكرتها بعدها.. في كثير وكثير..

ولقد انطوت الزيارة الأولى، على قدم العهد بها، في العصب والذهن، أثراً ومعنى مختزنين فيهما ـ وجاءت الزيارة الثانية.. فكانت وعياً مفكراً.. وتسجيلاً يومياً في غير مواظبة يومية عليه..

هذه اليوميات المصرية ـ أو المصريات اليومية ـ حديث مبوب عن المشاهدات المادية والمعنوية، وأثرهما ومدلولاتهما.. واتجاهاتهما.. جمع فيما جمع: بين الأدب؛ لغة في بساطة ـ والفن؛ روحاً في تواضع ـ والفلسفة؛ استنباطاً في تمهل ـ والانفعال، حركة في الذهن، وثورة في الدم ـ وتحليلاً في العقل.. بعد الهضم. والتجشؤ. والاسترخاء.. رغم تسجيله عفو الساعة في ساعته.. وبقائه كذلك ـ فهو اليوم.. هو هو المسطور في حينه دون زيادة أو نقصان..

ولست مريداً بما قلت؛ التقريظ، أو الإشارة ـ ولا أقول هذا تواضعاً مع إيماني القوي أو الضعيف أو التقليدي.. بأن "من تواضع لله رفعه!" ولا قناعة بتقديمه نفسه بنفسه.. على كفري الكامل، أو الناقص أو

التجريبي بمبدأ "القناعة كنز لا يفنى!" وأنا القائل فيها من أبيات تبتدئ بالبيت:

قالوا: القناعة كنز قد طاب في النفس غرسا

وتنتهي ـ بعد أبيات ليس هنا محل سردها بالطبع ـ بالبيت:

ما كل من كان يرضى بأن يكون الأخسَّا..

ولكنني أريد إعطاء القارئ رؤوس "مواصفات!".. لا رؤوس أو أذناب أقلام..

واليوميات هذه.. من مصر وللمصريين.. فكلها دراسة لها ولهم ـ من غريب عنها وعنهم ـ إن كانت الإقامة من حجازي بمصر غربة.. ولو اعتباراً ـ وعرض جزئي لبعض حياتها وحياتهم. كما هي في ذهن أجنبي. إن كانت الأجنبية تعريفاً لمن توطن خارج مصر ـ ولو كان من بلد عربي، هو مأوى العروبة ومهدها العرقي والديني قديماً ـ ومأرزها بعد طول العمر في المستقبل البعيد أو القريب.

كما أنها تطفل حديث ـ على مائدتها رغم عموميتها، فهي محدودة المدعويين الرسميين الذين يحق لهم وحدهم الخوض في تذوق أصناف طعامها ـ وتعداد مزاياه.. أو التنديد بمساوئه.. وبعثرة عامة لسكن محبوب. لا يجوز تشويش نظامه. أو تقليب أثاثه وما فيه إلا لطارق مألوف. زرقة في العين. ولكنه في النطق. وطولاً في اللسان. وإن كان الباب مفتوحاً على مصراعيه لكل من هب ودبّ.

ثم هي، صرخة الطفل الفأفاء ـ في وجه أبيه الرجل أو أخيه

الرشيد. تطلقها المفاجأة لشذوذ. مستغرب، أو التنبيه لخطر غير ملحوظ.. أو الاستنكار لانحراف مقصود أو مسكوت عنه.. وترسلها الفرحة لجديد مدهش.. أو لدهشة من روعة بالغة البهر.. ومن عظمة عليا.. وقد يعبأ أو لا يعبأ بها.. الرجل أو الأخ الرشيد.. فيقدرها أو يستخفها في ذلاقة اللسن الحاذق.. وهدوء العالم المكين.. وجرأة الصائل الجسور، واطمئنان الواثق من موضع قدميه.. واستخفاف المجرب وعراقة الأصيل.. وذوقية المترف.. وطبيعية ذي الماضي العريق.

والأمر سيان.. فهي لم تكتب إلا استجابة لشعور شخصي محض لم يراع فيه إلا إرضاء النزعة الأدبية دون أي اعتبار.. ولكنها تنشر اليوم نزولاً على الدافع الهدفي بنفس الأديب.. وتوجيهاً لمكنون مظنون فيه النفع، والتجاوب الفني المشترك.

والعروبة اليوم.. دم ولحم وقرابة.. ومشاركة سراء وضراء إن فاتها التعارف الوثيق ـ وشد الأزر. لتباين السحنة الذهنية أو التربوية ـ أو لانشغال الكل بزحمة يومه وغده الخاصين.. فلن تفوتها المشاركة الأدبية المتبادلة تقريباً للهدف الواحد، وتنمية للآصرة الضرورية لاتحاد اللسان وإن تعددت اللهجات.. ووحدة العصبية وإن تباعدت المنازل ـ أو للمزاملة الإنسانية المطلقة.. إن انعدام هذا الكل.. وتحددت المواطن والأجواء.

ومصر عزيزة على كل عربي، أين كان... حبيبة إليه أياً كان.. في عزها عزه وفي سلامتها سلامته واطمئنانه ـ وفي علوها فخره وسموقه. فالملاحظة عليها منه.. غيرة على أثير مرموق.. والإشارة إلى نقص متخيل أو مظنون أو مفروض فيه.. إيثار لكمالها.

فهي بمكانة رب العائلة يحف به حتى صغار أفرادها ـ إعجاباً،

وإيماناً، وبحلقة، تتناول حتى ذرة الغبار العالقة بهندامه.. للبراءة منها.. نشدان مثالية لازمة له..

وبعد.. فقد تم أو كاد يتم، عام كامل منذ سجلت فيه هذه اليوميات المرتجلة.. لحق فيه الحوادث والمعاني والمناسبات بمصر ـ التبدل الجزئي أو الكامل ـ والاختلاف الهين أو الكبير.. والتطور البطيء أو السريع ـ وإن كان كل ذلك ـ لحسن الحظ ومع حمد الله تعالى ـ للأعلى المنشود.

فليكن ـ والحالة كذلك ـ بعض ما خالف بعض ما فيها.. إشارة إلى ماض عابر.. ورمزاً لروح الزمن السائر بروح الحي المتحرك فيه.. دائماً للأمام.. والله من وراء القصد.

أحمد قنديل

مكة المكرّمة / ١٣٦٦/٥/٣٠ هجرية

١٩٤٧/٤/٢١ ميلادية

(١)

في الجو . . .

الطائرة: يوم السبت الموافق ١٣٦٥/٥/٥ : ١٩٤٦/٤/٦

ركبنا الطائرة الأميركية رقم ٨٧٠٩ الساعة السادسة والنصف. وكان ذلك وقت تحركها. وقد شعرنا باهتزاز بسيط جداً نتيجة حركتها إلى أعلى فإلى أسفل. ثم استقام الأمر..

إن ركوب الطائرة قبل الآن، ببضع سنوات. في نظر أي شخص من بلادنا، مجازفة كبرى، وأمر فوق الإدراك والمعتاد، ولكنه اليوم، وسيلة اختصار.. ولذّة.. وسمو..

ما أروع قدرة الخالق الذي علم الإنسان ما لم يعلم. وأباح من كنوز المعرفة وأسرارها ما جعله في المكانة الممتازة بين المخلوقات. وما أشد حركة الإنسان وما أبدع تطلعه لما فوق، ولكل ما هو خفى عنه..

الجو سمو. وطهر. وارتفاع.. ارتفاع عن كثير من المشاهد الدنيوية.. وكثير من النوايا. والآراء.. إنه مبعث غبطة. ومصدر تفرّد. وسبيل عظمة نفسية بالغة: هذا البحر أسفل منه.. إنه لا يبدو أكثر من

سطح مائي ساكن. إلاّ من خيوط رفيعة جداً هي ولا شك الأمواج العالية المتماوجة.. وهذه السحب حوالينا، وتحتنا كذلك ليست أكثر من قطع دخان متحرك يملأ الجو. ويعلو وجه البحر..

اللهم تعالت قدرتك. ما أعظمك. إن السبيل إلى فهم قوتك العظيمة. وجلالك لا. ولن يتم ـ مادياً ـ إلا من ناحية إخضاع المادة لاكتشافهما.. وهذا الإنسان أحد مخلوقاتك. ما زال دائباً على ذلك.. أنانياً في سبيل النفع الشخصي.. عظيماً فيما توفق إليه عالياً في إباحته، وتعميمه، وتسهيله للبشرية جمعاء. لاستفادة الإنسانية بما ومما توصل إليه..

إنها طائرة عسكرية أميركية.. وإن هؤلاء الشبان الأميركيين ولكل منهم رتبته العسكرية. وسحنته التي تبيّن نسبته القارية الأصيلة بوضوح ـ ليسوا أكثر من أفراد أسرة واحدة قد غمرتهم الحالة المشتركة فإذا هم أجزاء متماثلة من كل.. إنها الثقافة المشتركة، والمصالح المرتبطة، والأهداف المتحدة. تمثلها النوايا. وتبرّرها الأقوال بالدم والأفعال. فإذا هي وحدة.. أو ولايات متحدة خلقت من هذا الخليط الأممي المتنافر. النموذج المثالي الواحد..

وإنهم في ديموقراطيتهم المجسمة أمامنا الآن ومعنا، إنما يعطون للحقيقة وعنها.. مثالاً حياً يتحرك. وللإنسانية مثلاً عليا تتقدم لغايتها العالمية الكبرى..

لقد رأينا الآن حوالي الساعة التاسعة والنصف. بعض البواخر بالبحر. إنها ليست أكثر من نقط صغيرة سوداء.. هل هي في سلحفائيتها، تزيد كثيراً عن منظر الجمال ـ بالبر ـ لراكب السيارة؟..

هذه بعض مناظر الساحل. لقد عرفنا معنى كلمة "رأي اليابسة!" على قصر المسافة إنه مدخل خليج السويس.. إن الإنسان قلق طماع لقد بدأنا نستعجل الغاية!! لقد سئمنا العراء.. ومرأى الجبال الشاهقة المتلاحق مشهدها.. تناطح السحاب أو تناطحنا..

ها هو المطار. مطار بانيفلد العظيم. وهذه مصر الجديدة.. أمامنا أيضاً.. لقد وصلنا.!

(٢)
استقبال . . .

لا تزال في أعصابنا رجة المقدر وقوعه لنا في المطار . . لولا لطف الله . . فقد عرفنا بعد هبوطنا به أننا كنا في خطر . . وأن سيارات المستشفى والإسعاف، التي رأيناها قد حضرت لنقل السالم من الموت منا لها . . والميت لمقره . .

لقد كان بعض من معنا يعرفون، ويدركون الخطر بعد أن أشار إلينا قائد الطيارة بواسطة مساعده، بربط الحزام بالوسط . . وحين صفقوا. وهللوا. وهتفوا للكابتن وبعد أن انتهى التحليق علواً وانحداراً في الجو . . وبرؤوسنا وأمعائنا . . أدركنا أنه كان هناك شيء وزال . . والواقع أنه حدث عطل بالطيارة. وقضى الكابتن حوالي نصف ساعة محلقاً في الجو حتى زال . .

إن الجهل بالخطر معناه الاستهانة المتناهية به في نظر العالم به . . ومعناه التصرف الطبيعي جداً من الجاهل بوقوعه. أو بأهميته ومداه المفزع . . وربما قدر قديماً وحديثاً كثير من ضروب الشجاعات على أساس هذا الجهل . .

ولا تزال أمامنا مرائي أبنية المطار الأمريكي . ونظامه. وما لقيناه

من الاستعداد السريع بكل ولكل شيء حتى السيارة المفضية بنا إلى غايتنا. . واستعراضنا القاهرة وشوارعها كدفعة أولى زاخرة بالمتنوعات أحياء وجمادات. .

أما أنا. فقد استقبلتها ـ بعد استقراري بالفندق ـ ببرود المعرفة. . أو لعلها حالة هرم النفس المجرّبة الكثير عملياً. . والأكثر نظرياً، وتصورياً، وإدراكاً، وما أمره من شعور، وأتعسه من إحساس يذكرني بتفاهة قدرهما في الحياة ـ مادياً ـ زحام الإقبال عليها من كثير. . وكثير. . والإقبال المادي الشره عليها. النهم لامتصاص واستيعاب كل ما تحفل به، ويتولّد عن تجاوبها في النفوس. . وإن كان في هذا الشعور. . وفي هذا الإحساس بنفوس ذوي الأمزجة الدافعة إليها التذاذ معنوي كامل. . وروح جميل، وحس عال. وهكذا فلكل مخلوق منظار!. .

لقد انطلقنا ننشد التطلع، والفرجة على كل شيء عام. . إن الجمال والفتنة في النظام والنظافة. والحركة والازدحام. بعث على تفتّح النفس لها. وتركيزها فيها. . والنفس وبالأخص الباحثة عنهما ـ الفتنة والجمال ـ لن يقف عند تشربها من مصادرهما شيء واحد. . هذه الشوارع المتناهية في الطول، والزحمة. . والحركة. . وهذه أصناف الناس وأشكالهم المتباينة في السحنة والزي والمظهر. . وتلك وسائل النقل وأنواعها المختلفة في القدر والحجم والسرعة، والميزة. . وهذه، وتلك من كل مجالي الحياة ونشاطها، والحسن ومصادره. . والفتنة وبواعثها. .

إن كل ذلك التقديس. والتجميل للحياة، والدفع بها ومعها إلى الأمام المتطور باستمرار استجابة، وانطواء فيها. لدليل يقظة ووعي، وانفعال، وهو ـ بعد وقبل ـ رمز إيمان بها. وأداء لدواعيه. ودواعيها. .

(٣)

سينما . .

ذهبنا إلى السينما . . وشاهدنا فيلمين مصريين اثنين على التوالي . . إنها استعراض حياة وأخلاق، وعادات، ومجال إرشاد ونقد وتوجيه ووسيلة بسط للعبرة وبعث للفكاهة. والمرح. والسرور . . كما هي فرصة تقليدية لقتل السآمة، وتزجية الفراغ ومحاربة الملل . . وتركيز طبائع . . وتوجيه أذهان . . وابتلاع جيوب . . فالرقابة عليها ـ وهي كل ذلك أثراً وتأثيراً ـ واجب ضروري الأداء والدوام. لتتخذ مجراها النافع . . والمستوى اللائق. والوازع النبيل الدافع إليها وعليها في الأساس.

إن الرواية المصرية في مجموعها لم تتركز بعد استقلالاً، ومغزى، وترابطاً. واستقامة طبيعية . .فالفجوات فيها، واللمح القاصر، والمجافاة، والبتر. كل هذا واضح فيما شاهدناه وهو من خير المعروض . . ولعل الدافع القسري عليه حداثة القصة، وقلة البارزين فيها. أو المقبلين عليها من البارزين. وضخامة التكاليف. وخشية الإفلاس، وسرعة الاستغلال الجنونية من أخصر وأضمن طريق، ومحدودية الوجوه، وقلة الممثلين، والممثلات الممتازين، والممتازات.

والملاحظ أن أغلب رواد السينما ممن لا تنفذ أبصارهم إلى ما وراء

الظاهر، والاكتفاء بالاستمتاع بها في حدوده المجرّدة فحسب.. ويكفي أن تكون المرأة العنصر الغالب بدورها لإدراك سبب تفاهة الملاحظة، ووقوفها عند ذلك إطراء. أو نقداً.. وأن تكون المادية الجامدة وحدها هي المحرّك الأول والأخير عند العارض والمعلن ومن إليهما غالباً.. وإلاّ فأين هي الأهداف القومية المركّزة فيا.. وأين هو النقد الحر المسموع، والمقروء.. والطبيعة المصرية نقادة. نفاذة. ساخرة؟. إن جواب ذلك عند جمهرة المثقفين، والأدباء. والصحفيين، وهم العازفون. أو العابثون استدامة للنفع.. لا عند المتفرجين السطحيين. وأغلبهم تقليديون.. اللهم إلا في ملاحظة هندام وجمال الممثل، أو الممثلة "كشخص" لا "كدور" له أولها وفكرة لهذا الدور كجزء من كل.. بل للوقوف عند شكله وشكلها. صورة وصوتاً، وحركة. ودواماً عليها..

(٤)

مسرح . . .

زرنا المسرح "ريتس" الليلة لمشاهدة رواية به، والمسرح في مصر قد قضت عليه السينما أو كادت. . فعدد المسارح قد قلّ جداً. . ولكن البقية منها أقواها فيما نظن فما ينازع البقاء إلا قادر عليه. .

والمسرح في الواقع قوة هائلة ففيه الحياة بدمها، ولحمها، وصوتها وحركتها المسموعة، والمنظورة، وهو بهذا مؤثّر مباشر، ولو دام الإقبال عليه لكان تطوره لأعلى مضمون الاستمرارية. والقوة. والنفع. .

والممثلون على خشبته أقوياء ممتازون. وهم بعد حريصون كل الحرص على الأداء الناتج عن القوة الشخصية، والاعتماد على الذات. فلا تلقين. ولا تكرار للوصول للمطلوب، بل ذاتية قابلة للإعجاب المتكرر؛ أو السقوط الشنيع؛ وبالأخص لو توفّرت النظرة الجوهرية من النظارة.

ومن المؤكّد رغم كل هذا. أن النقص الواضح في مجموع الأهداف والأغراض، واقع مع الأسف، فيما رأينا. . وإذا جاز الاغتفار في الفيلم للأسباب العديدة. والمادي منها خاصة فلن يجوز في المسرح. . ذلك لأنه من الممكن الميسور فيه قصر الفكرة، وحساب الوقت. وتوخّي الدقة

والحبكة، ومستلزمات الإثارة والترويح، دون النزول على منطق الموانع وأهمها الزمن. ما دام من الميسور التغلّب عليها وإزاحتها، من طريق الكمال الممكن..

التعصب للمسرح واجب أدبي. فهو القنطرة المستقيمة القوية للعبور لما عداه.. وهو المدرسة الشعبية العليا، والملهم المباشر حساً ونظراً واندماجاً كلياً فيه..

ما أكبر النقص العام.. وحبذا لو تناقص عدده، أو تقاصر واقعه، أو زال وجوده.. والفرصة مواتية للتمسك بالمسرح والعناية برفعه، والعمل على تعدده، وتنويع مجاله وأغراضه، ولكن الحكم في الأول والأخير للأيام ودوافع الحياة بها طرداً، وعكساً، بالنسبة للمجاهدين في سبيل بقائه وتطوره. وللقابلية الاجتماعية العاملة على هذا أو عدمه..

(٥)

صالات. . .

الصالات حتى الآن معرض بشري للإثارة الجسدية، وإعطاء النفس والجسم حريتهما. . الرخيصة الهابطة فهي محرقة للنفس. والجسد، والجيب. وهذا بالطبع قول الصحو التام في غشيانها، ومنطق العقل الواعي لكل ما يدور بها، ونتيجة النظرة المطلقة الشاملة لها. والمسجلة ما فيه. والمنصبة على ذلك، وإدراكه بمجموعة رقابية من الوعي، والخلو، والفكرة العامة، والانشغال العملي، وجدية الرأي العام الزاهد! والمفكر! والمحروم. . وإنما هي بالبداهة. دنيا حارة. وخضم متموج مدهده للأعصاب، مخدر للشعور في منتهى اللذة والانسياق لكل من غشيها تائهاً عن دنيا الواقع في يقظته المشمسة بكونه المخمور المغطّى على كل شيء، والقانع بالحركة دون مغزاها، والفرحة دون بواعثها. . والوقت من غير حسابه والمادة لا أسف عليها. .

فالمأساة الجسدية في الصالة مختفية تماماً وراء الأضواء، والمساحيق والعقار وحمى الرجفة، والاندفاع معها، وفي تخيلاتها البعيدة، فالوقتية بها هي كل شيء لانقطاع حاضر اللحظات هناك عن مستقبلها القريب قبل البعيد، وآتيها غير الملموح. أو المنظور إليه إلا على أنه امتداد حلو، ساحر، جذاب. .

ولقد يعذر في انبهاره منها ذوو الحياة الغائمة، والمدمنين عليها، ولكن كيف يعذر الرائد المنقطع الآلف بسماعه، ومشاهداته ما فيها والواعي المغالط عقله وواقع ما بها ما داما لم يربطا بالحلقة يقيد بها العقل من شفة. أو كأس؟؟ إنها ـ الصالة ـ مجال تفريج، فلن ينكر ما للجسد من حق قوى ثابت.. ومسرح ائتناس.. وانطلاق لو روعي عدم التطرف القائم بها في كل شيء.. لمجاراة الرغبة البهيمية السافرة، والنهم الخلقي المتركّز في طبيعة الحيوان والحبيس كعفريت قمقم سليمان..

ولكن متى صلح المزاج. أو تم من ضدين العقل طاغيتهما الممقوت، والقلب جيبهما الهائم؟ اللهم إلا بالإرادة للكبح والمسايرة لمنع الضغط، والسعي لذلك بطريقة الإيمان بالفكرة وإمكانية حدوثها ـ تتدرج لأعلى بدون عناء، ولا تنحدر إلى أسفل بسلس انقياد..

(٦)
حقائق...

الطبع الحجازي شره للتحلل بنسبة قيوده العامة. لدى الفرصة المواتية.. أو المناسبة الداعية، ولكنه ـ لحرمانه أيضاً ـ قانع راض باليسير يحسبه الكثيرون منا القمة في الكثير، فغالبيتنا فراش يتساقط على فتات الموائد دون عناية باللباب ولو للعلم بوجوده..

ولن تقوم فكرة الوقتية للمنطلق من سجنه ـ ولو في رأيه ـ لأمد موقوت في سبيل العودة.. عذراً في هذا الترخص النفسي، والتسفل الخلقي، وإلاّ فأين هي المتاحف ودور المعرفة والدراسة ومسارح اللهو البريء، ومجالي المناظر الطبيعية الهادئة.. ومفاتنها الشعرية المبسوطة في حياة زائري مصر منا؟..

نعتقد أن هناك عقدة تسبب هذا الانحراف الشائع فينا، هي الاستماع لكل عائد عن مجال مخصوص في حياة مصر من كل متشوق إلى محروم منه في وضح النهار، وعلى خير مثال، وأمتع ممارسه.. هو الصالة، والكازينو، والمسرح، والسينما، والبنسيون.. وما انطوى في هذه، وطوته من مغامرات وحوادث، والوقوف عند هذا الحد بما فيه من خيال، وعطور، وأسرار، وجمال..

كما نعتقد أن الدوام، والكثرة والطبع الراسخ في النفس تنوع اللذة والممارسة والمشاهدة، والمعرفة، ولو للحكاية عن جديد غير مألوف كالمتحف ونوادي الرياضة وضفاف النيل، والملاهي البريئة، والمناظر المثيرة للأفكار والنفس، سيغير كثيراً من الوضع التقليدي الراهن.. ولحسن الحظ قد بدأ الطريق يسلك من قليل.. سيكثرون بسرعة واستمرار..

ولعلّ فكرة إصرار بعض الحجازيين في مصر على الاستقلال والتخفّي، والبعد عن ملازمة أو مصاحبة إخوانهم هناك بداية الإدراك الغشيم لهذا، وإن كان هو حتى الآن.. في خط خلق المجهول للحكاية ـ بدون شهود ـ والتوشية والسرية عنه، والتفرّد أولاً وأخراً بكون خاص.. وملابسات فردية، فالتقليدية أساس أولي ونهائي في سلوك هذا السبيل الواضح المعبد.. على أن المحصول منها تافه حتى في قلب هذا الخط المجهول وأطرافه، إذ الحقيقة المستوفاة فيه على ارتفاع الضرائب المبذولة به ـ أرخص بكثير في لبابها المذاق بأيسر تكليف ببلادنا.. ولكن الحكاية عنها إسراف لا يضاهى بدوافع التقليدية المؤسسة.. ولإشباع الذاتية في أنانيتها البشرية الراسخة.. ألا حبذا، لو صدق أضعف الإيمان بنفوسنا فكان المجتنى ـ على خساسته وتفاهته في رأينا ـ مجتنى يستحق الكدح والبذل، وهذا التهالك عليه.. كما هو في رأي الغالبية الممارسة له، والمتهافتة عليه، وهي في بلادها منتظرة دورها التجريبي الغائم في الأحلام، ورؤاها الحلوة الساحرة، والموجزة في كلمة "مصر" لمن زارها أو سيزورها بعد حين.. وبعد سماع هذه الأسرار المعطّرة والحوادث المثيرة، والمرائي المتلاحقة لحناً أخاذاً في السمع، وخيالاً راقصاً في العين، وخدراً لذيذاً في الجسم..

إن الغريق حتى أذنيه، لأقدر على وصف اللجة من زميل الساحل أو حلس البر.. وإنا حين نسرف في العتب على الغير، أو في نقد النفس، لا ننهش اللحم لنهش اللحم ولكن تقوية للنواجذ. وتربية للعضلات في سفور العاصي يلذعه الندم وحماس المخلص يدفعه الإخلاص.. لا جمود المتزمّت أو تشهيره يخفي المكنون في نفسه.. قصراً في الإرادة.. أو في "الذيل" وطولاً في اللسان للحس قفا الغير. سلباً لسعد، أو إرواء لحرمان..

(٧)

تقليد . .

الطبع المصري في طريقه كما نظن، إلى الوحدة العامة الراسخة في المجموع كأساس وجبلة راسخين، وتصرف، وإصرار عليه. وإن كان هو كذلك الآن، خلقاً وتكويناً . . ومشاهدة، إلا أنه في التصرف العام لا يزال مظهرياً تمثيلياً كما يراد أن يكون . . لا كما ينبغي أو يريد أن يكون . .

فالوحدة المقررة في أسلوب المعاشرة، والمعاملة، والاحتكاك، وخلق الحوادث والاستجابة لها كاملة جداً. ولكنها ليست تعبيراً داخلياً من صميم الفرد كطبع راسخ. بل إنها تعبير عن المألوف المعتاد في كل ذلك كأسلوب، أو طابع معترف به في البيت من الطفولة إلى نهايتها . . وفي الشارع، والمسرح، والترام، والأتوبيس، والدائرة، والعمل، وكل مجالي الحياة؛ ولا يعني هذا الاستغراق العام بالطبع، وإنما ينصب على الغالبية التي هي أبداً مرد الأحكام والمقاييس . . فالجمهور المصري إذاً تقليدي حتى الآن في حياته الاجتماعية. وملابساتها العامة . . وفي إكباره لذوي الحيثيات، ومجاملاته . . ومعاملاته، وخناقاته. حتى ليندر أن ينفرد شخص دون شخص برأي معاكس، أو بإصرار على موقف مخالف للإصطلاح أو العرف، ولن تخطئه في حكم على حالة معيّنة حتى لكأن كل مصري في

حدوده الشخصية صورة طبق الأصل من أخيه المصري.. ولن تتركّز الفعالية المنتجة سريعاً في شعب كهذا هدماً وبناء عمليين..

ولذلك كان غريباً جداً أن يوجد به الفدائيون ـ مثلاً ـ من الشباب، والحنابلة المتزمتون، والزعماء الأحراريون، وأصحاب الصلابة في الرأي.. وهو المحتكر لكلمة.. "معلهش" بمفهومها الإنطلاقي لحماً ودماً، لا بمنطوقها الأتوماتيكي وحده ـ تسمعها في النهار الواحد ألف مرة. ومرة، أو مرات..

كما كان طبيعياً أن يتجه التقدير الكامل نحو بعض زعمائه وشخصياته المتعصبين لذواتهم وآرائهم ومواقفهم، حتى فقدهم المركز، أو حرمانهم المنصب والجاه.. أو الموت.. ولن نرد هذا إلى شيء مؤثر أكثر من البيت.. فالمرأة المصرية لا تزال مثال الحنان وتجنب المآزق، ونشدان السلامة والاطمئنان.. فصحتك بالمكفي.. أو بالدنيا، ومن هنا كانت المسايرة، والسهولة والتشكل التقليدي للظرف الآمن المناسب، أميز ما في الطبيعة المصرية.. وإن كان يوم الذاتية المتعصبة لأهوائها، ورأيها الحقيقي، وتصرفها الذاتي المباشر، ليس بعيداً بنسبة انتشار تقريرها، ورغبة التخلّص من واقع مجتوى في قرارة نفوس الأفراد..

إننا فيما قلنا نتعمّد الغموض والإشارة بدل الإيضاح والتبسط والتمثيل، بحوادث وأشخاص لا لشيء إلا التمشّي مع واقع مقرر معلوم، وإلاّ الحب لعدم إيلام شعور عزيز يفسّره أصحابه كعاطفة مستكنّة في النفس كجوهر. وإن لم تحققه الأعمال كدلائل مادية عليه..

وبعد فالتطبّع ـ نتيجة عوامل موقوتة أو موصولة ـ لا يمنع الرجوع إلى الطبع بعد زمان وأجيال.. أو جهاد فتحرير..

(٨)

شم النسيم. . .

اليوم يوم عيد شم النسيم. والاستعداد السابق له، دلالة أهمية كبرى لحلوله، مبعث انطلاق، ومصدر راحة، وتحللاً من قيودات الوضع اليومي، ورسميات الأعمال، ومن حدِّ الحرية المفروض. .

والتعلّق بخلع هذه الفروض لهذا اليوم وفيه، مظهر صادق للطبيعة المصرية وحبها للمشاركة العامة في حالات الانبساط والمرح، وجلب السرور، واحتلاب كل مصادره، وفي ذلك مغزى دقيق لتمكن الشعور بالأسر، والرغبة في تحطيمه، إعراباً عن مجافاة هذه الطبيعة مجافاة كلية لقبوله شكلاً وموضوعاً، لو تم الإيمان بالقدرة على معاناة لوازم الانفكاك والتحطيم. .

ولقد قصدنا القناطر الخيرية. . فرأينا الحدائق تموج بقاصديها زرافات. . زرافات ـ فلا وحدان اليوم ـ ضاحكين، لاعبين، منطلقين من إسار التقاليد، وقيد الوضع اليومي المتكرر العام. . وإحساس كهذا كفيل بسلس القياد الشخصي لانديلح طبيعته، كما تتأتى تصرفاتها. انسياقاً مع البواعث والحالات المتأتّية ذاتها. .

ولذلك فلم يكن فيما وقعت عليه أنظارنا للمصريين برنامج مرسوم، ونظام مقرر من ناحية الجلوس، والجرى، واللعب، والأكل والفرجة، والتنزه.. بعكس الأجانب الذين وضعوا الخطة، وبوّبوا جزئياتها. حتى لكأنهم في معسكر مائج بالفرح والفكرة ـ بالحركة ـ والتمرين ـ.. ولكن لا يسمح فيه بتخطّي القانون المقرر، ومواده المرتبة، وقتاً وعناصر. في كل شيء ومن هنا نعرف أن الطبيعة المصرية إنسانية أو انطلاقية. قبل أي اعتبار. وعسير على طبيعة كهذه مجاراتها القيد. حتى لو كان من صالحها وضعه، والرضوخ لأحكامه..

ولقد شملتنا حمى الجماهير.. فكنا حيث تغلب الطبيعة التطبع. إغراقاً في كل شيء، وكل شيء هناك لم يتعد اللعب واللهو. والضحك، والمشاركة، والنزهة في النيل، والتعارف الخاطف، وتبادل الجديد من المعارف والحيوات.. وإن كانت النكسة آخر النهار دليلاً على أن الأخذ من كل شيء حتى من اللهو البريء ـ بحد مقرر. خير تصرف لحفظ التوازن الشخصي. عاطفة، وعقلاً، واندفاعاً، ووقوفاً. ولكن الشعار الخالد تراث الهم المزمن، والأسر الفاجع "ساعة الحظ ما تتعوضش!" أقوى أثراً من كل قانون، أو عقل راجح..

إن الرجوع إلى الطبيعة صقل لها في قرارة النفس.كمؤثر. وفي جوهر العقل. كقائد. وفي بنيان الجسم. كعامل.. ولقد عدنا بالنيل، بعد أن جئنا بالبر فجمعنا الحسن من أطرافه..

(٩)

في الحديقة...

خصصنا يوماً لزيارة "جنينة الحيوانات" والتفرّج على ما فيها من أنواع، وأصناف، وسلالات الكواسر، والطيور، والزواحف، والدواب، والحشرات . وكان جميلاً جداً لإثارة الفكرة المقابلة بين الإنسان كحيوان ناطق ـ كما يقولون ـ والحيوان كزآر. أو مغرد، أو مقهقه، أو ما كان.. أو بين الإنسان كحيوان جامع للحيوان بأنواعه.. في حديقة.. وبين الحيوان، لا يشعر بهذا التكريم، أو التسخير.. لإسقاطه الإنسان كصاحب سلطان. مهما تغالى الإنسان في قيمة الظن بحقيقة هذا السلطان..

وقد ذهبنا نستعرض الحي في جميع أشكاله.. فانتهينا إلى النتيجة المقررة تعني أن كل مجموعة كائنة ما كانت لن يشغلها شيء أبداً عن الغرق في كونها.. وكينونتها.. وحقيقتها اليومية المقررة للاستمرار والبقاء.. طيرية.. أو وحشية.. أو قردية.. أو حشرية.. بحيث لا تحفل بمن عداها حفول المقدرة لمركزه في درجة أعلى منها.. وإنما بشعور المدرك لوجود سواه. في وجود لا يساوي وجوده هو الناعم ـ بنسبة ما ركب فيه ـ بعيشه وحياته. ونظامه فيها..

والاطلاع على مجموعات حية كهذه. مما يشعر الإنسان مهما تعالى

بأنه صنف ـ لا أكثر ـ من هذه الأصناف. والأجناس التي تزخر بها الحياة وجوداً مؤكّداً استمرارية الوجود في النطاق المخصص به.. وإنه بعد لوسيلة فعالة لفهم حقيقة الكون. كمجال متسع جداً لفهم القريب والبعيد، كما يقول الأستاذ ميخائيل نعيمة في دعوته الصادقة:

اللهم اجعل قلبي واحة تضم القريب والبعيد..

ولقد هزنا شعور الإدراك بأن كل مخلوق ليس أكثر من ممثل لبيئته. حتى في هذه المعارض الصامتة، والناطقة بلغاتها من أشتات المخلوقات.. وكان سبيلاً من سبل رسوخ الإيمان بقدرة الخالق المنظم. لا عن طريق تلقين العلة والمعلول.. والموجود . والمفقود . ولكن عن طريق الشهادة المقنعة في صمت. لا المنطق المنساب تقليداً في الذهن والذاكرة الرخوين.. فالاطلاع والمشاهدة. والتجربة. أخصر وأقوى، وأثبت طريق للإيمان..

وانتقلنا بعد إلى حديقة الشاي.. وهي مجلس لطيف يشرف على الماء من جميع جهاته.. ولم أنسَ أن أول ما آلمني ـ رغم جمال المنظر وسحره وروعته ـ عدم توفر الجنس المصري هناك.. فهل الأجانب وحدهم المدركون في مصر ومفاتنها، لها ولما فيها.. وليس اليوم أحداً أو سبتاً؟..

لقد كنا نود سماع اللهجة المصرية الحلوة الحنون من كل جانب. بدل هذه الرطانة المتعددة الألسنة واللهجات، وهذا البط يسبح أمامنا. والحسن عديدة أشكالة بجوارنا.. والسحر محيط بنا جواً. ومناظر. وترتيباً. ونظاماً. وأناقة..

إن في أمثال هذه "الفسحات" لتوفيراً للشعور بالجمال، وتحسس

مصادره.. ووفرة للإدراك الفني المتخيل.. ولا بد أن الوصول لهذه المرتبة من الحس والإدراك دافع قوي للاستزادة منه ومن مصادره وأسبابه. فقد ذهبنا نستقصي الأماكن المماثلة لهذا الجو حسناً، وانطواء عليه، ومسرحاً رائعاً للفكرة، والذوق، والإدراك..

(١٠)

حلوان. . .

لعل أثر زيارة. . "حديقة الحيوانات" بنفسي. ونهم الحس والإدراك للتطلع والاستزادة والتنويع. هو دافعي الشخصي على الإلحاح على الرفاق اليوم في زيارة حلوان، ورؤيتها وما فيها. . رغم وقدة الظهيرة. وإمكان تأجيل تلك الزيارة ليوم آخر. .

ولقد كان. . فركبنا القطار ـ والقطار عالم صغير متحرك ـ وشاهدناها، فشاهدنا الهدوء، والفتنة. ممثلة في ضاحية رائعة جمعت بين مادية الحياة من مواصلاتها . وأغراضها الرئيسية المتنوعة، وبين فتنتها كشعر وهدوء. فوفقت بينهما أحسن توفيق. كما جمعت بين الحياة تستأني الموت. أولا تشعر بوجوده حركة، وصحة، وآلاماً لا تنفد في حدائقها، وفيلاتها. وشوارعها. وبين الحياة تستعجل أو تستقبل الموت في هدوء ورضى واطمئنان. . في مستشفاها الصدري يجمع بين الشاب الوضيء، والحسناء الرائعة، والرجل الكامل، والمرأة المكتملة وإليهم. .

ولعلّ أغرب ما جمعته فيما جمعت، والحياة غافلة عن الحياة. وضعاً. ونظاماً. وحاضراً مرتباً، أو مستقبلاً مأمولاً. وعقلاً جامداً بين اللقمة تأتي من أي طريق. والبشرى السارة. والنازلة الفاجعة، والخوف

الدائم منها.. في مستشفى المجاذيب..عند العقلاء والعقلاء السعداء عند أنفسهم إن اجتمعت السعادة والعقل في رأس يحسب ويفكر ويقدر.. والمجانين السعداء في واقعهم أمل لا يخيب ورغبة لا تعز، وحرية لا تحد، وغفلة تامة أولاً وأخيراً عن "غول" الحي الرهيب: الفناء المنظور..

واتخذنا ـ بعد طوافنا ـ مقعدنا بالكشك الياباني، وبعد مرورنا بكشك الحياة، وشاهدنا زمرة من الشبان والشابات تشاهد المتناظرين من الجنسين في الفكاهة وتبادلها. وسرعة البديهة والخاطر. انتقاداً. وتمثيلاً للحياة وما فيها من صور. وأشخاص ومفارقات. وأنه لنمط من التمثيل البدائي، أو هو التمثيل لم تفسده الأوضاع الجامدة والمتحركة للأهداف تعلو قليلاً، وتسفل أو ترخص في الأعم الغالب..

ونعمنا بالجلسة الهادئة يمرح فيها الشباب، ويختال بها الحسن، ويعشش لديها الغرام.. فقد جاورنا حبيبين أو خطيبين لم يشعرا طيلة المدة التي قضيناها هناك بالموجودين ولا بالموجودات اكتفاء بكون عامر. فاتن، مصوراً في عين تنظر في عين، وقلب يحن إلى قلب، وأمل حار دافق متمازج..

إن الحب لم يربطه القيد؛ بالرغيف تحية، وبالثوب لحناً، وبالمسكن حكاية، وبالنسل حدوداً، لهو الحب الواحد، في عمر الزهرة، وحرارة البهجة، وجمال اللهفة. فليت أيام حبكما.. أو خطوبتكما تطول قليلاً قبل دخولكما الكنيسة، أو حضور المأذون.. أيها الجاران الغافلان..

(١١)

حفلة...

ذهبنا الليلة إلى حفلة كبرى بالنادي الأهلي.. أروع ما فيها أن كوكب الشرق "الآنسة أم كلثوم" غنّت فيها ثلاث وصلات.. وأن أظرف مونولوجست شعبي "شكوكو" وراقصة شرقية كانا بها.. وهناك ألعاب رياضية ومائية كانت من أجمل ما يمكن لمثلنا مشاهدته..

ولعل الطريف بعد هذا أن أكبر الأسر والعائلات المصرية التي حضرتها، إنما حضرت لتوكيد ذاتيتها في الدرجة الأولى ـ كما لاحظت ـ فهم. وقد شاهدوا كثيراً من هذا إنما كانوا مثال الحركة دخولاً وخروجاً، ولفت أنظار. مما لا يتعدى إظهار ذاتيتهم في مجال الظهور. فالحفلة قد جمعت غير رئيس الوزارة. من الكبراء رئيس الشيوخ، والباشوات. والبيكوات. وما بين. وما دون. وقد لا يمكن أن يكون هذا في دمنا نحن الحجازيين مثار إغراء. ولكنه في مصر التقليدية التي يتعمْلق فيها القزم على حساب الوضع، شيء كبير.. شيء فيه تأكيد الشخصية، والاطمئنان على مركزها ولو ـ تمثيلاً ـ لأمد محدود..

والغريب بعد هذا ـ في نظر مثلي ـ أن ألمس مصر في بعض أشخاصها الممتازين شيئاً بعد تجريده من الوهم الذهني ـ عادياً جداً ـ

فالمحامي وزملاؤه من المحامين وأصدقائهم وفيهم الصحفي. والأديب حين عركتهم عقلياً.. آمنت أن بلادنا في حدودها بخير.. وأن شبابنا ورجالنا في طريقهم للصراط المستقيم. فهم يأخذون كما يقول الجاحظ من كل شيء بطرف. ويأخذون أي يدركون. ويعلمون. ويفكِّرون فيه، بينما أولئك لم يكونوا ليلتها أكثر من ممثلين لخطوطهم الأصلية الموحّدة.. وهذا نقص أخشى أن يكون الواقع المادي في طلب العلم بالتخصص والإقتصار عليه، أساسه الأصيل.. وإلا فما يمنع المحامي أن يكون على قسط بمعرفة الأدب والاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، وإن لم يكن المحامي كذلك فمن ننتظر أن يكون كذلك؟ والمؤكّد أن سوء الحظ كان وحده.. المسؤول عن أن يكون من التقيت به هناك ممثلاً لما أسلفت.. وإلا فمن المؤكّد أيضاً أن هناك من لا تقف هرميته العقلية عند جو محدود. أو في رقعة مرسومة.. لقد كنت على قزميتي الفكرية. مصدر إثارة وإعجاب، بينما كان المنتظر أن أكون كاسب إثارة. ومصفقاً كمعجب لإعجاب، حتى أم كلثوم ذاتها لم تكن موفقة في اختيار أغانيها.. ولكن الأضواء المشعّة الزاهية، والجماهير المتراصة، وحماها الحارة قد أكسبت ما قالته شيئاً يرى الذوق والنفس لملء الوقت، والرغبة الخاصة حيناً. مع تهيّؤ المرء لأنه سيجد الليلة شيئاً ممتعاً رائع الفتنة. وإن لم يصل إلى درجة الالتفات في حين آخر.. فقد كانت بعض أغانيها مفارقة تامة للوضع والموضوع. وتلك حفلتها الختامية.

والإنسان ليلتها "أغلبية ساحقة"! في دنيا نفسه الراقصة أتوماتيكياً.. والتي يرضيها ويهزها، ويطير بها ـ في هذه الحالة ـ أقل ما يرضى، وما دون المتأتي لا المطلوب بمراحل..

ومع ذلك، فقد كانت ليلة نادرة حارة خرج منها الجمهور النظيف بمجموعة زاخرة من الأحاسيس، والشعور، والإدراك. ولقد أسمت مجلة المصور "هاته الليلة" وكان رئيس تحريرها شاهدها. سهرة العمر. وكانت تسمية موفقة من كل الوجوه إذ لم يسعنا إلا أن نقول ونردد مع الأستاذ الشاعر الرقيق بشارة الخوري من قصيدته التي رثى بها أمير الشعراء قوله:

يا مصر ما انفتحت عين على حسن   إلا وأطلعت ألفاً من نظائره
ولا تفتقت الأفكار عن أدب   إلا وأنبت روضاً من بواكره..

إن البعد عن المعتاد المألوف، إلى الرائع من الحسن المتنوع.. سمو لكل حاسة، وشعور وإدراك، فمثلاً في التلقائية النفسية والاستعداد.. إن كانت.. ووجد..

وإن الجو السامق لينقل في طبيعته الاستجابة للنقلة والسمو إلى حيث يريد.. خيالاً.. فإذا هو واقع رائع ملموس.. والغناء، والموسيقى الممتازان مؤثّران قويان في ازدياد الإنسانية، وحقل النفس، وإرهاف الشعور..

إنها ليلة مصرية ساحرة. ساحرة..

(١٢)

متاحف . . .

المتاحف على أنماطها المختلفة . . معارض كاملة للحركة الذهنية، والذوقية، وإثارتها على الحياة والإستمرار الخاصين بها . . وقد يجمع بعضها إلى ذلك . . عدى الفائدة الفنية، أو التاريخية، أو الذوقية القدرة على الكشف لما هو أبعد من الموجود، وإلى التطلع لكون حيوي أرقى . . وهذا خير ما فيه . .

فمتحف فؤاد الأول الطبي دعوة صادقة نفاذة إلى الإنسان لاكتشاف ما فيه ومحاذرة ما تنبغي محاذرته، ومسايرة ما يرتقي به إلى خير ما يريد، لا على أنه مثالية مرتقبة ـ ولكن على أنه دافع علمي تجريبي ممكن بسهولة ويسر . . فالدلالة على التركيب الجسمي ومواطن الداء، وبعثه، والدواء، ومعاطاته ميسورة فيه بأبسط السبل المجسمة والأساليب المرئية يتقابل فيها الفكر المتمتع، والذهن المستفيد، والملكة المجرّبة في مجال لا يغثي النفس، ولا يكرب الخاطر والطبيعة . .

ومتحف الشمع في فنون تنوعه دراسة عابرة منظمة. تغنيك فيها النظرة بما لا تصل إليه مكرورات الدراسة اللفظية الجافة، لدراسة عظيم ممثل بملامحه. وجثمانه، وهو في فنه الساحر في بساطة أنموذج حلو

لترف الذهن، ونفاسة الثروة الإنسانية، لا يذهب بها كرّ الأيام، ولا يهدر قيمتها غنى النفس الممتد..

والمتحف الزراعي سلسلة مترابطة من تاريخ الإنسانية والأجيال ممثلة في منظورات مرتبة وهو في بسطه المترامي نبش للذهن، ونوافذ للعقل مطلة على أجمل ما تبدعه يد الطبيعة والإنسان.. وحركات أحاسيس ناعمة في تقلبها، واضطرابها وتنقلها من حسن إلى أحسن منه..

وتلكم أولى أسباب اللذة الكبرى، والفائدة المتسرّبة إلى النفس عن طريق الدغدغة.. الناعمة، لا القابلية الخشنة أسلوباً وهضماً له.. حتى لكأنما أذيبت دروس الطب وقوى الفن، والتاريخ، ومحاضراته العليا كلها في تماثيل وخلاصات، تلمح بالذهن وتخطف بالعين، فتطبع في الذاكرة قواعد حية.. ومعلومات..

وما يؤلم تقريره بعد، ومن جديد إني لم أجد هنا وهناك من المصريين إخواننا. والعرب عامة، والحجازيين خاصة من اطمئن بوجودهم إلى أننا جماعة نشارك الإنسان المفكر في إيجاد هذه المتاحف وإنجاز رسالتها.. لقد طفت.. ولكن بين مجموعة من الرطانات، الرطانات. التي آمنت أنها فاقت.. لأنها أدركت. ولأنها سايرت الإدراك الصحيح.. واستجابت لمطالبه، وضرائبه المتعددة الباهظ منها والتافه.. وإن كان "مشواراً" من القاهرة.. إلى قلبها.. أو أطرافها..

(١٣)

مباراة . . .

الرياضة ـ أياً كان مجالها ـ وسيلة فعالة لبناء الجسم، وتصحيح مدارك الفهم الاجتماعي. . والوضعي في أرقى وأوسع مجالاته. وفي أبسطها التدرجي لها. .

لقد حضرنا. اليوم. حفلة رياضية. . هي مباراة لكرة القدم بين فريق منتخب القاهرة والإسكندرية. . ومنتخب اليونان لعموم القطر المصري. .

والرياضة، وإن كانت فناً في الاعتبار الأول قاصراً على مجاله فحسب. . إلا أنها بعد هذا مجال لما تمليه دوافعها الأولى نظاماً وحركة لاستكماله، وخضوعاً تهذيبياً لأوامره ونواهيه. .

ولقد جلسنا، أول ما جلسنا وشعورنا نحن الجماعة الحجازية متجه اتجاهاً كلياً إلى فريق إخواننا المصريين رغبة "في النصر" وفرقاً من الهزيمة. . وشاهدنا اللعب يتنوع. . ويتدرّج، وحمدنا لإخواننا من اللاعبين أنهم في المقام الذي سمح لهم أن يقولوا لمن عيرونا طويلاً من الغربيين: إننا أدركناكم، وفقناكم. فسرنا هذا وصفقنا طويلاً له. . وكانت النتيجة لحسن الحظ أنها أكدت هذا. .

والدم يفور. والاستجابة لاتجاهه. لا تخضع لعقل. ولا ترضخ لمنطق، فقد غمرتنا الحالة فإذا نحن حس مرهف مجرّد متطلع باستمرار وكأنما هو ذو أحد عشر عيناً تتابع كل لاعب وميله.. ولقد بلغت الغمرة بأحدنا. وكان ذا نزعة دينية حادة. أن صار كلما دنا لاعب أو جملة لاعبين من اليونان من مرمى المصريين أخذ يردد دون وعي منه الآية الكريمة ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ. فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ. فَأَغْشَيْنَاهُمْ..﴾ (يس: ٩).

إن الرياضة في شتى فنونها تبني للشعوب الأسس القوية التي يمكن بها الصعود إلى مدارجها في اطمئنان. وثقة. واعتزاز.. ولقد سرّنا أن يساهم فيها الشعب والشباب المصري الذي يؤسفنا إن كنا نلمح فيه باستمرار طبيعة الليونة والمسايرة لا الوقوف عند الغرض ـ مهما كان ـ والدفاع عنه.. بما كان.. وهو أسف منبعث، من طبيعة بلاد جبلت شبابها على المجالدة والكفاح المبكرين، ومسايرة أسبابهما اندفاعاً خاضعاً لوضعيتها، وواقعها السيئ..

إن في الطبيعة لنعمة يقدّرها المحروم.. ويشفق منها ـ وإن حنّ إليها ـ المقدر العاجز عن مسايرتها فروعاً أساسية..

(١٤)

أخلاق . . .

نصطدم يومياً، بل ساعيًّا. بل آنيًّا نحن الحجازيين، بالواقع المادي المتحجّر رغم نعومته الأتوماتيكية. . في تصرف إخواننا المصريين. . وهذا ما يحزّ في نفوسنا وطباعنا الأصيلة المركزة. . فالقرش، والشلن، والفرنك، والجنيه، هي وحدها الأساس الذي يمكن أن يفهمك به المصري كيفما انتهت المسألة، أو العلاقة بعد استلامه. .

وأنت لا تريد هذا لأنه ثانوي في اعتبارك يأتي حين لزومه. . وحين يأتي لزومه تدفعه مضاعفاً على أنك لا تشعره أنك دفعته للغرض الذي أومأ أو صرّح إليه وبه لتستبقي ما بينك وبينه خالصاً من الشوائب ولكنه للأسف لا يعرف منطقنا الصحراوي هذا. . وإنما يعرف أن العلاقة لا تنتهي ببساطة تامة بينك وبينه حين استلامه. . فإذا أنت مرجوج النفس. والعاطفة. والإحساس، لأنك خسرت رجلاً يمكن أن يكون معرفتك. أو صديقك. . وإذا هو منبسط الأسارير. مطمئن للنتيجة فرح بها لأنه وصل إليها. . أما الوسيلة لها فليست أكثر من أداة أياً كان أسلوبها التافه أو الرخيص. .

وكم يكربنا أيضاً ما نعانيه من الجرسون. . وماسح الفرشاة لدى الحلاق. . وكمساري الترام. . حتى البيك المتوسط لك في إنهاء مهمة. .

وحتى الدكتور وسكرتيره وخادمه.. وكم يغيظنا في نفس الوقت أن نجد من الخواجه. فهماً لمرامينا.. وتقديراً لبواعثها ـ واحتراماً لها. واختصاراً لتصرف من بمعيته من "المصريين" بالنسبة لواجب أو ملاك الخلق الإنساني العام..

ولقد يرجع الحاسب بإدراكه الحسابي الجامد إلى أساس هذا التنافر، فيعذر المصري رقمياً. ولكنه حين يعود إلى التحليل النفسي يجد أنه خاسر كل الخسران.. فهو يريد الشلن ولو بالتزييف والنصب وما يجران إليه ويلقاه. في حين أنه كان من الممكن أن يلقاه وأكثر لو سلك السبيل الطبيعي الذي مهدته الحياة في الإنسان وهو من أفطن خلق الله إليه. إلاّ أنه متعجل رخيص.. يناديك بالبيك. والباشا وما شئت.. طالما أمل.. وأمله غاية مستعجلة.. وبالأسطى.. وياهو.. والحاج، لو أخلفت ظنه، أو طمع في مزيد.. أو لو قصرت المسافة بين ميعاد السداد في نظره، وميعاد استكمال واجبه في نظرك..

إلا أن هذا الخلق. دليل العبودية المزمنة.. ما تأتى لها هو الكسب من أي الطرق أتى.. لأن المفروض لها في طبيعة وضعيتها الحرمان.. من الحق الشرعي، والبدهي المقرر.. فالإحتيال على إخراجه، والفرحة به، تركيز للذات المزعزعة. وسد للحاجة المستعجلة تنصرف إلى أتفه المنافذ الممكنة..

إنها قسوة أن أقول هذا. ولكنها في سبيل الصدق الراجي الكمال لأخيه الأرشد، تعبير ناعم بسيط عن واقع أعرج.. ودلالة من صبي القرية على الخط المستقيم لثري المدينة التائة..

هو خط التفاهم بين الإنسان والإنسان حتى حين ينعدم التفاهم بين لسان ولسان..

(١٥)

نكرات . . .

الإنسان، كحيوان اجتماعي ميال بطبيعته إلى التعارف والتآلف. والامتزاج. ويسره هذا حين يكون لدى من فهمه حق الفهم. ليكون هو مفهوماً عنده ولو إلى الحد الذي يمكن من أخذ التجاوب سبيله الأول.. ولا يمنع قيام ذلك علو وهبوط. اعتباريان أو ماديان.. وبالأخص حين يحتاج العالي إلى الهابط لتركيز معنى، أو تضخم صوت.. أو تعزيز مركز ما.. كحاجة مصر الآن إلى تركيزها دولياً بواسطة تزعمها الشعوب العربية جمعاء..

ونحن الحجازيين مدمني القراءة في هذا الفراغ الساكن، نعرف عن المصريين سياسة وساسة، وأدباً وأدباء، وفناً وفنانين. وحياة عامة تاريخية، وجغرافية، واقتصاداً، وعلماً، واجتماعاً من كل ما هو في حدود معرفتنا.. وبمطابقة طاقتنا العامة، ولكل ما كان سبيل معرفة. فألفة. فحب..

ولكن المؤسف كل الأسف أن المصري ـ ما عدا مدمن الحج ـ يجهل حتى البدائة فيما يتعلّق بنا أو ببلادنا التي يتجه إليها يومياً في صلاته ـ ولو اعتبارياً لدى الأغلبية ودينها الإسلام طبعاً! ـ من ناحية

المأكل والمشرب، وسكنى الجبال. وستر العورة.. وهو نقص جوهري في أساس تكوينه الثقافي العام أو الإدراكي، المتحسس، أو السماعي العازف عن السماع الدارس..

وقد لا نطمع، ونحن لم نتوصل إلى الذهن المصري عن طرق الوصول العصرية.. إذاعة ونشراً، وإيضاحاً متواتراً بأمثال هذه الوسائط - أن نكون مفهومين في واقع له حدوده ومميزاته.. ولكننا نطمع فيما نعتبره من أولى البدائة.. في أن يكون لنا كيان ما في ذهن المتعلمين منهم على الأقل.. وهذا ما ننعيه عليهم لأنه مفقود كلياً..

ولعلّ عزاءنا أن هذه الغفلة من المصريين عامة بالنسبة لمن دونهم من إخوانهم العرب ثقافة وحضارة.. فالمصري في مجموعه عاجز عن التفرقة المحددة بين السوري، والعراقي، والفلسطيني، واللبناني، والحجازي، وحتى السوداني المكمل لوحدة وادي النيل..

فدمشق. وبغداد، والقدس، وبيروت، ومكّة.. والخرطوم مثلاً.. أعلام لا قواعد معلومة لها عنده..

إني أرد هذا الشعور الإهمالي إلى شعور كامن في قراءة المصريين عامتهم.. هو النقصان الذاتي لا يكمل في النفس إلا بأن يكون ملحقاً "لكامل" في نظره.. ولو عن سبيل التبعية في الفهم، والعلاقة بين أعلى وأدنى.. وقد يشفع لهم في ذلك أنهم يتلقون علومهم. ومعارفهم، ومكوّناتهم اليومية.. في بلادهم وخارجها على يد الأوروبيين في الأساس عامة.. وحتى الآن خاصة..

فهم "والحالة هذه" في حكم المضطر للاقتصار على الوقوف عند حد فهم هؤلاء، ومعرفتهم، والتكامل بهم معنى، وصورة وأداء. ولكنها

شفاعة التمحك من جانبنا والضعف المقصود الخائر من جانبهم.. وإلا فكيف لم يصدق هذا على السوري، أو العراقي مثلاً!! وهو في وضع مماثل، واقعاً مادياً لهم، وإن لم يمتد إلى جذور الفردية، وقوام الاجتماع طبعاً وتحرراً من أساسه، ووعياً لما ينبغي أن يكون عليه من عرف أين موضع قدميه.. وأين يجب أن يكون شعوره المؤسس على العلم والمعرفة، ولو في حدودهما التي لا تخدش شعوراً لمعرفته عند نفسها، تجد التنكير المطلق.. عند أولى المعارف لديها!

أليس من المؤسف المؤلم أن تتزعم مصر اليوم حركة الدعوة العربية، وأن تقوم الجامعة فيها.. وليس بين زعمائهم ومفكريها من يعرف القضية العربية أو الأقطار العربية معرفة استقراء.. وتتبع أو معرفة تمييز واضح المعالم على أقل تقدير إلا رجل أو رجلان؟؟ لقد عبّر عمّا عبرنا عنه هنا إخوان لنا سوريون وعراقيون ولبنانيون وفلسطينيون بل وسودانيون في قلب مصر، ولعلهم لا يقلون عنا غرابة واستنكاراً، لأنهم بالنسبة لنا في مستوى أرفع.. أو هم في راس السلم يشرف على الممر المؤدّي لأول درجة منه حيث عرفونا.. فعرفناهم.

(١٦)

غربة. . .

مصر قطر عربي يزيد في تأكيد عروبته الرسمية ـ باللغة القانونية ـ اليوم تزعمه الحركة العربية وشعوبها. . فالإدراك، والشعور بذلك وسيلتا اطمئنان لعدم الإحساس بالغربة للقاصد العربي إليه، والضارب في زحمة حياته، ومجاليها المختلفة. .

فهل هو كذلك في كل هاته النواحي العامة، والعالية منها على الأخص؟؟

إنه في المألوف العادي والبسيط المرتقب. . كذلك. . ولكنه فيما عداه ـ وهو أجمل ما في أجمل مدنه ـ. . بل إنه لتشعر، لتعدد اللغات والرطانات، إنك في بلد أجنبي يزوره عرب متمصرون ومصريون معدودون.

فالإفرنسية، واليونانية، والإيطالية، والإنجليزية ـ وهي أقلها وأقواها فأعجب! ـ و. و. . هي البابلية التي تصافح سمعك باستمرار في قلب شارع فؤاد الأول وسليمان باشا، وعماد الدين، وبمصر الجديدة. وما قام مقامها. .

والأسماء اللامعة البارزة للمحلات التجارية والاقتصادية كلها أو

أغلبيتها الساحقة، إفرنجية أجنبية. حتى الساكن هناك للاستثمار والسكن لهؤلاء.. فليس بين الفنادق، والبانسيونات يملكها أو يقوم عليها مصري أو مصرية.. وعلى الجملة فقد تداخل عنصر الاقتصاد المركّز للأجانب، وتقرير ذاتيتهم في كل شيء هناك.. فاحتلوا من البلد أزهاها، وأرقاها، وأكثرها غربة عنها..

ولقد يهون الأمر سماعك هؤلاء الأجانب يتكلمون العربية باللهجة المصرية الصميمة أو مع تكسير فيها.. ولكن الذي يفزع أن كثيرين منهم موجودون من زمن طويل.. أو مولودون بمصر ولكنهم يجهلون العربية لأنهم متكتلون، مقتصرون، لا يتفاهمون إلاّ بلغتهم. ومن الطريف اصطدامنا بالحادثة التالية:

سكنت وزميل لي في بنسيون تديره امرأة روسية ـ حتى الروس أيضاً.. فسجل ياسيفور كما يقول أناتول فرانس ـ وتعذر علينا التفاهم معها إلاّ بواسطة الخادم وكانت لها شرائط وترتيبات لا بدّ للساكن من مراعاتها بدقة ونظام صارمين. جلاء أو محاربة للعادات المصرية والعربية. وحين أفهمناها تجنيها في أنها ما دامت تقيم بمصر من ستة وعشرين عاماً.. وأنها تدير نزلاً عاماً لا يحتكر به الأجانب وحدهم.. لزم أن تكون إعلانات برنامجها هذا باللغتين العربية أولاً. والإفرنسية مثلاً والإنجليزية أجابتنا: أنها لا تستطيع تعلم اللغة العربية لأنها عسيرة جداً، قلنا فاقتصري على فهم الألفاظ ونطقها، وما أسهل هذا لمن تقيم المدة التي ذكرت فقالت: حبذا لو فطنتم وفطن المصريون إلى ضرورة جعل كتابة الألفاظ العربية بالحروف اللاتينية كما فعلت تركيا أنكم بذلك تضمنون شيوع لغتكم..

فقلنا: هذا شرط كنا نفرضه عكساً.. لو أننا في مركز القوة وأنتم

في خط الضعف وإلاّ فما ضر أو يضر راغبي تعلم لغة ما من تلقيها بكامل وضعيتها.. كما يفعل العرب الآن حين يدرسون أية لغة أجنبية.. وكما كان الأوربيون يدرسون اللغة التركية الشائعة بينهم أيام السلاطين.. أو بين قسم كبير منهم. وبينكم أنتم أيها الروسيون على الأخص. لقد كانت هذه ـ المدام ـ نصيراً مجهولاً متحمساً للأستاذ الكبير عبد العزيز فهمي باشا. ولكنه النصير الذي ينظر من أعلى الشرفة إلى من يدبون على وجه الأرض في استخذاء، ونظرة جانبية لمن فوق. فيها الإكبار. والشعور بالعجز، ونحمد الله أننا لم نقض أكثر من يومين بهذا النزل.. وإلاّ لآمنا أننا في قلب "كييف" أو موسكو..

إن هذه الحالة تدعو الإنسان ـ مع إيمانه بحق مصر ـ لتعديل النظرة إلى دعوة الجلاء العسكرية، وحبه أن تستبقها دعوة جلاء "الأجنبية" اقتصاداً، ومظهراً وتركيزاً؛ تمهيداً عملياً لتلك الدعوة المقدّسة. وإن ذلك لهو أساس البناء الاستقلالي الصادق..

أليس في إمكان الحكومة المصرية ـ وقد بدأت ذلك، كما لمسنا الضيق من شكوى الأجانب من الضريبة، وتقرير العربية ـ التعجيل بتمصير هذه القوات الهائلة أو إجلائها تدريجياً والأخذ بيد المصري لإحلاله المحل الأول، أو المنظور في بلده؟

إننا لم نر صالوناً، أو دكاناً، أو بنكاً، أو فندقاً، أو نزلاً، أو، أو، في كل هذه الشوارع والأماكن الفخمة إلاّ وأصحاب كل من ذلك "خواجات" وخدمه مصريون!!

إنها نكبة إن كانت لوجودها المبررات الكثيرة البائدة، فقد آن أن لا تبقى كابوساً مزعجاً حتى الآن.

(١٧)

مقارنة . . .

قصدنا الإسكندرية، وقد ركبنا "الفسطاط" طائرة مصرية. . وقائدها ومساعده مصريان. . وسرنا هذا جداً كما راقنا كثيراً أن تتخذ شركة مصر نظاماً، وترتيباً لا يقلاّن عن قواعد أية شركة أجنبية أخرى.

وذكرنا طلعت حرب باشا الرجل المصري المسلم العظيم وأعجبنا به. . وبمشاريعه من جديد، وربما كان لجدة هذا الإعجاب وتضخمه أصل راسخ في نفوسنا. . ذلك أن الرجل "حجازي الأصل" من قبيلة "حرب" فما يضير النفس والمفلسة على الأخص أن تتيه أحياناً بملايين جارجار خال خال صاحبها البعيد! . وكانت المناظر رائعة حقاً. فالأرض مربعات خضراء متناسقة. . وخطوط مائية متعرّجة. . والطبيعة الصاحية المشرقة نهاية في الحسن والفتنة. . وهبطنا المطار. وذهبت بنا السيارة إلى مقر الشركة، بقلب البلدة ومن هناك استأجرنا "تاكسياً" للوصول إلى مقصدنا. .

وللتاكسيات وسائقيها في الإسكندرية شارة وتقليد خاصان يمتازان بهما. . عن التاكسيات وسائقيها بالقاهرة أو السويس. . فهم حييون

خجلون بالنسبة لسائقي القاهرة. وصفاقتهم المبرقعة بكثير من الأناقة والرشاقة، والاتيكيت.. ولعلّ هذا كان بدء المقابلة بين الإسكندراني والقاهري مما أبدته المناسبات المتتالية.. وقد ذهبنا إلى أفخم فندق في الثغر الضاحك "سيسيل" ولعلّ ما هيّأ لنا حسن الاستقبال، ومراعاة طلباتنا بحماسة وارتياح سبق نزول حجازين به قبل أسبوع من مجيئنا كانوا مثال الاحترام لنفوسهم عطاء وسلوكاً. فالمظنون به النقص أحرص على الكمال كما هي القاعدة الأساسية..

واخترنا ـ بعد تفقّد بعض غرفه فقد كان الموسم لا يزال على الأبواب ـ غرفة واسعة مطلّة على البحر من جانب.. وعلى تمثال الزعيم الخالد الذكر سعد زغلول وحديقة من جانبٍ آخر..

والهدوء، والرقة في الجو. وفي الإنسانية. وفي المحيط العام. ميزة هذا الثغر الحيي الرائق، وسكانه الذين لم يذهب الاختلاط بما في طبائعهم الأصيلة من التشبث بأصولها.. وإن كانت الحرارة ـ على كذب باعثها، والرشاقة على هول مدلولها ـ سحر القاهرة والقاهريين الجذاب..

وهنا مفرق الطريقين الذي ربما بلغ في تحديده معنى عاماً لكل ما في الحياة.. الحديث أو الأثر الكريم ـ بصرف النظر عن المادة المقال فيها ـ.. "اللذة في الحار والبركة في البارد.." ولا ارتاب لحظة في أن الغالبية العظمى من الناس في هذه الحياة طلاب لذة حارة. ولو كانت خاطفة، كعادتها ومهما كلفت.. لا بركة مستديمة ولو خلت من ضروب التكاليف وسلمت من صنوف المهالك.

ولقد خفنا في ليلتنا الأولى.. فما نكاد نلج الصالة حتى نطلب

الفرار منها.. أو الكازينو حتى ننتقل لسواه، أو نسأل عن فيلم معروض إلا ونشيح عنه.. فقد أفسدتنا القاهرة بكمالها المتقاصر عنه الثغر والتي لما تنتقل معنا، ولا شك، وهكذا:

فمن ركب الثور بعد الجوا　　د، أنكر أظلافه والغبب

وزارنا ضيقاً ما رأيناه من آثار الإضراب الذي لا شك في أن استدامة أسبابه راجعة إلى حوادث الاصطدام التي سمعنا عنها قريباً منا والتي لمسنا آثارها في تكتل بعض جنود البوليس المصري أمام الفندق بداعي نزول بعض الجنود الإنجليزيين فيه.. والجنود الإنجليز على مقربة منه في الكازينو المجاور.. ولكننا مع ذلك نعمنا برقة الجو ومنظر البحر، ومرأى البلاج رغم وحشته واستخفافه بقلة زواره.. وبانذياح طبيعتنا مع أهل البلدة الذين لا تخطئ الصميمية غالباً في معاملاتهم.. لكني لا زلت في صف أهل اللذة الحارة.. فهم مع قسوة هذا القانون الثقيل لهم عذرهم. فالعاصميون مجبورون قسراً على اصطناع الأساليب العامة.. ومجاراة ضروراتها والانشغال بزحمة الحياة ويومياتها عن التمسّك الفردي خلقاً وتشبّثاً به، وتعصباً له.

وإلاّ كانت الفردية نصيب الفرد المجتوى. فالتقليد وسيلة لازمة، وإلغاء الفردية في سبيل المجموع ضرورة حياة واتصال. وليس التعارف على عادات، وطبائع وضرورات بين العشرة وفي كيلو متر ممكن التحديد بين المائة، وفي العشرة كيلوات بمسلك أصيل ثابت..

وقد شعرنا بالفارق حتى في ذواتنا نحن بيننا كمصطنعين ـ بحكم

العادة القريبة ـ الأسلوب القاهري، وبين من نحن بينهم، وبمداه امتياز حياة، وتذوق وتفوق فيه، والغرور، والتعصّب له سبيل ممهد لتطويع الحقائق، ومفاهيمها لمنهاجه.

وهكذا قررنا العودة بعد يومين إلى "الحمام الفائر" بدل هذا البلاج البارد.

(١٨)

تجوال. . .

كان اليوم التالي لوجودنا بالإسكندرية، موعد محاكمة الطلبة الجامعيين على الإضراب، وحادثة قتل الضابط، فذهبنا إلى المحكمة. وبواسطة شاب مصري موظف استطعنا الدخول إلى حيث وجدنا المتهمين في قفصهم، والنظار، وجلهم من الطلبة، وممن اتصل بهم أو بحياتهم بسبب. . في ساحتها. .

والحرية جميلة، وبالأخص للمحروم منها، فإنها الحياة، وقد شاقنا منظر الطلبة يدخنون ويتجولون، ويتحدثون، وتتصل الأسباب بينهم وبين من في خارج القفص، وما راعنا شيء بقدر الإخطار بقرار المحكمة بجعل الجلسة "سرية" في آخر لحظة. . فحرمنا بذلك من متعة كبرى ذهب الخيال في تصورها إلى أبعد مدى. .

ولكننا لم نرضخ لحكم الحرمان الكلي ـ فسألنا نفس الموظف الشاب ـ وكان لطيفاً معنا بعد أن عرف أننا حجازيون ـ عما تمكن مشاهدته فدلنا على محكمة استئناف مجاورة. . كانت جلساتها معقودة. فذهبنا وشاهدنا ما ذهب بكثير من روعة الصورة التي كانت مرتسمة في أذهاننا عن القاضي، والمحامي، والمتهم. وضعاً وإجراء. فالسرعة دون

تتبع، وسرد الطابع الذي تعالج به القضايا، وربما كان تكوين الفكرة من دراسة الأوراق، السبب الرئيسي فيها..

وأنانيتنا في الغالب هي الموحية إلينا بقصور الإجراء، فهناك ترتيب معلوم عن غياب المتهم ـ الحقيقي أو الصوري ـ مثلاً فتحفظ القضية. وهناك سرد أجوف من المحامي لقضية، في حين انهماك القاضي بدراسة أوراق أمامه. وهناك مقاطعات تافهة لا يعنى بإيقافها أو تسخيفها. وربما كان للوقت بعض الأسباب.

ولكنا نعمنا على العموم بمسرح العدالة تجد الحرية فيه جمالها المفروض لها، ومقارعة الحجة بالحجة رغم ضياع كثير من الحقائق بين براثن البراعة التكتيكية، والمناورات التجريبية، فلكل مطلب عزيز ضرائبه وضحاياه.. كما تألمنا كثيراً لمناظر البؤس، ومرائى الشقاء، في كثير من المطلقات، وطالبات النفقة، والحقوق المهدورة.

وخرجنا بعد للتجول في شوارع البلدة وأزقتها، وقد كان موضوع استنكارنا هذه الأسماء الأجنبية تتميّز بها الشوارع بالإسكندرية، وقد يكون لوجودها من قبل مبرر أما بقاؤها للآن فهو المنكر المستبشع.

وكان الكورنيش الممتد مبعث إعجابنا الدائم فهو مفخرة "أبي السباع" التي هيأها لمصر رغم ما لابس قيامها من منكر عليه، ومس للسمعة.. فهو مجلى الذوق، والنظام. والترتيب. ومسرح الفتنة الطبيعية، ومجالها الرحب..

كما كان مرأى العمارات الكبيرة المطلة على البحر خالية تتثاءب في انتظار اليقظة والحركة والزحمة، مصدر عبرة للحياة والموت.. "فالمكان بالمكين" كما نقول في أمثالنا..

ونظام تخصيص الأتوبيس وحده للكورنيش بديع لضمان الهدوء النسبي. والترام ذو الطابقين ممتع جذاب..

ويكفي قبل وبعد أن يستعرض المرء الحوادث التاريخية الكبرى تحفل بها هذه المدينة "الإسكندرية" من الأمد القديم ليستروح نفحاتها. ويناجى طيوف أبطالها، وبطلاتها السابحة في الماء أو المزدحمة بشارع أو محطة ذات السحر، والفن، والجمال، كليوباتره..

(١٩)

فسحة...

ذهبنا نفتقد البلاجات في فسحة نهارية طويلة.. وكانت تستعد للموسم تهيئة، وترتيباً وتنظيماً.. إلاّ بعضها الذي شغله بعض القاطنين، أو النازحين.. كطليعة لها ما بعدها.. فهم يأخذون كاملاً ما سيحرمونه أو يزاحمون عليه بعد قليل. ولكن مكان الصورة الفنية الجميلة لن يكمل بإطارها، ولو زركشت اللوحة ببعض الخطوط..

والبلاج فتنة الحياة. والشباب. فالحرية، والمرح، والانطلاق أقاليمه الثلاثة الكبرى.. وكان جلوسنا في ـ ستانلي باي ـ على مقربة من عائلة أجنبية وما أكثر أمثالها هناك.. وقد راقنا ما درجت عليه من تربية ونظام، واستمتاع بالحياة.. فهؤلاء أطفالها الصغار يبنون من الرمال بيوتاً، ويتضاحكون، ويتلاعبون، ويهدمون، ويبنون متنقلين من مرح إلى مرح. كل ذلك بعد سؤال الأم أو الجدة عما إذا كان هذا موافقاً أم لا؟ وهما يرسمان لهم الخطة، ويحبذان، وينتقدان.. مع قيام كل واحدة منهما بشاغل لا أدري أهو فرعي أم أصلي.. وسيان ذلك. ففي يد كل واحدة من الأم والجدة إبرة وخيط تعمل بها حقيبة أو ما شابهها. وإزاءهما بضعة جوارب وفانلات لا شك أنها معدة للرفو والرتق..

وبجوارنا كذلك ثلة من الجنود الإنجليز. إنهم يحسنون الاستمتاع بالحياة. والاستفادة من الوقت.. حتى لو كان وقت الفسحة. فهو الأساس القائم عليه وقت العمل..

إنهم يسبحون تارة. ويتمددون على الرمال أخرى. ويرون القوارب الخصوصية فيحاول أحدهم تجربة اللهو بواحد منها فتعجزه الوسيلة. إذ كلما ركبه انزلق عنه منقلباً فيعيد التجربة.. وتعود الوقعة.. وهم يضحكون. ولا يخطر لأحدهم ببال أن يعينه أو يرشده.. فلا تزال قاعدة "ساعد نفسك" الأساس الذي تقوم عليه الشخصية عندهم..

واستخف بعضنا الشوق للاستحمام.. فسرعان ما وجدنا بائعي "المايوهات" حاضرين ومستعدين لإرشاده إلى "الكابين" الذي يتعرّى ويلبس المايوه فيه.. ومكان "الدش" الذي يستعمله عقب خروجه من البحر.. فكان أن نزل واختلط بهذه المجموعة الصاخبة اللاهية المنطلقة..

إن هذه الصورة الحية المنطلقة من إسار التقاليد. وجمود العادات إلى حيث منطلق البشرية الأولى. لهي مثال الجمال المتحرر.. عدو القبح المتستر. فيا ليت هناك معرضاً أو بلاجاً لسفور النفوس من حدود هذه الأجسام، وسدودها في طبيعية لا يحجبها رياء. أو نفاق. أو عرف. أو تقليد..

حبذا الحرية ودواعيها، جسوماً، ونفوساً. فهي القنطرة إلى الجمال. والحق، والحرية. والحقيقة الخالصة..

(٢٠)

في القطار . . .

عدنا إلى القاهرة. وكلنا شوق واندفاع إليها. . وقد آثرت دون الرفاق، القطار وهو العالم المتحرك بطبقاته ودرجاته الممثلة الفوارق الاجتماعية والمادية. وقد وصلت قبل تحركه بدقائق معدودات. . والشيال ـ أو الحامل عنصر هام في المحطة، أو مملكته العالم بخفاياها. فقد تكفل بكل شيء حتى انتهى في ثوان. .

وكان رفقائي خليطاً من هذا العالم المتحرك. ففيهم المصري الريفي والمدني. والأفندي، والخواجه المستوطن، والمهاجر الحديث. . والانكماش أولاً ثم المجاملات السطحية ثم تبادل المعلومات بعد التعليق على المرئيات والأماكن. والمحطات. وأسمائها. . درجات التعارف الاجتماعي على تفاوت في الاستجابة والأمزجة. .

وكنت أود أن أكون بجوار النافذة لمشاهدة الطريق وما فيه. . وكان في جواري مصري من كبار أهل الأرياف فتنحّى لي عن مكانه. وأخذ يدلي بمعلوماته عن الأماكن. . وحاصلاتها. ومراكزها المادية. والاجتماعية. وسرعان ما جذب الحديث فضول أحد الخواجات الذي ظهر فيما بعد أن معلوماته عن القطارات ومواعيدها. والقرى، والبلدان

المصرية. وحاصلاتها. وطرق تصريف غلاتها. أدق كثيراً. فهو وإن كان حديث العهد بالعمل في تجارة الحبوب وسمسرتها بالنسبة لصاحبنا الريفي. إلاّ أنه يسجل المعلومات بالطريقة المدرسية العلمية، في مفكرة جيب خاصة، بعكس الصاحب الذي لا يعرف إلا أنه درج ونشأ واشتغل. وقد تكون المعرفة في نظرة تافهة لا تستحق منه التسجيل والتدقيق.. ولكن من ضمن الذاكرة الخؤون؟

والريف المصري وليد هذه النعمة الكبرى "النيل" على مصر ومن فيها. فنحن لا نزال باستمرار نمر بين ذراعيه المبسوطين على جانبينا.. وبين هذه الأرض الخضراء المنبسطة. وتثور النفس حين المقارنة بين هذا الرخاء والخير، وبين حالة الفلاحين فقراً وخصاصة. ولو قدر لكل مديرية من مديريات هذا القطر أن تعيش في لا مركزية مرتبة لما انقضت سنوات دون أن يعم الرخاء والبسط في المعيشة ـ هؤلاء المحرومين ـ بدل هذا الارتباط الذي يبتدئ وينتهي. وينتهي بأسرع ما يبتدئ. في رؤوس لا تحس إلا بجوها، وما هي فيه من رفاهية، ومغريات، وتشابك حزبي أو شخصي أو اجتماعي ينسيها مهمتها الأساسية..

إن المعيشة الفطرية التي تمثلها لنا هذه المرئيات المتلاحقة، مثال نبيل للطبيعة الإنسانية لو تعهدها الصقل والمعرفة والإرشاد في حدودها اللازمة دون إغراق أو تعقيد.. إنها ببساطتها ونقائها، قوة حيوية دافعة للبقاء في سلام، عجزت هذه القوانين المتواترة عن خلقه..

والنفس تهفو لما خالف واقعها تفخيماً لأفضلية.. وإلاّ فمن أدرانا أن هذا الفلاح الفقير ـ كما نحلم بالعودة للريف وحياته ـ يفرق من واقعه الناضب ليبيت ويصبح في حلم ناعم بحياة المدن الصاخبة بأضوائها

وازدحام الحركة، وتنوّع المرئيات والحوادث فيها؟. هذا إن كان قد رآها بالفعل أو السماع. وإلاّ فسيكون حلمه أمنية نحو مجهول.. مرغوب..

ولقد غرقت في الرؤية والخواطر.. ولكني فزعت فجأة على صخب نقاش حاد.. هما الخواجه. وصاحبي الريفي. فالأول يتهم المصريين في قسوة.. على إهمالهم أرضهم الطيبة نتيجة التعلّق ببهرج الحياة. والتلهيّ بالقشور أو "الهلس" كما يقول.. والثاني لا يقره على التعميم المطلق، فهو لا ينكر واقع أبناء قومه ولكن لا يلقي عليهم كلهم اللوم أو التبعة، فهم غير مسئولين عن ماض اتصل بحاضر جنت عليهم فيه السلطة وكونتهم هذا التكوين الفاسد.. فهو ينعى ذلك على المستعمرين قديماً وحديثاً..

ولا يعفي في كثير من القسوة الحكام المصريين، وزراء، ورؤساء أحزاب، خلقهم الاستعمار، وخلق لهم الحكم ينشغلون بأسمائه.. وشاركت في الحديث بأن هؤلاء الزعماء الوطنيين. قد تقمصوا الأجنبي زياً ومظهراً، وحباً للسيطرة والحكم، ولعلّ السبب الرئيسي في جمودهم عند هذا الحد، عدم شعور المجموع بحقوقه بعد. وإلاّ لدفعهم دفعاً إلى واجباتهم. أو الأخذ بأيديهم قذفاً بهم إلى ما وراء الصفوف.. ولكن أين هذا المجموع وشعوره لم يترك له الفراغ من الجهاد وراء تأمين اللقمة، والفقر والجهل كساح دائم وعمى تام..

وهكذا قطعنا الطريق بين متاع نظر، ودغدغة فكر، وثورة أمل..

وفي المحطة اشتبكنا بأول "الخوازيق" القاهرية التي يجيد تثبيتها واختيار مراكزها الشيالون والمتطوعون لإحضار التاكسي للخواجه والبيه في الأول "والايه و "الأسطى" في الأخير..

وكنت وأحد الخواجات ضحية مقلب من مقالبهم الرخيصة التي لم يخلصنا من شربها حتى الثمالة إلا البوليس، وسرعة السائق.. فقد ظهر أنه توجد حتى في البوليس روح الشيال لا تسترها عن الأعين إلا البدلة الرسمية، والحياء عند الزحمة. أو في آخر لحظة منها..

(٢١)

ليله . . .

استقبلت القاهرة على موعد مع صديق استقبلني فيها قلقاً خوف التأخير. . فهو قد اهتدى إلى سر من أسرار الفتنة التي كانت خافية علينا قبل. . فقد غشى من أيام إحدى الصالات الشهيرة. واتصلت العلاقة فيها بينه وبين "ارتيست" تريك الفن حاراً، والفتنة زخاره والجمال ذا ألوان. . وألوان. .

وتهيأنا لليلة. وكنا لا يقل زميل عن زميله ـ محبّي دراسة نفسية تشغف بتخطّي ما وراء الكواليس ضوءاً ولباساً. وتمثيلاً. . وقد كانت المسكينة. الفريسة، بعد أن ظنت أنها الصائد. . لقد بدأنا الأسئلة في طبيعة ساذجة. . وبدأت تتهرّب من الإجابة ثم انقطع الحبل. . ليتصل في غير إدراك منها. . وتربص منا!! فإذا هي بعد المعرفة السافرة، لا تزيد عن بائسة ككثيرات من هاته التعسات رسم الشقاء هالة حول أعينهن. وأكسبهن السهر، والتدخين والشرب، وتلبية الرغبات، أتوماتيكية حركة وحياة. . على حساب هزال. وتسمم، ودمار. .

إنهن فراشات متهالكة، ومن يعي واقعهنّ فقد خسر الاستمتاع باللحظة الحمراء وكنا مقرّرين خسارتها، رغبة في كسب معركة المعرفة

الكبرى، ولا ريب في نبوغ الارتيست النفساني. فهي عالمة بالحس والصنعة. والضرورة لحاجة هذا القطيع للهو الصاخب، والانطلاق المستهتر. والفورة الجنونية..

ولقد تكفلت الصالة لها بسوائلها العجيبة، وأضوائها الساحرة، وماكياجها الخادع وموسيقاها، وأغانيها. وبرامجها، والاستعداء على الزبائن، والتنافس بينها وبين زميلاتها، تمهيد سبيلها.. فكانت الأرتيست طبعاً، وتكويناً، وخلق مجال، فهي بكل ذلك فتنة داعرة تسحق بالتذاذ وتدمر في إعجاب، وتزفف في تعلّق بها وافتنان.. وأم الكبائر، كما يدعوها الشرع.. أولاً وأخيراً. لولب الحركة ومدارها، ولو بقي زبون وارتيست في صحوة عقلية متصلة لبصق كل منهما في وجه الآخر كما يقول أبو الأسود. أو من قال، وهكذا لم يزل للضعف والضرورة خداعهما الأكبر الآسر.. ما دامت المغالطة فلسفة الحياة..

وكانت المسكينة لنا مفتاح سر عرفنا منه واقع "سوسو" و"ميمي" و"فيفي" وما شئت من أمثال هذه الرموز أو الأرقام تحملها كأسم لها كل من هاته الأرتيستات كما يحمل السجين رقمه المميز به، وكنا منها ومعها في سياحة نفسية متصلة كشفت.. لأنظارنا. وأفكارنا.. حقائق هذا الخرائب الآدمية المهجورة، والأطلال والأنقاض المستورة، والمتحوّلة عن واقعها البائس إلى لحظة مشرقة برشفة كأس..

والأرتيست ـ بعد ـ بعيدة الإدراك، صادقة النظرة، فهي تحكم على كل زبون بما لا يتعدّى مركزه غالباً، قادرة على استغلال الحالة النفسية له حتى أقصى حدودها في خفة "أمريكانية" وتمثيل "هوليودي" وتغاب هو الذكاء، ولو كان من الذكاء الذي لا يتعدى نطاق الحيلة تفتقها الحاجة..

ولكل زبون ـ وكفى بذلك تعريفاً له ـ من مدمني الصالة ضرورته، أو ضعفه المنقاد إليه في ضعف واستسلام. أو نقصه النفسي الخاص.. فلا يزال أغلب روادها "الموسرون" المغفلون، أو الوارثون، كما يسميهم قصير الذيل في تسميتهم له أيضاً ـ ينشدون ترديد صدى نفوسهم في نغم متصل لا نشاز فيه..

وحسبك ما ينتجه تقابل ضرورة عاجزة، وضعف مقعد، بضرورة قادرة، وضعف فعال، ومتى تم الإطار، وتهيا الجو، وانتهت الخطوط فقد كملت الصورة، وآب الغريب إلى وكره..

وكانت لنا ورفيقي ليلة حافلة بالنسبة لما خالف الباطن فيه الظاهر، وكانت ثورة في تاريخ هذه المسكينة التي رغم تبادل كل الأسرار والمعلومات. والفلسفة والحقائق أبت إلاّ أن تكون "الأرتيست" كما تعوّدت من تعويد الناس لها ذلك فلم نجد بداً من مجاراتها نزولاً كما تقول على نظام العمل والسمعة فيه. ولكنها فتحت "فاهاً" "فترا" ورفعت حاجبيها "شبراً" وحملقت عينها "دهراً" حين ودعناها قريباً من بيتها المجهول في أدب. وتقدير. وصمت..

(٢٢)

أجواء . . .

الإستغراق في الجو الواحد. غمرة قاطعة لما عداه، وألفة توجز الحياة فيه، وجهل بوجود، أو حقيقة سواه. إلاّ بمقدار. . أو على نمط تخيلي ما. . ولسنا نرد نعي الناعين منا على مصر فسوقها وفجورها إلا لانقطاعهم بجو ما. أو ألفتهم السير في الخط الواحد. . بصرف النظر عن قاعدة مقارنة الحياة ببلادهم وبها. . فرائد الصالة المدمن عليها لا يرى من مصر إلى هذه اللوحة. . وكذلك محب السينما. . أو حليف البارات والكازينوات. وما جرتا إليه. . وعلى العكس منهما المنقطع للحياة العملية التجارية. . وبالمثل المواظب على غشيان المساجد، وزيارة المعاهد الدينية. . والمندمج في الجو الرياضي بأنواع الرياضة ونواديها وحفلاتها. . لا يرى كل من مصر إلى جوه المألوف أو خط سيره الواحد.

وهكذا تكون الحياة في البلد الكبير، عالماً فيه الاشتمال والاستقلال، ومجال القدح والمدح. فزحمة المساجد، وإقبال المصلين عليها وبها، توحي لسالك هذا الطريق بعينه إيمانه بأنه ببلد متدين، مغرق في العبادة وأسبابها. . وبالعكس.

وهذا مواطننا الذي قضى حوالي العامين هناك يؤكّد نزعة التديّن

المصرية الغالبة، ويزيد على ذلك أنه وجد عقيدة وذمة واتجاهاً صادقاً لله وتمسكاً بمبادئ الدين الحنيف، أقوى وأفضل مما ألف بموطنه مصدر الدين بكثير. . في حين يسفه رأيه هذا بالغمز عليه وقطع حديثه، وسرد الأمثلة المعاكسة. . مواطننا الشاب الذي قضى هو أيضاً ما لا يقلّ عن العامين تقريباً بالقاهرة وحدها. . وكلاهما صادق ومصيب في نفس الأمر وواقع الحال.

ولقد قضينا يوماً كاملاً في أحد الأحياء البلدية ـ كما يدعونها ـ بالقاهرة، وفي ناحية لا تزال الأخلاق بها بمفهومها الأثري. والعادات. والمحافظة، توحي في أمثلتها الحية المتحرّكة بأن بينها وبين العاصمة أميالاً. أميالاً. ومسافات زمنية قرنية. . فلا يصلها بالحاضر العصري سبب أو زمان. . والبداهة المقررة لهذا في أدمغة العالمين به هي بذاتها المنكرة وجوده عملياً. . وللأجنبي ـ وبالأخص القادم من بلد محدود الحياة والسكان والتشابك الاجتماعي ـ من العناية بتقرير هذا البدهي المقرر.

ولكلمة الحاج بهذه الأحياء سحر وجاذبية. فهذه اللافتات تبتدئ بها قبل اسم ونوع البائع والمعروض دعاية فعالة في الإقبال. والتزكية. والاقتناع ـ ولا يذهب برسوخ هذه الأصول تسرّب الزيف إليها. والانتفاع بتأثيرها من البعض. . فما زال لكل قاعدة شواذ. ولكل أصالة دخلاء، ولكل مادة نجاح واستغلال.

(٢٣)

أساليب . . .

غالبية القراء الحجازيين، والمتنورين منهم على الأخص يعرفون عن السياسة المصرية. والأحزاب وزعمائها. وحركاتها الماضية والحاضرة أكثر مما يعرفه المصري العادي، وذلك بحكم فراغ الحياة. وإدمانهم القراءة بأنواعها. والمجلات والجرائد على اختلاف نزعاتها . . وآخر ورقة فيها.

على أن لتكوين ملكة المعرفة عن طريق القراءة. ضرراً يلمسه زائر مصر منهم حين يفاجأ بمعرفة شخصية تخالف المقروء.

والوفد المصري كعقيدة سياسية، قبل أن يكون كحزب. وكحزب من أقدم الأحزاب ـ معروف أكثر من سواه، ولكن الخارجين منه أو عليه معروفون كذلك به، قبل أن ينكرهم أو ينكرونه كأسلوب للشخصية فيه المجال الواسع. ولا خطر على المبدأ به أو بهم.

ومع ذلك فالمسموع المتداول عنه وعنهم، يجعل حظ القراءة مكان الأبجدية أو فك الحرف ليس إلا . .

ولقد قدر لنا أن نشهد معركة انتخاب الشيوخ، وأن نقارن بين المقروء والواقع فلمسنا الفارق الجوهري. ومن هنا لزم تصحيح كثير من

المقاييس والمعلومات. . فالمغالطات الصحفية، وتشويه الحقائق أسلحة يفلها الواقع لمشاهده. . والواقع أن أساليب الانتخابات على أنواعها كانت رخيصة جداً عكس ما كان متخيلاً منا.

ولقد كنا ليلة في الأتوبيس في طريقنا إلى موعد، وإذا "بزفة" تجمع مأجورين تهتف باسم شيخ. . وسألت عنها جاري في المقعد، وكانت الوجاهة، والرصانة والثقافة علامات واضحة من مجموع حديثه ونظراته. فأشار بيده إشارة كلها الاستخفاف، والزراية و"القرف" ثم قال إنها ألاعيب حواة لا تنتهي. . والحقيقة أننا لمسنا أن كثيراً من الأشخاص المحترمين لدى أنفسهم وبواقعهم في حالة مقاطعة ملحوظة تامة للحزبية على أنواعها. . فقد آمنوا أنها كلها دعايات رخيصة وميدان مهاترات، وفضائح، ومخاز يضيع في تلافيفها جوهر الغرض، وسمو الغايات.

ومن الغريب أن نختلف مع بعض المصريين على تقدير بعض الشخصيات المصرية فينتهي بالتسليم لنا، سواء أكان ذلك الشخص المغفور له أحمد ماهر باشا أو النحاس باشا أو صدقي. أو مكرم. أو علي ماهر. أو حافظ عفيفي. أو فكري أباظه، أو التابعي. أو مصطفى أمين. . أو. . أو. . كل في مجال اختصاصه يزيد به السياسة دماً جديداً أو ينقي من دمها عنصر فساد.

وفي الطبيعة المصرية روح الهزل والسخرية لا فرق عندها بين مادة ومادة. ومجال ومجال. فالتقديس حب وإخلاص. لكنهما عندها ـ مع الإجلال! ـ ليس سبيل حصانة مانعة. . ولهذا تكون فجيعة المستمع إلى مصري "يقفش" لزعيم أو عظيم لمناسبة، أو حالة، أو موقف، كبيرة من أمهات الكبائر. . إلا أننا نردها إلى هذا المزاج الحيوي، وإلى الإنسانية

الطبيعية في نفس المصري، فهو فنان بها، أو فنان حياة.. لا يعوق انسراب نفسيته وحرية مزاجه أي اعتبار.. ولعل هذا فيما نرى سبب قوي من أسباب عدم الالتزام في السياسة المصرية، والتعصّب الجامد. ولو سلمت هذه الطبيعة السبرمانية من نتائج ضغط الحاجة المادية، وعقابيل ضغط الحرية الجيلي الممتد، لكانت المثل العالي الفريد.

وهكذا كانت السياسة المصرية. ولم تزل تقليدية خاضعة في تقليدها للضرورات. وأسباب العصبية والقرابة.. والعادات السالفة ومتبعها. أكثر من خضوعها إلى تقرير الهدف، وصحة المثل. وغاية المبدأ.

(٢٤)

أجانب. . .

التقليد البصير مدعاة تكميل. . فكمال. . والاحتكاك المباشر ـ للمقلّد ـ أصل من أصول التقليد الراسخة. . وسبب من أسبابه القوية. وفي مصر أجانب في معاملاتهم وأسباب حياتهم، وطبائعهم وأخلاقهم أصول ومظاهر من التربية القويمة وأجنبيات في أساليب حياتهنّ البيتية. وأخلاقهنّ وتربيتهن. وطراز المعيشة والزي. وطرائقه وسائل حياة راسخة، ومتعة وذوق متفنن، وفتنة ساحرة في بساطة وطبيعية رائعين. . وفي كثير من المعاملات. والصفقات. والتأمينات، وحياة الأسر الأجنبية، ونظام بيوتها. وتربية أطفالها ما يثبت هذا. . وقد جلست مرة في "البلكونة" أشاهد المارة والجنس اللطيف على الأخص في طريقة المشي. وأسلوب التنقل فكان الفرق بين الأجنبية والمصرية ملحوظاً دون إجهاد. . ولا ننكر أن هناك العكس بالنسبة لهؤلاء الأجانب. . فما كل بيض السلة صحيح.

وعلى ذلك فما نشك أن من مصلحة مصر الاجتماعية، والاقتصادية حتى. . بقاء هاته العناصر الصالحة فقد استفادت وتستفيد كمجموع منها كثيراً. ولو زالت العقبات السياسية والاستعمارية. . وارتفعت الأسهم المصرية الوطنية، وتمصر الموجودون على أساس المساواة، لكانت هذه

العناصر سبباً فعالاً في التدعيم الاجتماعي العام.

ولا نرد السبب الآن إلى ما قرّ في ذهن الأجانب عن المصريين عامة معاملة واتصالاً إلى ما وقر في الخلق المصري من نقائص لا تلام عليها طبيعة هذا الخلق الأصلية بقدر ما تلام على وجودها الأسباب الخارجية المؤثلة لها. وهذا الشعور المتزايد بالحرمان ولا تزال في الجوهر الخلقي المصري الأصالة أو القابلية الكاملة الحساسة للتشكل بالأسمى من كل صفة عالية،والرسوخ بها، والإيمان بميزاتها فالتقليدية فيه ميزة بارزة.. والتمثيل الاندماجي قنطرة قويمة للانتقال إلى ذلك والثبات عليه.

كنت قبل ربع ساعة أتحدّث مع أجنبية متمصرة تبعية فقط، وأتناقش معها عن مصر والمصريين، وإنها لتوافقني على أن مصر أجمل بلاد العالم أو من أجملها. جمالاً لا يقوم على منظور خاص بها أو تفوق ممتاز لها، وإنما على مجموع فيها يقوم في مدلوله وروحه مقام الحلاوة المتحركة بالنسبة للجمال الجامد. وفي أهلها الذين تطيب بهم الحياة وتحلو.. ولكنها ولكني نتفق كذلك على أن في الخلق المصري العام الشامل نقائص كثيرة وكبيرة لا تعتقد زلا أعتقد أنها أصل بدليل أنها «مخالب المعركة» وأن هناك أشخاصاً ارتفعوا عن المستوى الخلقي العام فكانوا مثالاً فريداً في الكرم، والتسامح، والإنسانية، وعناصر الفضائل المثلى.

إن مثل هاته السيدة وحليلها. خليقة بأن تكون مصرية الروح.. وستكون ويكون هو ويكون كثير من هؤلاء الأجانب متى تم لمصر وللمصريين قريباً ما يريدون.

(٢٥)

توديع . . .

قصدنا "السويس" لتوديع أحد إخواننا . . ونهبت السيارة الأرض . . وأمامنا سلسلة من هذه المعسكرات . والمخيمات . . تحفل بزرق العيون لا يحفلون بسواهم . . حتى لكأن السائر منهم أو الواقف وحده أمة وحده . . انشغالاً بداخل عامر . واعتماداً على واقع ضخم . أو تحقيقاً لظن عدم تحقيقه منه خيانة عظمى للإمبراطورية وأبنائها . . في سمعتها ونماذجها الممثلة في كل منهم كائناً ما يكون، كيفما كان، وأياً كان . .

والسويس بالنسبة للحجازي القادم إليه الرعشة المفرحة تسبق هزّة السرور الشامل . . فهو الممر الأنيق يفضي للصالة الرائعة، فالنظرة إليه آنذاك نظرة الإعجاب تسبق البهر لما ومما بعده، كما هو بالعكس في نظر الآيب رأى من القاهرة وفتنتها ما يجعله في نظره الثور لراكبه. بعد الجواد كما يقول أبو الطيب . .

على أن في وجود السويس بطريق الحجاز للقاهرة توطئة ضرورية لضمان تمهّل السير ومسايرة الفكرة المتتبعة في اتساق وصعود . . وللحجاز، تمهيد له، وتناس لما قبله . . رغم التغصص البادي الآن على وجه صاحبنا المسافر والملموس في كآبته الواضحة . .

وفي طبيعة "السويسي" من "الجداوي" ملامح ومشابه وصلات وتشابك.. فالسويس وجدة، ساحلان من سواحل هذا البحر الأحمر. والتبادل الانتقالي من، وإلى، ملحوظ معروف من السابق، وفي اللاحق.. وهو الباب لهجرة المصريين هرباً من الجندية، مثلاً.. والحجازيين هرباً من قحط. أو ضغط إلى الحجاز، وإلى مصر..

وقد نزلنا في أوتيل بنك مصر.. وهو فندق محترم أثبت به المصريون وجودهم إزاء الأجنبي المستأثر بكل شيء.. وإن لم يغب عنك الأجنبي حتى فيه.. فالإدارة الرئيسية بيده. فيما هو مصري كهذا الفندق..

واقتضت حالة توديع الصديق الوصول معه إلى الباخرة.. فكان لا بدّ من المرور على الجمرك، والمرور على جمرك السويس مرور على "الصراط" الرسمي الممقوت.. حدة في السير، ورقة في الشعرة. فالتمحك، وتطبيق أعسر ما وجد وما لم يوجد في بنود النظام ـ حتى بالنسبة للهدايا البسيطة جداً والتي لا بدّ منها لغريب آيب ـ ميزة موظفيه نحو الحجازيين..

إنها مقابلة عكسية في المعاملة، يقدمها المصري رداً على حسن المعاملة، والمجاملة التي يلقاها دون سائر الأجناس والحجاج في جمرك الحجاز.. بل وفي الحجاز وبلدانه عامة..

وصعدنا إلى الباخرة حتى حان وقت إبحارها. فودعنا صاحبنا الموزّع النفس بين ما كان عليه، وما هو صائر له مما لا بد منه.. وقد وقف على الحاجز زائغ النظرات.. يقول مردداً قولي له.. بلسان حاله:

وقفت لدى السويس، أمد طرفا إلى مصر، وآخر للحجاز
كأني همسة حيرى أسرت بها شفة لسمع في احتراز

(٢٦)

ضدان . . .

في نفس المصري "فرعونية" تنتظر الفرصة للظهور بعد خفاء، والذوبان حال الاقتضاء.. مثله في ذلك مثل الطفل ينشؤه رب العائلة طويلاً، على الضغط، وسلب الحرية، والاستبداد.. فهو متحرق أبداً إلى الظهور على مسرح ربوبية العائلة لتمثيل الدور الذي عانى منه كثيراً.. لا للعمل الصامت على القيام بها ذاتياً لذاتها المجرّدة من التمثيل الحرفي.. أو العمل على عكسه. فهو لا يكاد يشعر بمغادرة الدار ربه حتى يعمد إلى التقمص به روحاً ومظهراً ينصبان على من هو أقل منه دائماً أبداً.. خادماً ضعيفاً، أو خادمة. أو كلباً، أو قطة، أو أثاثاً حتى، إذا أعوزه الأمر..

ولذلك.. فليس غريباً أن يكون القياس دائماً عند المصري الرسمي قيمة الشخص الرسمية منصباً، أو ثراء أو جاهاً، لا مؤهلاته، أو مزاياه الشخصية المجرّدة، والإنسانية البحتة.. وأن يختلف "كذلك" الحكم عنده، على شخص وهو نكرة لديه، ثم وهو معرفة مميزة أو مفزعة.. بحيثية الشخص وحدها في حاليه التنكيري والمعرفي.. لا بحيثية الموضوع من حيث هو خالصاً للحقيقة المجرّدة، ونفسه..

كما أنه ليس غريباً أن يحصر اتجاهه لشخص بذاته التفاتاً وتقديراً ورياء مجالس.. حتى إذا حضر من هو أعلى منه رتبة ومقاماً رسميين ماديين تحول عن القبلة الأولى للثانية.. في سرعة تولية الوجه الشريف من القدس إلى مكة مع الفارق الملحوظ في التشبيه، وأن يبرز كل سيطرته وسلطانه إذا انفرد كأعلى الممثلين للسلطة في قرم لها، وتمثيل هواية تامة.. حتى إذا حضر من يزيد عنه في المقام، درجة في الكادر، أو شارة على الكتف.. ذاب وتلاشى دون تدرّج أو احتفاظ حتى بما كتب له كحق رسمي محدود.. فإذ هو بخار، أو بخور من الأدنى حول الأعلى..

وفي نفس المصري العادي، إنسانية تبلغ حد السرف، ولا تحتاج إلى كشف غطاء.. فهي ممثلة فيه "سخسخة" في الحب والألفة، والعشرة.. و"نغنغة" في التلذذ، والبذل، والانشراح.. لا تخطئها في الفكاهة، وحب المشاركة، ولا تغيب في إكرامه عائلته، وتدليلها، ولا في المحبة، والإيثار..

فهو ذو مزاج في الفنية الإنسانية لا يساويه فيه مزاج، ولا يزال، حتى مع ثقافة المثقف منه، فطرياً، غيبياً، طليقاً.. الصخرية الطبيعية عدوه اللدود، والمرح السادر حبيبه الأوحد، والمعيشة بميزانية رقمية سجنه الموحش.. والمشاركات الإنسانية، وذبذباتها النفسية جوه الفسيح فإن رأيت ما خالف ذلك منه فأبحث عن الأجنبية فيه مستورة في العرق القريب أو البعيد. فإنها الجانية عليه.. تشطر طبيعته الواحدة في الأصل بمرور القرون والأجيال، فإذا هي فيه ضدان: طبيعة رسمية مشوّهة.. وطبيعة إنسانية خالصة..

يدفعني إلى هذا النبش الفكري العابر، ما ألاقيه، وأشاهده ـ والليلة على الأخص ـ من رسميته مع الناس، فقد رأيته بوليساً يطارد البائع ذا الجلابية واللبدة.. وينحني للخواجه ذي القبعة، أو للبك المطربش، أو الأسبور.. وشاهدته موظفاً ينظر إليك إن جهلك، من قمة الأهرام، وأن علمك ـ على خير علم منه ـ من تحت..

وقد جالسته، رقيقاً سمحاً، ومضيفاً كريماً، وفلاحاً رقيقاً، وناجحاً مرموقاً، ورب عائلة متلافاً، فإذا هو هو هذا الذي رأيت..

ولعلّ المصري، وهو المرجّح، إن نال الرسمية الكاملة مستقلة له، ومارسها حقاً شائعاً عاماً مبذولاً، فأشبع منطويات نفسه، وغرائزه المكبوتة طويلاً منها، وحداثته فيها.. آض إلى نصفه الأعلى، كمال إنسانية، ووحدانية مزاج.. فإذا هو ـ كأرضه وبلاده ـ من خير ما أخرج للناس..

(٢٧)
موضوع...

الخاطب، في مصر، مخطوب في لهفة وعض على النواجذ.. فإن أنت أظهرت الميل الجدي إلى الزواج.. فقد ضمنت الأبواب المفتوحة، والوجوه الضاحكة، والاحتفاء الصادق.. والمعرفة المميزة لك، حتى أربعين بيتاً حدود الجيرة الشرعية، للبيت المقصود.. فإذا هي كلها بيوت مقصودة.. طالما توفّر فيها "وش" الزواج.. أو "قفا" العنوسة..

وهي حالة تعبر بوضوح عن واقع اجتماعي خطير من ناحية.. وعن بقاء الكرامة والعفة بخير.. من ناحية أخرى.. قلة في الإقبال على الزواج للزواج.. وحرصاً على صون العرض، والاطمئنان على سلامة السمعة، والاتعاظ ببراكين الحوادث تقذف باللحم والاسم إلى أعمق الأغوار وأظلمها..

وتلك في ذاتها من جانب، كواقع بدهية مفروضة بالنسبة لتأمين الحياة هنا لسبب الدافع الرئيسي للزواج، في سهولة، وعرض، وشيوع.. وللفكرة المقررة عن الزواج ضخامة تكاليف، وعنعنات أساليب فيه، ومصادر ويلات.. من جانب آخر..

على أن ما يهول ويفزع في جوهر هذا الواقع، أن المقرر في كثير من الأذهان من طرف، جعل الزواج "مصيدة" للشاب، وطريقاً مستقيماً أو متعرِّجاً إلى المحكمة الابتدائية ثم الاستئناف.. والنفقة والبهدلة قبل وبعد ذلك.. وأنه شباك صائد، وسمسرة دنيء، ولعبة محتال، ونصب بالتهديد والإكراه.. من طرف آخر..

ويختلط في سوء الظن المتبادل ـ على أساس من الحوادث والتجارب ـ الصالح بالطالح، وذو الغرض الشريف بالسافل، ويستبهم الأمر.. فلا يُعرف طالب الثروة من طالب الزوجة.. وساتر العرض من العائش على تمزيقه..

وإنما يساعد على ازدياد البلبلة في الأمر وتعقيده، إيمان الزوجة أو الفتاة بأن الزواج فرصة ظهور ذات، وقضاء مآرب.. لا بناء بيت، وستر حياة.. وإيمان أهلها بامتداد السيطرة، تدخلاً في الصغيرة والكبيرة، وطراز المعيشة ونمط المسكن، وقيمة الملبس وفرض الوصاية أو الحماية أو الاستعمار للزوج وعليه.. بداعي وجود قطعة عزيزة منهم في نطاقه الحيوي.. وبالعكس بالنسبة للزوج ذاته، أو أهله.. إلى آخر العقد المحبوكة، والمزدادة على الأيام. تعقيداً أو حبكاً..

ولعلّ من الملاحظات العابرة ـ وما أكثرها في هذا المجال ـ تبكير البنت المصرية في استتمام الكيان الجسدي، والتمام الجنسي.. وألفة عادة تأخير زواجها إلى سن محدد تكون فيه قد بدأت الهبوط من درجات السلم.. ومن نفس الزوج وفي هذا من الضرر البالغ ما فيه..

لقد رافقنا الخاطب في مصر، وزاملنا المتزوّج.. وجالسنا الأعزب.. ناقشنا ولي الأمر. وعاشرنا المقيم الدعوى، والمقامة عليه..

فآمنا أنه لا بد من قيام السلطة الحاكمة بالنظر الشامل للأمر. فهو أخطر من قيام وزارة أو سقوطها ومن بدء مفاوضة أو قطعها في بنيان الأمة، وكيان الشعب. .

(٢٨)

استقراء . . .

تكرّرت حوادث إلقاء القنابل، مرافقة، أو مطابقة لحركات الإضراب، والمظاهرات ـ وقد سبقت ذلك بزمن ليس بالبعيد، حوادث الاغتيال السياسية، ما نفذ منها، وما كان بسبيل التنفيذ. .

وهي وسائل عملية تناقض الطبع المصري المعروف. . والمستقرأ في المناسبات الفردية فنحن نسمع ـ مثلاً ـ عن "خناقة!" فوق التلتوار، أو بالمحطة، أو في الشارع. . فإذا هي في حقيقتها لا تزيد عن "ردح" موزون، وتهديد موسيقي، وحركات وإشارات هجومية . ولكن بين صفوف من الحواجز الآدمية الوسيطة في حلها. فاللسان ـ لا اليد ـ وسيلة تصفية الحساب. .

وخرشمة الوش. وتكسير السنان، وتخزيق العينين، و. . و. . إلى آخر التشويهات البدنية هي الياذة الخناقات التي شاهدناها، وسمعنا كثيراً عنها. . اللهم إلا فيما ندر، وليس القياس، فهي بهذه المثابة كزعم الفرزدق قتل المرحوم ـ بيد عزائيل ـ مَرْبَع!. .

كما إننا نعرف الفزع المصري الأكبر من الجندية. . والفرار منها

بدفع البدل، أو قلع العين، أو الهجرة.. والهرب والزوغان من معارك اليد.. أو من صوت الرصاص..

لذلك كلّه.. كان استغرابنا، حوادث القنابل، والمظاهرات العملية، وحوادث الاغتيال. فإعجابنا. فإيماننا الجديد بروح جديد.. لا بالنسبة للقروي والعربي والفلاح. فإن في هؤلاء فعالية "غشيمة" لم يصقلها التثقيف، أو التدريب.. فتتجه إلى الأرقى المهذب المنتج، يوم لا يكون بد من الاتجاه إليه.. بدل حصرها في الأخس العقيم، تمارسه في كل شأن تافه.. وكل يوم، أو حين.. ولكن بالنسبة للقاهري اللبق،.. والإسكندراني المهذّب.. والمنصوري الفاتن.. والبور سعيدي المصقول و.. و.. سواء منهم الأزهري الرصين، أو الجامعي الرشيق.. إنها حوادث، إن عيبت ذاتها، لظروفها، وأساليبها.. فإن لها دلالتها، المنطوية على كثير من معاني القوة. والحركة، والتحوّل، واستقامة الاتجاه الهدفي المنتج..

ليس الغريب أن يحدث هذا.. وأكثر منه.. ولكن الغريب أن يتأخّر حدوثه للآن.. فإن سيل "الدماء" المختلفة. والمنصبة في الشريان المصري من قرون وقرون.. لا بدّ وأن يحدث هذا.. إن عزّ على الدم المصري البحت إحداثه.. وليس بعزيز..

(٢٩)

خواطر . . .

الشيوعية، كمذهب نفسي تعبيري باللسان والفكر عن شذوذ الحياة. . إشارة بشرية عامة للدلالة عليه. . وجدت قبل أن يوجد "كارل ماركس" أو روسيا. مذهباً، أو حكومة متصفة به صفة احتكارية له. . فإن من حق المحروم أن يتنفّس أتوماتيكياً بالشكوى الدالة على حاله. تبريراً واسعاً للخيبة، وحداً للشذوذ المتضخّم لا تفصده طبيعة شخصية، أو فرض ديني محتوم، أو قانون وضعي عام. . لكن إلى الحد الذي لا يسلب حقاً للغير، أو يميت حياة في النفس. .

فالحظ، بهذا الاعتبار، إيماناً به وكفراً، قاعدتها الأساسية المتضخمة، والمرتفعة بمرور القرون، وتطور الحياة والأجيال، كمسلة إلى عنان السماء. . أو إلى كلمة الشيوعية. . والناس لن ينفكوا أسرى هذا الوهم أو الحقيقة، أو المعنى، يدعونها، أو تدعى في أسس قواميسهم، بالحظ. . يعتمدون عليه عزاء أو تبريراً أو سلباً معنوياً للغير، أو شكوى، قانونية للعدالة خفيت أسبابها على العقول، أو تمثّلت في نطاقها الرسمي المنظور. .

وما الظن بآلاف، أو ملايين الفقراء، لا يجدون البلغة. لا

الكفاف.. في حين يبصرون ما يقوم في كيانهم حياة كاملة يبذل كجزء من ألف جزء من فضول مباح في "سبرمانية" الترف وشذوذه.. إن لحق التطور المعاني، فكانت للترف سبرمانية.. كما لحق أو سيلحق الأحياء؟..

ثم ما الظن بهؤلاء.. إن مثلهم الشباب المثقّف، المرهف الحس، والمتذوّق الحياة لا ينقصه الدماغ المفكّر، ولا الزند الفاعل، ولا الجلد اللازم، لا يجد لنفسه في مجال الكسب "مغرز إبرة" من ضيق الاحتكار.. لا من اتساع الرقعة مع ازدياد الزحام؟ أليس من حقّ هؤلاء، وأولئك، بعد الهبوط في كفّتي ميزان إحداهما ـ مقر الأقلية البارزة ـ في أعلى السموات.. وثانيتهما ـ مقر الأغلبية المنسحقة لا الساحقة ـ في أسفل الأرض.. أن يحكوا عن إحدى عجائب الدنيا حكاية لا تسلب حقاً. وإن حركت جموداً. ولا تنكر ميزة، وإن نبهت إلى مجهول بين المعارف، أو ميت بين الأحياء؟.

كنا ندير هذه الخواطر في طبيعة مطلقة، عقب مرورنا بعد الخروج من الأوبرا على كتل بشرية لصبيان وصبيات لا يتجاوز عمر أكبرهم عشرة أعوام.. ولا تستر أبدانهم إلا مزق من أسمال فوق هياكل مصها الجهد والهزال. يتوسّدون "التلتوار" بجوار حديقة الأزبكية من الناحية المقابلة "للكونتيننتال"! وفي اليوم الذي كنا نطوف فيه بالأحياء البلدية نهاراً، وبقسم من الريف قبل أيام.. وبمصر حيث يتجاوز الغنى الفاحش، والفقر المدقع ـ لا وسط بينهما ـ في رضى واطمئنان.

إن من الإجحاف والظلم، والحرمان للطبيعة البشرية، أن يعزى كل قول، أو إشارة إلى هذه "الروسيا" المظلمة الحياة، لو سلّطنا على

واقعها، نور الحقيقة الكاشف لحقائقها السوداء.. أو إلى كلمة "الشيوعية" هذه لا تحدد مجهولاً، أو تعيّن معلوماً واضح الزمان والمكان، أو الحدود، والنهايات..

لا شك أن الناس منذ كانوا، عشائريين، أو قبليين، أو مدنيين، أو شعوباً، أو حكومات، أو إمبراطوريات.. وولايات.. لم يكونوا في حياتهم السابقة والممتدة خرساً، أو بلهاء، أو عمياً.. عن رؤية الفارق.. وإن لم يكونوا قبل إلاّ في وضع "أسنان المشط" أو درجات السلم.. حتى إذا جدت ماكينة الكهرباء لِكَيِّ الشعر.. والأسانسير لإلغاء الدرج،.. وعادوا بين محلق، ومعفر.. عادوا أبعد مما كانوا، نفاذ بصيرة، وقوة إدراك، وطول لسان..

إن الدين الإسلامي العظيم، بجعله الزكاة ركناً من أركانه الأساسية، قد دلّ على هذا.. وكفل للبشرية سعادتها، ولجموحها حدّه.. فهل كان ـ لو روعي قيام هذا الركن على الوجه الأكمل ـ يوجد هذا الجماح اللاهي، والقصور المحروم.. بين الجانبين؟

وهل كان ملك مصر، ودعاتها الإصلاحيون على أثره في الثورة على الفقر كمعول من الثالوث ـ الفقر والمرض والجهل ـ الهدام إلا مقدرين للحقوق الإنسانية لا يسلبها السبق، أو الإحتكار، أو فلتة الحظ، أو إهمال الشرع، أو قصور الوضع ـ حقها الحيوي فعلاً أو قولاً داعياً إليه في حدوده الدنيا؟..

إن وجود الطبقات.. أمر لا بدّ منه في كل مجتمع وحياة.. وإن للحياة حقائقها التي لن تزول فقراً وغنى، وعطاء وحرماناً، ونجاحاً وفشلاً، وذكاء، وغباء.. و.. ومن كل صفة ومقابلها.. وإن للشرائع

السماوية، والوضعية.. ديانات، ودساتير، وأنظمة، ومذاهب وقوانين معاييرها الموجودة دائماً لمساعدة ضبط موازين الحياة، وتحديد مسافات الأحياء..

(٣٠)

نزهة . . .

نزلنا ـ من الترمواي ـ في محطة كوبري بديعة أولاً، وببا ثانيا. . أو كوبري الأعمى، أو كوبري الإنجليز. . أو الكوبري. . وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ـ كما يقولون ـ فقد نازع التسمية الرسمية والعامة ثباتاً وتلاشياً. . يريدها خالصة له وحده. . الفن، والتاريخ، والقوة، والطبيعة المجرّدة عن كل ذلك.

وكنا في طريقنا إلى أجمل مكان شعريّ نابض بالفتنة، والحياة، والسحر، إلى كوبري قصر النيل للرياضة والنزهة، ثم لاختيار المقعد المعتاد قريباً من نادي التجديف الملكي وأمامه. . للإطلال على النيل، ومشاهدة دنيا الطب، على الضفاف البعيدة، ودنيا القلوب والعواطف على المقاعد المجاورة. . القريبة منا. .

والجلسة هناك، هدوء عصب، ووحي نفس، ودغدغة فكر. . وراحة للجسم المرهق من الحركة لغاية. . في ترام. أو أوتوبيس، أو تاكسي حتى. . فلن يعفيك الزحام، وضوضاؤه من التأثّر بها ولو عن طريق الإحساس العصبي الدائم بوجودها. .

والمناظر الطبيعية غذاء للنفوس والحس لا ترهق الجيب، ولا تدمي القلب، أو تذيب الجسم.. بل إنها صقل وتهذيب، ودفع مضطرد إلى الاستزادة من جمالها وتنويع أسبابه.. فقد طاب لنا استئجار "فلوكه" للتجول بها في النهر الكريم ذهاباً وإياباً.. في سكون العابد، وسبحة الصوفي، وذهول الشاعر..

فكان لنا ما طاب.. وكانت المتعة أكمل بهذا الفلائكي الظريف.. مستودع أقاصيص، ومعلومات.. وخازن أسرار وحوادث.. وعصفور تغريد وتقليد.. بعد أن كان مجادلاً بارعاً في تحديد الأجرة وزهادتها في ذاتها، وإكرامه لنا بجعلها كذلك.. وإن كانت هذه الـ "كذلك" قد هبطت إلى الثلث بقدرة قادر..

وقد رفض بشدة اقتراحنا عليه، تعليق لافتة كبيرة بأعلى الشراع يتضمّن أنه لا "فصال" في الأجر.. مؤكِّداً أن هذه طبائع الخواجات النتنة.. فالإنسان ذو ظروف وأمزجة، وضرورات وأهواء.. والقيد حد للحركة الذهنية، والنفسية، وحلاوة المفاجأة فيها طرداً أو عكساً.. ثم أنه ليس صاحب بضاعة جامدة. ولكنه تاجر معاني وأذواق، وليس صاحب وقت محدد بدوام وانشغال. ولكنه مالك زمن، وطالب رزق لم يضيق الله فيهما عليه.. ولكل وجهة هو موليها..

لقد عدنا إلى المنزل في وقت متأخر في ذاته، مبكر بالنسبة للعادة.. نطلب العشاء في لذة، وشهية، وانتعاش.. ونطاوع النوم في خدر واستسلام.. فلا صداع في الرأس، أو احمرار في الجفن.. ولا خمول في الجسم المكدود.. أو تعكير في الدم والذهن..

أتيها المعاني تقتلها المادة حركة في الدم، ورعشة في الجسم،

وإرواء للحيوان ويقضي عليها المسخ استجابة للطمع في الطمع.. ونزولاً على سعار التكالب للتكالب الأصم الجامد.. ما أجملك في النفوس، وما أروع مقامك في دنيا الإنسانية، وكون الأكوان.. وما أغفلنا عنك بين زحام العادة.. وجمود التقليد..

(٣١)

عودة . . .

قررنا العودة إلى الوطن. . واقتضانا ذلك حجز أماكننا في الباخرة المبحرة إليه بعد أيام. . فكان القرار، وتم الحجز. . وكأنما كانت هذه الحركة الذهنية فالجسدية باعث نقلة روحية، وانتقال مسرحي كامل. . فسرعان ما تمثّلت لأعيننا المناظر المستحبّة والمجفوة من الأهل والمعارف والمنازل، والأعمال في الحين الذي كان فيه جميعها قبل حين وجيز محجوبة عنها بزحمة الحقائق المحيطة بالإنسان، والغريق فيها غرق المطمئن للجة والمستقر بها استقرار المقيم الساكن يشغله الحاضر الممتد، عن المستقبل المفاجئ المرقوب على بعده. . حيناً في حينه. .

واستتبع هذا أن تكشفت الحقائق المنظورة والملموسة هنا عن معانٍ غير الأولى فكما كانت له في الأول بذلاً متاحاً، ورغبة مواتية، ومعاطاة متبادلة. . عادت الآن، فإذا هي حقائق لذاتها وأهلها. والمقيم لديها. . لا للغريب عاد نفساً موزعة، أو فكراً عازباً عنها، أو شخصاً أسفاً يشغله الأسف على فراقها عن الإنطواء الواعي فيها. .

وهي حالة سداد معاكسة للحالة كنا عليها يوم قررنا السفر من الوطن إلى مصر. . وحجزنا المقاعد بالطائرة إليها. فإذا حقائقه المنظورة

والملموسة طائرة عنا، مخلية مكانها للحقائق بمصر خيالاً ملموساً متمايز المناظر المسلسلة، في ترتيب أو تشويش.

ولعلّ الطريقة التي يعتمد عليها الغرباء النازحون توديعاً لمقام طيب، بحفلة أو رحلة، أو سهرة ممتازة، أو حركة ذات طابع وترتيب.. هي في حقيقتها رد فعل لهذه الحالة المضطربة، وتوكيد إشعاري أو إجباري للبقاء المؤكّد المحسوس..

ولعلّنا قد عمدنا إليها في غير استقراء منتج لها جرياً على ذلك. وإن كنا لم نعمد إلى ما يعمدون إليه عادة. فقد استمرأنا الطواف العام لا رابط فيه بين حي وحي، وشارع وشارع، ومكان ومكان، إذ خرجنا في بوهيمية سافرة لا تعرف طريقها المرسوم، أو تحب الاهتداء إليه، ولا تسأم الدوران المطلق أو تزهد فيه.. إنه الاعتبار لا غير.. ولربما كانت الحياة ذاتها اعتبارية محضة يلجها الإنسان ممارسة وارتكازاً. لا يزاحمها جديد مرغوب فيه، أو محسوس منظور، اللهم إلا لحظة توديع راحل إلى قبر، أو تمثل الرحلة الأخروية في مرض، أو خطر أو حرمان.. فإذا الأمر، أو الاعتبار، في الحالة غيره في الأخرى، ولمداه القصير أو الطويل.. حتى يجيء أوان نهاية النهايات الكبرى..

(٣٢)

بالطريق...

ركبنا السيارة في المساء الكئيب لم تبدد وحشته حركات الاستعداد تنظيماً للحقائب وتنقلاً معها.. ولم تذهب بها زيارات المودعين،و الباقين منهم معنا حتى لحظة السفر الأخيرة.. وقد كانوا يمثِّلون أكثر ما يمثلون في دخيلة نفوسنا صفوف المعزين.. يتلذذون بدراسة المصاب في غيرهم، ويتمرّسون بأعراض الداء بسواهم ويتطاولون بنجاتهم ولو مؤقّتاً ـ من هذا "الكنس" الإجباري أو المختار. وإن انطوى كل ذلك في عبارات التوديع وتحميل السلام والتحايا للأهل والمعارف، والإخوان..

ودرجت بنا بين شوارع مألوفة، ومناظر محبوبة. حتى إذا توسطنا طريق السويس ونظرنا، فعرفنا أن البدر مخسوف.. أيقنا أنه يشاركنا الأسى والأسف.. وهو الذي طالما شاركنا الفرح والمتعة، والأنس على ضفاف النيل المقمر.. فكان خسوفه محل تعليق، وموضع غرابة وإعجاب. وسبيل إدعاء بعضنا الكرامة على كساد سوقها المهجور!!

وحتى في الطريق الصحراوي للسويس، وحين نزولنا للاستراحة، وجدنا "الأجنبي" كاسب رزق، ومصارع كسب.. فهذا المقصف العامر بالمأكول والمشروب في هذا الموضع، دليل حياة وشارة حيوية لغير

المصري.. وإن كان لأهله وفي سرة وطنه..

ولعلها النزعة الفارقة بين الشرقي والغربي عامة.. يركن الأول منهما إلى الدعة والنوم بين أحضان الفاقة والأهل. وعلى فرق من الوحشة.. ولو كان في أتعس الأحوال.. وبين أنياب "بعبع" التبطل القاتل، وعدم المساعدة العامة له على الحياة.. ويغامر الثاني في جلد وصبر، وغرس حياة في سهولة وطبيعة تامين.. مع حسن المؤازرة له في كل حين من بني جنسه وسواهم، وتشجيع له على مغالبة الحياة لاستهدافه المغالبة.. أما الأول فالتثبيط نصيبه والتسخيف للإقدام على مجهول غير مضمون، حظّه الموفور..

ولقد بدأ الانغماس العملي كلما خطونا، أو خطت أو قطعت بنا السيارة كيلو متراً جديداً.. في حركات الوطن تهيؤاً وارتقاباً لجديد.. فقد أولينا ظهورنا لمصر.. فكانت حرارة ذكرى في الدماء والخواطر. تتخذ مقرّها الاستعراضي في الذهن في هدوء، وبرود واطمئنان.. وهكذا تعود الحياة حركة. وانطواء على كل شيء إلى همود واجترار.. ومعنى وتذكر..

أيتها النفوس ما أقدرك على لبوس كل حالة.. انسياقاً مع واقع متأتّي، والوقوف عند حال مطلوب..

وما أيسر ذخيرتك عزاء في النفس.. وأملاً واسعاً متشكّلاً في الحياة سعة وأشكالاً.. متواترين..

(٣٣)

الصراط . . .

نزلنا في أوتيل بنك مصر . . وصادف أن كان يقيم موظفو شركة "شل" حفلة خاصة بهم فيه . . حفلة فيها ما في المسرح، ولها ما للصالة وبها ما بالسينما، ولديها ما لدى الاستعدادية عامة، قدرة، أداء، وتنوع، ومصابرة، وخلق . .

وهي حالة تعويضية فيها الضمان الكلي لطرد السآمة، أو تخفيفها عن النفس، وشحذ العزيمة، وتلوين الجو، والأسرية الجميلة بين عنصر الشباب المتغرّب، وتأكيد أسباب المودة والتشابك . .

وقد نعمنا بالفرجة عليها ليلتنا بهمود المكدود بعد يوم حافل والمتهيئ ليوم فاصل بين خطر مزدحم، وآخر مجرّد، أو حياة جديدة وحياة . . فكانت المثل على قدرة الحي على خلق العزاء يوم ينعدم المألوف أو المأمول حقيقة خالصة لحماً ودماً . . فإذا هو صورة كافية في التمثيل، واستدرار شعور المغالطة الكفيل دائماً بإحالة "الآه" موالاً حنوناً حافلاً بالنغمات . .

وطفنا نهارنا بالسويس . . أو بشارع "النمسا" منه . . ولا أدري ماذا

قذف بهذه التسمية من قلب أوربا البيضاء إلى روح أفريقيا السوداء أو السمراء.. اللهم إلا إن كانت هذه "النافذة" أو "الفتحة" المائية التي سموّها.. "القنال" فغلبت علماً على البلدة نفسها،.. كفيلة بتركيب أو خلط هاتين القارتين هذا التركيب المزجى خلطاً حتى في الأسماء؟؟

وكانت لبعض الرفاق نواقص.. والمسافر ـ كالحي أو هو حي الحي ـ لا تنتهي أغراضه للهدية. أو سد النقص، أو الحاجة، أو فنية الجديد لذاته.. فذهبنا معه نقضيها.. ولكن أين هو المحل المصري المفضل ـ مظهراً أو واقعاً بعد استكماله ذلك على ندرته؟؟..

وأخيراً صادنا محل "إغريقي" بابتساماته الناعمة.. واستقباله الحار، وتلبيته السريعة.. وخدمته الحسنة.. ورحابة صدر الجميع.. حتى المقدر منا صرف عشرة. صرف الخمسين. والمائة دون إحساس بالكرب، أو الضيق فقد "سرقته السكينة" كما نقول في أمثالنا. والسكينة هنا ـ عدا ما ذكرت ـ ثغور تفتر.. وعيون تتكلّم.. وأجسام تتحدّث.. إنهم علماء نفس من الطراز الأول..

وتهيأنا ظهراً للمرور على "الصراط" وجمرك السويس صراط رسمي تؤدّي العثرة به إلى قاع جهنّم.. والسلامة منه إلى رأس سلم الباخرة في أمان وسلامة، وكانت لبعض رفاقنا. أو "لرئيس قافلتنا" صلة أكيدة موقرة بشخصية من السويس موقرة ذات معارج، وصلات، ودخائل.. فكان الصراط لنا جادة مطروقة، واسعة الجنبات.. والزوايا.. والأركان.. وكانت الشخصية معنا جواز مرور.. فيدها أطول من أطول وأنعم لسان. وريقها السائل أو المقبوض أحلى من الريق المعسول..

إلا أن لكل شيء أسلوبه.. وأن لكل أسلوب أصحابه المحتكرين

له.. وهكذا كنا قبل سوانا من إخواننا الحجازيين بالباخرة نسمع، ونستمع بعد، إلى أنواع "البهدلة" لاقوها في مرورهم بالصراط السويسي الدقيق..

(٣٤)

في الباخرة. . .

الباخرة بمن فيها. . وبظرفها المعين المحدود. . بيت موقوت. . له ما للبيوت من تعارف أسرة وتشابكها، وألفة نظام وتعوده. . معاشرة، واصطناعاً لليوميات أكلاً ومجالسة، ومسامرة، ونوماً. وتبادل حياة مستقرة لأمدها المحدود. .

وهي خط استواء جميل بين ماضٍ ومستقبل. .

فالذكريات عن مصر حديث مكرور غير مملول ـ والمعلومات عن البلد القاصد إليه أهله للقاصد إليه من سواه. . مدارها المتعادل مع الذكريات المبسوطة. . والمرائي الطبيعية. ومناظرها جواً وبحراً. . وجهها الواحد يتقلّب على أشكال وأشكال. . كلها الفتنة والسحر والجمال. . في طلعة الفجر الحلوة. . وشروق الشمس الرائع، وذهبية الأصيل الفاتنة، والغروب الساحر وتنقل البدر المشرق. وأضوائه الفضية المنعكسة فوق الماء. . وعلى الأمواج انتشاراً معها وتلويناً لها. وحركة دافقة بالحسن، والروعة والبهاء. .

وقد كمل الجمال الطبيعي بها، بالجمال الإنساني الحي في هذا الخليط، من الطليان والإفرنسيس. . يؤوب به أهله إلى مصوع، أو

جيبوتي. وأسمره. وأديس أبابا.. في مرح وانشراح، وحب للمشاركات ـ في قطع الوقت، أو ملء له بالسار للنفس، ولعباً وتفنناً فيهما.. أينما كنا.. فلن تفوتنا مظاهر الحيوية من هاته العناصر، وفيها تعارك الحياة.. أو ترتفع بها.. أو تغالبها أسباب العيش في ترتيب، وتنظيم، وجمود..

والحياة في ذاتها قابلية قابلة لمثيلها في النفوس، أو صداها، إقبالاً ومعاطاة ورضوخاً،.. فالرحلات، والانتقال، والغربة، وقصد الحياة. إن عزت في موطن مألوف أصيل. بموطن مقصود حديث.. ليسر الحياة به، ومواتاتها فيه، إقبال متبادل بينها وبين الحي المتحرك.

وما أجملها في هذه الزرافات.. يستوي في النصيب المقسوم من عبئها، الرجل والمرأة، فليست الثانية كلا على الأول يجاهد بيدين ورجلين، ورأس.. في سبيل أربعة، وأربعة واثنين.. ولكن بأربعة أيد، وأربعة أرجل وبرأسين، فهو مطمئن إلى الحماس لا يفتر. والنشاط لا يكل، والعزاء لا يخيب أو ينقطع مدده الموفور.

لقد فرضت مكان هذا الشاب وزوجته القاصدين إلى "جيبوتي" لمعاودة عمل قديم قطعته الحرب، أو لمزاولة سواه إن تعذر وهو متعذر غالباً كما يقولان بسبب اختلاف الوضع ـ شاباً وشابة شرقيين أو عربيين.. فتخليت مرأى الزوج يحشر الزوجة في مقرها، مقيماً من نفسه "جارسوناً" لها، وحارساً عليها.. ومفكراً فيها كل آن وآن.. وفي تهيئة المكان لها مأوى ومعيشة أولاً.. ثم التفكير في مجالدة الحياة وحده.. حماراً مركوباً من حمار راكب.. أو من أتان مربوطة إلى رقبته.

إن هذا لا يتيح له الحركة بله الجرى.. فحرام عليه ـ ووضعه وضعه ـ المغامرة، والانطلاق الحر، الكاسب..

(٣٥)

نهاية الرحلة. . .

الاستمرارية على النمط الواحد، والاستهلاك البطيء أو السريع لما فيه من متعة وحسن. . طريق سآمة معبد، وتعجل لمصير في قلق تام. . وحساب دقيق للدقائق تنقضي في طول الأيام. .

هذا الذي أصبح مصير الركاب جميعاً ثالث يوم، لا يلهيهم البحر بمرآه، ولا السماء بكواكبها. . عن واقع جامد بالنفس. . وقد تمّت الألفة له. . وانتهى استهلاك أجمل وأحسن ما فيه. . والنفوس طائرة تتعجل النهاية المرقوبة منها في لهفة. . فأين الجديد؟

إن الحيلة أو التحايل على قتل الوقت باللعب، والحديث، والمسامرة، وتنوع الأساليب، والأسباب. . الوسيلة المكشوفة أو المستورة، ولكنها لا تغني عندما يطول الوقت، فقد ألفت واستهلكت هي نفسها، والملل طبيعة الإنسان، لا يحرّك جموده أو يستثير كامنه إلاّ الجديد، وإلا استعجاله رغم العلم بعدمه مكان حدوثه حالاً. .

إنها ليلة الوصول إلى جده، والساعات وحساب الوقت بها، وتصورات المفاجأة في الحركة وفي الشعور السائدين على القادمين إليها،

للبقاء، أو الانتقال منها إلى المقر المقصود بمكة، أو المدينة.. هي شغلهم الشاغل.. فهي ليلة الهواجس، والقلق والانتظار.. والانتظار عدو النفس، لا يشغلها إلا هو، حتى القاصدين إلى غير هذا الميناء الحجازي بدأوا يضجرون.. فهم في سبيله، سبيلاً لسواه..

لقد أخذنا نبحث حال الموظف بالباخرة، والعامل بها. فإذا هو يتكشّف بعد الإلفة والتصبّر لا الصبر.. عن سأم من مكرور معاد يقابله فرح ونشاط، وشعور جديد، كلّما جاءوا إلى بلد جديد.

فالموظف بالباخرة في هذا "البين بين" إحساس متجدد، ركوداً في حينه، وتفزز اً في حينه.. والألفة حتى لما كان كذلك، تطويع للطبع.. وحب تقليدي مِن الشخص لكيفية يقررها على أنها الأحسن. الدفاع المتكرر منه عن أحسنيتها.. أو الضرورة المتشكلة في هذا الدفاع، فحيلانها إلى حل مقبول لهذه الكيفية في الظاهر..

لقد رأينا أول ما رأينا فجر اليوم ـ يوم الوصول لجدّه ـ قوارب الصيادين الخفيفة، الصغيرة "الهواري". أنهم صنف ممتاز من الناس في جهادهم في سبيل العيش بحدوده الدنيا.. وهنا تقوم مسألة المسائل على قدميها، مشيرة بإصبعها إلى فوق.. هل يتكافأ جهاد هذا. مع نصيبه هذا؟؟..

لكنها في سبيل الحياة، وتبع أصولها الراسخة نائمة باستمرار أو غالباً، في ذهن هذه المعارك المبخوس النصيب. لانشغاله بجهاده، وألفته له الهادئة المقصورة عليه، وعلى من في طبيعته..

فهي ـ مسألة المسائل ـ لا تقوم هذه القومة إلا في ذهن الباحث الماد الأذن والعين لكل جديد.. على قابلية جديدة له. حين المناسبة

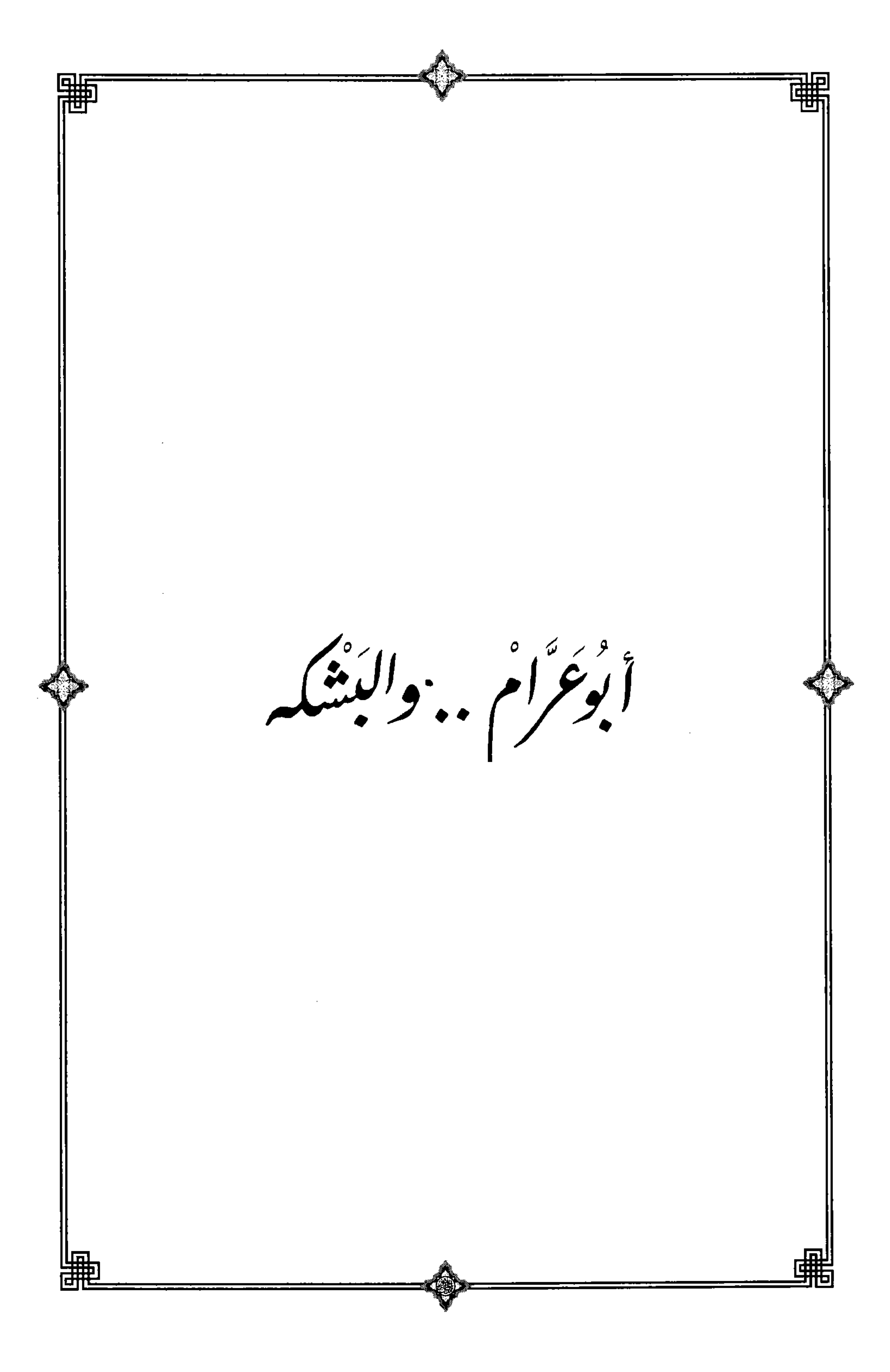
المباغتة أو المستقرأة، للغرابة والبحث.. أو للعلاج والدرس..

أنهم يسيرون داخل الماء.. وهم معرضون باستمرار للوصول إلى جوفه. ثم العودة بمقرهم المنتقل معهم إلى السطح.. لقد خرجوا من نصف الليل.. وتوغّلوا إلى هذا الحد من البحر لاصطياد أنواع من السمك لا توجد دونه وسيعودون بقسم منه يكفل قضاء قسم من حاجات اليوم..

هذه جدة.. وأنها لذات منظر خداع ساحر. فهي الحمامة الرشيقة ترفرف في سحر، ودلال، وأناقة على الشاطئ، وتطل في إغراء على البحر.. وفي استحياء إلى البر.. فلا يسع القادم إلاّ الرنو المتطلع المتلهف إلى لقياها.. وحسبه هذا منها.. فهو كل أو أجمل ما عندها أو فيها!!

لقد انتهينا إلى بلاد الله المقدسة.. يطمئن فيها النصيب إلى جوار المقدر والمقسوم.. وينام فيها الحسد باسم التنافس في خارجها أو الحيوية.. بحضن التواكل الحالم بها.. ويزهد في البحث المخلص بها. ولها قلة جدواه استحثاثاً للذهن، أو حياة له، لا تكمل إلا بالتجاوب والصدى في المناقشة والنقد، والإطراء، والتشجيع، غرضاً للغرض.. لا للشخص المجرد منه.. إنها رحلة.. تساوي في حساب الشخص للشخص.. خروج الحنش من ثوبه كل عام، أو في حينها للتبرد والاستكناه، والتحسس.. وفي حسابه للغير، فتح نافذة مطلّة على الدنيا القريبة أو البعيدة، للمتعة والعبرة، والتخيل.. والاستفزاز حركة في الذهن، أو فورة في الدم، أو ثورة دافعة إياهما لجديد...

الباخرة: ١٣٦٥/٧/٢٠ هجرية



أَبُوعَزَّامْ .. والبَشْكه



أَبُو عَرَّامْ . . والبَشْكه

. . تؤكد الرواية الشعبية على لسان الثقاة من أهالي وسكان محلة المظلوم بمدينة جدة، إنه كان إذا خرج إلى الحلقة بعد صلاة الصبح في الشافعي كانت أنظار الموجودين والمتسوقين بها تتجه رأساً إلى ما يرتديه في يومه. . فإن كان قد وضع السجادة الصوفية المرقطة على كتفه الأيمن فمعنى ذلك أن نهارهم سينقضي في عراك وضرب وصراخ لا يهدأ. . حتى بعد منتصف الليل!!

ذلكم. . هو إبراهيم خليل الكلاش. . الشهير بأبو عرام. . والمولود ببلدة جدة في منتصف العشرينيات الهجرية. . بالعزلة ذات الدورين الكائنة غرباً أمام زاوية المظلوم نفسه ـ الزاوية التي جعل منها أهل الكار والضلال بؤرة للبدعة المستوردة ـ حيث كانت تقام فيها كل ليلة جمعة حلقة الذكر المستقبحة والمنقرضة. . يتمايل فيها الرجال الغائبون عن صوابهم. . ويغني بها الفتيان المفتونون بشبابهم. . والتي لا تنتهي إلا بإحدى الهوشات الليلية. . حين يصل إلى المحلة رجال وفتيان وعبيد من محلات اليمن والبحر والشام لحضور حلقة الذكر المعتادة!!

. . وكان والد أبو عرام. . الشيخ خليل من كبار المولعين بتلك الحلقات المجنونة يهدر بعضاً من كسبه الوفير نوعاً ما على أهلها في

الولائم والسهرات كما كان حريصاً على اصطحاب ابنه إبراهيم «أبو عرام» في غدواته وروحاته.. فنشأ الغلام متأثراً بالبيئة.. متشبعاً بالوراثة.. ولا همَّ له إلا الاختلاط.. والتفاف الناس حواليه.. والصرف عليهم دون حساب!!

وحين توفي الشيخ خليل بعد إصابته في رأسه بضربة شون مزقر.. حل ابنه أبو عرام مكانه في مشيخة الحلقة.. وكانت أعوام مشيخته الأولى بشهادة أهل الخبرة أعوام رخاء كبير فقد ظلت فيها الأمطار تهطل بغزارة مما نتج عنه طلوع الشقلا بقلا خبيزه.. حول مقبرة امنا حواء بشكل لم يعهده الأهالي من قبل.. وتكاثر الدَّبَا والجراد.. وإذا كثر الجراد رخص اللحم.. وتوافرت الجبنة الزقزق.. والسمن البري.. والطليان الحري.. والدجاج والبرابر والديوك العشارى.. وتنوعت الخيرات.. فنعم الناس في لياليهم.. وخصوصاً بشكة أبو عرام بأكل الجراد مقلياً مملحاً وموضوعاً في التباسي تحف بها أحقاق الدقة المصنوعة من الكمون والفلفل الأسود والملح الأبيض يضاف إليها قليل من النعناع أو ملح البيض.. وتعتبر تباسي الجراد بمثابة «النُقُل» يتسلون بها لحين حلول موعد العشاء بفتح العين.

كما نعموا في وجبة الصباح بأكل التمرة المخلوطة بالبيض أو المصنوعة من البيض المخلوط بالسكر.. أو بالجبنة الزقزق بالسكر.. وذلك عدا أطباق المعصوب والمطبق والمقادم بالقَطْفَةَ.. وبجوارها أطباق الفول تغطيها طبقات من السمن البري.

أما وجبات الغداء والعشاء الرئيسية فكانت نماذج غنية باللحوم الحمراء والبيضاء بين سلات ومضبي وندي أوزربيان.. أو صيادية

حمراء.. أو سليق مع العبيلة التي يصر أبو عرام على توزيعها في زبادي صغيرة مع انفراده هو بقدر صغير منها خاص به.. وقد يصطفى من يشاركه فيه أحياناً من بعض الأصفياء في بعض الليالي المقررة!!

وهكذا أخذ أبو عرام يفيض على من حوله دون منٍّ أو تقتير.. بل إن أياديه كانت تمتد إلى كيس نقوده باستمرار.. ليدفع لهذا ولذلك من أهل محلته ما يطلب لفك ضائقة.. أو تكملة لنقص.. أو سداً لموجب.. كما أن هذه الأيادي قد طالت فتعدت أهل المحلة لكل قاصد إليها وإليه من المحلات الأخرى داخل سور جدَّة.. أو خارجه من سكان النزلة اليمانية.. والتعالبة.. والرويسين الأعلى والأدنى.. ومحلة بني مالك ـ أو الملك ـ كما كان يدللها ساكنوها!!

وتدور الأيام.. ويشح ماء السماء.. وتقل واردات الحلقة بما في ذلك الحطب والفحم والحشيش العتري.. والبرسيم.. فتنكمش واردات أبو عرام ولكنه لا يضيق بذلك.. ولا يغير عادة من عادات كرمه الدائم المعتاد.. مردداً في سره ولنفسه المثل الشعبي الدارج: «مين وَلَّفَ الناس بعادة سموه أبو العوايد» ولكنه إزاء وقفة الحال هذه كما سماها.. يختلي في إحدى الليالي بأحد سماسرة العقار سراً وتمتد يده إلى وثيقة العزلة الصغيرة فيبيعها.. ثم يألف البيع.. لأنه يكره الرهن.. فيبيع القراريط التي له في بعض بيوت الحي.. حتى ينتهي به الأمر أخيراً إلى بيع العزلة الكبيرة سكناه.. شرط سكناه بها طول حياته!!

ولكن فقيد الكرم والمروءات والبحبحة.. أبو عرام.. لم يتمتع بمزية هذا الشرط.. إذ اختطفه الموت في ليلة سوداء في أيام موسم الحج.. وقبل الخُلَيف بحوالي عشرين يوماً.. وذلك عقب حفلة عشاء

فريدة في بابها.. وكان اختطافه مفاجئاً حتى إن من سمعوا بنبأ وفاته في النهار لم يصدقوا ذلك حتى رأوا باعينهم النعش خارجاً من مسجد الشافعي.. وقد ازدحم سوق الجامع.. فسوق البدو بالمشيعين من جميع المحلات في مدينة جدة.. وخارجها.

ذلكم هو إبراهيم خليل الكلاش الشهير بابو عرام في إيجاز.. ودون مغالاة.. أو رتوش.. أما سبب اطلاق كلمة «أبو عرام» الذائعة الصيت.. والمطلقة حتى يومنا هذا على كل «فنجري» أَلِفَ البذل والعطاء والبحبحة على نفسه وعلى من حوله.. وعلى كل قاصد إليه.. فهو ذلك الصنيع الذي كان يفعله أبو عرام طيلة حياته لا فرق بين سرائه وضرائه مما يؤكد.. أن الجود من العود.. لا فقط من الموجود..

وكالعادة الأخوانية فقد رثاه بعض من قدروا قيمته وشهرته.. أو نالوا من نعمته وفضله ولكن ظل أحسن رثاء قيل فيه هو رثاء صديقه الحميم زنقر الصغير الشهير بأبو لسان.. وكان ذلك بعد أن غرزت له أرملة المرحوم أبو عرام الست «عزه» مبلغاً محترماً من الريالات الفضية أرسلته إليه مع خادمها حين رأته يتجهز للسفر من منى أيام الشقادف بعد رجمه للشيطان.. فأنشد قائلاً:

حيتك عزة بعد الحج وانصرفت
فحي.. ويحك.. من حياك يا جمل

فتلك زوجة من عاش الحياة لنا
عبد المضاليم.. من تزهو به الحلل

الأريحي أبو عرام.. مصنفه
على الكتوف به في اليوم ننشغل

الفاتح البيت للضيفان ما خرجوا
إلا على البطن منه.. بعد أن دخلوا
زحفاً!! فقد نغنغوا من فيض صفرته
طبعاً.. فقد بشموا من كثر ما أكلوا
والفارد الكيس للأخوان يكرمهم
صرفاً.. وقبضاً.. فلا مَنٌّ.. ولا زعل
يا ناس.. ليس أبو عرام مثلكمو
أو مثل جدي.. ففيه يضرب المثل
قد باع خير قراريط.. بعزلته
وقال.. يا اللا.. فلا عاشت لنا العزل

شُلْضُمْ..

سكان محلة الساحة في المدينة المنورة مشهورون بأنهم ممن يعتنون بتدوين سير بعض الشخصيات الشعبية حتى يعرفوا.. وتتحدد طبقتهم الاجتماعية.. كما أن أهل الساحة أيضاً معروفون بتفوقهم الثقافي نوعاً ما.. وبرقتهم التي استدعت أن يتردد عنهم القول الشائع: «أهل الساحة.. أهل العيون الدَّبَّاحة».

ومما يرويه هؤلاء الأهالي من سكان محلة الساحة أن من الشخصيات الشعبية المتأقلمة من ثالث جد لها.. والتي انفردت في المحلة بالسمعة الطيبة الحاج صفاء الدين شلضقجي.. الشهير فيما بعد باسم «شلضم».. وذلك بعد أن سن في أوائل عام العشرة بعد المائة والألف من الهجرة عادة حميدة شاعت بين الأهالي هناك.. وهي قيام ربات البيوت بوضع ألواح العيش أمام دورهم.. تسهيلاً لكل عابر بأخذ لوح العيش إلى الفرن وخبزه.. ثم إعادته أمام البيت الذي حمله من أمامه. ومن المفروغ منه أن على كل ربة بيت أن تضع الأجرة المقررة حسب عدد أقراص عيش اللوح وفوق الخرقة المغطى بها العيش.. وكانت فكرة شلضم الاجتماعية قائمة على الأساسات الآتية:

أ ـ تعويد الناس على الأمانة.. فلا يكتفي أحدهم بسرقة النقود التي

هي أجرة خبز العيش.

ب ـ تفرغ الرجال لأعمالهم بشتى أشكالها.

ج ـ انصراف الأولاد لمدارسهم.. بدل اشتغالهم بخبز العيش.. وبحمل ألواحه.

د ـ عدم تعطيل الفرانة.. أو انطفاء أفرانهم.

هـ ـ تمرين عابري السبيل من المجاورين والأهالي العاطلين على الخدمات الاجتماعية.

كما تعود سمعة الحاج صفاء الدين الشهير بشلضم إلى قيامه بالوراثة عن أبيه بتنسيق قانون الطبقات.. وتسجيله في ملفات البلدية.. بعد تقسيم هذه الطبقات إلى: خانه.. دانه.. فأهالي.. فمجاورين.. فشلاوية.. وذلك منعاً للاختلاط الطبقي والتداخل في الأنساب.. سواء لدى الانتساب عند اللزوم.. أو حين تقرير نوع التابعيات لدى المذاكرة عنها في القاعات.. وقبل وجود نظام التابعيات الحديث بأكثر من قرنين من الزمان.

وكان الحاج صفاء الدين الشهير بشلضم قد ورث بعض البلدان ـ أي البساتين ـ عن أبيه عن جده الثاني.. ولكنه استنكف رحمه الله أن يشتغل مزارعاً بنفسه حتى لا يتزحزح عن المرتبة المقررة لطبقته الاجتماعية.. فاتفق مع المرحوم خلف الحبرتي على القيام بشؤونها.. وكانت النتيجة أن انتهيا بعد نزاعات طويلة إلى المحكمة.. بكسر الميم ـ حسب منطوقها منهما ـ ثم إلى بيع البلدان بأبخس الأثمان.. مما دفع الحاج شلضم إلى حفظ البيت الشعري القائل:

ما حك جلدك مثل ظفرك   فتول أنت جميع أمرك

وأصبح لا يرى ولا يسمع إلا وهو يترنم بهذا البيت مما دفع الوالي التركي آنذاك إلى أن يكلفه بكتابة هذا البيت الشعري بخطه النسخ الجميل.. ووضعه في برواز ثمين.. وحين قام شلضم بذلك وذهب به إلى الوالي كرمه بأن أمر بتعليق البرواز في صدر مجلسه الرسمي دون أن يدفع له أي شيء.. فكانت تلك اللفتة وحدها من الوالي أحلى ذكريات الحاج صفاء.. فصار لا يفتأ يرددها.. ويرويها لكل من يقابله في السوق.. أو بالمسجد.. أو يزوره في البيت ليسمع الحكاية من فمه.

وبالمناسبة.. فلقد كانت هواية شلضم الكبرى هي العناية بالخطوط الجميلة.. فقد تمرن وصرف بعض المال حتى اتقن خط النسخ.. وخط الرقعة.. وصار يقتنص الأمثال والحكم ليكتبها في براويز أنيقة ثم يغلفها.. ويذهب بها إلى «خط» السكة الحديدية ـ الأسطسيون ـ بباب العنبرية.. لحمة طرية.. ليبعث بها هدايا جميلة إلى أصدقائه في اسطمبول وضواحيها.. حتى ذهبت تلك الهواية بكثير من قيمة البلدان التي باعها بأبخس الأثمان.. ولم يبق له إلا بضعة «مخازن» في أرض مهجورة لم يتقدم أحد لشرائها تلك الأيام.. حتى دارت الأيام فباعها أحد أحفاده بمبلغ باهظ!!

وتأكيداً لهواية الحاج صفاء الشهير بشلضم هذه.. فإن سكان الساحة أكدوا أنهم رأوه قبل أن يتوفى في مطلع عام الأربع والتسعين بعد الألف والمائة من الهجرة.. وهو يحتضن لوحة جميلة مكتوباً عليها.. الصبر جميل.

ذاكم هو الحاج صفاء الدين شلضقجي الشهير باسم «شلضم» أما سبب هذه التسمية فتعود إلى أن جاره المرحوم عباس أفندي.. ولا داعي

لذكر اسمه الثلاثي.. زاره في إحدى الليالي.. لأجل أن يستأنس برأيه في تنظيم الرحلة التي اعتزم عباس أفندي القيام بها إلى الأناضول.. وحين سأله الحاج صفاء الدين.. هل تعرف يا عباس أفندي معنى كلمة «شلضم» أجاب عباس: لا!! فقال له الحاج: ولا معنى كلمة «بلضم» أجاب عباس برضو.. لا!! عند ذلك قال له الحاج صفاء الدين.. إذاً يجب عليك يا عباس أفندي أن تؤخر رحلتك إلى الأناضول حتى تعرف على الأقل معنى كلمة «شلضم».

وهنا ـ كما يذكر الراوة الثقاة ـ خرج عباس أفندي منفعلاً.. وأطلق في حالة أنفعاله على الحاج صفاء الدين شلضقجي اسم «شلضم» وهو الإسم الذي لصق بالمرحوم حتى آخر أيام حياته.

كما يذكر الرواة من أهل الثقة والمروءة للإنصاف وللتاريخ الذي لم يسجل.. إن عباس أفندي حين سمع بنعي شلضم قد فزع جداً.. وحزن كثيراً.. ونهنه قائلاً:

يا راحلا.. وجميل الصبر يتبعه
على الطريق.. وقد جفت مآقيه
يا شلضم الخير ملضوما بجلسته
في قاعة البيت بين الآه.. والإيه
من للعيوش.. وللألواح ناظرة
للقن دربا إلى الفران تأتيه
والناس قد تركوا العادات طيبة
لما التهوا في الذي.. يا شلض تدريه

من للخطوط.. من الرقعا مزخرفة
للنسخ من دون تزيين وتنويه
لسوف احفظ معنى شلضم.. وأرى
ماذا لدى بلضم أيضاً.. وما فيه
حتى أحوز رضا جاري.. وإن ذهبت
أيامه.. وبقيت اليوم في تيه
شلضوم!! لا تأس.. لا تحزن.. فحضرتنا
محل حضرتكم.. فيما ترجيه!!

بِسْبَاسَهْ . .

الرفق بالحيوانات واجب إنساني كبير.. وجليل.. ولقد تطوع في يوم ما.. وعلى عهد العربات الكارو بعض ذوي الفضل والغيرة والشفقة عليها. فكانوا يومياً يتابعون ويلاحقون أصحابها حتى لا يقسوا على البغال أو الحمير ما لا تطيق.. أو بضربها زيادة عن اللزوم.

كما كان يتجمهر بعض الأهالي.. ويبدون سخطهم على مفتشي البلديات ومندوبيها ـ أيام زمان ـ حين يصطحبون الصياد الماهر ومعه بندقيته لقتل الكلاب التي تزعج السكان بنباحها.. أو التي يشك في سعارها خشية الإصابات بداء الكَلَب.. بفتح اللام.. حيث لم تكن الحقنات موجودة في المستشفى الوحيد ببلدة جدة.. ولا في الاجزخانة اليتيمة فيها..

وطبيعة الرفق بالحيوان لا تأتي بالاكتساب.. أو بالوعظ والإرشاد.. ولكنها في الشخص تنبع من الإحساس وحده.. الإحساس الرقيق بطبيعته.. ولكن قد يتغالى عشاق الحيوانات في العطف عليها.. وفي ترتبيتها لدى اقتنائها إلى الحد الذي يصل بهم إلى الوسواس.. أو الجنون الحاد.

ذلك هو بالضبط.. بالضبط ما حدث للمرحومة الآنسة أسما

الجداوية . . والشهيرة باسم «بسباسة» . . فقد نشأت هذه الفتاة الشعبية وهوايتها العطف على البساس وجمعها وتربيتها . . وذلك قبل أن تنشأ الكثيرات من النساء الإفرنجيات اللواتي يشاركنها هوايتها في تربية القطط سواء في أوروبا أو في الأمريكتين الشمالية والجنوبية .

لقد نشأت الآنسة «بسباسة» أو أسما الجداوية . . وهوايتها جمع البسس بكل أنواعها . . ما عدا النوع السيامي حيث لم تكن هناك معاملة تجارية بين سوقي جدة وبنكوك . . لاستيرادنا الرز السيامي . . اكتفاء باستيرادنا الأرزاز بأنواعها من المزه للهوره . . للبَكَّا . . من الهند قبل انقسامها إلى قمسين ـ الهند ـ وباكستان . . ثم إلى ثلاثة أقسام بعد انفصال بنقلاديش ! !

وشغلت بساس الآنسة بسباسه معظم أنحاء البيت المكون من مجلس وصُفَّه ومخلوان . . ودقيسي . . وديوان كبير . . ودهليز طويل وإن كان غير مستقيم . . حتى إن والديها لم يجدا . . فيما يرويه الجيران . . الأمكنة الفارغة والمخصصة للنوم أو للأكل أو لوضع أدوات «الجزة» التي كانت أم بسباسة تحرص على «نصبتها» باعتبار أن الجزة ونصبتها بتوابعها كلها من بنت المنقل للسموار وحتى الملقاط مصدر زهو واعتزاز عند ربات البيوت في تلك الأيام . .

. . ولقد أفرطت الآنسة أسما الجداوية والشهيرة باسم «بسباسة» في العناية بقططها وبالعطف عليها . . وبتربيتها تربية سليمة . . وتعليمها طرق النوم . . وآداب الأكل . . وقضاء الحاجة في أوقاتها . . وأصبح شغلها الشاغل حماية بسسها من أولاد الجيران . . ثم من تصرفات والديها اللذين كان همهما صرفها عن هذه الهواية البسسية . . حتى عمدا إلى الضرب والمطاردة لها ذاتها ولبسسها بالتبعية .

وكما قال لي جار العائلة العم الشيخ كرشوم «قصرو.. ما أطول عليك.. المسألة زادت.. والمصيبة راحت وجات من تحت راص البسس.. لأن المسكينة حصل لها لطف في الأول.. وبعدين فصخت.. يعني اتجننت جنان زايد عن الحد..!! قول.. ما أطول عليك برضو.. آخرة المآخر أبو بسباسه كان عندو مقعد أرضي مستقل عن البيت.. فشالها.. وحبسها فيه.. وصك لك عليها الباب.. وصار يدي لها أكلها كل يوم من بره.. بره.. يعني كان يرمي لها هو من أسياخ الروشان حقت المقعد اللي حبسها فيه» انتهى كلام العم كرشوم.

ويروي أهل المحلة القدامى ـ إن الشهرة التي استفاضت حول بسباسه لم تكن لأحد من كبار البلدة ـ وهكذا تأتي الشهرة الواسعة العريضة أحياناً لمن لم يسع إليها.. كما أنها تأتي عن طرق عجيبة.. شاذة.. وبسيطة.. ولا تخطر على بال.. ولهذا كان لا يخلو وقت من أوقات النهار.. وأطراف الليالي.. إلا وتجد نفراً من الصبيان.. أو الشباب.. أو الرجال أحياناً يتجمعون أمام المقعد ليروا.. وليسمعوا صوت بسباسه.. وعاداتها.. وأصنافها وطبعائها وعما تنعم به من حياة حافلة بالغرائب وبالنوادر التي لاقتها وتلاقيها منها.. فالبسة «نَجَفَهْ» مثلاً.. لا يمكن أن تهدأ إلا إذا قامت بسباسة نفسها بتمشيط شعرها.. وخصوصاً شعر الذيل!!

كما أن البسه «قَمَرِيَّه» لا يمكن أن تشرب الماء.. وإن تأكل المقرر لها من الفضلات البيتية إلا على طبلة خشبية.. وطبقاً لأصول آداب الطعام المتبعة في تلك الأيام الدسمة.. وهكذا مما لا يتسع المقام لتعداده.

تلكم هي الآنسة أَسْمَا المظلومية الجداوية التي سبقت في جده

أترابها من هواة القطط في لندن وباريس وروما ونيويورك وسواها من عواصم العالم الكبرى.. والشهيرة ببسباسه.

أما سبب هذه التسمية فلا يحتاج.. كالعادة.. إلى تعليل.. أو تفسير.. أو إيضاح.. فإنها آتية من لفظة «بسه» أي «قطة» بالاصطلاح العامي.. وإن كانت القواميس تقول أن: بس وبس بكسر الباء الأولى وضم الثانية مكررة.. دعاء أو زجر للغنم!!

ونعود لجار العائلة العم كرشوم الذي يقول: وفليله من الليالي ما أصحى لك إلا على الصوت اللي قومني أنا وغيري من سابع نومه.. قصرو.. ما أطول عليك.. إيش في؟ ايش حصل؟ قالوا: تعيش راصكم. بسباسة ماتت!! ماتت؟؟ ايوه!! وهادا كان يا محفوظ البقا والسلامة سنة؟ سنة؟ قول معايا يشيخ.. سنة الخديو!! انتهى كلام العم كرشوم!!

ويروي لنا صادق أفندي القاطن في الزقاق اللي يوديك على أيدك اليمين على بيت باعشن القديم.. قبل ما توصل على بيت قابل القديم برضو.. يروي أنه تطوع من سكات لسكات باعتباره محباً على السكِّيتي.. وبصفته شاعراً شعبياً برثاء الآنسة بسباسه مع احتفاظه بورقة الرثاء في علبة تنك رفيعة من اللي كان أهل أول يحفظوا فيها حجج البيوت.. ووثائق العُزَل الصغيرة وقد قال لا فض فوه.. ولا أطال لوعته:

آذَنَتْنَا ببينها أسماء
رُبَّ ثاو.. يَمَلُّ منه الثواءُ

قل لبسباسة لقد كان فخرا
لم تنله باريس.. أو روماءُ

لا.. ولا لـــنــدن.. أو نـــيـــويــورك
.. وحـتـى .. فـي جـنـبـنـا سـيـنـاءُ
أنـتِ سَـوِّيـت لـلـبـسـاس مـقـامـا
فـي حـمـى جـدة.. فَـحَـقَّ الـثـنـاءُ
يـا أهـالـي الـمـضـلـوم تـيـهـوا.. فـهـذي
حـارة الـشـام.. قـربـكـم.. خـرسـاءُ
يـا أخـا الـعـقـل.. لا تـهـن أي بـسَّـا
أي عُـرِّي أيـضـاً.. فـفـيـه الـعـزاءُ
بـس أوعـى تـزيـد عـطـفـاً.. فـحـتـمـاً
سـوقَ يـأتـيـك بـالـجـنـون الـشـقـاءُ
إيـه «بـسـبـاسـة» كـدا بـرضـو تـمـضـي
وتـسـيـبـي الـبـسـاس؟؟
هـذا الـجـفـاءُ؟

الْكَجَا . .

لا بد أن تكون. . أو أن يكون ابنك على الأقل قد تابع الكجا من زقاق إلى زقاق. . وهو يذرع الشوارع الرئيسية بمكة. . بعد ملله من أزقتها الجانبية. . لا يفتر لسانه عن ترديد مقامات الحريري الساكن بمحلة الباب. . أو موشحات الأندلسي المقيم في الشامية. . أو مقطوعات طاغور المجاور بالمسفلة. . لا يهدأ. . ولا يفتر. . وقيل إنه لا ينام الليل. . إلا بعد أن وصفت له أمه شرب اللبن الحامض وبه فصوص. وفصوص كثيرة من الثوم. . وكانت هذه الوصفة. . فعلاً. . أشد فعلاً من استعمال الخشخاش. . وأعمق نوماً منه!!!

فالكجا. . وهذه شهرته. . وليس اسمه الذي أطلقه عليه أبواه اللذان كانا يسكنان في آخر المسفلة. . وعلى مقربة من بركة ماجن. . حيث الخضرة. . والماء. . والرز البخاري الذي يتقنه. . المنى. . مخصوم على عهد مركاز الأدباء والشعراء برئاسة المرحوم الأستاذ حمزه شحاته وعضوية كل من الأخوان مع حفظ الألقاب الحالية. . القنديل. . توفيق، العريف، ياسين، زيدان، البصراويين، الأب عزيز، وهلم جراً. . أو نصباً. . أو جزماً بالسكون.

طبعاً . . طبعاً . . على قول الساسي. . الكجا اسم الشهرة الذي

انطلق من مكة فاخترق الأسماع.. وتردد على الأفواه حتى وصل غرباً منها إلى بحرة.. فجدة.. مستقراً في الحارة. حتى الثعالبة.. وطاف شرقاً منها محيياً قريشاً في بطن منى.. فكبكب.. صاعداً بعد الكر.. إلى كرا.. فالهدى.. واقفاً عند حدود ثقيف بعد الطائف لرفض الإعراب في الوهط.. والوهيط.. ولِيَّه.. والشفا قبول الأسماء الأعجمية.. مع أن الأستاذ أبو تراب الظاهري أكد لهم في برنامج خاص أن كلمة «كجا» عربية الأساس المتين.. وأنها مركبة من لفظين اثنين هما.. لفظة «كما» ولفظة «جاء».. وكما أحب الأستاذ عبد القدوس التخفيف على الناس في نطق الكلمات المركبة فقد أمر رعاه الله بحذف «ما» من كما.. اكتفاء بالكاف وحدها.. واعتماداً على ذكاء الناطقين بالكلمات المركبة والسامعين لها.. مع حذف الهمزة لتخفيف العبء في الفعل «جاء» فأصبحت «كجا» بدلاً من «كما جاء».. علماً بمعارضة الشيخ حمد الجاسر مكايدة منه.. فقط.. للأستاذ عبد القدوس.. فأكد أن الأصل هو «كذا.. جاء» بعد إدخال آل التعريفية عليه.. فأصبح بفضل جهودهم الطيبة اسم «الكجا» علماً معروفاً.. ومنصرفاً إلى كل من «كجكج» في مشيته.. والكجكجة كما يقول الأستاذ العطار نوع من المشي الموسيقي الذي تصطك فيه الركبتان من الوسط ببعضهما.. ثم تنفرجان ثم تصطكان من جديد.. وهكذا دواليك.. على طريقة مسك «الوحدة» في الإيقاع الطربي الأصيل!!

وعلى العموم ـ فإن الكجا معرفة معروفة من الجميع ـ وقد اشتهر بخفة روحه.. خفة تقل كثيراً عن خفة عقله من حيث الكم.. ولكنها لا تقل عنها من حيث الكيف.. كما اشتهر بسرعته الملوينية في السعي وفي الطواف بالأسواق والأزقة والشوارع حتى يتعب.. فيكجكج في مشيته على

رواقة.. وذلك للاستمخاخ أولاً.. ولتيسير الفرجة عليه ثانياً من كل من رغب في الفرجة عليه.. وكثير ما هم. فقد كان الكجا كصندوق الدنيا لا تمل من الفرجة عليه.. ولا من سماع أحاديثه المرسلة عند الخاطر لا يقيدها عقل متعوب عليه.. وإنما يفسح لها المجال جنون.. أي جنان.. متعوب عليه!!

ويروي سليمان أومياه القريب الوحيد لوالدي الكجا من بعيد لبعيد.. إن الكجا عاقل جداً.. بل هو فيلسوف من طراز سنسكريتي عتيق.. وإن حركاته ومشيته هما نوع من أنواع «اليوغا» وإن الكجا ذاته في خلواته البيتية كثيراً ما يتحدث عن الجنون والمجانين حديث العارف ببواطن الأمور.. وكذلك بمظاهرها الخداعة.. فكم من مجنون عند الناس عاقل جداً عند نفسه.. والعكس بالعكس.. ولكن هذا البحث الدقيق لا يطيب ولا يتأتى للكجا إلا بعد أن تقدم له والدته النوع المعتاد عليه من البوبر ومن حمام.. أو دجاج البر.. وهما الصنفان اللذان يحبهما للطقطقة.. كفاتحي شهية ـ ابيرتيف ـ تمهيداً للوجبة المكونة غالباً من الرز بالكاري.. مع أنواع الشباتي.. ومع الإكثار من الأطباق المفلفلة وربما عاد بحثه الجنوني العقلي هذا إلى تأثير الشطة الحمراء التي تشبه كثيراً الحرية الحمراء التي وصفها أحمد شوقي بقوله:

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

حيث أردف الكجا لدى سماعه هذا البيت لعاشر مرة.. وعند هبوب شاعريته بيته المشهور:

أخي! للشطة الحمراء.. طاب
على الشُخْطَينِ يُطْرَقُ.. أو يُلَقُّ

وكانت لعبة الطاب للكجا هي لعبته المفضلة أيام طفولته المبكرة قبل النوم!!

ويؤكد ما يرويه الحاج سليمان أومياه ما رواه بعض المحتكين احتكاكاً غير مباشر بالكجا.. إذ يقولون إنه كان كثيراً ما ينعي على العقلاء استهزاءهم بمن يسمونهم المجانين.. وإنهم يعتبرون من أكبر الجناة عليهم.. فلو أن الجماهير العاقلة رسمياً والصبية منهم على الأخص بدلاً من أن يطاردوا من يعتبرونهم «مجانين» ويقذفونهم بالحجارة.. انصتوا إليهم.. وعاملوهم برفق.. وأوْلُوهم شيئاً من الحنان والرعاية لما رأيت مجنوناً واحداً في الأسواق.. أو في مستشفى السداد بالطائف.. الطائف المأنوس.. يبغي لو كيس فلوس!!

والحقيقة أن ما يزكي هذا القول.. عناية الكجا بهندامه المألوف.. فهو لا ينسى أبداً أن يرسل الشال على كتفه الأيسر في يعسبة ملحوظة.. وأن يظبط حزام وسطه بعناية فائقة يربطه في عقدة ونصف العقدة.. وأن يطنقر الكوفية الجاوي على قنجته طنقرة خاصة به.. حتى لقد اطلق عليها من شدة الإعجاب بها «الطنقرة الكجاوية». وإذا كان الكجا لا يطيق دائماً لبس المداس ـ أصانكم الله ـ فإنما يعود ذلك إلى أنه أيام استعماله للحدا.. ـ أعزكم الله ـ انفلتت ـ بعد أن انقطعت ـ إحدى فردتيه وهي اليسرى فيما رواه البعض.. فتأثر جداً من هذا الفعل الشنيع.. واعتبر ذلك العمل الفاضح من تلك الفردة جفاء مقصوداً لرجله اليسرى بسبب قلة صبرها على الداحوس المزمن والمستقر بين الخنصر والوسطى فألحقها.. بعد أن انفلتت بالفردة اليمنى زاقلاً إياها بطول يده اليمنى قائلاً في صوت مسموع من الجميع:

الحقي أيتها الفردة اليمنى بأختك اليسرى.. فإنني لن احتذي بعد اليوم.

وهكذا في لحظة انفعال أصبح الكجا من كبار الحفاة.. وهو الذي أطلق المثل: إن شفت الحافي قول يا كافي!!

ولئن طال البحث أو قصر عن الكجا فإنه سيبقى في الحالين عنواناً على «الجنان» المهذب.. اللطيف والمقبول أيضاً.. وذلك هو الذي جعل السلطة تتغاضى عن تجواله اليومي.. ولعدم تلقيها بالطبع أية شكوى ضده.. ولقد عرض الكجا في أخريات أيامه أن يكون مراسلاً محلياً سوقياً لإحدى الصحف.. أو لها كلها إن وافقت مراجعها فإن الأخبار نفسها كانت تسعى إليه حيث يسعى.. ولكنها ـ أي الصحيفة ـ طالبته بالبطاقة الشخصية اللازمة فرأى نفسه أكبر من أن يُعَرَّف بواسطة ورقة عادية.. وهو العلم المفرد ـ وعند هذا الحد وقف البحث بصدد توظيفه.. وإن كانت الصحيفة قد قامت لتطييب خاطره ولإرضاء جماهيره من قرائها الذين أزعجهم خبر عدم توظيفه مراسلاً سوقياً بعمل ريبورتاج شيق، أجاب فيه بذلاقة لسان على جميع الأسئلة الموجهة إليه.. اللهم إلا ما اختص منها بالوالدة.. وبالكشرى.. والبوبر.. والشطة.. وقد لاقى ذلك العدد من الجريدة رواجاً ما مثله من رواج.

ذلكم.. هو الكجا في حقيقته.. وفي حيثيته الشخصية اللامعة.. أما سبب تسميته وشهرته «بالكجا» فقد مر كذلك فيما سلف.. وإنه راجع إلى «الكجكجة» في مشيته!!

هذا.. وقد تقدم إلينا بعد مغرب يوم أمس حسب موعد العزاء في المرحوم أحد الطلبة النجباء بقصاصة مطوية على نفسها من الحزن..

ومكتوب فيها بخط أنيق هذه الأبيات المستوحاة في روحها الشعرية من روح الشريف الرضى.. وفيها يقول:

الـكـجـا.. إن كـان لا بـد الـكـجـا
إنـه مـا كـان شـخـصـاً.. أعـوجـا
مـسـتـقـيـم الـعـود.. مـرتـج الـقـفـا
حـيـن يـمـشـي فـي الأزقـا الـكـجـكـجـا
يـا أخـلاَّي بـمـكـا.. هـل أرى
ذلـك الـسـن الـضـحـوك الأفـلـجـا
يـأكـل الـمـوز.. ويـرمـي قـشـره
بـطـريـق الـنـاس.. طـبـعـاً أهـوجـا
أمـسـكـوه.. واطـلـبـوا الـعـمـدا لـه
وازهـمـوا الـشـرطـا إذا مـا عَـصْـلَـجـا
واذكـروا شَـبًّـا إذا غـنـى لـكـم
طـفـح الـدُّرْدي.. ودس الـبـكـرجـا
يـا أهـالـي الـشـعـب.. يـا أهـل الـنـقـا
لـيـس فـعـل الـفـعـل مـثـل الـطـهـمـجـا
فـانـدخـوا.. إن شـفـتـمـوا زيـلـتـه
يا هلا!! حيوا.. لقد جانا الكجا!!

عَمْ سَدِّيقْ..

وسائل الإعلام الحاضرة لدينا ابتداء من جرائدنا اللي زي بعضها.. حتى لكانها توائم يخشى أباؤها.. وأولياء أمورها.. وهم أصحاب المؤسسات الصحفية أن تتغالى أحداها في الإنفراد بسحنة خاصة جديدة.. كما بدأت تفعل عكاظ.. فتحرم من الانتساب العائلي.. وانتهاء بمذياعنا الوقور.. وتلفازنا المبارك.. كل هذه الوسائل الإعلامية ألهتنا في عجلة من أمرنا عن حلول الذكرى الخمسينية المقامة في جدة أمس الأول.. في غفلة.. وسكون.. وتجاهل تام لأول جهاز إعلامي بشري متحرك فيها.. أي في جدة.. أم الرخا والشدة!!

وفي هذا الدليل الحي على سرعة نسيان الأحياء للأموات الذين طاحوا.. ولم يسقطوا.. في ساحة النضال لرفعة شأنهم.. وسد نقصهم.. والقيام بواجباتهم.. وذلك بالإعلان الهام عن كل ما يهمهم مما حز في نفس كاتب هذه السطور.. بقلم ناشف.. ودعاه بعد أن خلع ملابسه إلى إعادة ارتدائها من جديد بعد منتصف ليلة أمس الأول وذهابه حالاً بالاً إلى مقر بقية العائلة الكريمة من أبناء وأحفاد العم سديق.. كما كان الأوائل من أبناء بلدنا ينطقون الصاد سينا في لهجة شعبية.. سادقة!!

والاسم الكامل لعم سديق.. هو عم صديق حلواني المنادي..

والمنادي إضافة مهنية لحقت اسمه ولقبه بعد الاحتراف.. والحلواني لقب العائلة يعود كذلك إلى صنعة جد جده.. حيث حل محل لقبها الأصلي بالطبع.. وهي عادة درجت عليها ألسنة الناس.. يضيعون بها على الناس ألقابهم حين يرددون بدلها حرفهم فتشيع.. وتلصق بصاحبها.. وهذا بحث اجتماعي طويل لا نرى داعياً له الآن.. وإن كان قد دعانا له الاستطراد كالعادة درجنا عليها.. أو كمرض مزمن في لساننا!!

الشاهد.. أو الأمر وما فيه.. إن كاتب هذه السطور حين ذهب في الذكرى الخمسينية لوفاة العم سديق إلى دار عائلته بعد منتصف الليل.. وبعد أن فتحوا له باب الشقة.. ولم يجد ما كان مقدراً وجوده.. وقف حالاً.. ودون دعوة منهم.. خطيباً بينهم.. قائلاً لهم في صوت حزين:

يا أفراد العائلة الحلوانية!! ما لي أراكم هكذا.. بين نائم.. ومن كأنه قائم من النوم؟! هل نسيتم الإعلامي الأول عم صديق؟ كيف طاوعتكم قلوبكم الصلدة.. ونفوسكم الجادة أن تتجاهلوا ذكرى وفاته الخمسينية إلى هاته الدرجة؟ بل كيف سمحتم لأنفسكم أن تقرؤوا الجرائد اليومية.. وأن تستمعوا للراديو.. وأن تشاهدوا التلفزيون من بعده وبالأخص في ليلة ذكراه الماسية؟ تالله لئن ضاعت أصداء صوته الجهوري القوي من أزقة جدة وأسواقها وشوارعها فإنها باقية في أسماعنا نحن صبية الأمس.. شيوخ اليوم!!

إن من حق تلك الأصداء أن تبقى بين جدران بيتكم الضيق هذا.. والضيق في الصدور.. وفي رحبة الحوش المجاور للزقاق الذي بقي من أصل سوق الندا الكبير القديم.. الأصلي.

ويا ريت.. أو ليت.. وهل تنفع هذه الليت. ليت أن المسجل قد

فن في أيام المرحوم فسجل لنا ولأحفادنا ذلك الصوت الذي قلما يجود الزمان بمثله.. ولكنني أبشركم.. نعم!! أقولها بعلو صوتي أنا.. أبشركم أن هناك بحثاً علمياً تكنولوجياً يدور من حوالي العشرين سنة لفرز الأصوات التي يقولون إنها باقية في الفضاء من قديم الزمان وسالف العصر والأوان.. ولسوف، إنْ أخذ الله وداعة الجميع منا ومنكم. يتمكن أحفاد أحفاد أحفادنا بسماع صوت المرحوم من جديد!!

أخواني!! ها؟ ايش قلتوا؟ هيا قولوا لي.. كيف سويتوا كذا يجماعة؟ ليش يناس عملتوا فنفسكم هادا اللي عملتوه؟ يعني هو عيب؟ يعني هادا يسير؟! ايش فيها الجرايد هادي اللي بتقروها كل يوم.. و.. و..

وعند و.. وهذه.. وقبل أن أعطف ما بعدها على ما قبلها من قولي المحرك للشؤون وللشجون معاً في قلوب ونفوس بقية أفراد عائلة عم صديق.. ابتدأ الكل ينشجون.. أو يمخطون ويلطعون وفي نفس الوقت يتعاتبون ويتلاومون.. وذلك فيما عدا الشاب الذي لم يدرس علم الآثار.. ولم يلم بعلوم الاجتماع.. أو بفنون الفولكلورات الشعبية بأنواعها.. حيث هب جالساً.. بعد أن كان واقفاً.. ثم صاح في وجهي بقلة أدب متناهية.. وأشار الولد المتعجرف إلى الباب الخارجي علامة لطردي من البيت صائحاً بأعلى صوته: ومن هو عمك صديق حلواني هذا حتى تجيء في مثل هذا الوقت لإزعاجنا من أجله؟

هنالك.. والحق يقال للتاريخ وللأمانة الفنية.. تحركت ست الشاب ـ أي جدته ـ قائله له في أسى وصبابة.. وه!! وه!! يصادق.. هو أنت الين دحين ما تعرف أن أبو أبوك.. وقالتها وكأنها تشتمه.. اسمو صديق؟

بهذه التحميلة الموسيقية ـ على طريقة بعض كتابنا ونقادنا العصريين ـ ندخل إلى سرد سيرة شخصية شعبية لها في التاريخ الجداوي البعيد القريب أعمق الآثار وأبعدها في جميع النفوس والأسماع.. سيرة العم صديق حلواني المنادي.. والشهير بعم سديق!!

ولقد عثرنا لحسن الحظ مصادفة على استمارة قديمة من استمارات أيام زمان.. ومنها يمكن إلقاء الضوء كما يقولون.. على هذه الشخصية الخطيرة في دنيا الإعلام القديم.. وهذه الاستمارة مخطوطة بخط الكاتب العمومي الأستاذ المشاط المشهور مكانه بقهوة الجماله على عهد شيخ المخرجين النجاوي:

س: اسمك؟ واسم أبوك؟ وعائلتك يشيخ!!

ج: صديق صادق حلواني!!

س: اسم الحارة يبويا؟

ج: المنادي.

س: تيلادك.. يعمي؟

ج: أول السنة اللي جا فيها البابور جها نقير لجده أول مرة!!

س: محل ما انولدت.. يخويا؟

ج: جده.. سوق الندا.. جنب زاوية أبو سيفين!!

س: طولك بالدراع المعماري.. يشيخ؟

ج: والله أنا قط ما قست نفسي.. بس أنا أعرف إني أطول من عمي ياسين!! واقصر من خالي طاها اللي كانوا يقولوا لو: طاها.. الذي رخاها!!

وتقول بقية الاستمارة المكتوبة نيابة عن العم صديق المنادي بقلم الكاتب العمومي بقهوة الجمالة الأستاذ المشاط:

س: ـ العلامات الفارقة.. يوليد؟

ج: ـ فقشة حجر في جبهتي.. وتشريط بالموسى في خدي.

س: ـ أحسن غدوه.. عندك؟

ج: ـ الصيادية.. والمشرمل للغموس!!

س: ـ والعشوة..؟ خلصنا قوام!

ج: ـ الفص.. يعني الفول.. ويا اما الكباب الميرو والا المقلية!!

س: ـ بتستعمل ايش لحسك.. يعني لصوتك اللي زي الضاهية!!

ج: ـ النبات الشيناوي.. وهو في أحسن منو؟

س: ـ يا الله.. امظي هنا يشيخ.. وروح فحالك!! تعرف تمظي؟

ج: ـ لا.. ما أعرف أمظي.. لكن عندي المهر حقي.. خد.. خد.. اهو!!!

ورحمة بأذواق الأنجال والأحفاد من الجيل الجديد.. فإننا نقتصر على ما سلف.. ونترك الباقي من الاستمارة لمن سيوفقهم الله مستقبلاً للحفاظ على تراثنا الشعبي الباقي.. لننتقل إلى إعطاء هذه الشخصية حقها من السرد.. والشرح.. والتعريف.

لقد انفردت شخصية عم صديق حلواني المنادي بالشهرة المستفيضة في طول مدينة جدة وعرضها طيلة نصف قرن من الزمان.. بل وأكثر من ذلك بكم سنة وبضعة شهور.. فلا يمكن.. تعرف ايش يعني لا

يمكن؟.. لا يمكن أن يوجد آنذاك أحد.. أي أحد صغيراً كان أم كبيراً.. أم بين.. بين.. من سكان جدة وملحقاتها من الضواحي والقرى يجهل اسم عم صديق المنادي كما كان يسميه الصبيان الذين كانوا منه وله بمثابة الجوقة.. يكونون أعضاء الفرقة الموسيقية يحيطون ويحفون به.. وهو ينادي على ما ينادى عليه.. كما تحف أعضاء الفرقة بالمطرب الشهير.. طائفاً بالأسواق.. دائراً بالشوارع.. لافاً بالأزقة.. ملعلعاً.. مترنماً.. في تنغيم وتطريب بصوت يخترق الأذان.. ويتعدى الجدران.. ليغزو كل مغلق.. أو مبسط.. أو دكان.. ليصل به.. أي بصوته.. إلى حيث تريد طبقته العالية جداً والمشابهة من حيث المقابلة المعمارية بناطحات السحاب في قلب.. لا صوت.. نيويورك.

أما اسمه بالكامل.. كما خطته يدا كاتب قهوة الجماله العمومي.. وحسب منطوق لسانه.. فهو صديق صادق حلواني.. وقد ولد لأبوين فقيرين بالنسبة للتقييم المالي المادي.. ذلك أن أباه كان.. والا بلاشي!! وإن أمه.. وإلا أقول لك.. برضو.. بلاشى!! كما أنه كما تذكر الداية التي تلقته بيديها قد جاء إلى هذه الدنيا الفانية صارخاً صراخاً لم تعهد مثله في مواليد الحارة.. بل ومواليد جدة شملاً كملاً كما تقول.. ولهذا فقد تنبأت إحدى العجائز القرم الحاضرات وقت النفاس بقولها: الولد هادا راح يطلع منادي! فسرت بذلك جميع الحاضرات من النساء.. وضحكت أمه رغم آلام الولادة لسرورها من هذه البشارة!!

ويقول عم صديق عن نفسه وحين تقدمت به السن.. واحتاج إلى تزديد الذكريات القديمة.. شأنه في ذلك شأن كل من تتقدم بهم الأسنان والسنون.. إنه نشأ هاوياً.. بل عاشقاً للصراخ.. ورفع الصوت.. وهي

صفة غير جداوية على العموم مما آثار «حفيظة نفوس» الكثيرين عليه.. ومما دعاه إلى التفكير في استغلال طبقاته الصوتية العالية في غير ما يؤذي الناس.. فاتجه إلى الغناء.. ولكن الجسيسة المحترفين ضيقوا عليه الخناق والمجال.. فانصرف رغماً إلى ممارسة الأذان مجاناً.. ثم انقطع عنه مرغماً كذلك.. حسب أمر القائمقام نزولاً على شكوى الأهالي!!

وهكذا انتهى أمر العم صديق بالجلوس في بيته بالليل.. مفكراً فيما ينبغي عليه أن يعمله.. مصرمحا بالأزقة.. فالشوارع.. فالمقاهي بالنهار.. لعل وعسى.. وفجأة.. ولأمر يريده العزيز القدير.. ولا راد لأمره.. فقد صادف أن اختلف عم صديق مع القهوجي المجاورة قهوته لمسجد الباشا على الحساب.. وتصايحا.. وحد العم صديق الطبقة.. وتصادف أيضاً أن مر في تلك اللحظة التاريخية المناسبة الخواجه هنكي وكيل البواخر الأجنبية.. ومؤسس بيت جلاتلي هنكي وشركاه.. وهو البيت الإنجليزي التجاري العتيق.. والمعروف في جدة كلها والذي كان مقره بجوار الكنداسة القديمة.. وعلى مقربة من مسجد الباشا.. وحيث القهوة التي وقع فيها الخصام وسمع الخواجه صوت عم صديق.. ودون أن يعرف معاني الكلمات والمعاني المنطلقة من فم العم صديق انطلاق القنابل والقلل.. فأعجب كثيراً بهذه الموهبة الصوتية.. وهز رأسه بل وخلع قبعته ـ أي برنيطته ـ من فوقها.. وتمتم في انجليزية سليمة: فري.. فري قود!!

هنالك.. ولحسن الحظ.. لاحظه عم صديق.. فاقترب منه.. ووشوشه في أذنه بالعربي.. فلم يكن من الخواجه هنكي إلا أن يزيح فم عم صديق عن أذنه.. لا لأجل انزعاجه من رائحة البصل بل رغبة في

انجاز نيته التي أضمرها.. وأشار لعم صديق أن يرفع صوته وأن يصرخ بعزم ما أعطاه الله. فأدرك العم سديق غرضه.. وزعق قائلاً:

يا هنكي.. بامارية وصول البابور الطايف.. بوسطه خديويه اليوم لجدة.. وزي ما قلت لي بالانقليزي إنك تبغي تدفع حساب القهوجي هادا.. جبا من عندك.. وإن كان الجبا ممنوع.. والزعل مرفوع.. فأنا ما عندي مانع أنك تحاسب عني.. وإني ما راح أزعل.. والحاضر يعلم الغائب!!

هذا.. وتقول الرواية الثابتة شعبياً أن الخواجه هنكي بعد أن سمع صوت العم صديق ـ المشهور بالمنادي ـ لم يتمالك نفسه من الإعجاب. فقام حالاً بتسديد حساب القهوجي.. بل ومد يده إلى جيبه ثانية.. وأراد أن يغرز للعم صديق ما جادت به نفسه.. ولكن العم صديق صاح في وجهه: افا.. أنا المسلم.. أخذ منك أنت يخواجه.. ينصراني صدقة؟ لا.. لا.. الجبا معليش عشنو فن!!.. بس الصدقة.. لا.. لا.. هادي ما يقبلها المسلم إلا من مسلم زيو!!

هنالك.. كما يقول الفتيني صاحب القهوة.. رد الخواجه هنكي فلوسه إلى جيبه.. ومد يده مصافحاً العم صديق معجباً بهذه الروح العالية.. وودع الجميع ذاهباً إلى مقر مكتبه حيث بادر حالاً إلى كتابة تقرير سري لمركز شركة أوبيت جلاتلي هنكي وشركاه الرئيسي في لندن يقول في بعض فقراته «حيث إن من أكبر أعمال مؤسستنا توكيلات البواخر. ونظراً لأننا تعبنا كثيراً في إعلان قدومها وسفرها بالطريقة المرضية.. وبناء على إنني سمعت اليوم بالمصادفة صوتاً عربياً فريداً في نوعه لشخص يسمى «الام سديق هالاواني».. فإنني أرشح المذكور فهادا

هو اللي يسلح للإعلان.. وقبل أن أنسى أذكر لكم أن الهالاواني هذا زكاه كل من المساتر.. أثمان.. ناشار.. اشماوي.. «يقصد المرحومين المشائخ عثمان باعلمثان.. محمد نشار.. أحمد عشماوي» وبموجب هذا التقرير السري جاءت الموافقة بالتلغرام.. وعن طريق وكالة روتر على تعيين عم صديق حلواني منادياً على بواخر جلاتلي هنكي وشركاه.. ولعلها أول موافقة وتعيين تأتي بالتلغرام في تاريخ جدة القديم..

وهكذا.. ابتدأ صوت عم صديق يعلو رسمياً وشعبياً في سماء جدة.. وعلى طريقة الخير لمن يقدف.. يقدف.. فقد وصل الخبر بطريقة سرية أيضاً إلى بيت الحاج زينل رضا وشركاه.. ثم بنفس الطريقة وصل لبيت فاضل عرب وشركاه.. فتعاقد كل من البيتين التجاريين مع العم سديق الذي أصبح لا ينادي إلا «المنادى».. فابتدأ بمنظوماته الإعلانية التي يدين لها الانتعاش ودار على جميع الأسواق.. والشوارع والأزقة والبرحات.

ولما كان العم سديق فناناً صوتياً.. فقد استغل أولاً طبقات صوته العالية في هذا المضمار.. وثانياً قام في سكوت تام ترتيب وتنسيق كل طبقة في أرشيفها الخاص بها.. وخصص كلا منها لما يليق به.. فجعل.. مثلاً.. للولد الضائع طبقة خاصة به.. كما أفرد لقدوم أو سفر الباخرة رضواني طبقة تجارية مميزة بلحن مميز.. كما اختص الإعلام الرسمي بطبقة وقورة مهذبة.. لا تتبدل ولا تتغير!!

ومن الأمثلة على ذلك.. دون ترتيب فني.. ولكن لأخذ فكرة عن الطبقات ونماذجها الآتي:

أ ـ يا خوانا.. يا هل البلد.. بابور بوسطه خديويه اسمه الطايف

ميعاد وصولو بكره من السويس.. أو.. البابور جهانقير.. أو علوي.. أو رضواني بكره ميعاد وصولو.. ويقوم من جدة يوم الخميس الجي لبومبي وكراشي.. فعلى كل من عندو «صر».. يعني تحويل نقدي.. أو بضاعة مراجعة كوبانية هنكي.. زيني.. عرب.

ب ـ يا خوانا.. يا هل البلد.. مين شاف الولد الضائع.. والحلاوة حاضرة.. لابس كدا.. الخ.

ج ـ يا خوانا.. يا هل البلد.. كل مين يشوف الهلال.. يروح الاقتصادي إلى حد كبير.. وخطير..

ولم تكد تمضي بضعة أسابيع على قيام عم سديق الشهير «بالمنادي» بالإعلان عن البواخر.. حتى تنبه أهالي جدة إلى فوائد ومزايا الإعلام الشعبي.. وميزات الإعلان.. فأقبلوا.. أو هرعوا كما يقول حبيبنا وأخونا غير المذكور.. إلى بيت العم سديق.. لتسجيل إعلانات لهم.. ابتداء من الولد الضايع.. إلى تعيين مواعيد المناسبات الهامة.. مثل الصرافة.. والزواج.. والطهور!!

ولقد رأت الجهة المعنية ضرورة تركيز هذا الجهاز الإعلامي البشري فجددت عقدها معه لإذاعة وبث الأوامر والممنوعات وما يلزم.. فكان محل الثقة والأمانة.. وحسن الأداء.. ابتداء من دخول أو خروج رمضان.. إلى صلوات العيد.. والاستغاثة.. و.. و.. من كل ما لا بد من الإعلان الرسمي عنه.. فكان الناطق الرسمي والشعبي معاً.. دون مزاحم.

وبذلك كله.. لا بعضه.. دخلت شخصية عم سديق حلواني الشهير «بالمنادي» التاريخ الشعبي من كافة أبواب جدة الأربعة وهي باب جديد

شمالاً.. باب شريف.. جنوباً.. باب مكة شرقاً.. وأخيراً باب البنط من الجهة الغربية الملاصقة لبحر الحجر وبحر الطين.. فتربع العم سديق.. بل وقف.. وتمشى.. وطاف ولف للمحكمة يبلغ باللي شافو..

د ـ أما القفلة للثلاثة الأنواع التجارية.. والأهلية.. والحكومية.. فهي دائماً.. أبداً:

والحاضر يعلم الغائب!!

هذا.. ويذكر بعض المعاصرين الخبثاء أن هواية عم صديق.. بعد جلوسه في القهوا للقط أنفاسه وأخد سكة.. أو دور.. داما.. هي ولعه وحبه للجنيهات الذهبية.. فقد كان يضع الجنيه أبو بنت وراء شفته السفلى وحين ينادي يحركه لدى نهاية كل مقطع ليراه الحاضر فيعلم الغائب.. وقيل أن الذهب يقوي الصوت!!

ذلكم.. هم عم صديق حلواني الشهير بالمنادي.. وهذه الشهرة لا تحتاج إلى تعليل.. أو تفسير.. وقد مرت ذكراه كما وصفنا.. لذلك فقد رأينا تكريماً له لا لها رثاءه في حدود الصنعة اللائقة بالمنادي الأشهر.. حيث لم يكن خليفته فيها المرحوم أيضاً الشيخ سعيد أبو الجدائل.. وهو آخر المنادين في مستوى عم سديق!

فقلنا في ذلك:

صديق.. يا كل الجرائد شفتها

في لحظة.. متسلقحا

يا بحة الراديو توحد في البرامج

بائتاً.. أو صابحا

يا صيحة التلفاز والبطل الأميركي
قد تعنقل طائحا
من قبل ما فن الجميع.. على الجميع
وكان وقتاً صالحا
يا من إذا رفع العقيرة بالنداء
فإنه ما كحكحا!!
وإذا رأى التنويع في بعض المقا
طع.. نحنحا
يا ليت سجلنا صراخك في الشوا
رع.. والأزقة صائحا
جنقير.. أو علوي: كما
الولد الذي قد ضاع منا البارحا

الخال سالمين..

لا يزال المخضرمون.. الأحياء من أبناء وأحفاد أهالي جدة.. وبالأخص سكان قصبة الهنود القديمة التي ذهبت في الهدميات قبل الأخيرة للمدينة يذكرون الشارع.. أو الزقاق الذي به بيت الأصفهاني باتاريكه المعلقة في دهليزه.. حيث يقع.. في صفه كما يقولون.. دكان المضبي الأكلة التي تأكل أصابعك قدامها ووراءها وأنت غافل عن أكلها.. وذلك من لذتها وخفتها على المعدة.. كما لا ينسون أبداً ذلك الرجل الكريم السمح الطباع الخال سالمين بن المرحوم «يسلم ويجي».. في جلسته الوقورة متفقداً الزبائن أو الأطباق الصغيرة الأنيقة وبها أوصال المضبي.. بنظرة سعيدة صامتة.. ومتنشقاً ملء رئتيه في فرح وارتياح رائحة الشواء العابكة دخاخينه.. والتي كانت مثل المنار المخصص لاهتداء السفن إلى الميناء.. ولا مبالغة في هذا الوصف.. فقد كان القادم من القصبة شرقاً.. أو من السوق الكبير غرباً لا يتمالك نفسه حين يشم رائحة اللحم من أن يطاوع قدميه اللتين تجرانه جراً إلى مصدر الرائحة المشهية والمثيرة للجوع. فإذا هو إما على باب الدكان في انتظار دوره من شدة الزحام.. وإما على الكرسي المحنتف الصغير يلتقط بأصابعه في متعة والتذاذ حبات اللحم الصغيرة الدقيقة غامساً إياها في الطحينة الممزوجة بقليل من الخل المرشوش عليها شيء لا يكاد يبين من الفلفل الأسود والكمون.. متحاشياً

الإكثار من الخبز بين الحبة والحبة بقدر الإمكان.. مستمتعاً في تلك اللحظات الهنيئة بطلعة الخال سالمين.. وبخفة يده في التقطيع والشي لا يمل الراني إليهما من تكرارهما.. سعيداً.. قبل وبعد ذلك.. بالمقابلة وبالحفاوة اللتين لا مثيل لهما في قاموس المجاملات.. فهما مختصرتان دائماً في جملتين قصيرتين كانتا أساساً طيباً وصالحاً.. فيما يرويه رواد الأدب العصري.. لاقتباس الكاتب المصري الأستاذ سلامة موسى لصيغة الأسلوب التلغرافي.. فهما.. أي الجملتان.. لا تتعديان وقت دخول الدكان كلمة «مرحبا» بخطف وباللهجة الحضرمية السليمة والحبيبة للقلوب.. وجملة «في أمان الله».. بالمطة المعهودة بتلك اللهجة إياها!!

وليس ذلك بغريب على «بوسلوم».. وهذه شهرة الخال سالمين.. فقد رباه والده المرحوم الخال.. يسلم ويجي.. تربية فريدة في بابها.. قامت في أساسها على قاعدة فريدة كذلك.. هي قاعدة المثل العربي القائل «إذا كان الكلام من فضة.. فالسكوت من ذهب». إذ يروي جلساء الخال يسلم ويجي إنه كان حريصاً على أن يشترط المحفوظ ابنه سالمين في مجلسه الليلي المعتاد.. وقد كان أيامها سالمين «زقرا».. أي غلاماً طيباً مرشحاً لشهرة شعبية عالية.

ففي ليلة من تلك الليالي الذهبية في سمرها.. وكان الوالد يحتبي حبوته المعتادة.. والقهوة دائرة.. والأخبار عن العملة متناقلة.. وحودات البلاد وما جد بها سائدة، تشعب الحديث أخيراً.. والحديث ذو شجون.. حتى وصل بلسان أحد السامرين إلى ما لا يحسن بالغلمان أن يشاركوا فيه.. فضلاً عن الخوض أو العوم به.. ولكن حيوية الغلام سالمين جعلته لا يتمالك نفسه.. فبرز من ركنه.. وهرش رأسه

الصغير.. وتمتم ببعض الألفاظ الممهدة لشرح معلوماته المدرسية القيمة في ذلك الموضوع.. فما أن هم الغلام بالكلام حتى بادر المرحوم الخال يسلم بفك حبوته.. وغمز بعينه.. وأشار إلى المحفوظ قائلاً في إيجاز.. وحكمة.. وتقنين جملته الخالدة.. يا وليد!! «سالمين كل تمر.. خذ من كل حرف أوله..» وترجمة أو حل هذه الشفرة العائلية الخاصة هي «سكت» بضم السين وضم الكاف وسكون التاء.. يعني «اسكت» أي أصمت ـ فصمت ـ أي سكت المحفوظ!!

منذ ذلك اليوم فكان لا يرى الابن سالمين إلا ساكتاً.. صامتاً.. ذلك الصمت الحكيم الذي علمته إياه جملة «سالمين كل تمر.. خذ من كل حرف أوله». الصمت الذي تمثل في مستقبل حياته العملية في دكان المضبى في الجملتين السالفتي الذكر «مرحبا» عند قدوم الزبون.. «وفي أمان الله» عند خروجه من الدكان.. حتى كادتا مع الأيام تكونان علماً مفرداً.. عليه!!

وبهذه المناسبة فإن للدكان نفسه.. تسمية.. وللمضبى.. عملاً ناجحاً.. قصة قصيرة تتلخص في أن بوسلوم حين بلغ رشده العائلي.. والمصطلح عليه حين يراد للشاب الاستقلال بحياته أراد أن يكون صاحب «مبسط» للصيرفة.. ولكن الوالد نصحة لتنويع الأعمال العائلية أن يتجه لعمل آخر.. ولما كان سالمين الشهير فيما بعد «بأبو سلوم» قد مل أكل اللحم المقدد والمصبر من الحنيت إلى اللخم ومتفرعاتهما وألف أكل اللحم الطازج فقد رأى بفطنته المعهودة فيه منذ كان يافعاً أن يفتح محلاً لعمل «المضبى» وحين قرر ذلك لم يشأ أن يطلق على محله اسم المطبخ.. أو المطعم.. أو «المأكلة» كما اقترح عليه هذا الاسم خاله

المنقطع على خلاف عادات أهله للدراسات اللغوية والتاريخية.. بل ترك للناس تسمية محله.. فسموه بالسليقة.. وبالتسامح «دكان بو سلوم» وهكذا كان!!

لقد ذهبت شهرة الخال بو سلوم.. وشهرة دكانه في مدينة جدة مذهبا بعيد الشأو.. حتى وصل الأمر بكثير من دلالي الكف.. والجلابه.. وأصحاب المغالق وسواهم إلى أنهم إذا أرادوا تكريم أفضل عملائهم أو زبائنهم أو أصدقائهم الخلص في الداخل وفي الخارج أن يذهبوا بهم إلى دكان الخال بوسلوم ليتمتعوا بأكلة «المضبي» التي لا تماثلها أكلة.. تماماً.. تماماً.. كما يذهبون اليوم إلى أشهر الفنادق.. وإن تنوعت في الفندق أصناف الأكل.. واقتصرت على صنف واحد في دكان الخال بو سلوم.. كما اعتاد كثير من الشبان والرجال وخصوصاً «المطاليق» منهم أن يذهبوا في الضحى من كل نهار ليأخذ كل منهم صحنا خشبياً صغيراً من مضبي الخال.. تلذذاً به.. واعتماداً على سهولة هضمه وخفته باعتبار أنه لا يعوقهم عن تناول وجبة الغداء الدسمة!!

ذلكم هو الخال سالمين بن يسلم ويجي.. في اقتضاب مضبي رشيق.. أما سبب شهرته بالاسم المحبب له «بو سلوم» فإنها ترجع إلى أن والده حين زوجه من ابنة خاله.. وبعد أن علم بأنه سيصير جداً وكانت قد أدركته الشيخوخة وخشي ألا يرى حفيده أوصى ابنه سالمين أن يطلق على المولود إن كان ذكراً اسم «سلوم».. ومنذ ذلك اليوم.. أي يوم التوصية.. وقبل ولادة المولود أصبح الجميع لا ينادون سالمين إلا بشهرته التي ذاعت وهي «بو سلوم» ولقد كانت لوفاة الجد ثم الوالد بعد أن أصبح الحفيد رجل أعمال ناجح رنة أسى وحزن.. وبالأخص لبقاء مركز المضبي الثابت شاغراً لم يقم به كفء حتى اليوم!!

هذا. . ويزجي كثير من الأخوان والمعارف. وكذلك نفس أفراد العائلة السلومية الثناء العاطر لإمام الحنفي الذي كان يقوم بتحفيظ جزأي عم وتبارك لابو سلوم. . مقابل رثائه الرقيق لأشهر عصامى برز في مجال «المضبي» الشعبي. . فسجل لبلدته جدة أطيب الآثار. ويقول هذا الرثاء في بعض مقاطعه:

سالمين. . كل تمرا. . وخلك عاقلا
واسكت. . إذا طال الكلام الدائر
واسمع. . وخذ من كل حرف أولا
من جملتي. . وافهم. . فإنك شاطر
وإذا العويلا جادلوك. . فقل لهم
إن السكوت لدى المجالس ساتر
وإذا أردت الشغل. . فاختر صنعة
غير التي فيها الجدود. . تعافر
سالمين. . والمضبي. . بعدك أكلة
ما داقها الجيل الجديد الحاضر
ما زالت الذكرى تروح. . ولا تجي
حتى ينام بوسط قلبي الخاطر
يا هل ترى. . يأتي لنا من بعدكم
من يعمل المضبي. . به نتفاخر
أم أننا. . يا بوسلوم. . ها. . كدا. .
نبقى!! نعاير بعضنا ونكابر؟؟

إيكِيلْيَا

مع الأسف الشديد الذي لا يؤسف على مثله إلا في النادر.. والنادر لا حكم له.. إن أساطيرنا الشعبية الخيالية لا تتعدى في مجموعها أصابع اليد الواحدة.. أو على الأكثر أصابع اليد اليمنى وخمس أصابع أختها اليسرى.. مما يدل على أننا واقعيون جداً.. وإننا لا نؤمن إلا بما تلمسه اليد.. ويقبضه الكف من كل ما يعتبر حقائق ملموسة.. أو ماديات محسوسة.. معدودة.. مشمومة.. ممضوغة.. أو مزلوطة بسهولة.. مما دعا بعض الخواجات الذين كانوا في مستهل أو منتصف القرن الرابع عشر الهجري يقيمون في مدينة جدة إقامة دائمة يتهموننا بضيق الخيال وسعة البطن!!

وأذكر من بعض هؤلاء الخواجات الخواجه الإغريقي إيكيليا وأخاه يني وعائلته أصحاب البقالة المشهورة والتي كان حانوتها الكبير يقع على ناصية شارع قابل مما يلي السوق الكبير.. فقد كان ايكيليا عميد هذه العائلة ينعي دائماً على أهالي جدة.. عندما يشترون منه الجبنة.. والطرشي.. والزيتون اليوناني.. والباس.. طرما.. إنه ليست لديهم أساطير شعبية يقصّونها عليه مقابل أقاصيصه الأسطورية التي لا تنتهي عن سكان الأولمب وشخصيات الميثولوجيا الإغريقية الخرافية.. والتي لم تخل

منها الألياذة.. والأوديسا.. وكلها «بولى أوريا» يعني جداً عال!!

ولقد ظل ايكيليا الكبير كثير التشنيع علينا نحن أهالي جدة لخلو تاريخنا الشعبي من أساطيره.. مما دفعني وأنا لا زلت في مدرسة الفلاح طالباً فضل الله. أن أتحداه ذات يوم في عقر حانوته.. إذ قد ذهبت إليه ذات عصر قريب من المغرب باسم شرائي جبنة فلامنكا بقرشين.. وبعد قيامه بقرطستها.. نظرت إليه وجهاً لوجه.. وصحت فيه بصوت عالي «إن كنك رجال.. وخواجه.. صحيح بصحيح.. مر.. يعني زل.. على زقاق الخنجي بعد نص الليل.. على شان تعرف أن لنا أبطال أساطيرنا الشعبية.. وإنهم أحياء.. وموجودون بكثرة.. حتى في مثل هذا الزقاق الضيق والذي لا يتسع عرضه لمرور أكثر من شخصين.. بشرط أن يكون أحدهما نحيفاً جداً.. وذلك لتسهيل المرور.. قبل تنظيمه!!

وحين بحلق الخواجه إيكيليا بعينيه الزرقاوين في وجهي أنا الغلام الفلاحي الجداوي الذي يتحدى أبطال الأساطير اليونانية.. وأولمبها.. بزقاق ضيق.. هز رأسه.. ثم حسحس قليلاً في مكان شاربه الحليق.. ثم قهقه ساخراً من قولي هذا.. قائلاً في لكنة عربية اثينية مكسرة «وتفتكر يخبيبي أنا راخ نشوفوا ايه في زقاق الكنجي هقك دا؟» فسكت برهة قصيرة.. وتلفت ورائي.. وأمامي.. ويساري.. ثم وليت هارباً بعد أن عملتها فيه.. وعملتها هنا ـ يعني قذفت بها ـ أي بالكلمة الرهيبة في وجهه قائلاً له ثلاثاً وبصوت عال جداً: الدجيرة!! الدجيرة!! الدجيرة.

ذلك ما حدث من حوالي أربعين عاماً بيني وبين الخواجه ايكيليا.. هذا.. وكما يقول الأب عزيز ضيا في نثاره.. بضم النون.. الذي يبعثره يومياً في ركنه بعكاظ.. وبعد.. فيا ترى.. يا هنترا.. من تكون هذه

الدجيرة التي تتطاول إلى مكان الأولب؟؟ يخيل إلى أنني سمعت بهذا الاسم من قبل أما على لسان المسيو كاليداسا.. أو من بق السيدة جورج صاند.. أو من ملامح مسز اجاثا كريستي.. وهذا هو الأرجح كما رسمها الابن الفنان ضيا في لوحاته الأخيرة.. ووردت في أحد مقاطع قصيدة اليوت التي وردت في برنامج «سكن الليل» المدلل للابنة دلال!!

أي نعم!! كما يقول صاحب الأحاديث المسموعة عصراً. فإن لدينا من الشخصيات الشعبية الأسطورية شخصية لها سمعتها وشهرتها وخطورتها.. هي دون فخر أو فشر.. الدجيرة.. والدجيرة هذه ـ للتعريف لمن لم يعرفها ـ سيدة جنية من سيدات الجن المشهورات بحبهن للمداعبة البريئة.. وللمباسطة غير العدائية.. وقد تخصصت دون بنات جنسها في التريقة على من لا يعودون لبيوتهم إلا بعد منتصف الليل. وبصورة أخص على العسس.. وعلى القراء الذين يحيون ليالي الأربعين والحول بالقرايات في بيوت أهالي الموتى.. وربما.. وربما تعرضت الدجيرة لبعض مطاليق.. أو مشاكلة الحارة لكسر أنوفهم.. وللرقص.. بنبابيتهم ليلاً وعلى انفراد بهم.. رقصة المزمار!!

وجميع المعاصرين من كهول جدة.. ورجالها.. وشبابها أيضاً يعرفون جيداً زقاق الخنجي.. وهو الزقاق الملاصق غرباً لقصبة الهنود.. وشرقاً لبيت بادكوك القديم.. واسألوا عنه الأستاذ محمد بادكوك صاحب منتزه كيلو عشرة.. بلدي!! وهو أيضاً زقاق ينقسم إلى قسمين متلاصقين ضيقين لا يتعدى عرض أولهما الشرقي المتر الواحد.. ولا يزيد عرض ثانيهما الغربي على المترين. ولقد ذهب في الهدميات الأخيرة.. وأصبح جزءاً لا يتجزأ من شارع الذهب!!

في هذا الزقاق.. يا سادتي.. ولدت «الدجيرة» منذ أكثر من قرنين ونصف القرن لأبوين معروفين مسجلين في سجلات مواليد الجن.. وهما البعبع.. والهمية. وفي أحضان هذا الزقاق الضيق نشأت البنت نشأة خرافية الحياة.. خيالية التربية.. وكانا كما يؤكد العم أبو تريحب في جلساته بقهوة سوق الجامع أنهما أبوان محافظان.. ولكن الدجيرة العفرية كانت من صغرها بنتاً لعوباً. ثم لما أصبحت فتاة وتزوجت من أحد أترابها من طائفة «بسم الله، بسم الله» خالعت زوجها مقابل مهرها من صبيحة ليلة الدخلة.. ونعرت على حد قول أهلها المحافظين، أو تمردت. واستقلت بحياتها على حد تعبير زملائها المجددين العصريين التقدميين. فأصبح همها.. كل همها.. معاكسة رجال الأنس.. والتعرض لهم.. ومجافاة رجال الجن!!

ولقد انفردت الدجيرة بطريقتها الشعبية البلدية الخاصة.. فقد كانت كما يؤكد كل من قابلها أو تعرض لمعاكساتها أول ما تبدو ليلاً للمارة في زقاق الخنجي تبدو في شكل سيدة من سيدات البلد المحافظات.. وكلهن كن محافظات.. فهي ترتدي من الداخل الكرتة الطويل الذيل والأكمام.. وتحتها السروال المصري أو الحلبي.. وعلى رأسها المدورة.. وبيديها البناجر.. وبساقيها الخلاخيل ذات القلاقل.. ذات الرنين العالي.. وبقدميها البابوج والخف الأسطمبولي.. ملفوفة بالقنعة السوداء التركي أو الجاوي.. وعلى وجهها البرقع لا تظهر من ثقبيه إلا العينان الدعجاوتان.. وتمشي الهوينا في تعثر وتكسر ظاهرين مشية يسميها الخبثاء مشية «اليعسبة» حاملة بقشة.. أو بقجة كما صححها أبو تراب.. فحين يمر عابر السبيل من زقاق الخنجي أو من الأزقة المجاورة له.. ويراها

كذلك.. يطوف برأسه.. فالدنيا نص الليل.. طائف شيطاني خبيث.. حيث يسمع بأذنيه رنات الخلخال.. وصليل البناجر.. وتفاجئه النظرات الساحرة من ثقبي البرقع.. فلا يكاد يحاذيها أو يلتق بها حتى تتسرب لأنفه رائحة اللونطا ـ اللافندر ـ مديرة رأسه.. وحتى تملأ سمعه نغمة ساحرة.. منغمة.. مغردة.. قائلة له في سحر أخاذ.. وفي لهجة مهذبة «اوه.. من فضلك ممكن تشيل لي البقشة دي؟ وتوصلها معايا للبيت؟» فلا يجد العابر الشجاع الشهم.. وكل عابر في منتصف الليل من زقاق الخنجي شجاع وشهم.. لا يجد إلا الإجابة الفورية المتلهفة.. هاتي يستي.. أنا تحت أمرك.. فتضحك.. ثم تناوله البقشة.. وتتقدمه بخلاخيلها.. ورنات بناجرها.. وبقوامها اللدن يتثنى.. ويتكسر.. ويتعثر في غندرة مثيرة!!

وهنا.. كما يقول العم أبو تريحب.. يبتدىء اللي.. حيث تقطع الدجيرة زقاق الخنجي الضيق جداً وتكاد أنفاسها تحرق مرافقها حامل البقشة.. ذاهبة.. أيبة.. لمرتين أو أكثر مما يدخل الرهبة تدريجياً بقلب الشهم الشجاع.. وفجأة.. وحين ترسل الدجيرة ضحكاتها المجلجلة المدوية دون انقطاع.. يصرخ المرافق محاولاً الهرب.. ولكنها تسد عليه طريق الفرار.. فيبتدىء في الصراخ.. ثم العويل.. ثم.. إن الصراخ ممن لا يتحكمون في عضلات بطونهم.. يجعل المرء.. يأخذ في أسباب القذف على ملابسه بمخزونه البشري متقطعاً يابساً.. أو سائلاً في إسهال متوال طويل.. وحينذاك.. وبعد أن تكون الدجيرة قد عملتها فيه تختفي.. كفص ملح ذاب.. من أمام عينيه.. ومعها بقشتها.. بعد أن تودعه بقهقهة صاخبة رهيبة!!

تلك هي لعبة الدجيرة في زقاق الخنجي مع العابرين العاديين. أما حين يكون المار أحد المطاليق أي مشاكلة الحارة فإنها في نهاية اللعبة تأخذ منه عصاه.. أو نبوته المزقر.. وترقص له رقصة المزمار.. دائرة حواليه.. وهو جامد في مكانه لا يتحرك.. ولا يسمع له صوت إلا أصوات الأرياح السفلى مشفوعة كذلك بقذف بعض المخزون البشري.. في فزع وارتجاف.

ذلكم.. هو القسم الأول من سيرة بطلة من أبطال أساطيرنا الشعبية.. فإلى القسم الثاني.. مرددين معاً.. هذه المقطوعة.. من شجرة أو على الأصح الأرجوزة البلدية الجماعية لا تغني إلا في حلقة مقفولة.. مفقودة.. ومن حولها حملة الطيران.. بتشديد وكسر الطاء:

أنا شفت.. يخويا.. الدجيرة..
الله!! الله!! يبوطيره

في زقاق الخنجي.. ولوحدي..
الله!! الله!! يا وعدي

أنا شلت البقشه حقتها
بايديها.. مدتها

ومشيت.. معاها.. المشوارا..
ورقصت.. وراها.. المزمارا

الله!! الله.. يبوطيره
وبعينك شفت الدجيره

دي عيونها: عيون الغزلان
والبرقع.. والقنعه: جناني

لا تــقــول لـــي: كـــانـــي.. أو مـــانـــي
مـــا احــلـــى الـــبـــرقـــع.. بـــزمـــانـــي
وزواجـــي.. يـــخـــويـــا.. الـــعـــمـــيـــانـــي

وبـــعـــيـــنـــك.. شـــفـــت الـــدجـــيـــرة!! الله.. الله.. يـــبـــوطـــيـــره

الدُّجِّيَرهْ..

القسم الثاني.،. بلدي على عربي هذا.. وقبل أن ندخل.. أي أن نخش.. في سرد القسم الثاني من سيرة الدجيرة.. تكملة.. أو بقية للقسم الأول.. والبقية في حياة الجميع.. نود هنا أن نطمئن الأخ الفاضل الذي سألنا صباح اليوم تلفونياً عما إذا كان فعلاً.. لا اسماً للدجيرة هذه وجود سابق؟؟ فنقول له ـ بكل صدق وفي تواضع مشكور ـ أجل!! فقد كانت المرحومة على لسان أهلها طبعاً.. حديث المدينة نهاراً لا ليلاً. وكان من المعتاد أن يذهب الناس إلى زقاق الخنجي ظهراً لكي يشاهدوا أثار معاركها الليلية.. وتلك حقيقية لا يمكن أن يطمس تاريخ أساطيرنا الشعبية بها مكابر.. أو جاهل!!

وبعد.. فقد جاء في بعض روايات جيران زقاق الخنجي أنهم جميعاً. أو معظمهم على الأصح.. قد سمعوا ذات ليلة بأمهات أذانهم الحوار التاريخي الذي دار بين والدي الدجيره.. وهما السيد.. البعبع.. والسيدة.. الهميا.. بغياب ابنتهما.. وكان كالآتي:

الوالد البعبع: ـ أنا شايف ترى.. يهميه.. إن البنت دجيره رايحه تضيع مستقبلها أكثر مما ضاع.. وأنو ما راح يجي لها ولا عريس.. لأن سمعتها..

الأم الهمية مقاطعة: ـ سمعتها؟؟ دي بنتي اشرف واطهر من كل بنت جنية في الحارة!! بس هي تحب تعاكس البني آدم.. مزاج يا أخي!!

الوالد البعبع: ـ موهو هادا اللي مخوفني على مستقبلها.. ومستقبلنا كمان.

الأم الهمية: ـ وايش دخل مستقبلنا في الحكاية دي.. يسي بعبع؟

الوالد البعبع: ـ قلتي لي.. شوفي يستي.. دحين لمن البني آدم يولف على وحده من جماعة «بسم الله.. بسم الله».. على قولهم.. ويحكي عليها.. ويخصر سمعتها.. يقوموا الإنس يتجرؤا.. وما عاد يخافوا من جماعتنا!

الأم الهمية: ـ بس كدا؟.. لا.. اطمئن!! ما دام نحن هنا.. والدنيا ضلام.. وكل ست انسيه ما تنيم بزورتها إلا لمن تفجعهم بالبعبع والهمية.

الأب ضاحكاً: ـ اللي هم أنا.. وانتي.. موكداً؟!

الأم الهمية: ـ طبعاً!! طبعاً!! على قول جارنا اللي من غير شنب.. واللي بيسموه اجرود افندي.

الدجيره داخلة ومقاطعة والدتها: أفندي؟ أفندي؟ لا.. لا.. شوفي يماما أنا ما أحب الأفنديات دول.. وأنا نهار ما ابغي أتجوز.. أتجوز على كيفي أنا.

الأم الهمية: ـ إنتي حرة.. يبنتي.. تتجوزي اللي يعجبك.. واللي يكون من «تيبك».

الأب البعبع: ـ أنا ما قلت لك يهميه.. ألف مرة.. لا تتكلمي

بالانقليزي!! غايتو.. انتي يبنتي.. زي ما قالت لك أمك.. حرة.. اتجوزي اللي يناسبك واللي يكون من «طنجك» من «تيبك» على قول أمك.. وإلى هنا انتهى هذا الشهد المسموع من جيران زقاق الخنجي - والذي هو جزء من تمثيلية «البعبع ومراتو» ـ وبانتهائه أخذت الدجيرة حريتها الكاملة.. وبتصريح من أبيها ومن أمها.. فابتدأت في توسيع عملياتها دون حرص على سمعة العائلة.. ويقول الجيران أنها منذ تلك الليلة أصبحت لا تفارق الشبابيك.. والنوافذ.. وسطوح بيت أهلها.. في أغلب الأحيان!!

ونعود لما كنا فيه.. فنقول.. أما بالنسبة للمقرئين في كل أربعين.. أو حول بيوت الأموات.. فقد كانت لعبتها معهم تقتصر على زيادة رنات الخلاخيل بقدميها.. وصلصلة البناجر بيديها.. ولقد حدثني المرحوم والدي.. وهو أحد قراء جدة القدماء والمشهورين.. إنه كان مع بعض الفقهاء البصيرين ـ أي العميان ـ في قرية ببيت الخال باربعه المجاور لمعصورة أبو الخيور القريبة من زقاق الخنجي.. وقد اشترط عليه الزملاء البصيرون الثلاثة أن يتجنب السير بهم في الزقاق.. فقد سمع أحدهم من بعيد لبعيد صوت الخلخال.. ولما كان الوالد.. وانت تعرف طبع الوالد على تعبير الزميل حسن قزاز.. محباً للمداعبات الإخوانية.. فقد أفلت يد أولهم وهو قائد المجموعة صارخاً: يا ساتر! هو نحن يا مولانا سرنا في وسط الزقاق.. لا حول ولا قوة.. إلا بالله..

عند ذلك.. احتار الزملاء الثلاثة.. وتخبطوا في سيرهم.. ثم كفشوا في بعضهم.. كفشة أعمى في ضلمه.. بحق.. ويقولون ـ فيما بعد ـ إنه لم ينقذهم من مكر الدجيرة إلا أنهم بادروا حالاً إلى تلاوة آية

الكرسي وبصوت مرتفع جداً.. وقد كرروا التلاوة لسبع أو تسع مرات.. ولم يقطعوها إلا بعد أن سمعوا صوت الوالد وهو يقول لهم.. لقد صرفها الله عنا.. فاندفعوا ضاحكين مقهقهين.. متعاهدين فيما بينهم ألا يقبلوا بعد الليلة هذه قراية في أي بيت مجاور أو قريب من زقاق الخنجي.. محل الدجيرة!!

هذا.. وقد روى لي أحد المتولين عملية هدم البيوت التي فيها الزقاق لعمل الشارع الجديد.. إنه حين وصل الهدم للبيتين اللذين يقع بينهما.. وهجم الدركتر عليهما سمع صرخة نسائية حادة.. اعقبتها ضحكة رهيبة طويلة.. ثم صوت خفي من أصوات طائفة «بسم الله.. بسم الله» وهو يهتف بسكان الزقاق من جماعته «الحقوا.. عزلوا.. قوام.. قوام.. فليس بعد اليوم ظلام» وهكذا بهجمة دركتر باسل شجاع اختفت حياة الأشباح والأوهام!!

تلك هي.. يا سيدي السائل غير الجامد صباح اليوم.. حياة إحدى بطلات أساطيرنا الشعبية.. الدجيرة بخلاخيلها وبناجرها وبقشتها وضحكتها الساحرة.. وقهقهتها الرهيبة.. الحياة التي بدأت مع الظلام وانتهت بوصول التيار الكهربائي إلى موضع الزقاق الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من شارع طويل عريض لا يخلو دائماً من الزحام! وترى.. وبالمناسبة.. وقبل أن أنسى.. فإن الخنجي مالك البيت المسمى به الزقاق كان أحد كبار تجار جدة.. وأصله من الهند.. وكان قصيراً.. وظريفاً حتى في إطلاقه على الكباب الميرو.. كباب كراشي!!

أما سبب تسمية هذه الفتاة الجنية وإحدى بطلات أساطيرنا الشعبية «الدجيرة» عامياً وشعبياً فيرجع إلى قصر قامتها مما أصبحت معه كلمة

دجيرة ذائعة شائعة مطلقة على كل قصير مفرط في القصر.. أما ما قرره الأستاذ عبد القدوس في كتابه «مدينة جدة الجديدة تحت الطبع» فيقول إن الدجيرة آتية من لفظة «الديجور» من دياجير ودياجر.. وهو الظلام الذي هو أصل البلاء في كل شيء.. وهو قول مردود عليه.. ومع ذلك.. فالله أعلم.

وأخيراً.. ولله مزيد الحمد.. فقد وافق أحد الأعضاء المهتمين بمتحف الآثار إلى الحصول على النسخة القديمة والوحيدة من المرثية الأنسية الجنية للمدموزيل «الدجيره».. وقد حفظها في علبة من البلاستيك حتى حين فتح الباب.. وتعتبر هذه المرثية دليلاً قطعياً على صدق الرواية العربية التي تقول أن لكل شاعر قريناً من الجن يوحي له به إذا كان حليفاً لسكان وادي عبقر.. وإليكم بعضاً منها:

قفوا عند الزقاق.. إذا أتيتم
إلى الخنجي.. وقد حبك الظلام

تروا دجيرتي الحسناء.. دارت
هنالك.. حيث فاض بها الغرام

عليها القنعة التركي.. تبدت
ككيس الفحم.. ينقصه الضرام

ببرقعها الطويل.. وأين منه
ومنها.. في حلاوته.. اللثام

وقد شنت.. برجليها.. ورنت
خلاخيل.. يشخلعها القوام

لكم فجعت.. وكم زبعت قلوباً
جرى أصحابها سحراً.. وناموا
فيا أخت العفاريت النشامى
وبنت الجن.. في الخنجى أقاموا
لسوق أقيم في الأَطلال.. قهوا
أسميها: ـ دجوا دجيرا ماموا!!

سَبْعَ اللِّيلْ..

ميناء جدة.. التي هي دهليز الحرمين ـ أو عروس البحر.. كان ولا يزال الميناء الأول والأكبر للمملكة ـ ومركز التجارة الرئيسي لها.. كما أنه ـ أي الميناء.. والميناء كلمة يونانية الأصل للعلم الكريم.. كذلك بالنسبة للحج. وكما هو معلوم للعموم فقد كان قدوم الحجاج كلهم يتم عن طريق البحر.. وقبل أن يتم عمل الميناء الحاضر والذي كان للعبد لله شرف المشاركة في التفكير المبدئي فيه وفي المساهمة بتأسيسه ـ كمدير حج عام كانت بواخر الحجاج تقف في عرض البحر بعيداً عن الرصيف ليقوم البحارة.. وكلهم من حارة البحر التي كانت تعتبر الحارة الرابعة لجده ضمن محلة اليمن.. بنقل الحجاج من عرض البحر في الأبوات.. واللنشات. ولقد كانت لهؤلاء البحارة بطولات نادرة في هذا العمل الجبار الفريد ـ وخصوصاً وقت الأنواء.. وعند اضطراب الأمواج.

وبالمناسبة.. فقد كان لميناء جدة المائي بعرض البحر في أيام الخليف.. منظر شعري رائع.. وبالأخص في الليل.. فكأن البواخر فيه قوافل جمال برية.. تزينها الأضواء المتلالئة في أنحاء قريبة متساوية الصفوف.. وذلك حين وحيث تقف هناك لأيام ولليالي عديدة مؤلفة من أكثر من عشرين باخرة متباينة الأحجام.. مختلفة الجنسيات في انتظار

عودة ركابها الحجاج بعد أداء النسك لإعادتهم إلى بلادهم ـ كما كان أهالي جدة يقضون أيام الخليف.. أيام وليالي عيد الحج في بشاك وجماعات داخل تلك البواخر ـ ومعهم أكلهم.. وأدوات الشاهي.. وألعابهم من الضومنا إلى الداما إلى ورق.. الجوكر.. مع قيامهم بالتجول على كل البواخر الموجودة بعرض البحر وعودتهم لباخرة نزولهم الدائم التي اختاروها لذلك ـ هذا ـ وبالرغم من شهرة عديد من رجالات البحر من بيت أبو داود وأبو صفيه ـ وسلامه ـ والمناع.. وعنبر خالص ـ إلا أنها ـ أي الشهرة.. عقدت لواءها لشاب أسمر اللون.. سمهري القوام كما يقول التشبيه العربي ـ كأنه الرمح الطويل ـ أو الشوحط الأطول لا عقد فيه وقد طلع هذا الشاب فجأة كما يطلع أو ينبت النبات الشيطاني ـ ومع قدوم الشهرة المفاجئة له ضاع اسمه ولقبه الأصليان.. وبقي له اسم «سبع الليل» وربما ساعد على ذلك أن سبع الليل هذا كان أبكماً.. لكنه لذكائه كان يلتقط الكلمات من شفتي محدثه وكأنه جهاز التقاط حديث.. كما كان يلتقط ويفهم الإشارات ويجيب عليها بصورة أسرع من إشارات مورس!!

ولقد كان المنطق يقضي بأن يسمى «سبع البحر» لأنه بحري أصيل ـ ولكن لأمر ما أطلق عليه اسم «سبع الليل» وسبب هذا «الأمر ما» إنه كان كثير التجوال بالليالي.. والمظلمة منها على الأخص.. فلا تكاد العين تراه حين يبرز بفحمة جلده السوداء من قلب الليل الأسود البهيم.. حيث كانت الإضاءة في جدة بالفوانيس.. فوانيس البلديه ـ التي يدب فيها النعاس من أول الليل إما لخراب في بلبلة الفانوس.. أو لنقص الغاز نتيجة لاتساع الذمة آنذاك لشفط نصف أو ثلاثة أرباع المقرر وبيعه

بالتفرقة.. أو بالجملة!!

وكان ظهور سبع الليل المفاجىء للمارة بسواد جلده المتفق مع سواد الليل مصدر خوف ورعب في بداية الأمر ـ ولكنه أصبح مصدر اطمئنان وراحة. لأن ظهور سبع الليل المفاجىء هذا إنما كان لعرض خدماته الكبيرة والبسيطة فهو يستطيع أن يوجد المعدوم في الأوقات المتأخرة لطالبه سواء كان هذا المعدوم خبزاً للأكل.. أو دخان فراطة للكيف.. أو دفاتر لف.. أو كبريت.. أو نداء داية للتوليد.. أو مقرىء يسهر على الميت.. أو .. إلى آخر هذه الأوات المتعددة المطالب والأنواع.

وعندما اطمأن سبع الليل لشهرته الليلية الواسعة.. أخذ حينما لم يكن عمل البحر يقتضي وجوده يظهر للناس في النهار عارضاً خدماته أيضاً فيه.. وكانت فزعاته المهمة تتجلى كذلك في ليالي الأفراح.. وفي المآتم على السواء.. ولا يزال المخضرمون.. وحتى جيل الشباب المنحدر الآن للرجولة أو للكهولة ببطء.. يذكر سبع الليل ويتذكر خدماته.. وهل يمكن لأحد منهم أن ينسى السبع؟؟

ولا نحتاج أن نقول أن عمله البحري ذاته كان مصدر إعجاب وتقدير.. فهو السبب الأول في شهرته ـ لقد كان سبع الليل يتسلق الدقل ويلف الشراع في لمح البصر ـ حتى لقد أصبح المتخصص الوحيد في وضع الأعلام للقنصليات والسفارات بأعلى البنايات.. وإلى مدى جوي بعيد.. كما كان.. سريع الغوص في البحر إلى قامات وقامات.. حيث يطفو بسرعة مماثلة وفي يده ما سقط من صاحبه عفواً ـ أو ما أسقطه عمداً ليلتقطه السبع ويعيده إليه.. وكان يتم ذلك في مجال الاختبار لسرعة غطسه في البحر.. وقبه منه.. في لمحات قصيرة..

وكان سبع الليل كاللولب ـ أو كالصاروخ السريع في دورانه على البواخر أيام الحج وقضاء لوازم أو نواقص كل بشكة.. مع عدم إغفاله البشك الموجودة في جزيرة أبي سعد أو جزيرة الواسطة أو حتى جزيرة الجن المنعزلة لوحدها في وسط البحر ـ وحين تعطل عمل وسائط النقل البحرية أو خف كثيراً بعد أحداث الميناء.. سهر سبع الليل بسرعة في معرفة سائقي السيارات وفهم موديلاتها.. وملاحقة المحتاجين للخدمات بها من سواقين ومساعديهم ـ وذلك يدل على حاسة القابلية النقلية للتطور الدائم فيه ـ ويقال إنه كان يطمع في آخر أيامه في الخدمة الطيرانية.. فقد شوهد مراراً يقف على أرض المطار أو قريباً منه مع مجاذبة الكباتنة وطاقم الطيارات أطراف الحديث بطريق الإشارات بالشفاه.. أو بأصابع اليدين.. ولم يمنعه بكمه.. ولا سواد لونه.. ولا أميته عن تنويع نشاطاته في كل مجال المواصلات.. والنقل!!

لقد كان الناس لوقت غير بعيد جداً يتناقلون الجمل المتتابعة مثل: عليك وعلى سبع الليل!!.. شفت لي سبع الليل؟؟ ازهم لي سبع الليل!! أهوجا.. جا سبع الليل! إلى آخر.. وفي ذلك دلالة قاطعة على فعالية وديناميكية ـ حسب التعبير العصري ـ السبع.. وعلى حاجة الناس له.. وعلى الثقة التي أولوه إياها.. وكذلك على نشاطه الوفير في أداء الخدمات بأنواعها ـ في ضحكة تبرز حلاوة أسنانه البيضاء التي يفضح ببياضها لون بشرته السوداء..

وأخيراً.. فلا أذيع سراً إذا قلت إنني قبل أمد طويل بعض الشيء قد دخت في البحث عن سبع الليل ـ وتقصَّي آخر أخباره.. وذلك لمعرفة وجوده ـ أو تاريخ وكيفية وفاته.. حتى علمت في النهاية أن الله قد تغمده

برحمته في هدوء وانزواء ودون العلم بذلك حتى من عارفي خدماته.. وكان لا بد بالنسبة لتاريخ شخصياتنا الشعبية من تعقب هذه الشخصية التي كانت قبل ـ أن أنسى.. من مكملات الفرحات العامة وخصوصاً فرحات العيد حيث تجد سبع الليل في محلات أعياد اليمن والمظلوم والشام.. وهو على استعداد تام لأن يتلقى بالأحضان من تقذف بهم المداريه.. في الألواح ـ أو الشباري ـ أو صناديق العيد من الأطفال والصبيان قبل أن يسقطوا على الأرض ويحدث لهم ما لا تحمد عقباه ـ كما تخصص بعد اعتزاله الخدمات العامة لكرة القدم. حتى أصبح الوحيد المنفرد لتحضير ملعب الصبيان بأجر وبدونه في المباريات الكبرى!!

ذلكم ـ هو سبع الليل بلونه الأسمر.. وبأسنانه البيضاء.. وبثوبه القصير.. وبتقشمط وسطه بالبقشة الكشميري.. ورأسه بالعمة ذات العذبتين.. العذبة الطويلة المرسلة وراء ظهره والقصيرة المدلاة على شحمة أذنه اليمنى.. وبأقدامه الحافية المتشققة يجففها بالتراب.. بعد أن ملت ماء البحر..

أما سبب تسميته «سبع الليل» بدلاً من سبع البحر حيث عمله وحياته ودنياه ـ فيرجع إلى ما أسلفنا من بروزه المفاجىء بسواد جلده من إهاب الليل الحالك..

وبعد.. فقد استمعت قبل ليالٍ مضت إلى أحد البحارة الشيوخ.. وهو يستمع إلى أغنية قديمة حلوة للأستاذ محمد عبد الوهاب ـ وكل أغانيه القديمة حلوة ـ حيث طلب هذا البحار الشيخ من الدكتور عبد الله مناع أن يكلف عمه اسماعيل ليتوسط لدى أستاذه الفلاحي القديم لعمل مقطوعة تلحن لتغنى إحياء لذكرى فقيد المروءة سبع الليل ـ فكان له ما

أراد ـ أو من ـ تلال ـ بالتاء بدل الطاء ـ على العود المنفرد والذي كان السبع يميل إليه ـ ولا يمل من سماعه: ـ

يا عروس البحر.. يا ذات الشراع
واسع الامداء.. باعاً بعد باع..
راقص المقداف.. في ذاك الدراع
مده في بحرنا.. سبع السباع!!
كيف تنسين فتى حلو السواد
أبيض الأسنان.. ذري الفؤاد..
يقطع الليل.. سريعاً للتنادي
يجلب العازة من أقصى البلاد!!
لافف العمة.. محبوك الحزام
حافي الرجلين.. عاماً بعد عام..
فلفلي الشعر.. مياد القوام
بين بشكات.. وحشد.. وزحام!!
أين سبع الليل.. يا بنت الليالي
أين؟؟ يعني أين القاه.. قبالي؟؟
خبريني.. يا ابنة العم هلال
كيف ضاع الواد.. يا بنت الحلال؟؟؟

سِليمانُ مُلُوخِيَّه..

.. من أمثالنا الشعبية القديمة التي كانت متداولة.. وقد لا تزال.. مثل شعبي يقول «الكتاب نصف المواجهة».. والمقصود بالكتاب هنا هو الرسالة أي الخطاب يبعث به محرره إلى سواه يطمئنه فيه إلى أن الكل بخير.. وإن الشوق عظيم.. وإن المطلوب هو إرسال تنكة زمزم إذا كان المرسل إليه بمكة.. أو شوية تمره.. جادي على برني.. إذا كان المرسل إليه بالمدينة المنورة.. وإن ما تضمنه الكتاب أو الرسالة أي الخطاب يعتبر بمثابة وسيط حي يرى الشخص المرسل الشخص المرسل إليه به ـ وكأنه يشاهده أمامه.. فيدردش معه ما شاءت لهما الدردشة!!

أما إذا كان الكتاب مرسلاً إلى خارج البلاد فموضوعه أما تجاري بحت يتضمن وصول البضاعة المرسلة أو طلب بضاعة جديدة من أرز أو سواه مع تحديد النوع والكمية وإن «الصر» مرسل لكم بالبابور.. أي بالباخرة.. جها نقير أو علوي المسافر من جدة يوم كذا حسب إفادة وإشهار المنادي العم سديق حلواني المنتهي بجملته التقليدية والحاضر يعلم الغائب.. وعاشق النبي يصلي عليه!!

وإما أن يكون الخطاب خاصاً بالعلم بإجراء العملية ونجاحها على يد الدكتور ووترفيلد في بنط السودان ـ أو بالبر المصري على يد الدكتور

الكاتب اومورو. . . لينتهي بجملة والحمد لله اللي ربنا قدمك على خير. . والجماعة والبزوره كلهم يقبلون أياديكم ورا. . وقدام. .

ذلك هو وضع الكتاب أو نصف المواجهة لدينا وموضوعه منذ أكثر من نصف قرن فما فوق. . وبصورة عامة وأساسية فقد كانت الكتب أو الرسائل والخطابات ولا تزال أدوات اتصال في حياة الناس نشأت بحكم ابتعادهم عن بعض لعمل أو لعلاج أو لنزهة لتوثيق الروابط والارتباط بينهم أينما كانوا. . ولتبادل المعلومات. . وأحياناً. . أحياناً لبث الأشواق الحارة فقط لا غير زيادة ـ وهنا يتلاقى نصف المواجهة بالنصف الحلو!!

والأدب العربي القديم حافل بتصنيف أنواع «الكتب» أي الرسائل ـ وبأدابها ـ وما يجب أن يقال في البداية من أنواع التحية والسلام. . وألقاب المرسل إليه وتفخيمه بكلمة الأمجد ـ الموقر ـ العزيز ـ الفاضل. . وما تختتم به من قفلات متعارف عليها بالسماع وبالتداول. . ولقد تفرغ أدباء كبار لهم وزنهم من تقرير ومن تصنيف آداب الرسائل بداية وخاتمة لها. . ونرجوا أن يتوفق أحد شبابنا الدارسين لعمل «رسالة» في بحث موضوع الرسائل الشعبية لدينا من كافة أطرافه الموضوعية والبريدية إن شاء الله.

وكما سبق فالمهم أولاً وأخيراً إن الكتاب كان لدينا ذا أهمية اجتماعية شعبية كبيرة ـ فهو. . وبالأخص قبل المواصلات البرقية والتلفونية ـ كان ولا يزال نصف المواجهة. . ومن أجل أهميته هذه فقد نظمت الحكومات كلها عملية توثيق الصلة والارتباط بين مرسل الكتاب والمرسل إليه. . سواء كان عادياً أو مسجلاً بكل ما يقتضيه التنظيم وتطوره المستمر.

ومن هذا المنطلق الاجتماعي الهام.. كما تقول صحف اليوم.. وبالنسبة لنا فقد نشأت بحكم الأمية القديمة لدينا آنذاك طائفة تعرف باسم الكتاب العموميين.. وكان مقرها قديماً في جده في سوق الجماله بتشديد الميم المفتوحة ـ.. وذلك لخدمة من لا يفكون الحرف فينوبون عن المرسل للكتاب في ترجمة وترتيب وشرح ما يريد الافضاء به للمرسل إليه ـ كما كانت بعض العائلات بجده تستعين بتلاميذ المدرسة من ابناء الجيران في صياغة الكتب لذويهم المسافرين.. ولقد كان هذا البند العائلي مصدر رزق ثابت للطلبة.. واشهد إنني كنت واحداً منهم ولما يتجاوز عمري الحادية عشرة.. وبضعة أشهر منعاً للالتباس.. وطرداً للحسد.. وخزقا للعين..

من هذه النقاط البريدية المسجلة وغير المسجلة تستحب المقارنة بين ما تفعله اليوم مصلحة البريد وما كان يقوم به الموزع الشعبي الشهير العم سليمان ملوخيه.. كما ينبغي طبعاً التعريف المبدئي بهذه الشخصية الشعبية قبل الدخول الكامل في هذه المقارنة المستحبة.

فمن قبل أكثر من نصف قرن من الزمان كان الماء أمام زاوية المغربي القريبة من باب مكة والمستقرة بمكانها حتى الآن يرى مركازاً عتيداً يتصدره الشيخ «ملوخيا» عميد بيت ملوخيا الأشهر أو الأول.. وحوله على الكراسي الشريط الثلاثة التي يتألف منها المركاز ـ أو بالأرض على الصناديق والأقفاص يجلس «العيال» حسب تعبيره.. وأمام المركاز وحوله تتناثر مواد الشغل ـ وأدوات الأعمال.. وهي قفصان السمك المرسلة من جدة إلى مكة.. ومشابيك «جمع مشبوك» ـ البرشومي مع النعناع والريحان الواردة من الهدا.. وتنك الزمزم الواصلة من «الله

يعمرها».. وطرود التمر جادي على برني وبصحبتها الورد المدني والعطره.. وقبل وبعد هذا ـ وهو المهم ـ رزم الرسائل ـ أو الكتب التي هي نصف المواجهة!!

وابتداء من البند الأخير ـ وهو رزم الكتب.. ومن هذا المركاز العتيد سوف نتعرف على البارد ـ ودون استعجال.. ببطلنا الشعبي الناشىء «ملوخيه الصغير» الذي صار فيما بعد علماً معروفاً في طول مدينة جدة وعرضها باسم عم «سليمان ـ ملوخيه» رجل البريد الأول ـ والموزع الذي لا يخطىء أبداً في معرفة مقر وعنوان المرسل إليه مهما كان وأياً كان وهو خال أولاد باعامر ـ وصاحب الأوليات التي أصبحت لمدة طويلة رغم عماه ـ وفقد بصره العزيز فيما بعد ـ قواعد يستنير بها كل موزع للكتب التي هي نصف المواجهة ـ والتي أعد منها ـ ولا أعددها الجمل الآتية: ـ

أ: سيبك ـ يواد ـ هو أنا يغباني أحد في جده؟؟

ب: روح يمين من هنا.. تلقاه جالس على الدكه ـ في القصبة ـ أي قصبة الهنود!!

ج: امشي على طول ـ أهو ـ أهو ـ عمك باقعر ـ وبعدو ـ في القهوة ـ الكركشان!!

د: مرحبا يا فندي!! حيا الله الشيخ!! صباح الخير يا با!! كل سنة ونت طيب!!

.. بالمركاز نشأ ـ وفيه درج ـ ومنه تعلم.. ويا ليت أولادنا اليوم يعلمون. أو يتعلمون إن من «المركاز» تخرج آباء لهم لم تفقسهم البيضات إلا وهم كتاكيت يصيحون قبل الأوان ـ وتلك في باب فلتات اللسان مجنحة بين مجنحات أضيفا في الباب الأستاذ محمد حسين زيدان.. دون

أن ندخل معه في المباراة المعروفة ـ تقدر تداقش؟؟ اهي بيضه لبيضه؟؟ ـ أو «جملي يمشي ـ وجملك ما يمشي؟؟!!».

فهكذا ـ ودون إيحاء ملحوظ أو مسموع نشأ ودرج وتعلم العم سليمان ملوخيه ـ وشيئاً فشيئاً ـ كما تقول التعابير الحديثة استظهر واستنطن أصول توزيع البريد لأهله.. حسب تعاقد والده مع الجهة المختصة بمسؤوليته كشيخ للحمارة بتشديد الميم المفتوحة.. ولكن لما كان الوالد الشيخ ملوخيا الكبير معروفاً أو متهما من «سيدنا» كما كانوا يسمون الشريف بأنه «سياسي».. وكلمة سياسي حينذاك كانت تطلق على كل من جاء على طرطوفة لسانه اسم وكالتي الأنباء العالميتين «روتر» و«هافابس»، والأولى انجليزية والثانية فرنسية.. فقد كان الرجل في حكم المتضايق في حياته والمقيدة نشاطاته الكلامية والاخبارية ـ ولذلك ركز على نجله البكر سليمان والشهير فيما بعد باسم «ملوخيه».. ملوخيه حاف.. دون خبز أو غموس آخر.. ليكون خليفته الأوحد..

ونظراً لأن البحث الآن مقصور على شخصية «ملوخيه... الابن سليمان» باعتباره الشخصية الشعبية التي وهبت جده سمعتها البريدية الأصيلة. في ذلك الحين.. فإن من اللازم. ومن كل بد.. كما كانت تقول عمتي.. أن نعطيه حقه مستقلاً عن أبيه ـ فلقد كان شاباً نشيطاً.. حديدي البصر.. لا يكل من الشغل ولا يمل.. كما أنه كان «نازكا» بتعبير تلك الأيام.. أي أنه يعرف كيف يلف العمة ويرخي عدبتها ـ ويرج الحزام.. ويتقطب المداس «أبو خرزين».. ويكوي الثوب اللامس بمزاجه ـ ويرش قليلاً من «اللونطه».. على أطراف وداخل ملابسه. لتفوح رائحته الشذيه ـ ويمضغ أحياناً التامبول ليبصق بفضلاته على الأرض إعراباً على

اشمئزازه من كل من يكل استلام رسائله إلى الصبيان بدل استلامه لها بنفسه.

كما كان المرحوم سليمان ملوخيه حريصاً على معرفة من أخلى دكانه القديم ونقل لغيره ـ وعلى من استأجر مكتباً في شارع قابل الجديد.. واستغنى عن مقره في الخاسكية. أو قهوة الجمالة أو سوق الندا ـ ومواظباً على الاتصال بالبلدية لمتابعة الأسواق والشوارع والحوادث المستحدثة. ومدمناً على زيارة المحكمة للعلم بمن طلقها زوجها وسكنت مع أهلها أو لوحدها في بيت جديد. وطائفاً على الجوازات والشرطة لأخذ فكرة عن المهاجرين من بلادهم لاستيطان مدينة جدة.. أم الرخا والشدة.. والإحاطة بحالات الغرباء الجدد.

هكذا بدأ الشاب سليمان ملوخيه مهمته البريدية تحت أنظار وأسماع والده وبقية الرجال والعيال المبتدئين معه من أمثال «محمد عقيقي».. و«حسنين» وسواهما من خريجي المركاز العتيد.. وكذلك ايضاً انطلق ملوخيا الصغير رحمه الله متخطياً سواه ولداً نازكاً امتيرياً همه الرسائل للرسائل ـ على طريقة الفن للفن.. فلم يحدث يوماً من الأيام أن تأخر مكتوب من كاتبه إلى مرسله ـ فلا جهل بالعنوان إطلاقاً.. ولا تعلل بأن المرسل إليه «لم معروف» فالجميع لديه أولاد بلد ـ ومن حق ولد البلد على ابن بلده أن يعرف عنوانه ومقره ـ وإلا فهوا إما دخيل جاهل جهلاً مطبقاً لا يجوز ـ وإما أن يكون متهاوناً في عمله.. والتهاون غير وارد في عرف أصحاب الفن والأصول..

بهذه القواعد الفنية.. وبالأمانة ـ وبحب الصنعة للصنعة وبالإخلاص والدقة أصبح على مر الأيام فالشهور فالأعوام اسم «ملوخيه».. مرادفاً

تماماً للضبط وللربط كما قالها بعضمة لسانه المرحوم أخونا حمزه شحاته حينما كان سكرتيراً للمحكمة التجارية التي كان مقر مكتبها في شارع قابل تمهيداً لنظم حلمنتشية لم نعثر على أصلها حتى اليوم ـ وإن كنا لحسن الحظ قد احتفظنا بمعارضتها من قبلنا بعد تعارفنا بحمزه بعد رجوعه من بومباي وعليه طابع «الزينليه» بنطلون بفته طويل ـ وثوب بفته ـ برضو ـ قصير.. ودقله أقصر ـ أي «بالطو» بالاصطلاح البلدي للتسمية.. أو «باردسو» بالافرنسية ـ أو معطف بالفصحى الفصيح..

ومن نفسي.. قبل موالاة البحث.. عن شخصية رجل بريدنا الأول الشعبية أن أسجل هنا للتاريخ.. بعض ما ورد في تلك المعارضة في الآتي:

إذا مـــا جـــاءنـــا ـ يـــومـــاً
مـــلـــوخـــيـــا.. وفـــي يـــده: ـ

رســـائـــلـــنـــا!! فـــقـــل جـــانـــا
قـــدوم الـــســـعـــد.. فـــي ســـعـــده..

فـــقـــم.. يـــا واد ـ مـــنـــتـــصـــبـــاً
وحـــيـــي الـــمـــجـــد ـ فـــي مـــجـــده..

وقـــل لـــو: ـ هـــات يـــا عـــمـــي
بـــريـــداً طـــل مـــن بـــرده..

وبـــربـــشـــه بـــقـــر شـــيـــن..
لـــيـــدلـــق كـــل مـــا عـــنـــده!!

.. لماذا كان عم سليمان ـ ملوخيه ـ رجل البريد الأول في جده؟ وعشان إيش؟ ولم لم يخطئ يوماً في معرفة عنوان المرسل إليه ـ؟ ومتى.. وكيف صار أعمى؟ وكيف.. وهذا هو جوهر الموضوع.. تفوق على عماه.. فكان يقوم بتوزيع البريد.. يقوده صبي عادي.. وهو أعمى حتى لاقى ربه مؤدياً رسالته في إيصال الرسائل لأهلها وكأنه بصير يرى الناس والمواقع والمداخل والمخارج بطريقة فريدة فذة تجسد معنى الآية الكريمة. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦) أحسن تجسيد؟

السبب الأساسي.. وهو تاريخي محض.. أن مدينة جدة كانت على عهده ذات سور.. والسور محدد بطبيعته لمن هم داخله.. فهو كالقفص حاجز من فيه لا يزيدون ولا ينقصون ـ بمعدل توازن المواليد والوفيات ـ وبرغم مساوئ الأقفاص أو محامدها فإنها في الدرجة الأولى تعين الموجودين داخلها ـ وربما جاءت تسمية روسيا في يوم من الأيام «بالسور الحديدي»، تطبيقاً علمياً لهذا المفهوم.. هذه.. أو هذا واحد من الأسباب..

الشغلة اللي بعدها.. إن عم سليمان ملوخيا نشأ بصيراً فرأى وحدد معالم جده من أزقة.. لأسواق.. لشوارع لحواري. حفظها غيباً ـ فكان كما يقول رحمه الله.. أنا يا واد ما يغباني أي محل في جدة.. ولقد انطبعت اتوماتيكياً كل تلك الأماكن في مخيلته ـ حيث أخلص لها فأخلصت له ـ فهو يعرف أين تدب قدماه ـ دون أن تبصر قدميه عيناه ـ فهكذا نشأ ـ وكذلك ترعرع.. وتدرج بين شارع ـ وحارة ـ وزقاق!

طيب كدا؟ اللي بعدو من الأسباب ـ إن عم سليمان ـ ملوخيه كان

صاحب مزاج بريدي ـ أي أنه يفرح ويسر وينبسط إذا استلم صاحب الكتاب كتابه.. ويقول معاشروه إنه إذا تعذر عليه يوماً من الأيام معرفة عنوان المرسل إليه لا ينام ليلاً حتى يصبح وقد عرف عنوانه على طريقة «الكتاب يعرف من عنوانه..»!!

بعدين ـ عاش سليمان ملوخيا شبابه ـ ثم عاش رجولته وكهولته وهو يؤمن إيماناً صادقاً بأن مهمة رجل البريد أن يكون أميناً في ربط المرسل بالمرسل إليه ـ وأشهد ـ ويشهد معاصروه بأنه مثل مبدأه هذا أحسن تمثيل ـ وعلى هذا النسق الفريد السوي ـ والبريدي ـ والمزاجي ـ سار الشاب سليمان ملوخيا ـ في مهمته الشاقة ـ وتفوق على سواه ـ بصيراً ثم أعمى ـ فوزع البريد دون أن يرفع صوت اعتراض أو احتجاج من أي مواطن بأن الرسالة التي جاءت باسمي لم استلمها ـ وذلك في تاريخ الاستلام والتسليم شيء ليس بالقليل!!

إخواني ـ أخواتي ـ أولاد عمي ـ بنات خالاتي ـ لقد عاش «ملوخيا».. ومات من غير أن يلجأ إلى العذر السائد اليوم «العنوان غير مفهوم.. أو إلى أن الشخص المرسل إليه «لم معلوم».. وبذلك وبفضل هذه العصامية البريدية كانت لنا مواصلات بريدية تفوق في دقتها ـ ودون مبالغة ـ أي جزء من أجزاء العالم ـ

أقول قولي هذا ـ والأسى يحز في نفسي ـ يحز في نفسي ـ لما وصلت إليه أجهزتنا البريدية في القرن الرابع عشر الهجري الموافق تقريباً للقرن العشرين الميلادي من أن «المذكور» غير معروف أو أن «مكانه ما شفناه» ـ أو أنه لعلمك ـ والعلم عند الله ـ نقل لمكان تاني ـ أو «والله ـ دورت عليه ـ ما قابلناه».. أو «هو هاد الرجال من البلد؟ بيقولوا.. انو

واحد من أهل بيروت والقناديل كثيرة ـ والعلم عند الله..!! .. !!».

وللمناسبة التاريخية.. أو غير التاريخية ـ فقد وجهت وحييت وأنا بكامل قواي العقلية إلى ابننا الدكتور محيي الدين كيال حين أسندوا إليه مهمة الأعمال البريدية «حلمنتيشية» استعرض فيها بدون قصد ما وصلت إليه بدون قصد اتصالاتنا البريدية ـ ورغم الصلة الوثيقة التي انفلتت أو سوف تنفلت غصباً عني بأخي معالي الأستاذ محمد عمر توفيق ـ بأخي في العلم وفي الله والفن ـ الأستاذ حسين منصوري فقد وجهت للابن الكيال «الحلمنتيشية» التي أخذت في يومها ما ينبغي لها من التقدير والاعتبار.

اللّه اسأل للبريد.. فلاحاً
ولأبننا الكيال.. فيه.. نجاحا

وأقسم صادقاً بالله! أنني لا أريد تشهيراً أو تجريحاً بقدر ما اريد الانصاف «لملوخيا» ـ وكل ملوخية وأنتم بكامل الشهية.

بِيبي زَيَنب..

.. لو قدر لأحد أبناء جدة من أبناء جيل اليوم السينمائي التلفزيوني الصاروخي الطائر.. والمولود على يد القابلة القانونية.. لو قدر لهذا الواحد.. فرضاً وتقديراً.. أن يكون واحداً من أبناء الجيل السابق كهول وشيوخ اليوم.. غلمان وشباب الأمس.. لشارك بالفعل أو بالمشاهدة في اللقطة الشعبية التالية:

المنظر: مدينة جدة عام ١٣٠٤ هجرية.

المكان: زقاق فرن الحنبولي.. على مقربة من مقلاة محمد علي «أورفلي» الواقعة على الحدود بين محلتي اليمن.. يمن دام.. والمظلوم.. سيل الدم ولا تندم.. وهي المقلاة التي يباع فيها اللوز والزرمباك والفصفص والحنبص.. وبقية المكسرات البلدي مما كنا نسميه «المجمع»!!

الوقت: ليلاً.. ما بين الساعة الثانية والنصف والثالثة عربي غروبي حسب التوقيت العام الرسمي والشعبي.. والشهر على أولو.. والدنيا ظلام.. ومين داري عنك يا اللي في الظلام.. تغمز..

الشخصيات: غلام في سن الحادية عشر.. وداعس في الثانية عشرة من عمره المديد إن شاء الله.. يحمل في يده اليمنى فانوساً هندياً نمرة

أربعة.. يهزهزه يميناً وشمالاً.. وإلى أعلى.. ثم إلى أسفل.. وذلك ليكشف بنوره الضئيل مواقع الأقدام لمن وراءه..

ووراءه: امرأة ملتفة كلها بالسواد داخل قنعة اسطمبولية جديدة!! تحمل في يدها بقشة فيها أدوات الصنعة.. ولا يظهر منها إلا عينان تبلبصان من الثقبين الصغيرين بما كان يسمى «البرقع».

حاشية من عندنا: والقنعة والبرقع هذان إنما كانا مثلاً ملفوفاً على التمسك والالتزام بحجاب الأمس الصفيق بالنسبة لحجاب اليوم ـ الكاب ـ الشفيف.. وذلك خاص طبعاً بنساء المدن.. مدن المملكة وحدها.. عكس أترابهن ساكنات القرى من البوادي.. من ذوات اللثام ليس إلا!!

أما الحوار الدائر بين الغلام حامل الفانوس الهندي نمرة أربعة.. وصاحبة القنعة والبرقع.. فيكفي أن نكتفي منه بالآتي:

أم القنعة والبرقع: وهو متى جاها الطلق؟

الغلام حامل الفانوس: وأنا إيش دراني كمان؟

أم القنعة والبرقع: امال ليش أرسلوك؟

الغلام حامل الفانوس: هم.. قالوا لي: روح جيب الداية.. وبس!!

وبلهجة بعض تقارير أهل الخبرة.. وبقليل من الذكاء المبكر.. فبناء على هذا الحوار الموجز.. وبالإضافة إلى المنظر السابق يتضح أن المهمة مهمة توليد.. وإن صاحبة القنعة والبراقع والبقشة هي «الداية» بلغة يوم أمس.. والقابلة بلغة هذا اليوم.. وعلى طريقة الأستاذ بدر: الواقع هادا صحيح.. ولكن من هي هذه الداية؟

إنها السيدة زينب الهندية.. وشهرتها بيبي زينب.. المولودة بمدينة جدة نفسها في عام الألف والمائتين..ويا إما تسعين وسبعة شهور.. أو تسعين إلا ثلاثة أشهر قمرية.. من أبوين هنديين بالنسبة لأرومتها الهندية العائدة لثالث جد تأقلم فأصبح جداوياً دون تثريب.. أو تقريق عليه.. كما فعل صاحب الدالية الشعبية والتي مطلعها:

قيل عني: بأن أصلي مصري   وبان الواد المسلوع هندي!!

شاهدنا: أنه كانت للسيدة زينب الهندية والشهيرة باسم «بيبي زينب» شهرتها الواسعة النطاق في نطاق بلدة جدة ـ فهي الداية الأولى التي تولت توليد معظم أولاد وبنات جدة.. بحيث لو أن بيبي زينب كانت تملك ختماً لا يزول أثره مع الأيام ومهرت به ظهور كل من قامت بتوليدهم بالأمس لرأيت هذا الختم ـ أو المهر ـ ظاهراً بالأصالة وبالوراثة على أقفاء الكهول والشيوخ..وكذلك أحفادهم النجباء!!

والحقيقة.. للتاريخ أن الشهرة التي كانت تتمتع بها بيبي زينب لم تأت إليها عبثاً أو فلتة ـ أو اعتباطاً ـ فإن الست زينب الهندية ـ أو بيبي زينب أول من وضع في نظام التوليد الشعبي وتوابعه الأسس التالية والسارية المفعول.. عملاً بها لوقت قريب:

أ ـ صياغة وتأكيد جملة.. يا الله يستي نفيسه بتنفيسه.. وقت الطلق.

ب ـ سحب الطفل من رأسه إن كان وديعاً مسالماً.. أو من رجليه إن كان مشاغباً.. أو من لسانه إذا كان سيكون صحفياً ـ أو ناقداً أديباً.. أو شاعراً شعبياً ـ في مستقبل أيامه..

ج ـ قطع صرة المولود حالاً.. واستئصال الخلاص فوراً.. ثم عصر ماء الليمون في عينيه.. ليرى حقيقة الدنيا على حقيقتها ـ دون أن يقرف منها.

و ـ تنظيم حفلة الرب يا رحماني تحت رئاستها.

هـ ـ ترتيب نظام ليلة التسمية ـ بمعرفتها..

و ـ استلام أجرها الأساسي نقداً. مع أخذ ٢٥٪ مما يرمى على المولود في مهده ليلة التسمية من أخراص وبناجر وحلقان ـ أو غوازي وألواح ما شاء الله ـ أو الجنيهات الذهبية عثمانية أو إنجليزية!!

وأخذ ٥٠٪ من بقش هدايا الرب يا رحماني المحتوية على الشريك ـ والحلاوة!! وأظننا لسنا في حاجة لشرح حفلات الرب رحماني أولاً ثم التسمية ـ في السابع.. فهي معروفة للجميع.. وإلى هنا ـ وحتى صباح الغد موعد مطالعتكم إن شاء الله لهذا الركن المنزوي هنا بسبب تكتيك صحفي جفري حديث.. نتوقف الآن عن متابعة سيرة السيدة زينب الهندية.. والشهيرة باسم «بيبي زينب» مرددين وراءها هذا المقطع التالي من منظومة ـ يا رب ـ يا رحماني:

يــــا رب.. يــــا رحـــمـــانـــي
يــــا خـــالـــق الإنـــســـان..

بـــارك لـــنـــا فـــي «هـــانـــي»
واحـــفـــظ رقـــيـــه.. وســـانـــي

وارزقـــهـــمـــا.. بـــالـــتـــانـــي
مـــن غـــيـــر.. كـــانـــي ومـــانـــي..

وبلاشي.. يا سامعاني
يا خارقه أوداني..
من وصفة النصراني..
دي الخلفه.. دي الفيراني
دي شغله.. دي رباني..
قولوا.. معايا.. صناني..
وكمان.. صناني.. بناني
وكمان صناني.. بناني!!

* * *

يا رب.. يابريه
خلى لنا.. حسنيه..
كتر لستي صفيه
في الخلفه.. والدريه..
محلي بيوتنا.. هنيه
ببزوره.. رايحه.. وجيه
وبلاش شويه.. شويه..
دي شغله مي عربيه
دي موضه.. دي عصريه..
أنا نفسي في المقليه
من عند عمي عطيه..
قولوا.. ورايا.. تاني..

يـــــا رب.. يـــــا رحـــــمـــــانـــــي..

يـــــا رب.. يـــــا بـــــريـــــه!!

وفي صباح هذا اليوم.. وعلى حين غرة.. ودون سابق إنذار.. وزي ما باقول لك كدا.. دق على جرس التلفون.. وصحاني من سابع نومه.. الشاب المهذب والذي امتنع عن ذكر اسمه الزوجي أو الثلاثي.. طالباً مني في أدب وحياء بالغين أن أتوسع معه.. وأتبحبح في شرح حفلات الرب يا رحماني.. وكذلك في وصف ولائم التسمية المقرر موعدها بعد صلاة العشاء من يوم سابع المولود.. بمناسبة ما قرأه.. على حد زعمه.. عن الحفلة والوليمة في شعبية أمس عن السيدة.. الداية.. زينب الهندية.. أو بيبي زينب!!

وقد أحلته.. لعدم توفر المراجع حينذاك.. ولتنمية مواهبه على يديه بنفسه.. ودون واسطة.. على أبحاثنا الشعبية المنشورة عن الرحماني والتسمية في بعض جرائدنا المحلية.. ونخص منها جريدتي البلاد وعكاظ دون تمييز إحداهما عن الأخرى في الدفع أو المماطلة.. أو مراجعته لدار الإذاعة لاستعمارة أشرطة برنامج الحلوة والمرة.. من غير ترتيب الحلقات.

ونكتفي من هذه المحادثة التلفونية بهذا القدر الضئيل.. لنعود إلى حديث الست زينب الهندية.. والشهيرة باسم «بيبي زينب» فنقول.. يا رعاك الله.. ووقاك عثرات الزمان.. وتقلب الصروف والأحوال.. إنه لا داعي إطلاقاً للإشارة أو التلميح إلى كمية الثروة المعدنية والورقية.. أي الذهبية والفضية حينذاك.. التي كوّنتها بعرق جبينها.. وبخفة يدها في التوليد.. الست زينب.. أو بيبي زينب.. من توليد نساء جدة المعروفات

والمجهولات طيلة نصف وربع قرن. . بحساب القرون الأولى. . أي بما يعادل خمسة وسبعين عاماً بالتمام والكمال. . فقد بلغت تلك الثروة بمختلف العملات رقماً يصعب تقديره. . حيث اقتضى منسوبها العالي أن تشتري بالفائض منها عتبة «أي منزلاً كبيراً». . في محلة الشام ـ يا مال الشام يا مالي ـ وعزلة «أي بيتاً صغيراً». . في محلة المظلوم. . وبات مظلوم. . ولا تبات ظالم. . أروق لك. . وأحسن!!

وبعد. . يا سيدي الفاضل ـ وما فاضل إلا أنا وأنت ـ فلعلّ من مكملات البحث في سيرة «بيبي زينب» التعرض بخطف ولمح سريعين إلى هيئتها وملامحها العامة لإثبات هويتها. . وفي هذا المجال الواسع تقول مشاهداتها ومعاشراتها من النساء. . وكذلك من بشرتهم بالمواليد الذكور وجهاً لوجه وقبضت منهم حق البشارة من الرجال يداً بيد. . إنها كانت ربعة القامة مع ميل ملحوظ إلى الطول. . نحيفة القوام مع امتلاء بارز في بعض الأجزاء العلوية والخلفية منه. . سمراء اللون إلا حين تغضب من قلة الأجر فإن لون بشرتها يميل إلى السواد حينذاك. . ذات أصابع نحيلة وطويلة لا تظهر بها الأظافر إما لقصها يومياً حرصاً على عدم خدش المواليد. . أو لانغرازها بطبيعتها داخل اللحم. . صاحبة كدش منبوش على الدوام مما يدل على كثرة الانشغال والاهتمام بالعمل وحده. . لها صوت رفيع مصرصع. . وهو على طريقة الجو المتقلب في هذه الأيام. . يكون حنوناً في حالة سهولة الولادة. . كما يكون مفزعاً في حالة تعسرها. . وذلك لإرهاب النفساء من جهة للاجتهاد في توالي الطلق وسرعته. . ومن جهة ثانية لإسكات صراخ المواليد عند تشريفهم هذه الدنيا الكثيرة الضوضاء. . وهذا بالضبط ما يفسر لنا الظاهرة البارزة في أن

أغلب أصوات الجدادوة طروش البحر تميل إلى الخفوت والخفض.. عكس جيرانهم الأدنين حلوس الجبال!!

أما عن هوايات «بيبي زينب» فتقول بشكتها النسائية إن هوايتها كانت مقتصرة على لعبة «البجيس» بتشديد الجيم المكسورة الخاطر.. وهي لعبة حريمية مشهورة حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري بمدن الحجاز.. والساحلية منها بوجه خاص.. كما أنها تهوى مضغ «التامبول» باستمرار ولكن مع المحافظة على البصق في طاسة نحاسية تضعها دائماً على يمينها.. أو تعلقها في رقبتها حين يحمي وطيس معركة الشغل.. وهي شغوفة بأكلات السمك بأنواعه.. وإن كانت تفضل السيجان من الصغار.. والناجل من الكبار منه.. ولم يكن يضايقها شيء في الوجود إلا شعرات تنبت من حين لآخر في موضع الشنب.. للرجال.. ومقر العثنون.. كما يسميه أبو مدين إذا أراد استعراض عضلاته اللغوية بين العمير وباخشوين.. ولكنها كانت تحاربه بالنتف الدائم.. على طريقة: اللي دقنو أطول من دقنك.. أستعين عليه بالنتف!!

وبيبي زينب.. كما عاصرناها في أواخر أيام حياتها.. قليلة الاهتمام بالرحلات.. أو الخروج من جدة.. اللّهم إلا للحج إذا اطمأنت إلى كساد موسم النفساء في الموسم. وإلا للعمرة إذا كانت هناك حالة ولادة في رباط البهرة بمكة المكرمة.. ومع ذلك فقد جازفت بعد أن جاوزت السبعين من عمرها.. وبعد أن قامت بتزويج ابنها محمد.. واطمأنت إلى رصيدها المحفوظ بصندوقها السيسم.. بالقيام برحلة إلى الطائف مارة بالكر وبكرا وما بعدهما على ظهور الحمير المسماة «يرويكب» وذلك عقب الحج بصحبة ابنها وزوجته وبرفقة كاتب هذه السطور.. فتى يقرأ

لها سيرة عنترة بن شداد باستمرار ودون توقف حتى حين السير على الأقدام في بعض الأماكن من جبل كرا.. والمحظور فيها ركوب.

هذا.. ومن ذكريات هذه الرحلة الطائفية.. وحين نزول هذه الجماعة الصغيرة في دار الشيخ محمد أمين السليماني الواقعة بجوار قهوة القزاز ـ وقد أصبح المذكور عمدة الشرقية بالطائف فيما بعد ـ أن المذكور هذا قد واظب على تقديم طبق الفاصوليا الخضراء. فطوراً في الصباح.. وغداء في الظهر.. وعشاء بعد صلاة العشاء.. وذلك لمدة يومين اثنين على التوالي.. زي ما باقول لك كدا!! وأنه لم ينقطع عن تقديم هذه الوجبة إلا حين برزت بيبي زينب من غرفة النساء سافرة الوجه.. مدلدلة اللسان.. والشرر ينطلق من عينيها صائحة في وجهي:

يولد!! أحمد!! هو الراجل المجنون دا ما عندو إلا الفاصوليه الخضرة؟ وإلا إيه؟ ثم انكفأت حسيرة دامعة العينين.. هامسة في مناجاة حارة: نفسي آكل الحوت.. حتى لو كان حوت ناشف.. وكان ما كان!!

تلكم هي الست زينب الهندية.. الداية الجداوية الكبيرة.. والشهيرة باسم «بيبي زينب».. بكل ما لها وما عليها!! أما سبب شهرتها «بيبي زينب» فيعود إلى سبب عجيب وغريب. إذ إن والدها حين ولادتها على يد جدتها الست زينب سماها «حليمة» الهندية.. ولكن حليمة هذه لم تكد تبلغ السابعة عشرة من عمرها وقبل أن تتزوج الحج عبد الغفور المزين.. اشترطت قبل عقد نكاحها شرطين أولهما: أن تسمى «زينب الهندية» بدلاً من حليمة.. وذلك تقديراً وتخليداً لاسم جدتها التي توفيت قبل «الملكة» بشهرين.. وثانيهما: أن تترك لها الحرية الكاملة في مزاولة مهنتها «كداية» ناشئة دون قيد أو شرط.. وكأنها بما فعلت كانت تتخيل حصولها على شهرتها الواسعة العظيمة.. قبل الأوان..

ولا أحتاج أن أقول أن الوالد قد رضخ لشرطيها.. ومنذ ذلك اليوم أطلق عليها اسم زينب الهندية بدلاً من حليمة اسمها الأصلي.. وتدريجياً تصدرت كلمة «بيبي» بكسر الباءين ومط الباءين قبل الاسم، فأصبحت تعرف باسم «بيبي زينب» ومعروف أن لفظة «بيبي» في السنسكريتيه تقابل عندنا كلمة «استيته» أيام زمان. وابله الآن!!

هذا.. وبمناسبة ذكرى الفقيدة المتوفية عن عمر يناهز المائة عام وعام بعد أن باعت العزلتين.. وبقية المصاغ.. فقد قام رفيق رحلتها الطائفية.. والمولود على يديها.. برثائها مجاناً بقصيدة طويلة عريضة.. نكتفي منها اليوم بالمقطوعة التالية:

أنت.. يا دايتي العزيزة.. أولى
برثائي.. من أي شخص ثاني
كيف أنسى.. يا بيبي زينب كفاً
سحبتني.. لدنيتي.. من لساني
قطعت صرتي.. وسابت ببطني
وصلة في الغليظ من مصراني
فإذا بي ذو الفتق في الصرا.. يبدو
وسط كرشي.. كحبة الرمان
وإذا بي ضراب بق.. به الشعر
مع النشر سائل الريقان
والفصوليا الخضراء باتت عشائي
وغدائي.. وفطرتي في الأدان

كيف أنسى.. يا بيبي زينب.. ستاً
رقصتني في الرب.. يا رحمان

أنا أنساك؟ هي دي تيجي يعني؟
وسط دنيا.. ضاقت.. كما الكشتبان

الخِرْنْتَا . .

إذا كنت من روّاد شارع الحمراء في بيروت . . أو الشانزليزيه في باريس . . أو بيكاديللي استريت أو اسكوير في لندن . . أو حيث يوجد اليهود في أي حي من أحياء واشنطون ونيويورك . . وكل مدن أوروبا . . وآسيا . . أو من غير تطويل عليك وعلينا . . إذا كنت في أي شارع منزوٍ أو مزدحم بالمارة وبالناس من كل المدن في كل صقع من أصقاع الدنيا . . فإنك حتماً ستجد هذا الصنف من الغلمان . . أو من الشباب . . «المستنبت» على حد تعبيرنا البلدي . . أو المتخنث بالفصحى . . أو الهيبز بالعالمية . . أو الخنفوسي بالتعبير اللبناني الحديث!!

ويعود السبب حالياً وأخيراً في انتشار هذا الوباء الآدمي . . وبهذه الكثرة الزائدة إلى موجة الجنس الداعرة والعارمة . . وإلى تهاون المبالغين من الحكومات والحاكمين في الحرية . . الحرية الفوضوية والتي أوجدت أخيراً جداً . . طبقة ـ أو طبعة حديثة من هذا الصنف الذي قرأنا عنه منذ أيام ـ حيث قام العراة البلبوصون زي ما خلقهم ربهم بغزو الأسواق والمعارض والأماكن العامة . . كمتحررين جدد من آدميتهم القديمة!!

وهذا الوباء الآدمي . . أو هذا الصنف الجديد الذي يمثل آخر صرخة جنسية عارية قد غطى على بقية الأصناف التقليدية نقروءه على الأصح . . إن

للعراة أنديتهم الخاصة في بعض أنحاء العالم وإن كلاً منهم.. مع ذلك للإنصاف.. يعتبر عرياناً يقابل عرياناً مثله.. والعريان في القافلة .. أمين!!

وعلى كل حال.. فإن بحتنا الشعبي هذا مخصص لغير ما ذكر.. ولكن الاستطراد اقتضانا هذه الإشارة المقرفة إلى من أعادوا لنا سيرة إنسان الغابة.. أو الإنسان الأول الذي لم يبلغ مع ذلك هذا الحد من الاستهتار.. فقد احتفظ بورقة التين.. الورقة التي أصبحت مصدر استرزاق وإثارة في المسارح العالمية باسم «الاستربتيز» والتي ربما سقطت هي أيضاً في بعض برامج.. أو نمر تلك المسارح.. وعلى قول المرحوم الشيخ ضياء الدين رجب.. يا خفي الألطاف.. نجنا مما نخاف.

ويقيناً يا ولدي.. على قول صاحبنا إياه.. فإن وراء هذا التهتك المتنوع أياً كان شكله.. وأيا كانت موديلاته الجديدة.. ووراءه الأصابع الصهيونية اليهودية التي تحرك هذه القطعان الآدمية كما تحرك أصابع المختصين.. بمسارح العرائس ـ دمى العرائس ـ وذلك تطبيقاً وتنفيذاً لما نصت عليه قواعد حكماء صهيون كقوانين ومقررات لا بد من تطبيقها عالمياً.. بنداً وراء بند!!

وقبل أن نواصل تفلية هذه النقطة.. وقبل أن نعود لنتابع بحثنا البلدي.. وسرد شخصيتنا الشعبية به ـ أرى أن نقف للاستراحة ـ ولتفريغ سمنا.. عند هذا المقطع الذي سجله لنا ولكم أخونا.. وأخوكم في الله بمناسبة الحديث العرياني.. عن هذا الصنف الجديد من التعساء المنحلين والعرايا الزلط.. يغشون الشوارع والأسواق:

يا من خرجت علينا اليوم.. بلبوصا

فكنت عند جميع الناس.. خلبوصا

من كل مفعوصة في الكون قد ركضت
تطارد اليوم في الأسواق مفعوصا
ماذا تركت.. كإنسان نكرمه
لدى البهيمة.. مرذولاً ومنقوصا
أما سمعت بأمثال لنا سلفت
ونحن أصحابها: ذكراً.. ومنصوصا
لبس لنا البوصة الجرداء عارية
تبقى عروصاً!! بشعر لاح مقصوصا
يا واد!! يا بنت!! يا من حق مثلكمو
الضرب بالنعل.. بالكرباج معقوصا
اقلب عن العين وجهاً منك صار قفا
لا فرق بينهما.. زلطاً كما البوصا
اخص عليك!!
واتفوه كمان!!
كدا؟؟
أزريت بالأدميّ الذي:
قد عاش مجعوصا

.. هذا وبالنسبة للخرنتات الجدد.. فإنه يقينا أيضاً يا ولدي أنه لم يبق في العالم بعد هذا الشيء شيء.. إلا.. والعياذ بالله.. ممارسة الجنس علناً.. أو كشكرا خبر ـ تحت أنف وعين وأذن القانون في الشوارع والأسواق والمعارض والأماكن العامة وكل مكان.. بعد السماح بممارسته في الأزقة المنزوية ـ وداخل السيارات أو تحتها أو في حفلات

الجنس الخاصة للفرجة عليه بفلوس ـ أو في الحدائق العامة المماثلة كحديقة هايدبارك بلندن ـ وغابة بولونيا في باريس ـ وسواهما للفرجة عليه ـ بدون فلوس!!

ولقد أتى ذلك كله أو بعضه على البقية الباقية من تاريخ الآدمية المتقشمطة باللباس لستر العورة وللتزين. بحيث أصبح العصر اليوم معكوساً. . فإذا كان المتبع بالأمس أن يذهب المتحضرون في العالمين الأوروبي والأميركي لرؤية المتخلف العاري في أفريقيا وآسيا للفرجة عليه يسعى كما ولدته أمه. . فقد أصبح وسيصبح المتبع اليوم أن يذهب المتخلفون بأفريقيا وبآسيا ليتفرجوا مجاناً على هؤلاء المتحضرين. . البلابيص. . العريانين.

ومع ترديدنا معكم جميعاً. . حسبنا الله ونعم الوكيل. . وكذلك اللَّهم آمنا في أوطاننا. ويا خفي الألطاف منذ اليوم وحتى ما شاء الله ـ أو إلى أن يعود هؤلاء المنحلون الملحوسون إلى صوابهم ـ أو تعيده إليهم حكوماتهم بقوانين جديدة صارمة. . فإننا سنعود حالاً إلى الوراء. . للخرنتا. . موضوعنا الأساسي ـ إلى سيرته الشعبية. . مع قليل من طراطيش الكلام المتصل بالتاريخ والأدب والاجتماع.

وفي علمنا التاريخي ـ والاجتماعي ـ والأدبي ـ فإنه لم يخل أي عصر من العصور من هذا الصنف. . النص نص. . من الناس. . على اختلاف في الهيئة ـ وفي الزي. . وفي الشكل العام ـ حيث كان هذا الطراز متوفراً ومعروفاً من قديم الزمان وسالف العصر والأوان سواء لدى الإقريق. . أو الرومان. . أو بقية الامبراطوريات الزائلة في كل الأصقاع. . ومن كل الأجناس. .

ونحن نتذكر ـ مع الأسف الشديد ـ ما سبق أن أمر به الخليفة واليه في المدينة لإحصاء المخنثين بها ونفيهم.. وحيث لعب الخيال دوره فيما ترتب على اخصائهم بدل إحصائهم.. كما أن من معلوماتنا البيولوجية ـ أي العضوية ـ أن الأصل في وجود هذا الصنف في المجتمعات هو وجوده الطبيعي في أول الأمر خلقة ربه باسم «الخنثى».. البحت أو الخنثى المشكل.. يجمع بين عضوي الذكورة والأنوثة معاً.. ويتمتع بحق الجنسين من ناحية النظرة إليه.. وللشرع الشريف في الخنثى أحكامه المعروفة وليس هذا الآن من اختصاصنا.. أو من اختصاص ركننا هذا بطبيعة الحال..

والأسئلة الأتوماتيكية المترتبة على التحاميل الموسيقية السالفة هي: هل توجد لدينا شخصيات شعبية من هذا الطراز؟؟

والأجوبة الفورية لهذه الأسئلة.. ودون رتوش.. نعم.. أيوه.. طبعاً.. ما في شك!! ولكن متى كان ذلك؟ وهل انقرض الخرنتا.. أم لا يزال باقياً سواء في الأقبية.. أو على السطح؟

وبدون محاباة.. ومن غير مداهنة.. وبلا رياء فإن أسلوب حكومتنا الحاسم الرادع أقصى دون هوادة أو تريث أو تهاون هذا الصنف الممرقع من الناس.. وحمى المجتمع السعودي من وجوده كجماعة ـ أو كطبقة متميزة تتمتع بوجودها مثل الطبقات أو الطبقة الموجودة في العالم والمتميزة بزيها وشكلها وسلوكها العام بما في ذلك الأقطار العربية للأسف الشديد ـ وعلى نحو من الأنحاء..

أما منذ أكثر من نصف قرن.. وعلى عهد حداثتنا.. فقد كان المثال على الصنف الأصلي ماركة «خلقة ربه» بيولوجياً موجوداً ومعروفاً باسم

«بنات الشيخ».. كما كانت للنوع «المستنبت» من الأولاد والشبان عينات معروضة ومعروفة ـ والمستنبت معناها كما لا أحتاج أن أفسر الولد اللي عامل زي البنت.. ولأجل التشهير بالمستبنتين من الشبان والغلمان كان الشعبيون لدينا يطلقون على الواحد منهم اسم.. الخرنتا.. وهي لخبطة ظريفة محبوبة ومعقولة لكلمة أو اسم الخنتى.. ويعتبر تحريف هذه اللفظة وشقلبتها في مقام التجريح والتشنيع على هذا الصنف.. عنواناً على يقظة ورجولة روادنا الشعبيون وعلى رأسهم المطاليق والمشاكلة من أصحاب الحزم المشدودة على الوسط.. والعمم المطنقرة على الرؤوس والتي بلغ من اعتزازهم بها أن أطلقوا المثل المشهور عليها.. فقالوا..

قطع الروص.. ولا هد العمايم!!

.. وبعد ذلك فإذا نحن استثنينا في جدة أمثال الواد.. هويها.. بتشديد الواو المكسورة وكذلك الواد سلمان أبو داك الكلام.. وسكاكر.. والمشخلع.. وسواهم من المولعين بمحاكاة البنات والستات في المشية ـ والهرجة ـ والكحلة ـ والحركات ـ ومضغ اللبانة ـ فإنه لن يبقى لدينا كمثال كامل الأوصاف على هذه الأصناف إلا ـ الخرنتا ـ الشخصية الشعبية التي عاشت قبل نصف قرن من الزمان وطغت شهرتها على من عداها.. من الخرنتات.

لقد كانت عائلة الخرنتا هذا ـ والخرنتا بالطبع اسم الشهرة له ـ تسكن في محلة الشام من جهة سوق الندا الشمالية الغربية بقرب الخرابة المشهورة بوجود الغسالين من بنات الشيخ فيها.. وكان اسمه الأصلي ـ كما ذكر لي ذلك الفتيني ـ يحيي ولا داعي للرسم الثلاثي.. وهي عائلة مستورة يشتغل ربها مساعداً لمن كان يقوم بخياطة قنع الستات

الأسطمبوللي والجاوي ـ ويسمونه «الحضا» بتشديد الضاد المفتوحة.. والحضا هو الرجل الذي يتولى لقف ودرز وتهيئة القنع حسب المقاسات وكان يستعمل الإبرة والخيط والنسج البسيط لها في دكانه وبواسطة بعض السيدات اللواتي يعملن في بيوتهن بالأجرة لحسابه.

وقد نشأ الخرنتا نشأة طبيعية تدل على نوعيته الذكورية فعلاً ومظهراً وأداء في جميع التصرفات والحركات.. ولكن بعد أن فقشه في رأسه أحد زملائه خافت عليه أمه من الاختلاط بالأولاد في البرحة والأزقة واللعب معهم وما يترتب على ذلك من احتمال وتعرضه لفقشة أخرى أو لما هو أكبر من ذلك.. فمنعته بعد الرجوع من الكتاب أو من دكان «الحضا» حيث يعمل أبوه.. منعته من الخروج من البيت ليبقى ملازماً له مع أخواته البنات.. فنشأ عن بقائه الدائم في البيت وعن عدم سماعه أصوات الأولاد الذكور. وعن اختلاطه المستمر بأخواته البنات ـ وعن حضوره المستمر لجلسة الستات العائلية من الزائرات لوالدته ـ أو من كن يستقبلنها في دورهن هي وبناتها ـ وولدها الخرنتا ـ حين تقوم برد الزيارة لهن ـ نشأ عن كل ذلك أن «أستبنت» الولد بحكم عدم اختلاطه بالأولاد زملائه وأنداده ـ واختلاطه غير المنقطع بأخواته البنات ورفيقاتهن وبوفيان والدته من الستات!!

بهذا الاحتجاز البيتي.. وبسبب حادثة معينة كما يؤكد المطلعون على ما وراء البرفانات اليومية استحال يحي أو الخرنتا دفعة واحدة إلى ذلك الصنف ال «بين.. بين» في زيه.. وفي شكله.. وفي كلامه.. وفي حركاته.. وإن لم يكن متهماً في سلوكه الفعلي أو اليومي بالشيء القبيح.. وعلى ذلك.. وكموعظة على الماشي.. فلتتق الله أمهات اليوم

في أولادهن الذكور.. ولتعط لهم الفرصة للاجتماع الدائم وللاحتكاك بالأولاد زملائهم مهما كان الأمر.. وحتى لا يترتب عن منعهم لمخالطة صنفهم أن ينتقل أولادهم من صنف ـ إلى صنف!!

وعندما كبر الشاب يحيى ـ أو الخرنتا ـ كان أول مظهر في زيه.. عدا استنباته في كل شيء ـ إنه لم يستعمل الحزام قط.. وكان شد الحزام في وسط الشاب أو الرجل مظهراً بارزاً على رجولة الرجل الشعبي الأصيل.. حيث يعتبر كل من لم يلبس الحزام في ذلك الوقت من أولاد «الخرقة» وأولاد الخرقة هم المدللون المنتسبون لطبقة الأفندية التي تتميز بأصلها التركي والأرناؤوطي وتتمتع بالعطف العثمنللي.. وبرعاية الحاكمين من الولاة والمتنفذين في الدوائر الرسمية ابتداء من الباشا والبيك والأفندي والجندرمة الرسميين وانتهاء بالمتتركين من أهل البلد حيث لا يبقى بعد ذلك إلا افراد الشعب البلديين ـ أو الباش بظك.. أصحاب العمائم على الرؤوس ـ والأحزمة في الأوساط الجسدية ـ لا الطبقية!!

وبموجب ذلك فقد كان الحزام هو العلامة الفارقة بين الرجل والرجل ـ وولد الخرقة ـ والحزام كما هو معروف.. ومعظمه من نوع البقش الكشميري.. مخصص لربطه في الوسط ومؤلف من عدة طيات.. وينتهي في دورانه حول الوسط من الجهة الأمامية بعقدة أو عقدتين ونصف العقدة على هيئة «الفيونكا» برأس البنات الصغيرات أو على علب الحلاوة المودرن ـ وكذلك علب المداليات الصغيرة. كما أن الحزام بأنواعه هو العلاج الواقي.. والشافي بإذن الله من مرض الدسك.. أو الغضروف الشائع!!

وقبل أن أدخل في تصنيف الحزام وأهميته المحلية والعالمية.. وقبل

متابعة سيرة يحيى أو الخرنتا.. لا بد أن استشهد على ما ذكرت ببعض الأبيات التي راودتني عن نفسها.. الآن:

رج.. الحزام بوسطه.. ومشى به
يختال.. كالطاووس بين رفاقه
رجل.. إذا شافته.. في حاراتها
أولاد خرقتنا.. سعت لعناقه
لتقول: عاشت للمعلم عنتر
عبلاته.. بزقاقنا.. وزقاقه
إن الحزام بوسطنا.. متخلخلاً
للدسك.. للغضروف..
بعض وثاقه!!

هذا.. وتفيد بعض الأوساط العلمية المجربة والدارسة لمحاسن الأزياء ومنافعها أن الحزام في الأصل إنما وجد لغير الزينة وحدها.. فهو يشد وسط الإنسان بحيث يقتضي التحزم به نصب القامة بدل هزهزتها وخلخلتها من النص.. كما أنه يمنع فتق السرة عند حمل أي شيء ثقيل.. وكذلك يحول دون اندلاق الكرش وفرفطته!

والحزام في نشوئه.. وارتقائه وتطوره على مدى التاريخ على عدة أشكال وأنماط.. فهناك مثلاً.. حزام الكرادلة والأساقفة.. ورجال الدين بأجناسهم يتمنطقون به فوق القباء.. أي القنباز.. أو الشاية.. أو الفراجية لانسجامها.. وعدم تعرضها لمفعول الهواء الشديد يتلاعب بها كما يشاء له تياره.. وهناك حزام النفساء تشد به بطنها عقب الولادة.. والحزام المصنوع من الشيلان الخفيفة.. والمصنوع من البقش الكشميري.. ولا

يدخل في أنواع الأحزمة هذه حزام العفةِ الصليبي المشهور فإن له موضعاً آخر.. وسبباً مختلفاً كما هو معلوم.

ولقد تطور الحزام من القماش إلى الجلد.. ومن أنواعه الجلدية.. الكمر.. وله جيوب خاصة بوضع النقود وسواها فيه.. كما أن من أنواعه.. السير.. وهو بعكس الكمر رفيع جداً ويختص بالبنطلونات.. وقد يربط به الحجاج الإزار لحفظه من الانفلات أو السقوط..

كما أن من متفرعات الحزام في بلادنا.. النسعة.. وهي خاصة بالبدو والأعراب بصورة عامة في البوادي.. وتتكون النسعة غالباً من عدة حبال جلدية تكون وحدة وسطية ويربطها رأس واحد.. وتتيح بوضعها هذا إمكانية عمل عب من الثوب لحفظ بعض الحاجات الشخصية الخفيفة شأنها في ذلك شأن الحزام في تيسيره وجود الأعباب.

ولا مؤاخذة في هذا الاستطراد الطويل عن الحزام.. فإن عذرنا في ذلك أن كل ما سلف عن الحزام إنما ننصب على مسامع يحيى.. أو الخرنتا لترغيبه في لم وسطه الذي كان بهزهزته وترقيص جسده سبباً في إثارة مشاهديه.. وبالأخص جلساء المراكيز بالقهاوي المجاورة لبيتهم في سوق الندا بالذات.. وفي حارة الشام كلها بوجه عام.

ويقول الفتيني أن حشداً من سكان المحلة أصروا ذات مرة على والد الخرنتا أن يلزمه إلزاماً فعلياً.. خشية من الفتنة.. وخوفاً من تقليد أولادهم لولده بالتقيد بالآتي:

أ ـ أولاً: وقبل كل شيء استعمال الخرنتا للحزام. ولبسه حين خروجه إلى الشارع.

ب ـ عدم قيامه بمضغ اللبانة وطرطقتها بين أسنانه.. بصوت مسموع.

ج ـ امتناعه عن رج الكحلة بعينيه.. وامتداد خطوطها من الرموش.. ومجرى الدمع من العين إلى طرف الأصداغ.

و ـ عدم استعماله إطلاقاً للشباشب النسائية.. أو للتاسومة.. أو للصندل.. أو للجزمة ذات الكعب العالي.. ومبادرته حالاً بلبس المداس سواء كان من نوع «أبو خرزين» أو المدني ذي الأصبع الواحد.. أو الواحدة.. والذي يقال إنه منسوب لذي الأصابع العدواني.

هـ ـ في حال تعذر استعماله لما سلف.

من أنواع المدس.. أو المداعس المنوه عنها أعلاه يحسن أن يمشي حافياً مثل بقية أولادنا.. غير ملق بالاً إلى المثل القائل.. إن شفت الحافي.. قول يا كافي!!

و ـ منع الولد يحيى.. أو الخرنتا.. من تزيين راحتيه.. وكفي رجليه بالحناء.. وكذلك عدم استعمال العفص لأظافر يديه.. فقد سمعنا من الخوجاية مرة الخواجة إيكيليا أن الإفرنجيات يسمون هذا النوع المناكير وأنه أحمر اللون فاقع الحمرة لديهم.

ز ـ قيامه برج العمة فوق الكوفية الجاوية المنشَّاة.. وله الحرية المطلقة في أن يجعل لها عدبتين.. أو عدبة واحدة.. مع إخراج طنف بارز لها من إحدى الجهتين.. دليلاً على المشكلة وذلك بدلاً من وضعه الشال الخفيف الشبيه بالمدورة على رأسه ولفها حول رقبته. واتخاذ جزء منها ساتراً للأطراف التحتية من وجهه فتبدو وكأنها لثام.

ح ـ أن يجعل كلامه حين يتكلم نبراً وبصوت عال وخشن.. وأن يستعمل ألفاظ وجمل وتعابير الرجال.. وبدلاً من افتعال الرقة في صوته.. وتنعيم الكلام.. ومواظبته على الألفاظ النسائية.. مثل وه

يخويا.. ويقطعني.. واخص عليك يا أنت!!

ولا نرى داعياً لاستقصاء جميع ما ورد في مطالب سكان المحلة من الخرنتا قيامه به.. ولا ذكر بقية البنود التي لا يحسن ذكرها.. كما أننا لا حاجة بنا إلى القول برفض هذه المطالب من والد الخرنتا باسم ابنه.. وكذلك تأييد شيخ حارة الشام المرحوم الشيخ باخريبة الكبير.. والد العمدة الشيخ محمد باخريبة الخراط.. والذي تولى مشيخة الحارة أو العمودية ـ بعد انتقال الشيخ سالم حماد إلى رحمة الله ـ تأييداً مطلقاً للوالد والولد في وجاهة رفضهما لتلك المطالب. وذلك أولاً للحفاظ على الحرية الشخصية ما دامت لا تسبب ضرراً ملحوظاً للغير.. أو تعدياً مباشراً عليه.. وثانياً مراعاة لخاطر بنات الشيخ وتثبيتاً لحقوقهم.. أو لحقوقهن.. وحتى لا تسري المطالبة بأي شيء من ذلك عليهم ـ أو عليهن.. في المستقبل القريب أو البعيد.

وبمناسبة ذكر.. بنات الشيخ.. فقد ذكرني الأستاذ أبو فوزي عبد المجيد شبكشي رئيس تحرير جريدة البلاد ببنت الشيخ الذي كان يسكن بجوار بيت نصيف.. ويتصف بأكثر مما يتصف به الواد يحيى الشهير باسم الخرنتا.. حيث كان يقوم بالرقص في حفلات الزار.. التي أنهت وجودها حكومتنا الرشيدة بحزم.. وبقوة.

كما كان صورة طبق الأصل من آية بنت عادية في معظم الأشياء. وقد أيد أبا فوزي فيما ذكر أخونا الشيخ عمر عبد ربه وسرد لي طرفاً من قصص بنت الشيخ هذا.. أو هذه.. ولطول البحث في سيرة هذا الصنف من الناس فربما أفردنا له سيرة خاصة.. مكتفين الآن بمتابعة سيرة يحيى.. الشهير بالخرنتا..

وفي ذات صباح ـ أو في ذات مساء.. فقد اختلف الرواة في تحديد الوقت ولم يتفقوا عليه.. قامت والدة الشب يحيى الشهير باسم «الخرنتا» واسمها الست «مشتهى» بضم الميم وسكون الشين وفتح الهاء المقصورة الألف بعدها.. قامت بمفاتحة والده العم شاكر والشهير في الحارة باسم «كرنكش» في أمر تزويج ابنهما يحيى المعروف باسم الخرنتا من حفصة أحدث بنات الجيران اللواتي يترددن على بيت العم كرنكش وحرمه الست مشتهى.. والتي تعرف كثيراً من عادات وطبائع ابنهما المحفوظ يحيى.. أي الخرنتا.. بحكم مخالطتها السابقة.. قبل أن تحتجب.. والدائمة له قد دار الحوار بين والدة الخرنتا ووالده طبقاً لأصح الأقوال.. وحسب الرواية التي اصطفيتها بعد أن استقيتها من فم المرحوم العم الشيخ محمد باخريبه الخراط وعمدة محلة الشام نقلاً عن والده.

الست مشتهى: ـ أنا أشوف.. يهوه.. إننا خلاص لازم نجوز ولدنا يحيى..

العم كرنكش: ـ هو أنت كلمتيه في الموضوع.. والا لسا؟

الست مشتهى: أقول لك الحق أنا أتكلمت معاه.. بس يعيني الولد ما جبتلو سيرة الجواز.. إلا وراحت دمعتو تنزل على خدو.. ومن ساعتها هو مش راضي يحط شيء من الأكل في جوفو.. بتفتكر يعني دا من الفرحة.. «ألا يعني من شيء تاني»؟..

كرنكش: آه!! آه!! إيش راح أقولك!! دا من شيء تاني!! خليها على الله وبس!!

مشتهى: تكون البنت مهي عاجباه؟.. اكمنها زي اختو يعني من طول ما عاشوا سوا مع بعض؟

كرنكش: ـ على كل حال هي البنت مسترجلة كتير.. وعلى شان كدا الناس بيسموها حفصة ولد..

مشتهى مقاطعة: ـ على كل حال.. مهو برضو وزي منت عارف عامل زي البنات والناس بيسموه الخرنتا.. فدي تسد دي!!

كرنكش: مدام جبتيها بنفسك ـ وقلتيها بعضمة لسانك.. فأنا ما عندي مانع.. بس يكون الولد يبقى يتجوز ـ وما عندو أي مانع!!

مشتهى: اتوكلنا على الله. وإن شاء الله ما يسير إلا الخير!!

ويتابع المرحوم الشيخ محمد باخريبه روايته.. فيقول ومن تلك الليلة ابتدأت الخطاريف بعد أن تمت الخطوبة.. ثم الملكة.. بس أنا لاحظت أن الواد الخرنتا من ساعتها وهو آخذ في النازل.. وباين عليه الزعل والهم.. وعشان ما أطول عليه.. بعدما سارت الدخلة ليلة ـ لا ـ لا ـ والله بليلتين ولا أصحى لك إلا الزاعق اللي جاني في القهوة وقال لي الحق يا الشيخ الواد يحيى ـ الخرنتا يعني.. طاح من السطوح.. ونزل ما فعينو.. ولا قطره.. الله يرحمو.. مسكين!! ويعقب المرحوم الشيخ باخريبة أخيراً بقوله.. على كل حال الكلام اللي انقال كتير.. وربك سمي الستار.. وعلمي وسلامتك.. وقد أجبته طبعاً وبدون تردد بقولي.. ومين قال.. سالم.

وهكذا.. في ساعات وبين معالم الفرح والزينة.. أو بعد ليلة الدخلة انقلب العرس إلى مأتم.. وانتهت بذلك حياة شخصية شعبية تمتعت في جده بقسط كبير من الشهرة.. وبقيت أعواماً على المسرح الاجتماعي تمثل دور.. الخرنتا.. بكل معالمه وخصائصه..

ذلكم هو الواد.. ثم الشاب يحيى المشهور باسم.. الخرنتا..

بجميع حيثياته.. أما سبب التسمية فقد سبق إيضاحه بتفصيل.. ومنذ اشتهار المذكور باسمه هذا.. وحتى ما بعد وفاته أصبحت لفظة «الخرنتا» ولذلك وهي كلمة كما لا أحتاج أن أقول يتبرر منها كل الأولاد والشباب حتى أولئك الذين تتوفر فيهم بعض الجوانب من ملامح المرحوم يحيى المشهور باسم «الخرنتا» ولذلك حين عثرت على المقطوعة الشعرية التالية لدى الراوية لسيرة عنتر وأبي زيد الهلالي وبيبرس في المقهى المجاور لعائلة الخرنتا.. وهو عم سليمان الأخضري استحلفني بالله ألا أنسبها إليه.. إلا بعد وفاته.. حيث قد أخذ الله وداعته من سنوات قلائل فإنني لا أجد ما يمنع من نشرها الآت يقول الأخضري:

حرام علي عيني عزيز منامها
وإن كنت في القهوا.. إلى الصبح. اسهر
أحكي الحكاوي للعيال بحقها
وأشهر أبطال الحكايات.. عنتر
فقد سقط الواد الخرنتا مدردباً
من السطح والأقوال تروى.. وتكتر
فيا ليتهم ما زوجوه بحفصة
وخلوه.. زي ما كان.. واللّه يستر
فيا طالما أبصرته.. وهو داخل
إلى البيت.. أو كما من البيت.. يندر
وكحلته ملو العيون.. ويده
تزهر بالحناء.. واللون أحمر..

وهيئته مثل البنات بكل ما
يلوح على كل البنات.. ويظهر!!

فقل لبنات الشيخ: مات شبيهكم
وقل للذي قللي: بماذا تفكر؟

لقد قفل الباب الخرنتا بموته
فأصبح هذا الصنف في الناس يندر..

إلى حيث القت.. لا.. تغشته رمحة
.. كما قال عنه.. للتوّاب كشمبر!!

أَبو سَدَّاح . .

من الشخصيات العالمية غير العربية المشاهير الذين أصبح لقب الواحد منهم أو اسم شهرته يغني عن الاسم واللقب العائليين. . فإذا جاءت مثلاً سيرة واحد راجل عسكري طموح جعل أوروبا تركع له مثل نابليون أو هتلر فلا داعي إطلاقاً لذكر اسم أو لقب أبويه. . ومثلهما تماماً إذا قلت في الموسيقى بيتهوفن وشوبان. . وفي المسخرة الكازانوفيا، «دون جوان» وفي علم الجنس «فرويد» وفي أصل الأنواع «داروين» الذي رد أصله للقرد. . وأرضى بقردك لايجيك أقرد منو. . وفي التمثيل الصامت «شابلن» وفي الأدب الإنجليزي «شكسبير» أو «شيك زبير» كما نسبه العرب لأنفسهم من القل. ربنا لا يقلها من أيد مسلم. . يا رب!!

أما في الأوساط الشعبية بالمنطقة العربية. . ففي مصر مثلاً إذا أتت سيرة الفول والطعمية ـ أي المقلية ـ فقل «التابعي» واسكت. . وإذا جاء ذكر هز الوسط فلتكتف بكلمة «كاريوكا». . وفي المواويل البلدي «طلب» بكسر الطاء واللام وسكون الباء. . وفي المونولوجات «شكوكو» وفي الفشر «أبو لمعة الأصلي».

أما في لبنان. فإذا جاء ذكر الحلويات ـ أو الحلو ـ فتكفي كلمة «الصمدي» وإن جاءت سيرة الفكاهة اللي زي بعضها فما في إلا «حنكش»

فهو مثل «مروش» للفروج المشوي.. ومطعم اسطمبول للقطع والأوصال.. وللاتيكيت الاجتماعي كلمات: ولو.. وكرمالك.. وتتدبر.. وهات عاد يا ليرة قفا ليرة.. الين يدوّخ عدوك من الصخ..

هذا كله أو بعضه يطابق تماماً ما هو حاصل عندنا فأنت على المستوى الشعري والأدبي والصحفي كمان يمكنك أن تقول.. العواد ـ شحاته ـ الفقي ـ السرحان.. وفي اللغة والتاريخ: الجاسر. عبد القدوس. الزيدان.. العطار.. وفي الأركان الصحفية: أبو ظلال.. وأبو معالم وأبو استراحة اليوم.. واليوم ولا كل يوم يا مشمش.. وأبو جداول.. وأبو لقاء.. وأبو لمسات.. وأبو «على الماشي» لوحدو.. وذلك كما في الأحياء المائية ابتداءً من أبو جلمبو وانتهاء بأبو مقص.. أما في الكلام اليومي اللي لا يودي ولا يجيب فحسبك الأسماء المعروفة اللي تجيب البلا ولا توديه!!

أما على المستوى الشعبي.. ففي جدة ومن حوالي قرن من الزمان فإن كلمة «أبو عوف» للمطبق الفرني.. وأبو القعور للمقلية ـ والكردوس والجاوي ليليش يليش.. وعم غلوم للسلف.. زي البنك.. وستي «وهبابه» لنتف شعر الحاجبين والتعقيص وعمل الكوافير النسائي القديم بأنواعه.. و «دحدحيه» للسويك والحنا والترمس.. وكباية و «عسله» للفول النابت.. والفنانات السيدات «ساهينا» «ورشوده» و «شنوانية» للتزحيف ونصة العروصة.. بطابق وكسرة.. و «فلوسه» بضم اللام المشددة لمواراة الموتى في قبورهم دون مد يده إلى خلف أكفانهم!!

من هذه النماذج.. وعلى هذا المقاس العالمي والعربي والمحلي بشقيه الأدبي والشعبي يمكننا الآن وبسهولة أن نتطرق دون احم أو دستور

إلى سيرة شخصية شعبية شهيرة وعظيمة في تاريخ مدينة جدة ـ ولدت ولاقت ربها ولم يسقط منها أو من يدها الموس.. إنها دون فخر من أهلها.. أو فشر منا.. شخصية «أبو سداح» بتشديد الدال المفتوحة ضماناً لعدم الغلط والتحريف.. وعلى قول حبيبنا وصاحبنا إياه.. نعم.. نعم.. فقد كان اسم أبو سداح في جدة مجرداً عن أية إضافة اسمية أو لقبية أو عائلية عليه كافياً لأن يتحسس الأطفال الذكور مواضع الطهور والتبول خوفاً من مجيء الدور عليها.. وأن يضع كل من الكبار كذلك صباح الجمعة يده على رأسه ليعرف هل استحق كدشه الحلق بالموس قلطاً أم يؤخره للجمعة الجيه؟

ولقد تفرد أبو سداح بشهرة طويلة عريضة لم تتيسر ولن تتيسر لغيره من كل من حمل الموس بيمناه حتى الآن.. وكان ذلك التفرد مقصوراً وممدوداً على الرجال والشباب الملتزمين جميعاً بحلاقة الرأس ـ أي شعره جميعه.. بالموس.. وعلى الأطفال.. وهنا محل شهرته الحقيقية.. لتخصصه بتشريطهم بالموس.. وبالقيام بعمليات الطهور الختان ـ لهم.. ولهذا ندر بين كهول وشيوخ اليوم من نجا بكدشه.. أو بغلفته منه.. فقد سن أبو سداح موسه.. وشهره كالسيف فلم يغمده طيلة حياته.. أي طيلة قرن إلا ربع القرن.. وهذا ليس بالقليل في عدد القرون المستوية أو المعكوفة.

ويضاف إلى ذلك أن «أبو سداح» كان اسماً كافياً لإلقاء الرعب التربوي التهذيبي.. فقد بلغت شهرته من الاستفاضة والخطورة حداً جعل الأمهات في البيوت يخوفن أولادهم الصغار أيام زمان بقولهن «ولد.. شوف إن ما تسكت.. أو إذا ما تجلس عاقل رايحه ازهم لك أبو سداح»

فيسكت الولد خائفاً من التطهير أو التشريط ـ أي أن أبو سداح في بيوتنا أصبح كذلك لإرهاب الأولاد رابع أربعة هم: البعبع. والغول.. والهمية.. قومي سوي لوزي أوليه!!

وبعد.. يا إخواني.. فإن الطهور أو الختان يستحق قبل القطع بما له وما عليه أن نتعرض دون مؤاخذة أو حياء لموضع ولموضوع مجاله بقليل من التفسيرات اللغويةْ إزالة للشك الشائع الذي ترتب عليه استبعاد أو إخراج كلمتي الغلفة والقلفة من العربي الفصيح.. وذلك إرضاء لصاحب سيرتنا الشعبية اليوم رجل الطهور الأول في جدة.. أبو.. سداح.. وتسجيلاً لحادثته اللغوية الشهيرة:

إذ يقال.. والعهدة في هذا على الشيخ مبارك إمام زاوية «غلوم» المقابلة لبيت رضا والمجاورة للنورية القديمة من جهتها الجنوبية.. يقال: إن أحد المتحذلقين المتقعرين من دارسي النحو والصرف قد أزعج أبو سداح.. وهو الذي يزعج الكبار والصغار.. إزعاجاً لا حد له حين صاح به بعد قيامه بعملية الطهارة لابنه.. قائلاً له «ترى.. ماذا فعلت بقلفة ابني.. يا رجل؟» فتبرسم أبو سداح صامتاً.. لأنه.. وهو.. هو قاطع القلفات يومياً.. لم يدر ولم يعرف أن للغلفة بالغين اسماً آخر هو القلفة بالقاف.. فأدار وجهه لهذا المتحذلق المتنحون.. وولى مسرعاً حتى أنه حسب الرواية نسي أن يأخذ أجره وذهب يناهج من توه إلى إمام الزاوية الشيخ مبارك الذي هدأه.. وابتسم بوجهه.. ثم فرد القاموس أمامه.. وأشار له بيديه.. فبرك أبو سداح ـ وكان جسيماً كما سيأتي ـ كالجمل أمام الشيخ الذي قرأ له الفقرات الآتية:

أ ـ القلفة ـ يبو سداح.. بالقاف آتية من فعل قلف الشجرة أي نزع

عنها قشرها.. وقلف الظفر أي اقتلعه من أصله. وقلف القلفة يعني قطعها.

ب ـ كما تقول قلف قلفاً الصبي: لم يختتن ـ فهو أقلف.. وعلى ذلك فالقلفة: جلدة عضو التناسل.

ج ـ أما الغلفة ـ بالغين ـ فهي من فعل غلف الشيء بفتح اللام غطاه وغشاه.. وبتشديد اللام غلف الشيء جعله في غلاف.. ومعناها القلفة وهي الجليدة التي يقطعها الخاتن..

د ـ وبناء عليه ـ يبو سداح ـ فتكون القلفة بالقاف هي الغلفة بالغين ـ ويكون الأقلف هو.. الأغلف.. و.. و..

وهنا زعق أبو سداح.. وهب في وجه الشيخ مبارك صائحاً.. بس ـ بس ـ كفاية.. كفاية.. هو مين اللي قال لك كمان إني ما أعرف معنى الغلفة؟ تحب تشوف؟..

وهنا لم يتمالك أبو سداح نفسه من الاندفاع.. وإشهار موسه.. والاتجاه به صوب الشيخ مبارك الذي كان يحتضن ابنه المتعلق برقبته.. والذي صرخ في وجه أبو سداح.. لا.. لا.. محلك!! حاسب! ترى الولد قيدو.. مطهر.. مطهر.. وأنت.. أنت اللي طهرتو بيدك.. هو أنت؟ أنت يبو ـ سداح؟

.. وكما أن عملية الطهور ـ أي الختان ـ عملية شرعية يحث عليها الدين.. وتقتضيها النظافة.. والنظافة من الإيمان.. فإن عملية إشهارها كانت ـ على أيامنا ـ تقتضي الاستعداد العائلي لها.. وذلك بإقامة حفل خاص «بالطهار» ودعوة الأهل والأقارب والمعارف والجيران إليه.. وكانت معظم الاستعدادات تنحصر في الآتي:

أولاً ـ القيام بترويش أو بتدليك الولد وتنظيف جسده جيداً.. وخصوصاً موضع القطع.

ثانياً ـ تفصيل ثوب بفتة أو صليطي جديد للولد لارتدائه دون سروال.. ومن دون الخوف من صراخ وهيلولة زملائه عليه بقولهم «الدلال» ـ أو: دلال السروال.. جاكم.. جاكم.

ثالثاً ـ إحضار كرسي مخصوص لجلوس الولد عليه.. مع وضع مخدتين.. أو مسندين وراء ظهره.. ليكون المحفوظ مدلدل الساقين والرجلين.. متطرفاً.. جاهزاً للقطع.

رابعاً: إحاطة المحفوظ بثلاثة رجال أو أربعة من أقاربه لمسكه.. والتشبث به.. إبطالاً لأية حركة هرب أو عصعصة تبدر منه عندما يباشر أبو سداح عمله.

خامساً ـ مشاغلة الولد ممن حوله بالجمل المتوالية: طل فوق ـ شوف السقف ـ شايف؟ شايف الطير الأخضر؟ الله ـ الله. شوف.. ويعتبر مجرد رفع رأسي الولد للسقف إيذاناً مباشراً لقيام أبو سداح بقطع الغلفة.

سادساً ـ تحضير قطعة شاش بيضاء نظيفة.. وكذلك حفنة من الرماد المنقى الذي لا تخالطه بقايا الفحم.. مع قليل من الملح المطحون.. وذلك لوضع الغلفة بدمها وصرها ثم تعليقها برقبة الولد المطهر لتكون شاهداً يتباهى به كما يتباهى اليوم بعض غلمان الجيل الحاضر وشبابه بسلاسل الرقبة.

سابعاً ـ اختيار بعض السيدات المجيدات للغطرفة ـ واستعدادهن بإرسال الغطاريف المدوية المتتالية بمجرد تلقي الإشارة بانتهاء أبو سداح

من شغله ـ إشعاراً عائلياً للأهل وللجيران وللحارة كلها بانتهاء المرام على خير ما يرام..

ثامناً ـ قيام أفراد العائلة والأقارب والجيران رجالاً فنساء بإعطاء المحفوظ المطهر من الفكة ـ الهلل والقروش.. ما تجود به نفس وقدرة كل منهم.. لقيام الولد بوضعها في كيس النقود المصنوع خصيصاً له ولها.. وذلك بقصد إلهائه عما قطع منه.

.. وقد تتغالى بعض العائلات فيقوم رجالها بإحضار بغلة أو حصان أو رهوان لإركاب الولد المطهر يحف به أترابه والأعزاء من أهله.. والتجول بالموكب في الأزقة والشوارع والبرحات.. مثل حفلة الاحتفاء بالصرافة.. وهناك ـ عدا ما ذكرنا ـ بعض الزيادات والحواشي والهوامش الإضافية مما تحول شواغل العصر الحاضر دون استحباب إيرادها والاستزادة منها.. علماً قبل وبعد ذلك بأن عادات الطهور بكافة وسائل إشهارها كانت متوارثة جيلاً بعد جيل. بحيث لا يمكن إجراء عملية الطهور «سكيتي» وذلك لئلا يتهم الولد من زملائه بأنه أغلف أو اقلف.

وكما تقول الصحافة اليوم.. وانطلاقاً من عملية «الطهار» ومتعلقاتها فقد كانت لشخصية المطهراتي قيمتها الكبيرة في المجتمع.. ومن هنا كان الجهل بأبو سداح غير وارد إطلاقاً.. يضاف إلى أسباب ترسيخ شهرة أبو سداح في جدة أنه كان حلاقاً. أي مزيناً.. كما تقول التسمية الأتيكيتية البلدية الحلوة.. المفروغ منه بديهياً وبدهياً كما يقول الأستاذ إياه.. إن اسم «مزين» آت من التزيين.. ويطلق لغوياً على الحلاق والحجام.. فحلق الرأس وتنظيفه وتنعيمه قلطاً بالموسى.. قديماً.. وتسوية شعره وقصه بالمكنة نمرة ثلاثة أو اثنين أو «زيرو» في بعض المواقع حديثاً

وحالياً إنما هو لتشذيب وتهذيب وتزيين خلقة الإنسان.. والوجه والرأس عنوانها البارز..

ولعلّ من المناسب إيراده هنا أن بعض علية الناس من زبائن أبو سداح كانوا لا يخجلون من رفع الثياب وتقديم أباطهم في دكانه لإزالة شعر الباط حلقاً بالموس.. وكان.. حتى لا اتهم بالاختلاق.. على رأس المشجعين لهذه العادة الباطية الوجيه المرحوم الحاج الماس.. ولا داعي لذكر اللقب فما ذكر يكفي.. ولقد رآه كاتب هذه السطور مع رفيق صباه وحياته المرحوم الشيخ محمد سعيد العتيبي. وكانا آنذاك غلامين يتجولان في السوق الكبير خاصة للاطمئنان على انتهاء البدوية من بيع الدجاجة والديك اللذين سلماهما لها لضمها لبضاعتها المعروضة أمام مسجد عكاش من ناحيته الشمالية الشرقية وبيعها لحسابهما.. بقروش معدودات.

كما أن من المناسب كذلك الإشارة إلى أن عملية الحلاقة على عهد عميد الصنعة أبو سداح كانت عملية يقوم الموس فيها بالدور الأكبر.. فلقد كان عيباً.. بل ومحرماً اجتماعياً على الناس في المدن طبعاً.. تربية شعر الرأس.. وكذلك إبقاؤه لأكثر من أسبوعين ـ أي جمعتين.. تمهيداً لحلقه زلطاً قلطاً بالموس. حتى ترى الرأس «تصاصي» أي تلمع.. وحتى تصلح أن تكون فور الانتهاء من حلقها مرآة لمن يريد أن يرى فيها وجهه.. ولهذا أطلق على الرأس المحلوقة «القنجة».. كما خصص لها وبعد حلاقتها.. على سبيل المزاح.. كف يسمى «كف الحلاقة».. وهذا الكف الدعابي الأخوي عبارة عن تسقيطة حنونة على الرأس ببطن الراحة ولا يباح إلا للأصدقاء الخبثاء.. وأظن أني لست في حاجة للتبحر في شرح «التسقيط» الشعبي بأنواعه وبمدلولاته.. فهو معروف ومشهور إلى

الحد الذي بلغت فيه كلمة «التسقيط» في بعض معانيها التدليل على بلاهة وغفلة من يستحقها ممن يعمل عملاً فاشلاً.. أو من يقول كلمة غبية.. أو من تجرد عن الفطنة.. وعلى ذلك فإننا نرجح أن ذلك رمز إلى أنه مراد العقل.. أو أجروده..

ولما ذكر في هذا الباب ـ باب التسقيط.. فإنا نحب أن نؤكد تهذيب أبو سداح.. وتعاليه عن المصطلحات السخيفة.. فإنه لم يعرف عنه طيلة اشتغاله بالصنعة أنه سقط في أي يوم من الأيام لأي زبون مهما كان شأنه.. مستهجناً دائماً العادة الدارجة والمتداولة بين الناس.. في بشكاتهم ـ وقيلاتهم ـ وسرحاتهم البحرية.. وذلك بقول بعضهم لبعض ـ حين يرتكب أحدهم عملاً أو قولاً يدل على بلاهة.. أو غباوة ـ أو فشر.. «ها؟! إيش تشوف؟ تسقط لو أنت.. وإلا أقوم أنا.. أسقط لو؟»..

.. هذا.. ولما كان حلق شعر الرأس كله.. بل وتنعيمه وعدم بقاء أي أثر للشعر أو الزغب عليه أو حوله هو الأصل.. وهو دليل الذكورة والرجولة والشعبية الأصيلة فقد كان كل من يخرج على العرف من الأولاد ويربيه أو يحتفظ بجزء منه في واجهة الرأس مما كان يسمى «شوشة» متهماً في شعبيته وأنه أرستقراطي فيطلق عليه اسم «أبو شوشة» وربما ورد كبحث اجتماعي لقب بعض العائلات المدعوة بهذا اللقب إلى هذه التسمية القديمة.

وقد أطلق بعد التطور على من يحتفظ بشعر رأسه كاملاً.. مكتفياً بقصه من أطرافه وتزيينه اسم أبو «تواليت» كما أطلق على شعر الرأس الكامل نفسه اسم «التواليت» أعزكم الله. علماً بأن التواليت هو الشكل

الحاضر والسائد اليوم لكل من حمل راساً على كتفيه ذا شعر كامل.. وأعتقد أنه لم يبق إلا العدد القليل جداً جداً من المحافظين لليوم على الحلق القلط بالموس.. وهم بقية الناس البلدي جداً جداً ـ برضو ـ كأمثال الواد زنقر ـ واليابا الكركشان.

مما تقدم ذكره بسرعة ومما سيأتي على مهل. ندرك مدى قيمة وأهمية وسيطرة وشهرة «أبو سداح» وكما يسمى في الأدب من جمع بين الشعر والنثر بذي الصناعتين فكذلك كان أبو سداح صاحب صنعتين هما الطهور أي الختان ـ والتزيين ـ أي حلق شعر الرؤوس والأباط فهو مطهر ومزين بل إن أبو سداح ضرب عرض الحائط بالمثل القائل «صاحب صنعتين كذاب»، حين أضاف صنعة التشريط بالموس في الخدين للتمشيل أو لفقع الحومة أو الدملة المستوية الناشفة بالموس.

ولقد أعجبني في هذا الباب.. وفي عدم سماح أبو سداح لأي من الناس بأن يستخف بالصنعة أو يستهين بأصحاب الأمواس الحادة قول بعض الظرفاء من أهالي النزلة اليمانية.. وكان يتعاطى الشعر بإيعاز من والد الأستاذ عبد الحميد مشخص خفية عن والديه وأهله.. مع إرسال بعض ضفائره على الكتفين كعادة الأعراب حينذاك ـ ومكايدة للحضر الذين لا يرأفون بشعر رؤوسهم ونثره في الهواء عندما يلعبون «الرفيحة» وهذا القول دون تحريف منا هو:

أتيت أبا سداح.. بالشعر مازحاً

لأمدحه مدح المحبين للفن ـ

فكتَّفني بالحبل ـ حتى كأنني

لديه طلي ـ جاء للذبح.. يستنّي

وسن لي الموس الطويل.. مقشطاً
على الشعر.. بعد الشعر.. في الرأس ـ في الذقن
وشرطني.. في الخد.. بالموس مرسلاً
دمائي على الخدين ـ من دونما دهن
وقال لي اذهب يا فتى ـ متعلماً
بان لنا قنا ـ يفوق على القن
فأقسمت.. أني لن أحوم بعدها ـ
بدرب أبي سداح ـ
حرصاً على أمني!

وفعلاً.. هكذا كان أبو سداح في غيرته على التقاليد.. وحرصه على سمعة بلدته جدة.. وعدم السماح لغلمان الضواحي والبوادي بالاستخفاف بأهل الحواضر.. وكانت طريقته التقليدية في تأديب من ترمي به المقادير بين يديه ـ الموس ـ ولا شيء غير الموس.

وبعد ـ فقد كان أبو سداح يرحمه الله ـ صاحب دكان قريب من سوق الخاسكية.. على خطوات من بيت.. وقد تمسك منذ زواجه وإنجابه بالقاعدة الذهبية المتمثلة في مثلنا الشعبي الدارج.. صنعة أبوك لا يغلبوك. لهذا فقد لقن ابناءه الصنعة منذ أن نبت الشعر برؤوسهم فحلقه لهم بالموس.

كما كان من أشد المتعصبين لعدم تفتيح عيون الأبناء على ما يضرهم ـ فهو لا يسمح للصبي أن يتجاوز في تعليمه جزأي عم وتبارك ولا للبنت أن تتعدى شغل المنسج.. لزركشة المدورة أو تفصيل المحرمة.. أو تطريز عصابة الرأس المعروفة باسم ـ الشنبر.. وعلى من أراد معرفة

المدورة والمحرمة والشنبر أن يعود إلى سته ـ أي جدته. . إذا كانت تعيش. . أو إلى أمه المسنة للوصف وللشرح ـ غير الحضرمي ـ شرح الله صدور الجميع للمعارف الشعبية.

ذلكم ـ باختصار مفيد أو غير مفيد ـ هو أبو سداح. . لقباً. . وحيثية وشهرة مستفيضة دامت قرابة قرن كامل. . أما أبو سداح في هيئته الجسدية بكامل أوصافها كما ورد في موشح كامل الأوصاف فقد كان طبقاً للمواصفات الاتية.

أ ـ من جهة لون البشرة. . فهو أسمر بلفظة مجازية مهذبة ـ أي أنه بالبلدي الفصيح ـ أسود غطيس.

ب ـ البنية. . كان صاحب بسطة في الجسم فهو في مقاس الجمل بمقاس بلدنا أو الفيل بمقاس البلاد التي يركب أهلوها الأفيال ـ مشقور العينين باستمرار خشية من أن تفوته شعرة في رأس الزبون من الكبار أو طرف جلدة من قلفة الأولاد الصغار.

ج ـ سيكولوجياً. . رجل خالٍ من العقد النفسية. . واللي في قلبو على لسانو.

حتى أن أصحاب الأسرار من زبائنه كانوا يتحاشون التفوه بها في حضرته رغم قيامه أثناء الحلاقة بجرجرة ألسنتهم كعادة الحلاقين من بعيد ـ لبعيد.

و ـ موديلياً. . حافظ على ارتداء الثوب دون حزام. . وذلك لبروز كرشه بروزاً غير عادي. . ولرغبته في أن يرى كرشه أمامه متقدماً الصفوف لدى الزحام إشهاراً لوجوده وكان يلازم ارتداء المداس أبو صباع يقلعه حين مباشرته الطهور في البيوت ـ ويستبدله بالقبقاب في الدكان استعداداً

للوضوء وهو أول من أقدم على كشف رأسه أو قنجته الملساء حرصاً على الاعتزاز بحرفته.. وقد اغتاظ كثيراً في آخر أيام حياته من صديقنا الأخ عمر هزازي حين أقدم كأول شاب جداوي على تحدي العرف وعلى السير برأسه ذي التوليت المكشوف دون كوفية أو عمامة أو غترة وكان أبو سداح ذا أسنان ناصعة البياض حرص لأجلها على حمل المسواك ـ وتعليقه بأذنه كما كان المحاسبون والكتّاب يحملون مراسمهم وأقلامهم وقت اشتداد العمل ـ في أذانهم.

وكفاصل موسيقي ـ قبل أن تقدم الحلقة الأخيرة من سيرة أبو سداح يحسن أن نستمع إلى هذا المقطع الذي أملاه علينا بعض معارفه القدماء:

أبـــا ســـداح ـ يـــا غـــالـــي ـ
سـنـنـت الـمـوس ـ فـي الـحـال ـ
لـقـطـع جـلـيـدة الـغـلـفـه ـ
بـــلا جـــهـــد ـ بـــلا كـــلـــفـــه ـ
وحـــلـــق الـــبـــاط ـ والـــراس ـ
مـــن الـطـائـع ـ لـلـعـاصـي ـ
فـــلا زلـــنـــا ـ لـــدى الأفـــراح ـ
نـــنـــاديـــكـــم أبـــا ســـداحْ ـ
ولا زلـــتـــم. . لـــدى جـــده ـ
لـــفـــك الـــضـــيـــق ـ والـــشِّـــدَّه ـ
بـــلا شـــرط. . ولا مُـــدَّه!!

.. أما هواياته ـ فقد كان أبو سداح مغرماً بالسمك.. محباً لأكل اللحوم بأنواعها وبالوانها.. شغوفاً بالضاني شغفه بالبقري وبالجملي ـ

يموت في أكل الدجاج والبط والقطا في موسمه.. كما كان شديد العناية بتربية التيوس الصغيرة للتمتع بأكل التيس الذي لم يبلغ الحلم قبل أن يبعبع أو يلتحي.. أما مشوياً في الفرن.. أو معمولاً سلاتاً على الحجر.. وبجانبه ما تيسر على قوله ـ وحيث إنه لم يك محبذاً لأكل العيش الحاف فهو متيم بالغموس. أي غموس ـ وكان ينصح أهله بذلك حتى لو كان الغموس عسلاً وطحينة.

أما بالنسبة للمُواصلات لا يطيق ركوب الحمير ـ مع أنها وسيلة المواصلات الأولى في عهده.. وربما عاد السبب في ذلك إلى أنها لا تطيق حمله إذ لا يوجد حمار يستطيع السير به دون انقطاع أنفاسه من الخطوات الأولى كما أنه لا يميل إلى ركوب البغلة أو الرهوان أو الأكديش.. كلا بعقلو يعيش ـ بل إنه كان يكره كل حيوان جسيم بما في ذلك الجمل.. أو جمال الراك على الأخص كراهيته للدكتور أو الطبيب ـ أي من كان يسميه الحكيم.. لمزاحمته له في الصنعة على آخر أيامه.. وبأسلوب الطهور. أي الختان ـ الحديث!

وبالنسبة لمفاخر أبو سداح.. فقد كان المرحوم يفاخر دائماً بأنه رغم بدانته الفائقة فإنه يستطيع مسابقة أي عداء يريد مسابقته في المشي أو في الجري على حد سواء.. ويرد السبب في احتفاظه بقوته البدنية الهائلة إلى ولعه بالمشي إلى البيوت للطهور على رجليه. وبالسير حافياً أحياناً على رأس المحتفلين بالولد المطهر.. علماً بأنه لم يكن هناك داعٍ لهذه القوة الهرقلية التي يعتز بها.. فإن بنية زبائنه للحلاقة لا تبررها. كما أن أجسام الأولاد الذين يقوم بتطهيرهم محدودة بل هم كالعصافير.. فقد كان الطهور بالمناسبة ـ للأولاد في سن تتراوح غالباً بين الثالثة والرابعة. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا القليل.

وبالمناسبة ـ للمرة الثانية ـ فقد اتصل بي تلفونياً أثناء كتابتي حلقات ابو سداح الأستاذ محمد سعيد متبولي ـ أو مات ـ بولي كما يداعبه بعض خلصائه.. وذلك لتعليقه على حلقات بيبي زينب وعم سديق وإظهار إعجابه بالشعبيات.. وقد تطرق الحديث إلى أبو سداح وسواه فاجأني المذكور بمعلومات قيمة في تاريخنا الشعبي لا تتسنى في الحقيقة لمثل من هو في مثل سنه ـ كما يقول ـ وحتى لا أدخل معه في التسنين وتوابعه فقد قلت له صادقاً إن لبعض الأشخاص رغم سنهم لاقطة قوية.. فهم منذ أن يحبو الواحد منهم تاتي ـ تاتي ـ خطى العتبة ـ وبعد أن يقفوا على أقدامهم يعون تماماً كل ما يمر بهم أو يسمعونه.. وتقوم لاقطتهم القوية هذه بتسجيل وتحميض كل الأشرطة المرئية والمسموعة وحفظها في خزانة الذاكرة لحين اللازم.

وقبل أن ندخل في حديث الأستاذ المتبولي الخاص بالمناسبة لا بد أن ننوّه أنه عضو بالمجلس البلدي لمدينة جدة.. بل هو أقدم عضو عامل بالمجلس منذ أيام المرحومين الشيخ محمد صالح أبو زنادة ويوسف نصيف رغم أن سنه فوق سن أكبر أبنائهما بقليل.. وهو أنشط من عرفت في معرفة وملاحقة حاجيات البلد العامة.. لولا!! لولا أنه لم ينفذ حتى الآن اقتراحي القديم الخاص بترقيم الشوارع والبيوت عددياً وأبجدياً وحسبما ورد بإحدى قناديلي السابقة على أنه رئيس اللجنة الخاصة بمشروع الترقيم. حتى الآن.

شاهدنا من المناسبة.. أن الأستاذ المتبولي قال لي إن الشخص الوحيد من أبناء جدة الذكور طبعاً الذي جرت عملية طهوره وهو مراهق هو ابن القاضي.. أي المرحوم الشيخ عبد الوهاب قاضي الذي كان يقف

على رأس أمنا حواء.. متنقلاً في مقبرتها بخرقته البيضاء من الرأس إلى الصرة الكائنة تحت القبة ـ ثم إلى قدميها. مستنزلاً عليها الدعوات قابضاً لحسابها ما تيسر من الفكة والريالات. حافظاً خريطة جسدها المسجى في مقبرتها ابتداء من الرأس الذي كان كائناً أمام الباب الجنوبي لمدخل المقبرة وانتهاء بقدميها اللذين كانا يقعان أمام الباب الشمالي. وكان ذلك كما لا أحتاج أن أقول. قبل صدور أمر الحكومة بهدم القبة.. والقضاء على البدع والشرك بإزالة البناء الخرافي الطويل جداً والمحدد لقامة أم الجميع. وبالأخص من أبنائها الزوّار القدماء لها من الحجاج ـ ومن الخواجات بما فيهم بحارة البواخر أيضاً فهي أُم الكل ـ على طريقة ست الكل.. وربما تعرضت لسيرتها الشعبية في يوم ما..

وتفصيل أمر ابن القاضي كما رواه الأستاذ المتبولي.. أن المرحوم الشيخ عبد الوهاب كان شديد التدليل لنجله فكلما هم بتطهيره بكى الولد ـ أو النجل ـ وبكى معه من بالدار فيضطر الوالد بدافع من الحنية والدلع إلى تأجيل الطهور حتى إذا كثرت معايرة أولاد الحارة للولد الشحط وزفهم إياه كلما رأوه بكلمة.. الأغلف ـ أو أبو غلفة.. جاكم.. جاكم.. أبو غلفة.. أذعن الوالد والولد لموس أبو سداح.. وكان طهور الشاب بمثابة معركة رهيبة دارت بينه وبين الرجال الأربعة الأشداء الذين كتفوه بسواعدهم بعد ربطه بالحبال ـ ولقد روينا هذه الحادثة وسجلناها نقلاً عن الأستاذ محمد سعيد مات ـ بولي لأجل العبرة والعظة. فكم يجني تدليل الآباء على الأبناء على قول أبو سداح يوم طهور هذا الشحط!!

وأخيراً ـ فمهما تحدثنا عن أبو سداح ـ وقد تحدثنا طويلاً عنه..

فإننا لن نفيه حقه وبالأخص نحن كهول وشيوخ اليوم إذ ندين له فعلاً بما فعله فينا ـ ونحمد الله إذ قام ورثته بإعدام ما كان موجوداً في «الشكمجية» التي كان يحتفظ المرحوم بها في دكانه والمحتوية على أنواع من الغلفات المستردة من العوائل بعد جفافها.. وانتهاء لازم تعليقها في رقاب الأبناء. حتى لا يسعى كل منا إلى استرداد وديعته. للذكرى.

أما سبب تسمية أبو سداح «أبو سداح» فيقال إنها نتيجة «سدحه» الدائم لكل من وقع بين يديه من الصغار لطهورهم ـ ومن الكبار لحلق رؤوسهم أو تشريطهم ـ أو حلق آباط البعض منهم.. وبرجوعنا للقاموس وجدنا أن الحق بجانب هؤلاء.. فكلمة أبو سداح للمبالغة عربية فصيحة.. إذ أن من معاني فعل «سدح» معنى بسطه.. على الأرض ـ أو طبعاً على كرسي الطهور أو كرسي الحلاقة.. فاشتغل فيه بنور الله دون قيامه بمناولة الزبون كف الحلاقة، أي التسقيط على الرأس ـ للتنعيم ـ اكتفاء منه ـ تأدباً ـ بقوله له.. نعيماً وبس.

.. لقد شافهنا الكثير ممن قابلونا.. على خلف الخاطر.. وجهاً لوجه بمناسبة وبدونها ـ وكذلك من كتبوا باسمنا على العنوان الآتي.. طريق الميناء ـ جريدة عكاظ الغراء.. الدور غير الأرضي.. وأيضاً من تلفنوا لنا على بيتنا الكائن قريباً من شارع الأحساء الطويل العريض والذي لم تتم سفلتته حتى الآن رغم ما قام به سعادة الأستاذ محمد سعيد فارسي من سفلتته وحفحفة بعروس البحر ـ دهليز الحرمين ـ جدة ـ أم الرخا والشدة ـ ومشاريع بلدية عمرانية تذكر ـ وعلشانها يشكر.

وكل هؤلاء الذين شافهونا ـ وكتبوا إلينا.. وتلفنوا إلينا.. على لسان واحد ـ أو بريد مشترك ـ أو تلفون متداخل.. يطلبون منا بمحبة وإخلاص

وحرارة أن نقوم بعد انتهاء سيرة أبو سداح ـ وقيامنا «بتطهير» اسمه مما علق به من شوائب.. أن نكرم ذكراه الثلاثينية والتي سيأتي موعدها بعد أيام بمقطوعة «بموس» شعري ناعم.

وحيث إن هذه الظاهرة الجميلة.. والبادرة الحسنة تدل من كل أولئك وهؤلاء على روح شعبية أصيلة لا تنسى لمن فعل بأجدادهم أو بآبائهم أو بهم شخصياً ما فعل.. وتستحق الاستجابة تزكية لها.. فإننا نبادر بإصدار هذا الملحق من الشعبيات.. وفيه ما يطلبه الأعزاء الغالين علينا ـ نزولاً على حكم المثل الشعبي القائل، غالي.. وطلب رخيص.. وإليكم التالي في التالي.

عليك.. أبا سداح ـ تشهق جدة
وتبكي.. إذا ما جاء ذكرك.. يا غالي
فما زلت في كل البيوت. لأهلها
لأولادها.. عند الطهار على البال
لقد كنت سديداً كريماً بفنه
وبالموس شغالاً براحة شغال
طهوراً وتشريطاً.. وحلقاً لقنجة
تضيء.. كما ضاءت مراية خالي
فيا طالما نظفت باطاً لراجل
فقال الذي من بعدو:
يا رب عقبى لي!!
رحلت.. ولم تترك وراءك أغلفا
لدينا.. وهذا فعل أطلق رجال

وعشت.. بك البزرا.. تقول لأمها
إذا فجعتها.. سوف أرقد في الحال

هنيئاً لك التيس الصغير شويته
لدى الفرن.. أو طقطقت منه بأوصال

إليك أبا سداح أنهي عريضتي
فإن قلت. قدمها أتيتك.. طوالي!!

ظَرِيفَهْ..

لو سألت الكثيرين ممن كانوا يتابعون برنامجنا الإذاعي الشعبي المشهور في حينه «ع الحلوة ـ والمرة» بشخصيات عائلته ابتداء من ظريفة وانتهاء بعمو رمدان. عن السبب الأساسي في تسمية البطلة باسم «ظريفة» لأجابك كل واحد منهم إجابة مختلفة عن الإجابات الأخرى.. وقد تكون تلك الإجابات أو الإجابة منطقية مقنعة في ذاتها.. ولكنها لا تحدد أبداً مضمون اسم «ظريفة» ولا تكشف عن شخصيتها الشعبية الحقيقية المستترة في ذلك المضمون والتي انفردت بهذه التسمية طيلة قرن إلا ربع القرن في قلب مدينة جدة وضواحيها منطلقة من عزلتها الصغيرة المجاورة لفرن الحنبولي تجاوزه السور القديم إلى الخلاء على حل شعرها.. بحيث لا يرد رأسها إلا مركز أم السلم بدرب مكة المكرمة شرقاً.. أو جسر الكراع بطريق المدينة شمالاً فإليك المضمون.

اسمها ظريفة ـ وهي ظريفة فعلاً سواء في حديثها الحلو الساحر حيناً ـ والساخر أحياناً. أو في قوامها الرياضي الممشوق كالرمح ـ أو كالشوحط والخيزرانة الطويلة. يجعلك تنسى أن تطالع تفاصيل وجهها ومعارفه الجزئية ـ فلا تكتشف بذلك أنها لم تنل من قسمات الجمال ما يؤهلها لأن تطلق عليها كلمة جميلة.. أو حسناء.. مكتفياً أنت كما اكتفت هي

بأنها من ناحية الشكل العام.. مقبولة.. فقط لا غير.. وهي تعتز دائماً بأنها مقبولة شكلاً لسبب وحيد ووجيه وعزيز في نظرها.. هو أن اسم أمها المرحومة «مقبولة» وكان لها ولع كبير بأمها في حياتها وحتى بعد مماتها. فإن تلك الوالدة التي كانت تبيع الفول النابت في أول سوق النورية القديم بجدة هي التي غرست فيها روح العمل الحر.

لقد نشأت ظريفة وهو اسمها واسم شهرتها معاً محبة للعمل وللكسب بدافع قوي من حالتها التجارية التي اذكتها فيها والدتها «مقبولة ـ ولكنها لم تنزل إلى العمل التجاري في نفس الميدان الذي خاضته والدتها ـ وهو بيع الفول النابت ـ وإنما فكرت ظريفة ـ ثم فكرت ـ ثم قدرت.. فاختارت ميادين أخرى لهذا العمل. وذلك في الوقت الذي كانت فيه نساء المدن، ومنها مدينة جدة.. لا يعرفن إلا الزواج.. فخدمات الزوج والبيت ليس إلا.. وفي نفس الوقت الذي تركت فيه لبنتي خالتها كباية وعسله بيع الفول النابت في أول سوق النورية القديم خلفاً لخالتهم المرحومة ـ مقبولة.

هكذا دخلت الست ظريفة مجال الأعمال الحرة وليس لها رأس مال يعتد به.. أو يذكر في عالم الأرقام.. إذ إنها حين تحدثت عن نفسها في مستقبل ايامها ـ وبعد شهرتها ورسوخ قدمها.. وذلك في ريبورتاج صحفي.. قالت مثلما يقول كل الناجحين في عالم المال بعد نجاحهم.. إنها بدأت أعمالها التجارية الحرة بدون رأس مال تقريباً.. وبذلك أثبتت أن التاجرة الناجحة.. أو التاجر الناجح هي أو هو من يصنع المال.. وليس الذي يصنعه المال الموروث.. أو المستلف من الأهل والأصحاب. أو من البنوك بفائدة مئوية أو بدونها!

لقد ابتدأت ظريفة بنصب «اللوح» أمام عزلتها.. واللوح كلعبة شعبية رياضية عبارة عن لوح من الخشب مربوط من أطرافه الأربعة بحبال تنتهي في أعلاها بقندل يمسك كلاً من طرفيه قندلان آخران مغروزان في الأرض على شكل مثلث.. ويرتفع اللوح نفسه عن الأرض معلقاً في الهواء بمقد نصف أو ثلث متر.. وما على طالب اللعب في اللوح والتمدره به إلا أن يصعد وأن يمسك بالحبلين الأماميين.. ويهزهما هو أو يهزه سواه من الأرض فيهتز به اللوح تدريجياً حتى يعلو في الفضاء بقدر عزم اللاعب عليه. ويجوز أن يعتلي اللوح لاعبان متقابلان وجهاً لوجه.. ورأساً برأس يمسك كل منهما بحبلين من الحبال الأربعة «ويتنافحان» بين وأمام أنظار الجمهور المتفرج وتصفيقه أو تصفيره.

ومن المعلوم أن للعبة على «اللوح» زمن مقرر ولهذا الزمن المقرر تعرفته المقررة أيضاً.. وقد بدأت ظريفة التعرفة بهللة وانتهت بها إلى هللتين وعلى حد تعبيرها.. ومن الهلل تتكوّم القروش.. علماً بأنه يجوز للاعب بعد انتهاء المدة الأولى تجديدها بعد دفع الهللة أو الهللتين ـ لتجديد اللعب أو النفح المفرد ـ أو المجوز.

وحين نجحت لعبة اللوح.. وتضخمت وارداته الهللية حيث أقبل عليه صبيان وغلمان وفتيان المحلة ـ محلة المظلوم ـ والمحلات الأخرى فكرت الست ظريفة أن تستفيد من جمهور اللاعبين على اللوح وكذلك المتفرجين، فاقتنت صاجاً.. واشترت زيتاً وحطباً وفحماً.. ثم خمرت الكشري وخلطته ببهاراته المقننة وفرمت عليه الكرات.. وابتدأت حالاً في صنع المقلية.. المقلية التي طارت شهرتها في جدة فصارت تعرف بمقلية ظريفة.. ثم اصبحت الطبق المفضل لدى بيوت الحي.. ثم الأحياء

المجاورة له.. وأحيني اليوم. وقابلني.. غداً!!

.. وحتى لا يصدق على الست ظريفة.. لا على المقلية.. المثل القائل صاحب صنعتين كذاب.. فقد عهدت بعد رواج اللعب على اللوح أولاً.. ثم اشتهار المقلية ثانياً إلى ركن خارجي من عزلتها الصغيرة الملاصقة لفرن الحنبولي وذات الحوش المكشوف فعملت في الركن ما يشبه الأكشاك الآن.. وجعلته كهيئة «بوفيه بلدي صغير» وهيأت به للزبائن المكسرات الشعبية المعتادة من الفشار.. للفصفص.. للزرمباك.. للوز.. للحمنبص.. لسواها.. ووفرت المنعشات الدارجة تلك الأيام.. من السوبيا والزبيب البارد صيفاً. إلى المغات والسحلب شتاءً.. مع الاعتماد على كفتيرة الشاهي في كل الفصول باعتباره المشروب المحلي الشائع.

وبقيام الست ظريفة بتأسيس البوفيه البلدي ضربت ببقية المثل السابق عرض الحائط فقد باتت الغلات الثلاث من اللوح. للمقلية لمعروضات الكشك بمثابة تكذيب عملي لهذا المثل الدارج البائخ.. صاحب صنعتين كذاب. والتالتة منافق.. كما أصبحت هذه الغلال دليلاً أو أدلة مادية على أن «التخصص» التجاري في صنف واحد ليس هو وحده سبيل النجاح.

.. لقد علق منذ أكثر أو حوالي نصف قرن من الزمان أحد كبار التجار في جدة ممن يدعون بالاقتصاديين اليوم على الست ظريفة وأعمالها الثلاثة بقوله «لقد اثبتت الست ظريفة أن المرأة الشعبية في بلادنا قادرة على أن تكون نجماً اقتصادياً.. وأنها تحسن العمليات الحسابية الأربع دون ورقة أو قلم.. وذلك بتشغيل مخها.. ثم تحريك أصابع يديها.. فقدميها إن لزم الأمر في حالتي الجمع.. أو الطرح.. دون الاعتماد على عملية «الضرب» التي لا تناسب الجنس الناعم اللطيف.. ولا لزوم لها..

ولا الاعتماد كذلك على عملية «القسمة» فلا حاجة لها باعتبار أن «القسمة» حظ.. ونصيب».. انتهى تعليق الاقتصادي الكبير.

هذا.. ولم يكد أحد معارف الست ظريفة ممن يفكون الحرف أيامها يطلع على نص التعليق حتى طلبت الست ظريفة فوراً من قائله.. بعد إهدائه صحناً محترماً من المقلية وسلطتها ـ أن يكتب ما قاله عنها بخط جميل واضح.. وعلى «لوح» من الخشب المصقول «بالفارة» ففعل طبعاً. وقام بكتابة ما طلبته ظريفة نزولاً على المثل القائل ـ اطعم الفم ـ تستحي العين.. وحينذاك. وكأسلوب من أساليب الدعاية والإعلان التجاري في حينه قامت بتعليق اللوح الخشبي المكتوب فيه التعليق بخط ثلث رائع.. بعد بروزته بقصاصات من التنك اللميع في واجهة عزلتها الصغيرة ذات الحوش المكشوف على مرأى من «اللوح» ومن صاج المقلية.. ومن كشك بيع المكسرات والمرطبات وبمواجهة الزبائن والمارة.. فطار حد اللوحة الخشبية المبوزة بعد أن طار حد اللوح والصاج والكشك..

ومن الغريب في هذا الباب ومتعلقاته أن الاقتصادي الكبير صاحب التعليق صار بعد تعليق اللوحة التي تحمل كلماته القيّمة أحد المواظبين على الحضور إلى مقر الست ظريفة. ويحكي المرحوم عمدة المحلة أن هذا التاجر أو الاقتصادي الكبير الشهير وكان يحفظ بعض الكلمات الإنجليزية أحضر معه ذات مساء أحد الخواجات المولعين بالدراسات الشعبية وزعيم إحدى النقابات العمالية في بلده لمشاهدة الست ظريفة وأقسام الأعمال المختلفة لديها وتحت إدارتها وحدها.. وقد أخذ منها كافة المعلومات اللازمة.. وكيفية عمل المقلة والسحلب.. كما صوّر اللوح.. ورسم الصاج.. والكشك ومحتوياته.. واللوحة المعلقة على

واجهة العزلة سكنى الست ظريفة.. ومن الخارج فقط..

وسمعت فيما بعد من العم أبو شنب وكان أحد المتعاطين للتجارة في بومباي أنه رأى.. بدعوة من أحد زبائنه المثقفين هناك.. في معرض خاص أقامه الخواجه نفسه اللوحات المختلفة التي رسمها للست ظريفة وأعمالها.. تحت العناوين الآتية:

أ ـ ظريفة ـ عصامية من جدة تسكن محلة المظلوم بجوار فرن الحنبولي.

ب ـ المقلية.. طعام شعبي.. رخيص ولذيذ.

ج ـ السحلب.. مشروب بلدي ساخن.. ينوب عن المدفأة التقليدية في الشتاء.

و ـ اللوح.. لعبة رياضية عربية.. وإن كانت كلمة «اللوح»أحياناً تستعمل للشتيمة.. حين يقول أحدهم للآخر.. روح «يا لوح» البعيد!!

وكم اشتهيت حينذاك لو كانت الست ظريفة حية لم تنتقل إلى دار البقاء.. لترى.. دون أن تقرأ.. صورتها منشورة في التايم الهندية ـ كما ترى اللوحات المسجلة لأعمالها بكل فروعها. وحتى ترفع رأسها فخراً كما فعل العم أبو شنب الذي أصبح ـ على حد قوله ـ مطارداً من الصحفيين والمراسلين الأجانب لأخذ كثير من التفاصيل عن حياة العصامية المرحومة الست ظريفة.. والذي كان يردد لكل منهم جملته الحلوة كلما طلب الانفراد به.. بكره قابلني!!

على المنوال السابق طارت شهرة الست ظريفه ـ دون علمها ـ إى خارج مدينة جدة.. كما ارتفع دخلها اليومي ـ وهذا الذي يهمها ـ إلى

أرقام هائلة من الهلل والقروش والريالات.. فقد قدر أحد المحاسبين الأكفاء في تلك الأيام وهو محاسب قدير من وزن المرحوم الشيخ عبد الرزاق هنداوي.. وقيل إنه هو.. قدر الربح الأسبوعي الصافي للست ظريفة بعشرة ريالات.. وكان الريال آنذاك في مقام المائة أو المائتين الآن بنسبة قوته الشرائية لكل الأصناف المتوفرة والرخيصة.. فضلاً عن ضمان معدنه الفضي.. وهي ناحية لا يستهان بها في مجال المقارنة بين المعدن.. والورق.

ونتابع أسلوبنا الجاف الناشف لمطابقته لروح الأرقام والأعمال التجارية فنقول عن الست ظريفه أنها استطاعت في خلال سنوات ـ لا بأس بها ـ أن تشتري الخرابة القريبة من عزلتها وأن تنشئ عليها بيتاً صغيراً خصصته للإيجار.. فأضافت بما عملته ـ وخيراً عملت ـ مصدر دخل جديد.. رابع!!

تلك هي الست ظريفة إحدى رائدات الأعمال التجارية الحرة في بلادنا.. وفي مدينة جدة على الحدود بين محلتي اليمن والمظلوم.. وتلكم هي أعمالها الرئيسية الأربعة.. وهي اللوح.. المقلية.. الكشك بمرطباته.. والعزلة المخصصة للإيجار.. علماً بأن هناك أعمالاً فرعية لم نتعرض لها ولم ندخلها في الحساب مثل صنع «الدانجوه» وبيعه بالحبة.. ومثل تصنيع «السويك» وتسويقه بالقرطاس.. ولقد كان الإقبال الجماهيري على مص الدنجوه.. وسف السويك حينذاك كالإقبال على الشيكلس.. وسندوتش الشارومة ـ اليوم.

أما حياتها الخاصة والشخصية ـ يرحمها الله ـ فإنها لم تذهب إلى الفقيهة.. كمعاصراتها من الطبقتين العليا والوسطى.. ولم تفك الحرف..

ولكن أميتها التامة لم تمنعها من اقتحام أبواب العمل التجاري الحر شأنها في ذلك شأن بعض كبار التجار العصاميين في زمانها وما بعده بقليل.. مما يثبت أن التعليم أداة تثقيف وتنوير شخصية وأنه تدريب منظم للارتزاق.. ولكنه ليس هو الأصل والحوار في التجارة.

كما أن الست ظريفة أصرت على رفض الزواج إلا بعد تكوين نفسها تكويناً مادياً لا يجعلها تحت رحمة الزوج.. فصدت كثيراً من خطابها مثل: جنقر.. والكنجفا.. وأبو كريشة.. وبجبج.. ـ ونكرر الملاحظة بأن كل الأسماء حقيقية ومعروفة من أهالي جدة ـ وكان هؤلاء الخطاب شباباً وأصحاب صنعة ورثوها عن آبائهم فأولهم نوار ـ وثانيهم منجد.. وثالثهم بناء.. ورابعهم نجار.. ولكنها بطبيعة ذكية قبلت ـ حفظها الرحمن ـ فيما بعد أن تتزوج «القطله» وهو من أكبر صانعي الشيش في زمانه.. وكذلك صنع الشرابيس التنك.. والقطله هو اسم الشهرة التي انفرد بها المذكور بين أترابه ثم في الحارة ثم في مدينة جدة ـ وأظن أن أبناءه و أحفاده لا يزالون يتوارثون هذه التسمية التي أصبحت لقباً ثابتاً لهم.

ويرجع السبب الجوهري في قبول الست ظريفة.. أو الآنسة كما كانت حينذاك.. لزواجها من «القطله» أنها كانت تدمن شرب التنباك الحمى.. فضمنت بهذا الزواج اقتناء أحسن الشيش وأفضل الشرابيش مع إصلاحها مجاناً عند اللزوم.. ومع إصرار ظريفة دائماً على قيامها بنفسها بتوضيب التعميرة الحمى.. بتشديد الميم.. وبرص الراص.. ولم تستنكف يوماً من الأيام من مداعبة «اللي» بفمها أثناء تأدية أعمالها الحرة الناجحة.

ومما علق بذاكرتي وما رواه لي أحد أبناء عمومتي.. وكان مستأدباً على الطريقة القديمة.. الأبيات التي غناها المرحوم المغني الجداوي والد حسن شلبي ليلة دخلة الآنسة ظريفة على عريسها القطله وهي:

يا طيور الأفراح.. طيروا.. وطيروا

وكلوا زينا الكباب الميرو

واجمعوا القطلة الكبيرة انسا

بظريفا.. وللسرور اشيروا

وعلى اللوح والمداريه.. غنوا

وإلى العزلة الصغيرة سيروا

فسر الحاضرون ليلة الفرح بهذا المجس المؤنس كثيراً.. وأصبحت تردده مجالس الطرب القديمة لوقت طويل.. ـ وللعلم فإن «القطلة» نوع من أنواع العصى. وهي بالتحديد أصغر من الشون «أي النبوت» وأكبر من «الدبسه».. وهي عصا غليظة قصيرة كان يستعملها الأعراب والبدو أكثر من استعمال سكان المدن «أي الحضر».

.. أما ظريفة في زيها اليومي.. فقد كانت مثال البساطة والحشمة والأناقة في وقت واحد.. فهي دائماً ترتدي «الكرته» المصنوعة من قماش رخيص.. منسدلة من رقبتها إلى مشطي رجليها.. وكرتتها. أي فستانها.. سادة على الدوام.. فهي لا تحب النوع المشجر والمشابه للقمصان الأمريكانية الشائعة في عصرنا هذا وفي خارج بلادنا.. مع حرصها على وضع الشنبر الكحلي والمحرمة والمدورة على رأسها في المناسبات الهامة.. أما في يومياتها العملية فتكتفي بالمسفع رامية أطرافه

على الكتفين بشكل يشبه الغترة الحالية.. وذلك من أجل سهولة لف المسفع على رقبتها حين يحمي وطيس الشغل..

هذا ـ وبمناسبة الكرتة والشنبر والمحرمة.. فقد حدثت في حياة الست ظريفة حادثة ظريفة كذلك.. ولعلّ من تزكية ظرافتها اتصالها بالناحية الأدبية.. والشعرية بالذات. وتفصيلها حسب رواية المحتفلين بالأدب والمتتبعين لطرافته منذ حداثته.. كالآتي ـ

كان الأستاذ محمود عارف غلاماً يعشق الشعر للشعر.. وكانت له تجاربه الأولية التي يعرضها للمباسطة وللمناقشة على زملائه في المدرسة الفلاحية وفي الكار.. وهم محمد علي باحيدرة.. وسالم أشرم.. وعباس حلواني بحضور وبإشراف الأستاذ محمد حسن عواد في أحد المقاعد البيتية المطلة على مداريه عيد المضلوم بجوار بيت بابعير. وهو مقعد باحيدره..

وصادف أن مرت البشكة كلها في تمشية عصرية أمام بيت الست ظريفة.. وصادف أيضاً أن الست ظريفة كانت يومها ذاهبة إلى زيارة عائلية.. وقد ارتدت الكرته والمدورة والمحرمة والشنبر ووقفت تتفقد الأعمال قبل ذهابها للزيارة.. وترشد ابنها البكر.. وقد أصبح فيما بعد يبيع الحوت السلماني.. إلى ما يجب عليه عمله وملاحظته حتى حين رجوعها.. فما إن رآها الغلام الشادي للشعر محمود أفندي عارف حتى ندخ قائلاً:

ظريفة ـ ربة الكرته ـ

من الدوت.. إلى البفته ـ

وذات الشنبر الكحلي ـ
ومحرمة ـ لها ـ شفته ـ
أليس ببيتكم طرشي ـ
خياراً ـ كان ـ أوقته؟
ونعناع ـ ببراد ـ
نصفيه من العته؟

* * *

لقد قدحت ـ على قلبي ـ
صبابات ـ كما الفتَّه ـ
وحب صادق عذري ـ
كلحم الرأس ـ لا الكفته ـ
فإني معجب ـ فعلاً ـ
بست البيت ـ والحته ـ
وتكفيني ـ بلا طمع ـ
على الماشي ـ
هنا ـ لفته!!

.. ولم يكد أبو عروف.. سابقاً.. وأبو نزيه لاحقاً.. يترنم بمقطوعته التجريبية الشعرية فتشيع بين الناس لسلاسة ألفاظها.. ورشاقة صورها.. وخفة روحها ـ وتصل فيما بعد إلى أسماع الست ظريفة حتى قامت قيامتها. وإن لم تخبر زوجها القطلة.. في أول الأمر.. بالأمر.. فصرخت في الحارة بأعلى صوتها ـ وبجمل متناثرة غاضبة:

هو مين هو هادا الولد محمود عارف حتى يقول في.. الأقوال..؟

هو ما يعرف أنو زي بزره من بزورتي؟ وإني أجيبو.. وأجيب عشرة زيو؟

والله إذا ما خليتو يبطل يمشي من هادا الزقاق ما أكون أنا ظريفة؟

وحين خرج زوجها القطلة على صراخها.. وسألها عن سببه.. أجابته قائلة:

ظريفة: لا.. ولا حاجة يبو «كنبش»!!

القطلة: امال بتصرخي ليش.. يست الستات؟

ظريفة: الولد اللي ما يستحي.. ولا أهلو ربوه.. واللي اسمو عارف شرد بحق اللوح!!

القطلة: مسيرو يطب فيدي.. وأنا أوري لو شغلوا!!

وانتهى الأمر مؤقتاً عند هذا الحد.. حتى سمع المرحوم العم حسن عارف بالموضوع وهو شقيق محمود الأكبر.. فتلافى القضية بعمل «ملفا» جمع فيها العمدة وكبار المحلة.. وأعتذر للقطلة باعتبار أن أخاه محمود شرد بالحساب لأنه لم يدفع له يومها المقرر اليومي له..

وعلى أثر هذه الحادثة فقد صمت الشداة من الشعراء خوفاً من لسان الست ظريفة.. ومن قطلة العم «القطلة».. ويقال إن ظريفة اتخذت المقطوعة كفرع من فروع الدعاية. للارتقاء بنمط زبائنها ـ وكنت أحدهم.. ونزولاً على قاعدة.. والغواني يغرهن الثناء.. وإن لم تكن ظريفة منهم ـ إلا أنها أنثى بطبيعة الحال ومهما كان سنها. فقد طلبت مني تشطير المقطوعة ـ وتخميسها.. ولما كنت أعرف قدر نفسي من جهة ـ

وأصغر سناً من الأستاذ محمود عارف بما لا يقل بحال من الأحوال عن خمس أو ست سنوات فقد تخلصت من الأمر بقولي لها مشافهة.. ودون تسجيل هذين البيتين:

ظريفة.. سيبيني بحالي.. فإنني
ظغير.. وهل يقوى الظغار.. على الشعر؟
سألعب فوق اللوح دوراً بحاله..
فلا تطلبي القرشين مني.. على الدور!!

.. وبالمناسبة ـ وفي الأخير ـ فقد كان كاتب هذه السطور الشعبية التاريخية في يفاعته ومنذ حداثته.. فعلاً.. أحد الزبائن المدمنين على ركوب لوح الست ظريفة مفرداً.. ومجوزاً.. وعلى الاكتفاء بمقليتها الطعمة عن وجبة العشاء.. وعلى التلذذ بشرب السوبيا صيفاً.. والسحلب شتاء.. تماماً كما يفعل ابناء الجيل الحاضر حين يضربون عن الأكل ببيوت أهلهم اكتفاء بسندوتشة.. أو بزجاجة من هذه المياه الغازية الفوارة.. أو بقطعة من الحلاوة والتشكلس.. في فسحات المدارس أو لدى الخروج منها.

كما كان كاتب هذه السطور مغرماً غراماً فنياً مبكراً بمتابعة الجمل الموسيقية البلدية التي كانت الست ظريفة ترسلها عفو الخاطر.. في صورة إصدار الأوامر والنواهي لزبائنها الصغار.. وخصوصاً من هواة اللوح وركوبه المستمر.. أو من المواظبين على تناول المرطبات كلما جفت حلوقهم.. ونزت عرقانهم.. أو على تناول المقلية كلما غنت عصافير بطونهم الصغيرة إشارة لطلب الزاد.. والزاد مراد.

ومن الأمثلة على تلك الجمل الموسيقية والتي لا يزال بعضها عالقاً بالذاكرة الماكرة الخائنة.. الجمل الآتية:

أ ـ يا الله أنزل.. يواد!! وقتك خلص!! اللي عليه الدور.. يوقف اللوح!!

ب ـ بلاشي زحمة.. أنت وهو!! ما في فايده.. بالسرا.. واحد.. واحد!! امال أنا عملت الصرا ليش؟

ج ـ وعن المقلية: مقلية ظريفة!! كشري وكرات.. وعدوك مات!! وهي حارة.. يوليد!! والحارة عليها.

و ـ وعن السحلب: اتسحلب.. واتدحلب!! بدخانو.. وغيري يعزل دكانو!!

وطبعاً.. وعلى أساس ما سلف.. فقد أصيب المذكور أعلاه.. أي كاتب هذه السطور بصدمة نفسية قاسية حين سمع بوفاة الست ظريفة في يوم عاصف.. حيث كان الطقس حاراً جداً.. والهوا أزيب.. والغبرة تايره.. والناس ما تشوف بعضها.. مما اضطر والده لحبسه في البيت منعاً له من الخروج منه.. وبالتالي من المشاركة ولو من بعيد لبعيد ـ باعتباره صغيراً ـ في تشييع جنازة الفقيدة العصامية.. ورائدة الأعمال النسائية الحرة.. والتاجرة الشاطرة الماهرة.. ولكنه اغتنم الفرصة ليلاً فقام بالواجب حيث شارك في مراسيم العزاء لزوجها القطلة.. ودخل بحكم السن داخل العزلة الصغيرة ذات الحوش المكشوف فعزى قريباتها.. وفي طليعتهن ابنتها الست «زردخ» الساكنة حالياً بجوار مقبرة الأسد.. والتي تناولت الغداء بالفعل في بيت كاتب السطور في الأسبوع الماضي ومع أهله وإن لم يقابلها لعدة أسباب.. كما قام بتعزية السيدات المرحومات

كبايه.. بتشديد الباء المفتوحة.. وعسله.. ونمروسية.. وبنت الزلطه!!

ظريفة.. يا أخت الرجاجيل.. إنني
زبون.. ومن حق الزبائن. أن يَبكوا

فكم عشت في اللوح المعلّق في الهوا
أنافح من دقوا الرؤوس.. إذا احْتكُّوا

وكم أنا للسوبيا محب.. وعاشق
لدنجوهك الحالي.. يحن له الفَكُّ

القط حبات الفشار.. وانتشى
بمقلية طعما.. عليها لنا الرَّكُّ

لقد سال دمعي.. حين قالوا: ظريفة
توفت.. فواساني بعزلتك الكُشْكُ

أحوم حواليه.. وطيفك ماثل
أمامي لوحدي.. فالجماعة قد فَكُّوا

وسيبت راص المال.. والربح كله
يبعثره القطلا.. ويلهو به عُكّوا

هو المال.. للمحروم.. للنزهي غداً
بذا تصدق الأمثال
ليس بها شَكٌّ

هُولَ اللّيلْ . .

. . لقد سبق لنا في مقدمة الحديث عن «الدجيره» أن تعرضنا ما كان الخواجه إيكيليا البقال اليوناني يعايرنا به بأن بلادنا تخلو من الأساطير الشعبية التي تدل على أننا لا نؤمن إلا بكل ما هو ملموس. . أو معدود. . أو ممضوغ. . فنحن فقراء جداً في دنيا الخيال ـ وعالم الأطياف. . بعكس سكان أثينا الذين حفل تاريخهم بالميتولوجيا الإغريقية. . وهذا ما حز في نفوس أهالي جدة الكبار حينذاك. . مما دفع بكاتب هذه الشعبيات أن يذهب إليه في دكانه. . وأن يتحداه أن يمر بزقاق الخنجي بعد منتصف الليل ليرى وليقابل «الدجيره» إن كنّو رجال. . وخواجا من صحيح!!

ولا نذيع سراً إذا قلنا إن إيكيليا تحمس فعلاً للموضوع ولم يقبل الهزيمة أمام ولد صغير من أولاد جدة الذين يدرسون في مدرسة الفلاح. . فقرر ذات ليلة أن يذهب إلى زقاق الخنجي بعد نص الليل. . ولكن للاحتياط فإنه أخبر أخاه في الصنعة الخواجه «يني» بما اعتزم القيام به. . فحذره من عاقبة هذه المجازفة واشتد الجدل والنقاش بينهما أمام أفراد العائلة. . وانتهيا أخيراً إلى ضرورة الاستئناس برأي السنيور «ماركو». . الإيطالي المقيم أيامها في جدة ـ كصاحب دكان وسواه!!

ومن اللازم قبل الدخول في تفاصيل ما تم بين الطلياني ماركو والأقاريق إيكيليا ويني وعائلتهما أن نتعرض بإيجاز لحيثية ماركو.. فهو صاحب الدكان المعروف باسم محل ماركو.. وكان مقره في صف الدكاكين التي تجاور سوق الحراج والتي يقع حالياً في صفها دكان الفتيحي الصائغ. كما كان سكناه في بيت عائلة الشبكشي وهو البيت الذي اشتهر بعد الهدميات باسم بيت الذهب الذي كان سبباً في تسمية الشارع الطويل العريض الحالي باسم شارع الذهب.

كما كان ماركو هذا صديقاً للكثير من زبائنه.. ولجيرانه من صف الدكاكين وبالأخص للشيخ خليفة بياع السجاجيد في الدكان الذي يوجد به الآن دكان بيع المشالح ورفيها والذي كان ملاصقاً لدكان بقالة إيكيليا ويني قبل الهدميات الأخيرة والحديثة جداً..

ومن غير إطالة في التفاصيل فقد أيد السنيور ماركو ذهاب إيكيليا بعد منتصف الليل لزقاق الخنجي لرؤية الدجيرة ولمقابلتها وأخذ حديث صحفي معها باسم صحيفة المساجيرو الإيطالية التي كانت في بدء تأسيسها آنذاك باعتبار أن ماركو قد قبل أن يكون مراسلها في جدة.. ولكنه اشترط شرطاً وحيداً.. وهو أن يذهب أفراد العائلة جميعاً ويرابطو في أول قصبة الهنود حتى إذا حدث لإيكيليا ما لا تحمد عقباه سارعوا إلى نجدته، أو إلى إنقاذه أن تعرض لخطر أكبر..!!

وبدون تطويل أيضاً.. ومن جديد ـ فقد ذهب الخواجه إيكيليا.. وخش الزقاق بعد نص الليل.. ورأى الدجيره بقنعتها.. وببرقعها ـ وشيلته البقجة.. ورقصت أمامه رقصة المزمار.. وضحكت في وجهه الضحكة الرهيبة، آخر الأمر.. وتلاشت كالطيف.. بعد أن اطمأنت إلى أن

الخواجه إيكيليا قد عملها في بنطلونه من الرهبة والخوف.. وجرى مهرولاً حيث يرابط افراد العائلة الذين تلقوه بين أحضانهم مرتعداً منتفضاً وكأنه تحت تأثير حمى بلغت درجة الحرارة فيها حوالي الأربعين..

ويذكر أحد أفراد العسس الذين كانوا هناك أن ايكيليا عاد فتمالك نفسه حين أبصر بنته الصغيرة تخرج لسانها له ـ أي لأبيها ـ فاستعاد رباطة جأشه ووضع ابتسامة تقليدية على شفتيه.. وسارع إلى زوجته التي فاجأت بقولها:

الزوجة: بوسس سيه؟ يعني كيف الحال؟

إيكيليا: كالاه!! كالاه كالاه!! يعني: طيب!! ـ طيب!! ـ طيب!

الزوجة ـ ها؟! انتو سفتوها.. دجيره هادي؟

إيكيليا: سفتوها سفتوها بعيني هادي اللي بكره يأكلها الدود!!

الزوجة: هي خلوة؟ خلوة؟ أوريا؟ أوريا؟ يعني جميلة؟ جميلة؟

إيكيليا: بولي ـ بولي ـ أوريا!! يعني عال جداً.. جداً عال!!

الزوجة: وايس كلتو؟؟ وايس هي كلتو كمان؟

إيكيليا: أنا كلتو: كالي ميرا؟ هي كلتو: كالي ميرا؟ بعدين أنا كلتو: باركا لو.. و.. و..

الزوجة مقاطعة: وه!! وه!! وه!! هو أنت سويت إيه في البنطلون حق الانت.. يا إيكيليا؟

إيكيليا: لمن نروخوا للبيت انتي غسلي البنطلون.. بس ما أحد يشوفو.. ها؟ وهنا يحسن أن نتوقف عن بقية القصة المتعلقة بالأقاريق وبماركو.. ونكتفي أن يكون ما سبق دهليزاً للحكاية عن بطل أسطوري

شعبي آخر.. هو.. هول الليل!!

.. وهول الليل ـ وهذا اسم شهرته الطويلة العريضة في سجل أساطيرنا الشعبية.. وليس هو اسمه المحفوظ في دفتر مواليد طائفة.. بسم الله.. بالطبع.. وإن كان معروفاً أنه من كبار الطائفة بل إنه أكبرها حيث أن نفوذ هول الليل يتعدى المدن إلى حيث الخلاء الواسع والممتد على طول الطرق بين جدة والمدينة من جهة.. وبينها وبين مكة فالطائف وما بعدهما..

وهول الليل ـ عائلياً.. هو خال أظرف جنية في أساطيرنا الشعبية.. إنه خال «الدجيره» وكفاه بذلك شهرة وفخاراً. كما أنه شقيق «الهمية».. أمها ـ وصهر البعبع زوجها.. أما أبواه غير الشرعيين فهما العفريت والغوله. في أشهر الأقوال.

وينفرد هول الليل ـ وهذا سبب زيادة نفوذه وامتداده.. بأنه مختص بإدخال الرعب والفزع في قلوب الرجال وحدهم دون النساء والأطفال.. وخصوصاً وأن من أوائل الرجال الذين يحسبون حسابه دائماً.. ولا يفزعون إلا منه الرجال الذين تعودوا السير ليلاً في الخلا الخالي والرب العالي كما نقول فرادى أو مجوزين.. وكذلك المشاكلة والمطاليق المواظبين سنوياً على زيارة مسجد الرسول جماعة من.. الركوب.. جمع ركب.. وهي الجماعة التي تسافر للمدينة للزيارة على ظهور الحمير..

وطريقة هول الليل المعروفة هي تعرضه للسائر في البر ليلاً وبالليالي المظلمة والتي لا قمر ولا بدر فيها.. حيث يبدو من بعيد وهو يحمل فانوساً يتراءى نوره لعين السائر فيستبشر أول الأمر به لاعتقاده أنه ضوء الضاحية أو القرية أو القهوة أو المكان الذي يقصده.. فيجد في السير

وعينه معلقة لا تنحرف عن نور فانوس هول الليل الذي يأخذ في التنقل بالتدريج من جهة لأخرى.. وبتفاوت في البعد مرة.. وفي القرب مرات من عين الناظر ليتلاعب به وبأعصابه كما شاء تمهيداً لوقوع الرعب الأكبر في قلبه..

تلك هي القاعدة الأساسية لطريقة هول الليل ـ أما أسلوبها العام فإنه بعد أن يخايل فريسته بنور فانوسه طويلاً ـ يبدو أخيراً لعين المتتبع لنور الفانوس عملاقاً طويلاً له ساقان مرتفعتان إلى أعلى الجو.. وكذلك يدان طويلتان طولاً غير معقول اطلاقاً.. وفي آخر اليد اليمنى يبدو الفانوس السحري في اشكال خيالية بعيدة عن التصديق ـ أما إذا تجرأ من تعرض لمداعبات هول الليل فرفع رأسه إلى أعلى ومد رقبته إلى الفضاء الجوي العالي فيجد وجهاً غريب الشكل ـ مشوهاً مفزعاً لا يمكن للناظر إليه مرة أن يكرر نظرته إليه حيث إما أن يكون قد سقط مغشياً عليه مما رآه ومن الصرخات المدوية التي يبدأ هول الليل في إرسالها من شدقه الواسع الضخم ـ أو أن يكون قد أغمض عينيه وتولى هارباً متخبطاً في البراري إلى حيث تسوقه قدماه حتى يسفرالصبح.. أو حتى يذهب عنه هول الليل بعد أن يكون قد تلا المرء لهول الليل كل ما يحفظه من الآيات القرآنية ـ وآية الكرسي بصفة خاصة..

وضحايا هول الليل من أهالي جدة في عهد الظلمات.. وفشو الأمية. وقوة الاعتقاد في الأساطير كثيرة ـ وحين أخذ عددهم في الارتفاع.. وأضرب الكثيرون منهم عن الطلوع مع بشكاتهم إلى مربعة الهندي في الكندره ـ أو إلى مربعة المشاط قرب القوزين ـ أو إلى مربعة السقاف بالضغاري حيث يقوم الآن أوتيل قصر الكندره مكانها.. اجتمع

رؤساء البشاك ـ والقويمين. ومن ضمنهم القدامى من أمثال الدرويشيين درويش سندي ـ ودرويش كيال. حامد عزايه ـ وسليمان أبو داوود، والرقام ومن لف العمة لفهم.. والشباب أيامها من أمثال الشيخ عبد الرزاق عجلان وحسين أصفهاني ـ وبن زقر ـ وأحمد عتيبي.. وتداولوا في أمر هول الليل الذي سيحرم الجميع من السمرات والسهرات خارج جدة.. وانتهوا إلى تقرير الآتي:

(١) اجتهاد كل فرد من أفراد البشكة في الطلوع لمحل القيلات والمبات قبل غروب الشمس.

(٢) أن يتواعد كل شخصين أو أكثر للطلوع سوية ـ للإئتناس ببعضهم.

(٣) أما المنشغلون بأعمالهم والذين لا يتمكنون من الخروج لوجهتهم خارج السور حيث تكون البشكة فيتحتم عليهم شراء أتاريك اليد الصغيرة ـ أم البطاريات.

(٤) اصطحاب كل فرد من أفراد البشكه بصورة عامة مصحفاً صغيراً ـ أو على الأقل حمله إما جزء عم ـ أو جزء تبارك ـ حتى ولو لم يكن قارئاً ـ أو فاكاً للحرف.

(٥) وجود الشواحط ـ أو الأشوان ـ أو القطل ـ أو المشاعيب.. وكذلك المطاوي ـ والسكاكين الصغيرة الحجم مع افراد البشكه من الأهمية بمكان..

(٦) ضرورة رفع الصوت ممن يقع فريسة لهول الليل والصراخ باسم رئيس البشكة.. أو القويم للإشعار عن محل وجوده مكوماً ـ أو تائهاً لإجراء الإسعاف اللازم له.

وقد قام بالبصم بالإبهام أو بالخنصر أو بالبنصر أو بوضع المهر ـ أو بالأختام كافة المجتمعين بعد ما رددوا جميعاً.. كلنا فيها ـ والراجع في كلامو ـ مرة!!

.. وأتذكر وأنا صغير أن من ضحايا هول الليل رغم تقدم الدنيا أيامها ـ أخي وشقيقي الأكبر يوسف قنديل ـ فقد كان مغرماً هو وقريبنا علي عبيد وهما شابان قد خط شارب كل منهما من أيام أو أسابيع بالطرب إلى المجسات.. واقتضى هذا الغرام والشغف بالطرب أن استجابا دون علم الوالد لحفلة طرب ليلية خاصة يقيمها رائد التقاسيم على العود الشيخ سعيد زقزوق شيخ الخياطين بجدة في صندقته الخشبية في الضفاري.. وهي قطعة من الخلاء مليئة بحفر المياه المكوّنة من الأمطار يشرب منها أهل جدة ضمن ما يشربون أيامها من مياه الصهاريج.. والعسيلا.. والكنداسه.. وموقعها حالياً في المنطقة المجاورة والمحيطة بأوتيل الكندرة حالياً.. وكان تخت الطرب مكوّناً من السادة.. رضا أمين سراج السمكري وصاحب دكان الشيش بالحراج ـ والكاظا.. التكروني الأعرج الزقزوقي والذي انتهى به المطاف بإذاعة روما أيام الحرب الثانية.

وبعد أن انتهت حفلة.. يليش يليش.. واقتضى الأمر عودتهما للبيت بجدة من الباب الصغير المجاور لباب مكة الكبير تعرض لهما الأسطوري الكبير هول الليل بفانوسه الذي ظن كل منهما أنه نور باب مكة.. ثم لما طال المشوار حسب كل منهما أنه نور قهوة أحمد طوال الكائنة أمام باب جديد.. ثم أعتقدا أنه ولا شك أنه نور سقالة الإنكليز التي كانت تقع على لسان بحر الطين.. وأخيراً عرفا أنهما تائهان.. وإن المتسبب في ضياعهما هو هول الليل وأشفقا أن يتمادى في تلاعبه بأعصابهما أكثر فأكثر

إلى أن يبدو لهما في شكله المرعب.. فصرخ علي عبيد بأعلى صوته ـ الحقونا ـ الحقونا..

هنالك برز لهما أحد ساكني الرويس وهو صياد من اصحاب القوارب الصغيرة التي يسمونها «الهواري» وكان في طريقه للبحر لصيد الأسماك.. ودلهما على طريق جدة حين بدأ نور الصباح.. وصل أخي للبيت ليأخذ دشاً من الوالد على مرأى من الجميع.. ومني أنا بالذات حيث سمعت اسم هول الليل لأول مرة!!

كما أن من ضحايا هول الليل أيضاً من الجماعات.. ركب الشيخ عبد الوهاب حماد.. وموجز القصة أنه بعد أكثر من أسبوع دار فيه «المزهد» يرغب الناس في زيارة مسجد الرسول والالتحاف بركب حماد.. خرج الركب بهم.. وكان عدد أفراده أكثر من خمسين رجلاً وبعض الغلمان.. وقد حدثني «المغيني»وكان صغير السن صبياً في الركب أن هول الليل خايلهم أكثر من مرة.. وأن بعض الأفراد وهم من مشاكلة ومطاليق حارة الشام قد أصيبوا من «الفجعة» بإصابات مختلفة.. فالواد «البتره» لازمته «التهتهة» في كلامه لآخر أيام حياته.. وأن الواد «أبو قورة» أصيب بالإسهال الدائم «الدوسنطاريا» وأنه هو شخصياً أصيب بلوحة في رقبته لم يشف منها رغم الكي المتواصل بالسكينة المحماة في النار.

وبمناسبة البرقية التي وصلت لجريدة عكاظ من السيد منصور الحارثي «من مستوره» من أسبوع والتي يبدي فيها إعجابه بالشعبيات ويطلب شمولها لمدن المملكة.. لا ننسى ما حدث لركب الحماد هذا.. فقد ذكر المغيني أن الركب قد تعرض لمعاكسة شديدة ـ ولمداعبة ثقيلة من هول الليل قرب «مستوره» الأم حتى إذا أدرك أفراده الرعب والهول..

وبعد أن خرج الواد «صنقور» من صوابه كعاداته وسحب الفرد أبو سته وأطلقه صوب هول الليل لإطفاء فانوسه المخادع برزت لهم في عتمة الليل مولدة سوداء بلون الليل صائحة بهم من ناحية الضلع الأيمن القائم على الطريق.. تراكم غلطانين.. ما معاكم جادة.. الدرب ما هو هينا.. تراه هناك في الضلع الأيسر.. لا يغشكم هول الليل ـ وتراها معاكم «مستورة» فانحرف الركب.. وكان الزمن قريباً من الفجر.. وأخذ طريقه الصحيح وودع الركب المولدة بالدعاء.. والهتاف ثلاثاً.. تراها مستورة. يعيال.. مستورة ـ مستورة ـ ويقال إنه منذ تلك الليلة أصبح الموقع الواقع بين الضلعين المؤديين إلى مستوره الأم ـ أو الحالية تسمى كذلك.. مستورة!!

وعلى أساس ما سبق ـ فرب فضولي شديد الفضول يتساءل.. ما هو السبب أو الدافع المحرك لهول الليل لأعماله هذه التي يفعلها لكل سائر في الليل البهيم خارج المدن؟ والجواب على هذا السؤال الوجيه رغم صفة الفضول فيه هو تعليل المرحوم الشيخ السبياني جد جد الابن محمد سبياني الأستاذ لمدة وجيزة بمدرسة الفلاح.. وأحد تلامذتنا القدماء فيها.. ويقول هذا التعليل..

«إن الجن طائفة معترف بها قبل كل شيء.. رغم أننا لا نراهم دائماً بأعيننا.. وبالأخص في النهار. أو في النور أياً كان سواء كان نور لمبة.. أو فانوس ـ أو قمريه ـ وإن المدعو هول الليل كان مغرماً في شبابه بفتاة جنية من طائفته ـ وأن هذه البنت الجنية هجرته حين عشقت من طرف واحد أحد أبناء الإنس ـ والسبياني الجد يعني نفسه بهذا. وإنها بمرأى من هول الليل تزيت في إحدى الليالي بصورة قطة سوداء..

ودخلت بيت عاشقها ورابطت تحت الكرويته تنونو باستمرار والنونوة من طرفها كانت بمثابة شكوى صبابتها وحبها ـ ولكن أم المعشوق الأنسي التي لا تعرف لغة الحب في نطق البساس أزعجها الأمر.. فطلبت من ابنها البحث عن القطة.. وبالعثور عليها وإخراجها من تحت الكرويته أمرته بضربها برأس المكنسة.. وإن القطة اعتبرت ذلك من عاشقها مداعبة أنسية فازدادت نونوتها.. هنالك أمرته الأم بقذفها من النافذة.. ففعل طاعة لوالدته ـ ويا ليته لم يفعل.. فقد وقعت البسة على حجر صلب فماتت.. رغم أن للقطط سبعة أرواح»!!

هنالك حلف هول الليل أنه سينتقم من البني آدم خارج الجدران.. وهجر مدينة جدة ولازم الخلاء لاصطياد السبياني الذي كان يزور خطيبته الأنسية معظم الليالي في الكندرة.. وبالتالي لمعاكسة كل من يتعدى السور.. بالإضافة إلى أنه من تلك الليلة أصبح كل الناس لا يجرؤون على ضرب أو إيذاء أو قذف أية قطة سوداء تحسباً للثأر من جماعة.. بسم الله.. كما تركّز الاعتقاد بأن البسة السوداء غالباً ما تكون من هذه الطائفة.. ولا يزال هذا الاعتقاد سائداً حتى الآن!!

ذلك هو السبب الجوهري في معاداة هول الليل للإنس.. وفي هجره للبلدة ـ وفي تمرده الدائم لكل من تعدى السور.. ثم زاد في رقعة نفوذه فشمل الخلاء أياً كان موضعه.. حتى اكتسب شهرته الطويلة العريضة.. وأمسى.. ولم يصبح.. رمزاً لإرهاب الناس.. إلى أن امتد صيته هذا.. فدخل.. ويا للغرابة ويا للعجب.. دنيا الأدب ـ وعالم الشعر على الخصوص.

فانتهز المرحوم حمزة شحاته هذه الفرصة.. وابتدأ يلج باب النقد

بهذا الاسم في أوائل الخمسينيات ولهذا الأمر حديث شيق.

.. من أول يوم من مطلع العام الهجري عدد ٥٥ بعد الثلثمائة والألف استلمت رئاسة تحرير جريدة صوت الحجاز من نخبة الشبان المحررين لها قبلي وهم الأساتذة محمد حسن عواد ـ محمد حسن فقي ـ عبد الوهاب آشي.. وانتقلت فعلاً من مدرسة الفلاح بجدة إلى مقر الجريدة كرئيس للتحرير.. زميلاً لزميلي في الروشان المطل على زقاق الشبيكة مدير الاشتراكات بها الشيخ أحمد السباعي.

وابتدأت بعد الأعداد الأولى في إحداث حدث أكبر بعد الأحداث الصغرى ـ وفاتحت رفيق الدرب في الحياة المرحوم حمزة شحاته في تأسيس النقد الأدبي لما كان ينشر بحساب ودون حساب من مقالات وأبحاث وشعر.. وبعد محاورة ومداورة ومداولات قبل حمزة أن يكتب في عمود خاص من الجريدة ـ واشترط أن يجاري الموضة الشائعة حينذاك وهي الرمز لاسمه بتوقيع يختاره مثلما يفعل الأساتذة. س.ع. ـ الصامت ـ هو أحدهم إلى آخر القائمة المعروفة بالتواقيع الرمزية. فقبلت ذلك منه.

وجاء أول مقال له أخذته منه باليد رغم معارضة الأب عزيز الذي كان يكره التواقيع بغير الاسم الصريح!! في مكتب شركة التوفير والاقتصاد التي كان مقرها في بيت باناجه بمكة المكرمة والمطل على الصفا قديماً والذي هدم ضمن ما هدم في حينه.. وبعد أن طالعت المقال فوجئت في آخره بهذا التوقيع «هول الليل» وبالمباسطة الأحمدية ـ والتفاهم الأخوي ظهر أن اختيار المرحوم حمزة شحاته لاسم هول الليل إنما يرجع لاعتبارات كثيرة جداً أهمها أن البطل الأسطوري هول الليل له في تاريخنا الشعبي اسم شائع مذاع ومخيف ـ وأن الرجل.. وإن كان جنياً أو عفريتاً

من جماعة «بسم الله. بسم الله».. إلا أنه ذو مبدأ واحد لا يحيد عنه ـ وكما أن هول الليل قد فرض على المحتمين بالجدران في بيوتهم ـ وداخل سور المدينة ألا يتخطوا الحدود فإنه ـ أي حمزة ـ سوف يؤدي هذا الدور في دنيا الأدب وفي عالم الشعر بالذات.

ونظراً لأن الأمانة الأدبية تمنع المجاملات الشخصية ـ ومع أن أخي الأستاذ عباس حلواني صديق عزيز ـ فلا بأس من الإلمام بطرف من أطراف المعركة الأدبيَة الشعرية المعروفة بمعركة «هول الليل».. وبداية الموضوع هي أن الأخ الشاعر الحلواني نشر قصيدة له يخاطب فيها محبوبته بقوله «أنت أحلى من أهل باريس أنت». وهنا تصدى لها وله هول الليل بنقد عنيف وحاد ـ وقد دخل في الأمر مدافعاً عن الحلواني الدكتور الأديب «حسني الطاهر» فكتب مقاله الأول ثم مقالاته التالية بتوقيع «سهران». كما اشترك سواه ـ وقد حمى وطيس النقد بين الحلواني وسهران وسواهما من جهة ـ وهول الليل من جهة أخرى.. حتى انتهت المعركة أخيراً بطلب إيقافها من معالي المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان رئيس شركة التوفير والاقتصاد التي تتبع لها جريدة صوت الحجاز تجارياً قبل أن تندرج كعمل من أعمال شركة الطبع والنشر!!

من هذا.. ودلائله موجودة محفوظة في أعداد صوت الحجاز لعام ٥٥ أو ٥٦ هجرية على الأرجح دخل هول الليل دنيانا الأدبية.. ناشراً الفزع والرهبة والرعب بعد أن تجاوز مجالاته في الخليان والبراري وأطراف القرى والضواحي من مدينة جدة وأخصها مشارف الكندرة.. والرويسين الأعلى والأدنى.. وبني مالك ـ والنزلة اليمانية. والثعالبة.. باسطاً نفوذه فيما بعد حتى لما بعد أبيار علي بالمدينة المنورة.. ولأعالي الفرع بالشفا وجبل قرنيت..

هذا.. وقد اشتهر هول الليل ـ أيام وجوده الذهبي.. بأنه ذو مزاج شعري فهو يحب البدر في تمامه.. ويعشق الليالي القمراء ولذلك فقد حرم على نفسه القيام بأي نشاط عفريتي أو جني فيها حيث يعكف على دراسة الشعر وإلقائه في وادي عبقر الذي يصل إليه من مقره في «الضفاري» بشقحة إن أسرع ـ وبشقحتين إن أبطأ..

كما اشتهر رغم المعروف عن نباتية طائفة بغرامه الشديد بالتهام الرخال ـ جمع رخله وهي النعجة ـ مع كراهيته المطلقة للطليان.. وقد ظهر ذلك حين اشتكى جميع البدوان في كافة الخليان باختفاء رخالهم ـ أي نعاجهم ـ في الليالي القمراء..

وفي هذا الباب يقول زميلنا الفلاحي في الدراسة وفي الأستاذية بعدها المرحوم المتوفي في عز شبابه وعمره لا يتجاوز العشرين من عمر الزهور أثر إصابته بالجدري وعزل أهله له في عشة نائية بالكندرة ـ مقر العائلة.. الشاعر الكندري حامد أبو تومان:

علامك.. يا أبا الهول المباح

إذا القمراء لاحت في الضواحي؟

سطوت على الرخال.. وأنت قرم

طويل الهام.. مغرود الجناح؟

وسبت ذوي القرون السود طالت

من الطليان.. دون أذى متاح؟

أتلك دعابة أيضاً؟؟ ولون

فريد.. بين أنواع المزاح؟

* * *

أهـول الـلـيـل.. حـسـبـك.. إن هـذا
يـسـبـب أزمـة بـيـن الأضـاحـي!!
فـمـن لـطـلـيـنـا.. إن رام لـيـلاً
مـعـانـقـة الـرخـال.. عـلـى الـبـطـاح؟
فـبـعـبـع وحـده.. وأتـى لـعـنـدي
لـيـشـكـو صـاحـبـاً.. يـشـكـو لـصـاح!!
فـبـاسـم الـشـعـر عـشـت لـه مـحـبـاً
دع الـرخـلات.. تـسـرح في الـمـراح!!
وسـيـبـهـا لأجـلـي.. إن هـذا
رجـاء.. جـاك.. مـن ولـد فـلاحـي!!

.. وأخيراً فذلكم هو الأسطوري الشعبي الكبير العملاق.. هول الليل.. بكل معاكساته ـ ومداعباته.. خال البنت الجنية «الدجيرة» وشقيق والدتها الست «الهمية» ورحيم «البعبع» زوج أخته.

ولقد نزح من مدينة جدة بعد أن توفيت عشيقته العفريته الصغيرة أثر قذفها بيد معشوقها الأنسي من الطاقة ووقوعها على أضلاعها فوق حجر منقبي كبير.. واستقر متنقلاً هائماً في الخلا الخالي والرب العالي بين البراري والبوادي وإن كان قد اتخذ له مقراً شتوياً في الضفاري التي أصبحت اليوم مزدحمة بالفيللات والعمارات والبنايات الحديثة ـ وأهمها فندق قصر الكندره. كما اتخذ له مقراً صيفياً على طرف البحر في نهاية الرويس الأعلى.

ويذكر من رآه عياناً أنه في طول عنج ابن عنق إن لم يزد عليه ـ وأنه صاحب أطول ساقين منفرجتين باستمرار.. وإن له وجهاً يكره الله والناس لقاءه ـ وعينين تقدحان بالشرر الذي تكفي شرارة واحدة منه لحرق أعتى الصخور.. أما قهقهته فتفوق صوت الرعد.. كما أن دموعه حين تنحدر لدى ذكرى حبيبته تزيد عن كميات المطر الهاطلة سنوياً في أغزر المواسم المطرية.

أما سبب تسميته باسم شهرته المستفيضة.. هول الليل.. فيعود إلى أنه لم يظهر أبداً ـ أبداً في أي نهار.. ولا في أية ليلة مقمرة.. وإلى أن مخايلاته بفانوسه لتضليل العابرين تسبب أفظع هول يلقاه البنو آدميين..

ولقد بقي اسم هول الليل حتى الآن يطلق على كل طويل جسيم مفزع. فيا طالما ترددت وتتردد على الألسنة جملة «شوف يخويا الراجل اللي زي هول الليل».. أو «هو اشبو عامل كدا زي هول الليل» أو «تروح من هنا ـ وإلا أزهم لك هول الليل» إلى آخر تلك الجمل الموروثة والتي بدأت في الانقراض..

أما سبب وفاة هول الليل المباشرة فهو قيام الحكومة السنية بإدخال الكهرباء وإزالة سور جدة.. وتشجيع العمران.. وردم حفر الماء والصهاريج القديمة ـ وتعبيد وسفلتة الشوارع.. وفتح المدارس حتى في الضواحي والقرى الصغيرة ـ وإيجاد شرطة «النجدة» وإعطائها رقم تسعات ٩٩٩ ـ والإسعاف ورقمها ٩٧ والإطفاء ورقمها ٩٨ والاستعلامات ورقمها اللي ما يرد إلا في النادر ٩٥ مع تخصيص خمسة أرقام للكهرباء وهي من الشمال لليمين ..٢٣٠٤٤ وبذلك كله أو بعضه لم يجد هول الليل مكاناً يندس أو يتخشخش فيه..

وكان أهم ما سبب لهول الليل السكتة القلبية حسب تقريرنا الطبي تنقل الناس الآن حتى في مشاويرهم القصيرة جداً بالسيارات بدلاً من السير على الأقدام ـ ولو لدقائق معدودات..

وأخيراً.. لا آخراً.. انتقال جريدة عكاظ إلى شارع الميناء.. وتخصيصها للشعبيات ـ بما فيها الأساطير القديمة.. ركناً تسلط منه الحروف والكلمات.. وتزقلها جهاراً نهاراً على رؤوس مصادر الرعب القديمة من أمثال الدجيره.. والهمية ـ والبعبع.. عائلة فقيد الجهالة والخرافات والظلام بكل ما فيه المدعو الجني.. ذاك اللي كانوا يسمونه هول الليل!!

وبموجب ذلك. فقد استطاعت عكاظ الجريدة ـ لا المؤسسة ـ أن تنفرد كعاداتها بالحصول على المقطوعة الغلبانة اللي كانت عايشه لوحدها في داخل علبة من التنك.. وأن تنتزعها بقوة ذراعها من ذراع عفريت العلبة.. وهذه محتوياتها:

إلى أين.. هول الليل.. غاد وسائر
وقد شيدت وسط الضفاري العمائر؟
وشعشع نور الكهرباء.. مبدداً
ظلام ليالٍ.. ما عليها ستائر..
فقل لبشاك الأمس قوموا تفرجوا
على جدة الكبرى.. بناها الأكابر..
فجدة قد أمست يخوي.. وأصبحت
عروساً بحق.. قد جلتها النواظر..

فليس لهول الليل بين حدودها
وحول ضواحيها.. خيال.. وخاطر..
ففانوسه السحري بات مكشراً
طفته من الجيل الجديد البصائر..
وساقاه.. والوجه القبيح.. وطوله
مع العرض قد دارت عليه الدوائر..
فسار بنص الليل هفتان.. دائخاً
إلى حيث ضمته ـ هناك ـ المقابر!

* * *

تعال إلينا اليوم إن كنت شاطراً
وإن كنت جنياً صحيحاً.. يكابر..
لتبقى لدينا تريقاء.. وفرجة
ومصخرة.. يا اللّه.. تعال.. يشاطر!!

حَبَمْبَا..

تلقيت خلال الأسبوع الماضي بعض المكالمات وبعض الرسائل من المطرين المادحين ـ جزاهم الله خيراً.. للشعبيات التي يقول أحدهم عنها أنه مواظب يومياً على قراءتها من أول حرف نثري حتى آخر شطر شعري.. فشكراً جزيلاً لهم على إطرائهم ومدحهم اللذين يدخلان في حدود القاعدة الذهبية التي قننها صديق الكل سيادة الأستاذ السيد علي حافظ في عجز بيته القائل «لكنما القصد تنشيط الجماهير».

ولقد كان في طليعة هؤلاء الكاتبين إلينا عن الشعبيات سيادة الأخ الأستاذ محمد علي خزندار أحد كبار موظفي وزارة المالية العبدلله السليمانية السابقين والمتقاعدين ووالد العزيز عليه وعلينا الأستاذ حسن خزندار مدير إذاعة جدة. وفي ما عدا ما يراه ويطلبه سيادته من الكتابة عن العادات والتقاليد والأساطير الشعبية فإنه يتلاقى مع الآخرين في طلبه وطلبهم الكتابة عن حبمبا!!

ولعلّه من المصادفات العجيبة والمؤكدة لتوارد الخواطر أنني كنت قبل ورود هذه الرسالة قد انتهيت تقريباً من تحرير سيرة الآنسة «حبمبا». وأعجب من ذلك كله.. بزمان.. كما يقولون.. وهذا لا يحصل إلا بنسبة ٥٪ على أكبر نسبة مئوية تقديرية إنني قابلت أثناء هذه الرسائل

والمكالمات العم.. أبو راصين.. كما كنا نسميه.

والعم.. أبو راصين أحد الشخصيات الشعبية الظريفة جداً.. وقد أخذني حين قابلني.. أكرمه الله.. بالأحضان حضناً وراء حضن وبالسلام «عُرْبَه» فماً لفم ودقناً لدقن.. وشنباً لشنب.. وبوسه ورا بوسه.. وسلمه قفا سلمه.. والله زي ما باقول لك كدا.. وعندما قبلني أو حضنني على الأصح تشهدت في سري ثلاثاً لأن المذكور قد أزعجني بصورة عنيفة.. فإن هذه المقابلة والحفاوة رغم حرارة اللقاء فيها وشرح كثرة الأشواق كانت مصدر عذاب مرير لمن كان في مثل سني وسن العم أبو راصين إذ إن للمذكور شنباً تشبه شعراته رؤوس الدبابيس ـ في حين أنني بسبب أكوم الذي استلبشني أعيش في حكم الجرود من ناحيتي الذقن والشارب على السواء.

ولا أطيل عليكم أكثر مما أطلت.. فبعد أن أخذ العم أبو راصين.. بعد أن أخذ غائلته مني راح يكيل الثناء على واجبنا الذي قمنا به نحو الأحبة من شخصياتنا الشعبية عموماً.. وبالذات نحو الجنس اللطيف مثيلات السيدات العزيزات بسباسه.. وبيبي زينب وظريفة.. وختم حديثه لي بقوله.. والله يا سيدي أحمد ما دام أننا جبنا سيرة العتات الشعبيات.. فترى لم ممكن أبداً.. أبداً أنك تنسى المظمظيل «حبمبا» خصوصاً وأنها ما كانت تعرف لها أباً ولا أماً.. وأنها كمان عاشت زي الكادي ما يادي.. فايش قلت؟ توعدني؟ كلام رجال؟ تكتب عنها؟ انتهى كلام العم أبو راسين!!

.. وهنا لم أتمالك نفسي استغراباً من هذه المصادفة العجيبة التي يتلاقى بها كاتبو الرسائل وأصحاب المكالمات وأنا في موضوع واحد.. فهتفت بالعم

أبو راصين قائلاً اطمئن.. فستقرأ قريباً عن حبمبا وفي سراها.. ولكن على شرط واحد هو أن تعتقني عتق الله رقبتك من تكرار الأخذ بالحضن.. والسلام العربة حقك دا.. فضحك وسلم علي مودعاً إياي من بعيد لبعيد بقوله.. في أمان الله. ولم نكد نتفارق حتى صقعته ردعاً له ولأمثاله ممن يسرفون في الأخذ بالحضن.. وفي الإغراق في السلام عربه.. وتشويك عباد الله بشعر الشارب.. والكرداشة.. أي الذقن.

بالآتي ـ قل لمن قابل الأحبة ـ يوماً
بعد طول الغياب بالأبواز..
سلمة بعد سلمة.. في عناق
كلحام بالنار بعد القاز..
يا حبيبي يا ابن الحلال بلاشي
من تفانين حبك الوخاز..
يعني ألاّ تضمني وسط حضن
عاصراً جثتي كعصر الكراز؟
نازلاً فيَّ للشفايف مصًا
مثل مص الليمون.. بين اهتزاز..
مش كفايا.. تقول أهلاً وسهلاً
من التقاء الأخطضان بالأبزاز..
بين بوسا أو اثنتين.. يسيدي
زي نقر العصفور للأمواز..
رب كرداشة تُسبِّب وخزاً
فاق طظ الدبوس في أوخاز..

بـطـلـوهـا!! أو أنـنـا سـوف نـشـكـو..

أمـركـم.. لـلـنـقـيـب.. لـلـهـزاز!!

ومعذرة عن الإطالة والاستطراد وإلى سيرة الآنسة حبمبا..

.. وقبل أن نخش في الموضوع.. فأولاً أن اسم حبمبا.. ينطق بطريقتين أولاها.. حبمبه.. بالهاء الساكنة نيابة عن الأصل الأصيل لها وهو التاء المربوطة وثانيتهما.. حبمبا.. بالألف المقصورة وقد اخترنا الطريقة الثانية للتلذذ بالمط والإشباع في النطق به.. لغرامنا ولعشقنا لأسلوب المط في كل شيء.. وللناس فيما يعشقون مذاهب..

وثانياً.. فلقد صدق العم أبو راصين فيما رآه من ضرورة تسجيل وسرد سيرة الآنسة حبمبا.. فإنها بشهادة الجميع عاشت وماتت.. ولم تترك أية اسية لها في طول وعرض مدينة جدة.. بل لقد كانت رحمها الله لا تُرى إلا والابتسامة البلهاء مطبوعة على شفتيها دائماً.. كأنما هي.. أي الابتسامة البلهاء لزقة أميركانية. أو ختم باللك الأحمر فلا يمكن والحالة هذه أن يزيلها الحك الخفيف بما نسميه نحن في بلادنا بالمساحة.. بتشديد السين.. أي الأستيكه كما يسمونها أبناء النيل كما لا يمكن أن يمحوها كذلك الغسيل بالماء الدافئ ممزوجاً بالصابون النابلسي الأصلي..

ولقد كان أول تعارف بين حبمبا الآنسة وبين جده المدينة أي أهلها بأسلوب القرآن الكريم وأسأل القرية ـ أي أهلها.. حين تحدث الناس كلهم أو بعضهم عن فدائيتها الصامتة في معركة السباق الزمني بين السيارة المرسيدس وبين الطفل الذي انفلت من ذراع أبيه وكاد أن يصبح ضحية في معركة السباق الزمني الرهيب دون وجود مباراة أو ميدان سباق نتيجة

السرعة المجنونة من جهة وإهمال أولياء الأمور من جهة أخرى. وهي المشكلة الثنائية التي يعاني منها رجال المرور حتى اليوم.

وخلاصة حديث المعركة التاريخية هذه كما ورد على لسان المتحدثين به في كل مجالس الجوكر والكيرم من قبل. والصن من بعد.. هي أنماط من روايات شتى مختلفة التفصيل مع اتفاق تام في الجوهر والمضمون هو ـ في صباح يوم الأحد السابق لما قبله من اليوم السابع عشر من الشهر الجاري بسرعة وراء الشهر القادم بسرعة أيضاً من العام الهجري المنتهي برقم ٤٣ بعد الألف والثلثمائة.. كان المدعو عيسى والشهير باسم.. أبو المحافيظ.. متجهاً مع محافيظه الذكور الخمسة إلى المدارس لإيداع كل.. طرد.. منهم في مدرسته الخاصة وقد بلغ الحرص بالعم عيسى الشهير بأبو المحافيظ وهو في طريقه للمدارس لإيداع محافيظه الخمسة بها أنه كان يسير ملاصقاً للجدار في الشارع العريض الطويل والذي لم يكتب له الحظ الحسن لدى البلدية فيسمهد أو يسفلت حتى تاريخه أعلاه وأدناه.. وقد حمل المذكور اثنين من المحافيظ على كتفيه وهما برهوم.. وسلامه.. وشبك يديه اليمنى واليسرى بالعزيزين عليه طاهر.. ويحيى.. وساق أمامه أكبر محافيظه وهو المسمى عبدو.. والمدلل باسم ابدو.. بالاقتصاد على إبدال العين بالألف المهموزة.. وظل الوالد المذكور العم عيسى يسير الهوينا كعادته اليومية مداعباً الأولاد.. متجنباً الانحراف يميناً أو شمالاً إلا عند اللزوم للانتقال.. وبعد التلفت الكافي الشافي بقدرة العزيز العليم من أي مكروه..

وفي لحظة.. لحظة حاسمة فعلاً في تاريخ العائلة العيسوية.. انفلت الولد أبدو.. من أمام أبيه ليلتقط بسرعة ما ظنه قرشاً ملقى في وسط

الشارع.. ولم يكد يدنو من اللقطة غير الثمينة حتى أقبلت سيارة مرسيدس كانت تسير بأقصى ما تعطيه الطاقة للدركسيون مما حتم قواماً حدوث الوفاة السريعة حيث لم يستطع السائق إلا أن يضع قدمه على الفرامل بحركة عفوية أتوماتيكية.. وإلا أن يغمض في اللحظة ذاتها عينيه.. تماماً.. تماماً كما فعل والد الطفل المذهول والذي شلت المفاجأة حركته هو الآخر.. فتجمد على الرصيف.. كما تجمد السائق على مقعد القيادة.. ولكن!!

ولكن.. وما أعذب وأحلى وأجمل كلمة «ولكن» هذه في هذا الموضع الحساس من الشارع غير المسمهد أو المسفلت.. ولكن لدهشة السائق والوالد أنهما ما كادا يفتحان أعينها حتى رأيا بأم وأب وجد عيونهما الأربعة المحفوظ.. أبدو.. تحتضنه فتاة في الثلاثين ربيعاً تقريباً من عمرها.. وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء كأنها لزقة أمريكانية الصنع.. أو ختم من اللك الأحمر.. وهي تمشي مشي العرايس غندرا.. متهجة نحو الوالد لتسليمه ولده أبدو.. أبدو الذي أصبح من صباح ذلك اليوم لا يعرف باسمه.. وإنما يعرف باسمه الجديد.. ولد حبمبا.. في أشهر الأقوال.. ولا عبرة ببعضها القائل في ضحك عابث.. ولد المجنونة!!

هذا ولم تستكمل الرواية الخاصة بإنقاذ الآنسة حبمبا للواد أبدو بقيتها. حيث تقول الرواية الأكثر شيوعاً أن سائق السيارة المرسيدس العائق الفائق على فرحته بنجاة الولد الذي كان موته محققاً مية في المية ـ قد سارع وفتح باب سيارته بسرعة جنونية أيضاً وذهب إلى حيث تقف الآنسة حبمبا وقدم لها بعد انحناءة تقليدية لا بأس بشكلها ورقة من ذات العشرة ريالات.. فما كان منها إلا أن زادت من ابتسامتها البلهاء.. وأعادتها إليه في صمت.. ودون انحناء. وذلك بعد أن فرصعت في وجهه وإن لم

تمرص أذنيه فكأنها تقول له: ما هكذا يا واد تسرع؟ ألا ترى محاكاة للبيت الشعري في عجزه لا في صدره القائل:

أوردهـا سـعـد وسـعـد مـشـتـمـل
مـا هـكـذا يـا سـعـد تـورد الإبـل!

أما ما كان من أمر الأب عيسى أبو المحافيظ ووالد ابدو. . فإنه إزاء ما رآه من فدائية حبمبا التي رمت أو قذفت كالقنبلة بنفسها لتحول. . بأمر من الله. . بين الولد والسيارة مضحية بذاتها لم يسعه إزاء وإزاء تصرفها المهذب مع السائق إلا أن يبادر فيزقل محافيظه بعيداً عنه حيث ألقى بالمحفوظين برهوم وسلامه من فوق كتفيه فسقطا يتدحرجان بجوار الجدار المسامت للطرف الأيسر من الشارع في مكان وجودهما مع أبيهما وبالبقعة التي لا يمكن أن نطلق عليها كلمة رصيف لعدم سفلتة الشارع وتحديد مكان المشاة فيه.

كما أنه أي الأب عيسى أبو المحافيظ. . دفع بقوة وبسرعة كذلك بكل من المحفوظين طاهر ويحيى فسقطا على الأرض يتدحرجان هما الآخران بجانب أخيهما. . متقدماً هو بسرعة وفي ذهول المنوّم تنويماً مغناطيسياً إلى الآنسة حبمبا محاولاً تقبيل يدها ـ ورا وقدام ولكنه فوجئ هو الاخر بتشبيكها يديها على صدرها في براءة وردت في إغراء. . ملقية نظرة إلى الولد. . أبدو. . الذي ابتسم لها ثم تشربط بساق أبيه ناوياً الارتقاء إلى كتفه للفرجة من فوقه إلى منقذته ومن أصبحت والدته منذ ذلك الصباح. . وفي ثوان معدودات اختفت حبمبا عن نظر الجميع كأن الأرض انشقت وابتلعتها.

هذه الحادثة بالذات هي التي كانت السبب المباشر في لفت النظر

وفي استفاقة شهرة الآنسة حبمبا أو المظمظيل على حد تعبير أبو راصين.. فسبحان واهب الشهرات لمن يستحقها بجدارة وبذكاء.. ولمن لا يستحقها إلا بمصادفة عابرة من بلاهة دعباء وعدم إدراك.

هذا.. ويؤكد الثقاة من سكان جنوب جده أن حبمبا ليست بالتأكيد وحسب شهادة كل من عمدة الثعالبة واليمن والمظلوم من مواليد جدة.. والشائع أن الألسنة وفي بطون الدوسيهات والملفات بدوائر الشرطة أن حبمبا وفدت وهي بنت مراهقة إلى مدينة جدة ذات مساء قادمة من جهة «الخمرة» تسعى على قدميها الحافيتين وكانت ترتدي فستاناً ـ أي كرتة رمادية اللون منبوشة الشعر.. تحمل على شفتيها تلك الابتسامة البلهاء التي اشتهرت بها طيلة حياتها كما تحمل بيدها اليمنى غصناً أخضر رمزاً على محبتها للسلام.. رغم أنه أثبت بالفحص الزراعي أن الغصن الأخضر هذا لم يكن غصن زيتون.. كما أنه لا توجد عليه آثار أو أثر زرق أية حمامة بيضاء ـ أو سوداء ولا كذلك أثر أية عضة تدل أنه حين انفصل عن شجرته حملته تلك الحمامة بمنقارها وطافت به داعية للمصالحة بله السلام ومعذرة لاستعمال لفظة «بله» بفتح الباء وسكون اللام وفتح الهاء وهي اسم فعل بمعنى دع وأنزل.. مثل دع التطويل ـ أو دع الاستطراد.. فقد وردت رغم إرادتنا لأننا كنا قد دعينا لمكالمة تلفونية أثناء الكتابة مع أحد المتقعرين الذين يؤاخذوننا على استعمال الكلمات البلدية الشعبية من كتاباتنا فأحببنا أن نرضيه باستعمال «بله» بدلاً من.. أخصر..

ونعود لحقيقة الغصن الأخضر الذي كان في يد الآنسة حبمبا حين وطئت قدماها أرض مدينة جدة لأول مرة.. فقد ثبت أنه من أصل شجرة «نبق» والنبق بكسر النون وسكون الباء أو فتحهما هو حمل شجرة السدر

وعندما يزهو ويحلو يسمى «حلوي» بفتح الحاء واللام وكسر الواو.. وهذا التفصيل ضروري جداً.. وبالأخص للجيل الجديد الصغير السن والذي لم ير النبق من قبل.. ولا الحلوى الذي سماه البعض منهم حين رآه قبل أيام التفاح الصغير..

شاهدنا.. للحقيقة وللتاريخ.. أن الآنسة حبمبا لم تولد أصلاً بمدينة جدة وأنها قدمت من طريق الخمرة.. منكوشة الشعر حاملة ابتسامتها البلهاء على شفتيها.. حافية القدمين.. وتحمل في يدها اليمنى غصناً أخضر ثبت أنه من أصل شجرة نبق.. وكان دخولها من باب شريف.. وهو الباب الجنوبي لجده وقد شاهدها أول دخولها منه حشد من الناس معظمهم من الأولاد صغار السن وبعض الرجال الفضوليين مصطفين بطبيعتهم على جانبي الطريق بالمصادفة..

وهكذا تكون حبمبا بدخولها ذات مساء من بوابة باب شريف القديمة والتي كانت تشبه نوعاً ما «التريومف» أي قوس النصر في بارس.. تكون حبمبا قد دخلت بذلك.. وبحادثة السيارة فيما بعد.. التاريخ من أول أبوابه الجنوبية التي صادفتها.. فسبحان مسبب الأسباب.. وكما قيل إذا ظهر السبب بطل العجب!

شعبيات ـ بهية.

.. وحبمبا.. وتلك ميزتها الكبرى.. مشاءة عظيمة الشأن. لا بالنميمة فإنها لا تفتح فمها إطلاقاً إلا حين اللزوم.. بل بالمشي أي بالسعي على قدميها طيلة النهار وجزءاً كبيراً من الليل. فأنت لا تكاد تراها في الصباح متسللة مثلاً من خرابة القلل.. وهي الخرابة التي كانت مجاورة وملاصقة لبيت الزاهد القديم.. تفرك عينيها.. أو تقصع بعض

القمل في رأسها بسرعة.. حتى تراها في الضحى متسكعة حول الحراج القديم وسوق المشتمل على كل شيء عتيق ومستغني عنه.. كأنما تجد حبمبا في هذه الخردوات والأنتيكات القديمة أشباهاً حجرية لها..

أما في الظهر.. وعقب خروج الناس من صلاتهم في مسجد الحنفي ـ أو من زاوية أبو سيفين. فإنك تراها حائمة هائمة على وجهها وقدميها في سوق الندا.. وتلك عادتها الدائمة ـ تتشمم رائحة الحلبة مع السمك أو بدونه ـ وتتطلع المسكينة إلى اللحوم في قرم واشتهاء زائدين مما لا يجد معهما البائعون بدأ من تقديم بعض البواقي منه إليها. فتفترش الأرض حالاً لالتهامه في نشوة والتذاذ به.. ويرد بعض المفسرين لهذه الظاهرة ـ ظاهرة شغف حبمبا باللحوم إلى عقدة نفسية ذات صلة بماضيها البعيد.. يؤكد ذلك ما رواه كل من السيدين «الأبي» بكسر الألف وتشديد الباء المكسورة أيضاً.. وهو من أشهر أصحاب الدكاكين واسمه الكامل حسن منتش والأول صاحب دكان يبيع فيه كل شيء من السكر والشاهي إلى الأبراز والدبائر والكبريت ـ والثاني لا يبيع إلا الفحم في أكياس صغيرة.. أو أكوام.. عدا القرم الكبيرة المزوية على جنب.

على كل حال.. يؤكد كل من الأبي ومنتش أن حبمبا.. ولا شك.. من أصل يمني.. وإنهما باعتبارهما يمنيين أصلاً أدرى واقعاً بتفسير ظاهرة أو عقدة حبمبا الخاصة بشغفها الزائد الحد باللحوم.. ويضيفان أنهما من بعض الكلمات المتناثرة عفواً من فم حبمبا عرفا أنها كانت لها جدة ربتها ونشأتها على أكل اللحم والغرام به.

وبالمناسبة فإن هذا الجانب من سوق الندا لا يزال موجوداً ومحتفظاً بصفة عامة بطابعه القديم.. ولقد كنا أنا والأخوان عمر عبد ربه وعبد

الحميد مطر من رواده ومن المواظبين على الجلوس به في دكان صديقنا رفيق العمر الشيخ محمد سعيد عتيبي الذي كان وثيق الصلة القديمة بكل من الأبي ومنتش. .

كما وبالنسبة لحبمبا. . فإنك حتماً وابتداءً من بعد المغرب ولهزيع من الليل تراها في سوق العلوي تتجول غادية رائحة أمام دكاكين الصمدي وعم قاسم. . وحول مباسط يوسف أمير الفوال والمشكل الحاروي العتيد ـ والبغاشا المطبقاني ليلاً. . واللقيمات والزلابيا صباحاً. . وكلهم يرعون حبمبا ويجودون عليها بفضلات الزبائن من الآكلين لديهم ـ حيث تقيم أودها بتلك اللقيمات المتنوعة والخاطفة. منتظرة ابتداء العم الموصلي تلاوة سيرة عنتر في المقهى. . متحاشية ما أمكن معاكسات الأولاد النشامى الشبان من أمثال الفتاق ـ والصعيدي ـ وولد الشيخ عبد الصمد عمدة اليمن القديم محمود والد العمدة الحالي. . هذا وقد كانت من عادات حبمبا الثابتة. وبعد فراغها من التجول بالعلوي ـ وبالعيدروس كذلك تعود لتقضي وقتاً من الليل في دكة نصيف المجاورة لبيت نصيف التاريخي الحالي، والتي كانت في كل رمضان مصلى خاصاً للعشاء وللتراويح وكان والد كاتب هذه السطور الإمام الرمضاني في كل عام مضى. . وراح واللي راح راح يقلبي. . شكوتك لله!!

كما كان من عادات حبمبا. . وهي أميز وأسمى عاداتها. . كراهيتها المطلقة ونفورها من النقود كما يلاحذ ذلك طبعاً من رفضها لما قدمه لها سائق المرسيدس والذي كاد أن يودي بحياة الولد ـ أبدو. . فلقد أجمع الكل على أن حبمبا لا تعرف النقود. . أي أنها لا تعرف بالتالي قيمتها. فلم تمس كفاها طيلة حياتها الضائعة أية هلله أو أي قرش. . أو ريال. .

ويقول خبيث معروف ومشهور بخفة دمه أن كلمة «قرش» كانت لحبمبا بمثابة البعبع.. وهذا الخبيث لا يعني بلفظة القرش هنا قطعة النقود المعروفة ـ وإنما يومئ دون إفصاح لقرش البحر ـ أو للقروش الآدميين الشبيهين به في القضم ـ وفي الابتلاع.

ومع أنه لا علينا من تعليق هذا الخبيث الظريف.. فإن من المتفق عليه أن حمبمبا معتبرة لذلك.. أي لكراهيتها للنقود ولنفورها منها ـ من الزاهدات بالفطرة في عرض الحياة الزائل.. مما سرب الاعتقاد فيها من الكثيرين.. ورأى فيها شيئاً لله ـ كما يقول بعض خواصها!! رغم تعريض وتقريق وتعليق العم أبو جنب على هذه النقطة بقوله مستهزئاً «حبمبا فيها شيء لله؟ ها؟ والله أنكم بالبركه.. دي ما تحب الفلوس عشان مرة من المرات ـ والا أقول لكم.. أنا أشلي؟ يسيدي ربك سمي الستار..» وهنا يصرخ أولئك في وجهه. أنْكِتِمْ حرام عليك.. دي أطهر وحده شفناها ـ وإن كنك رجال من جد وشارب من لبن أمك ـ قول!! فيرمقهم بنظرة ذات معاني ـ أقول؟ أقول لكم: بلاشي!!

.. أما بالنسبة لنسبة الجنون لدى الآنسة حبمبا.. فقد أجمع المؤرخون لتلك الحقبة من تاريخها في تاريخ جدة.. حين يتطرق البحث لمشاهير الشخصيات الشعبية.. أجمعوا على أن جنون الآنسة حبمبا إنما هو نوع من التفوق الذاتي الصامت ونتيجة للزهادة التامة في عروض هذه الدنيا الفانية.. والصفة الثانية ربما كانت موضع شك أو دراسة.. فكما أن تجرد المرء من كل عرض من أعراض الحياة الزائلة قد يؤدي إلى الوسواس أو الجنون فإن التكالب على الجمع وتكديس الأموال والعروض الدنيوية بأشكالها وبأنواعها وبأرقامها المخيفة المرعبة قد يؤدي كذلك إلى

الوساوس والهجرسة والهلوسة.. وكلها طرقات أو طريق يؤدي إلى أيضاً إلى الجنون المطبق أو الجنان الخفيف المتعارف على تسميته باللطف.. تلطفاً لمعناه البعيد.. وتحقيقاً للمثل العالمي القائل كل الطرق تؤدي إلى روما.. روما حقت «الاستنقلينا»!!

وعلى كلام حبمبا وصاحبنا إياه.. أي نعم.. لقد كانت حبمبا في جنونها الرايق إنما تمثل ما ذكر سابقاً.. فهي في كل حركاتها وسكناتها.. وتجوالها وتصرفاتها تشعر الناظر إليها.. أو المتتبع لخطاها ولسيرتها أنها منفصلة انفصالاً تاماً ومادياً عن عالم الأحياء.. والعقلاء.. كما يلاحظ الكل في نفس الوقت أنها كانت مثالاً صادقاً على البلاهة المتناهية.. وعلى السذاجة التي لا حد لها.. وعلى المسالمة المطلقة وتلك أبرز صفاتها المميزة.. إذ إنها لم تمد يدها قط إلى حجر من الحجارة الملقاة في الأزقة والشوارع بجدة وما أكثرها في تلك الأيام.. أيام الجراويل ـ لتقذف بها من يعاكسها.. أو من يطاردها بالصراخ بالتشنيع عليها من الصبية والغلمان.. والبزورة الذين لم يربيهم أولياء أمورهم التربية الحديثة المنصوص عليها في كتب التربية غير البدنية.. وبالأخص في الكتاب المشهور لمؤلفه الأمريكي المستر بالوهي «كيف تعامل المجانين والبلهاء؟».

ويزيد الكثيرون من معارف ودارسي حياة حبمبا.. على هواهم.. فيؤكدون أنها كانت تزيد في ابتسامتها البلهاء كلما زادها الأولاد إيذاء.. وشتيمة وصراخاً يصم الأسماع.. بصورة تنقل للذهن.. ومن غير تشبيه بالقول القائل: من ضربك على خدك الأيمن.. فأدر له خدك الأيسر.. وظهور طرف من أعراضها على هذه الآنسة العربية إقليمياً.. والمسلمة جغرافياً واعتباراً وسلوكاً ينم عن ذلك.

تلك هي الآنسة حمبا من الناحية السلوكية والنفسية.. أما فيما يختص بهيئتها وبتكوينها الجسدي.. فقد كانت حبمبا متوسطة القامة تميل إلى البدانة.. ذات قدمين مفلطحتين.. متشققتين نتيجة المشي الدائم حافية عليهما.. وفوق الأحجار والتراب الناشف.. كما كان وجهها أملس الملمس خالياً من أية علامة بارزة.. أو فارقة ولقد كان وظل وأصبح.. وما أمسى.. مكياجها الوحيد هو جمعها لشعر رأسها ورفعه إلى أعلى ثم ربطه بعد ذلك بدوبارة غليظة يرجح أنها كانت منسولة من عدلة دقيق رمي بها من قام من «الحبابة» بفتح العدلة جانباً فالتقطتها حبمبا في غفلة من العيون.. كما انحصرت زينتها النسائية.. كأنثى.. في فردة «خرص» أزرق تضعه في أذنها اليسرى.. وفردة خلخال.. دون قلاقل.. ملتصق في خنقة قدمها اليمنى.. آخر الساق.

وبعد.. فتلكم هي الآنسة.. أو المظمظيل حبمبا على حد تسمية العم أبو راصين لها.. وذلكم هو مجموع شكلها المكلبظ تقريباً.. وحيثيتها العامة التي لا تدل على مفهوم خاص لها في الغالب.. أما سبب شيوع اسمها «حبمبا» على الألسنة وإطلاقه حتى يومنا هذا.. وما بعده.. إن شاء الله.. على كل من يبلغ به البله والعبط حداً بعيداً.. فإنه يعود إلى تصرفاتها الساذجة الغبية العبيطة البلهاء.

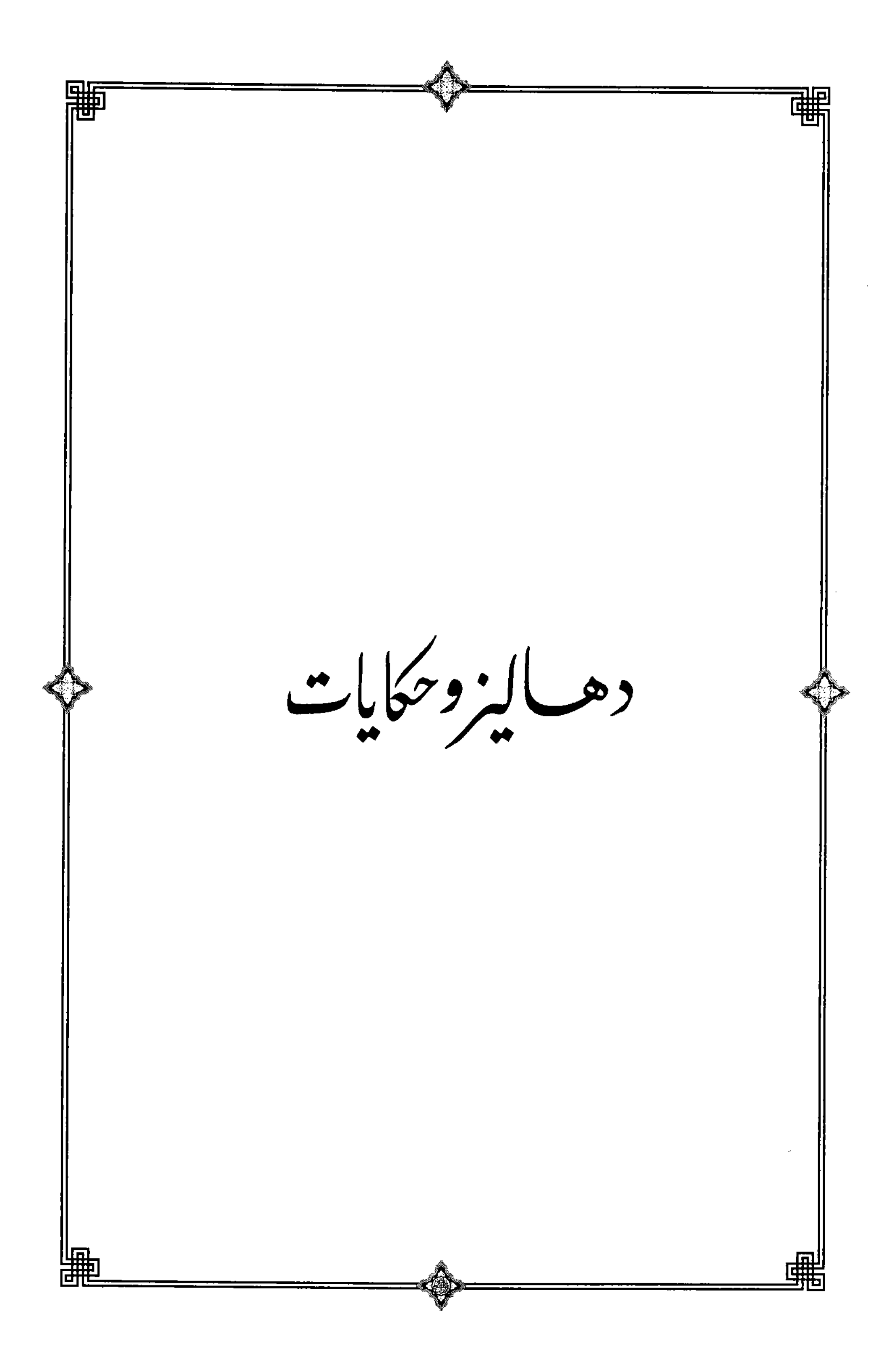
إنها باختصار تمثل تمثيلاً دقيقاً ورائعاً المثل الشعبي القائل «لا ينطح.. لا يقول انباع..» وعليه.. فإذا سمعت من يقول لك.. أو لعدوك.. أما أنك حبمبا صحيح!! أو روح يواد. أنت «حبمبا» أنت!! فاعلم يا رعاك الله إنما يعني هذا من هذا ما سبق شرحه!!

وأخيراً.. فقد اكتشف عمدة اليمن بعد وفاة المرحومة الآنسة حبمبا

بخرابة القلل وفي عتمة الليل وعقب فضلات أكلة تسممت بها.. أن العم أبو راصين السابق ذكره كان يحمل بين صدره العريض.. وفي عينيه الطويلتين الزائغتين عاطفة صامتة من ماركة «عينك دكها.. ويدك لا تمدها» للآنسة حبمبا.. وقد ضبطه العسس في إحدى الليالي.. وبالتحديد بعد الأربعين من موت فقيدة البلاهة ـ والمسالمة.. والجنان الرايق.. وهو يترنم بالأبيات التالية:

حبمبا.. كيفما قالوا.. وعادوا
عليك.. فأنت وسط القلب.. جمره!
وأنت على لساني.. كل يوم
إذا ما جاء ذكر العشق.. تمره!
كذلك: أنت في صدري تململي
برغم الضيق.. وسط الصدر.. صُرُّه
أخاف أفكها يوماً.. فأجلو
بها عن حبي المصرور.. سِرَّه!!
فكم في الصبح.. بعد العصر برضو
بجنح الليل.. في يومي.. وبُكْرَه!
تمنى قلبي الدقداق.. إني
أنا «أبدو» الذي جاكي بشُهْرُه!!
فهل تتذكرين لنا لَحوحاً
رَمَيْتُ بِهِ إليكي.. ذات مَرَّة؟
فقلتي. أأَنتَ تشيتني خميرا!
أجبت، لحوحنا: عَطفٌ ونَظْرَه!!

وقــد جــاءت وَفَــاتُــكِ.. دونَ عِــلــمــي
فــإنــي كــنــت مــعــزومــاً.. يــسَــمْــرَه!!
فــســامَــحَــكِ الإلــهُ.. فــأنــتِ فِــعــلاً
جــعــلــتــيــنــي: أَعــيــشُ.. عــلــى مُــغُــرَّه!!



دهاليز وحكايات



ـ ١ ـ

«على قاعدة.. لكل حكاية دهليز.. فسوف نسير.. ولسوف نجمع بين الحكاية العربية القديمة.. والبلدية المتوارثة.. والإفرنجية المعربة.. دون تحريف..

وإن ما سوف يرد من كل ذلك ليس جديداً في مادته.. ولكنه حديث.. في أسلوبه عرض أزيائه الثلاثة.. ويكفينا من الأمر ثواب العرض.. دون التفصيل».

كان العتابي.. واسمه كلثوم بن عمرو بن أيوب.. شاعراً مسترسلاً.. بليغاً.. ومتصرفاً في فنون القول وهو من شعراء الدولة العباسية.

يروى عنه أنه لما قدم مدينة السلام على المأمون أذن له.. فدخل عليه.. وكان عند المأمون حينذاك إسحاق الموصلي.. وكان العتابي شيخاً جليلاً نبيلاً.. فسلم.. فردّ عليه المأمون السلام.. وأدناه إليه وقربه منه.. ثم أمره بالجلوس فجلس.. وأقبل عليه يسأله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذلق طلق..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٢م.

فاستظرف المأمون منه ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح.. فظن الشيخ أنه استخف به.. فقال:

يا أمير المؤمنين: الإيناس قبل الإبساس!.. والإبساس يعني الاطمئنان قبل المداعبة!

ثم أخذوا في الحديث.. وغمز المأمون إسحاق الموصلي عليه ـ فجعل العتابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه فيه إسحاق.. فبقي العتابي متعجباً.. ولم يسعه إلا أن يقول للمأمون.. أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ.. يعني إسحاق.. عن اسمه؟ قال: نعم.. سل.. فقال لإسحاق:

يا شيخ! من أنت؟ وما اسمك!

أجابه إسحاق.. أنا من الناس.. واسمي «كل بصل»!

فتبسم العتابي وقال: أما أنت فمعروف.. وأما الاسم فمنكر.. فقال إسحاق:

ما أقل إنصافك! أتنكر أن يكون اسمي «كل بصل» مع أن اسمك أنت «كل ثوم»!.. وكلثوم من الأسماء.. أو ليس البصل أطيب من الثوم!.. فقال له العتابي: لله درك.. فما أحجك!

* * *

ـ ٢ ـ

هناك مثل شعبي يقول: اللي تجمعه الضرة في سنة ياخدو الجمل في خفو.. ويستعمل.. عادة.. للحريص الجشع حرصاً غير بصير.. وجشعاً مفلوتاً لا يفرق صاحبه بين الحلال أو الحرام.. يظل يلقف ما يتأتى لجمع القرش فوق القرش.. والريال مع الريال في تؤدة.. وهو في سبيل ذلك لا يتورع عن اتخاذ الغش طبيعة وأسلوباً مساعداً على سرعة التكديس واللم ـ والتحويش..

ويحكى.. أنه كان هناك.. وفي محلة المسفلة بالتحديد.. لبّان.. يعيش على بقرة يملكها.. يحلب لبنها في سطله اليومي.. يتكسب من بيعه على زبائنه كل صباح.. وكانت له زوجة وابنة منها.

وقد اتخذ عادة ثابتة.. لا يقلع عنها.. ولا يحسب حساباً لعقباها.. ذلك أنه كان إذا حلب البقرة أضاف إلى اللبن في السطل كمية من الماء لا يذهب بها لون اللبن.. بالطبع.. ولكنه يضاعف الكمية.. تقريباً.

وظلت زوجته تراقب العملية بل وتساعده فيها مكرهة على ما تفعل ـ حتى إذا ماتت بحسرتها.. قامت ابنته الصغيرة مكانها.. على جهل بطبيعة

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٢هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٣م.

العمل.. وفي خشية دائمة من سؤال أبيها عن سبب وضع الماء الموازي لكمية اللبن يومياً في السطل، وقد عاشت مع سؤالها الحائر هذا.

واستمر اللبَّان يحلب بقرته.. ويضيف إليها كمية الماء يغش بها زبائنه غير ملتفت لثقتهم فيه مستغرقاً في جشعه.. وفي كسبه غير المشروع.

وذات صباح.. حلب البقرة كعادته.. وأضاف إليها المقرر اليومي من الماء حتى إذا امتلأ سطله حمله.. ذهب به للطواف على زبائنه اليوميين.. ولكنه لم تمض على مفارقته بيته ساعة.. تاركاً فيه بقرته وبنته.. حتى هطلت السماء مطراً غزيراً.. أعقبه سيل كبير جرف فيما جرف.. بالمسيال.. البقرة لم تستطع النجاة.. وذهب بها حيث يستقر السيل بضحاياه.. وقد نجت الصغيرة بأعجوبة.. وبمساعدة الجيران..

وحين عاد اللبّان إلى منزله.. ورأى ابنته.. كان أول سؤال وجهه إليها.. أين البقرة؟ قالت ـ في براءة الصغار ـ تنوس الحكمة والموعظة عفواً على ألسنتهم..

البقرة؟.. البقرة؟.. ربنا جمع كل الموية اللي بنحطها في السطل كل يوم مع لبنها وأرسلها مرة واحدة..

الموية الكثيرة أخذت البقرة معاها هناك.. بعيد.. بعيد.. بعيد!!

* * *

ـ ٣ ـ

توفر الرأي.. والحيلة.. وسرعة الخاطر.. ضرورات تفرض وجودها على المسؤول الذي يتولى تصريف شؤون قريته.. وحل مشاكل أهلها.. وتلك في البادية صفات يتمتع بها العربي والبادي فطرة.. ومعاناة تجربة.. وتمسكاً بتقاليد متوارثة نابت مناب القوانين الثابتة.. يعجب لها على رغمه الغربي طبائع راسخة لا تهتز ولا تضطرب إزاء الحوادث.. وأوقات الحاجة إليها..

يحكى أن صحفياً أوروبياً أراد أن يطوف بالبوادي مع أحد مشائخ العرب في الريف المغربي وكان قد جاء لشيخ القبيلة ضيفاً موصى عليه.. فرحب به وأكرمه.. وخرج شيخ القبيلة مع رهط من بعض قومه ومعهم الصحفي محل العناية والرعاية.. وقد لاحظ كيف أن أفراد الرحلة يعاملون شيخهم بمنتهى التجلّة والاحترام.. وكان لشيخ القبيلة حمار أبيض موضع عناية الشيخ وهو يمتطيه سائراً في المقدمة.. وضيفه على جانبه على دابته وبقية الركب من ورائهما..

وكانت لدى الصحفي الأوروبي حقيبة خاصة لا تفارقه وقت السير.. وإن اضطر لإبقائها بالخيمة وقت الطعام.. وكانت بها مائة قطعة ذهبية

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٣هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٤م.

يفتقدها كل ليلة وصباح كل يوم للاطمئنان على وجودها.. ويجدها.. ولكنه فوجئ بعد ظهر أحد الأيام بفقد الحقيبة فاغتم لذلك كثيراً وظهر عليه القلق والاضطراب.. فسأله شيخ القبيلة عما دهاه لتغير حالته.. وما زال به حتى عرف أنه سرق.. فقال له.. اكتم هذا الأمر سراً بيني وبينك.. وأطرق الشيخ ممسداً لحيته.. مفكراً في الأمر..

ثم دخل إلى خيمته فأصلح من شأنه.. وزيِّهِ وزينته.. مما أكسبه الهيبة والوقار.. وقد أمر بإفراد خيمة صغيرة ذات بابين.. وأدخل حماره الأبيض داخلها.. ثم دعا جميع أفراد الركب فتحلقوا حوله حيث قال لهم في صوت رزين هادىء:

لقد حدثت بيننا سرقة كان ينبغي ألا تحدث.. فاستنكر الجميع حدوثها.. ونفوا قيام أي واحد منهم بها.. فاستطرد الشيخ.. إنني لأجل أن أتمكن من الوصول للحقيقة فقد ضمخت ذيل حماري الأبيض بنبات الريحان.. وعلى كل فرد منكم أن يقوم الآن بالتوالي.. بالدخول للخيمة ومسك ذيل الحمار.. فإذا كان بريئاً فإن الحمار لن يأتي بأية حركة أو صوت، أما إذا كان هو السارق فإن الحمار سينهق.. وعند ذلك نعرفه بنهيق الحمار!

وهكذا قام الأفراد بدخول الخيمة واحداً إثر الثاني من باب وخرجوا من الآخر.. ولكن لم يبدر من الحمار أي صوت أو نهيق.. حتى إذا تكامل جمعهم أمام الشيخ طلب من كل شخص أن يعطيه كفه الأيمن الذي مسَّ به ذيل الحمار ليشمه.. فأعطاه إياه.. حتى إذا استلم كف أحدهم وشمه.. صاح به.. أيها السارق.. أيها الحقير.. إنك اللص.. وهنا تهالك الرجل واعترف.. وذهب معه بعضهم فأمر الشيخ إلى موضع

بعيد حيث نبشوا التراب وأخرجوا الحقيبة من الحفرة.. وأمر بالسارق فجلد جلداً متواصلاً إلى أن تشفع فيه الصحفي الأوروبي فأوقف عنه الجلد..

واستلم الصحفي حقيبته وبها قطعاته الذهبية كاملة.. ولكنه بقي متحيراً كيف عرف الشيخ اللص؟

وحين اختلى به سأله عن الأمر.. فضحك وقال.. أولاً إن الحمار الأبيض.. رغم عنايتي الفائقة به حمار ككل الحمير!.. وثانياً.. إنني لم أضع على ذيل الحمار أية رائحة.. وتعليل الأمر هكذا:

إن السارق من اضطرابه وخشية الفضيحة.. وتصديقه لما قلته.. لم يمس ذيل الحمار.. وإنما اكتفى بتضميخ يده بنفسه بنبات الريحان.. وحيث إن كل واحد من الجماعة قد لمس حسب الأمر ذيل الحمار ولم تكن بالذيل أية رائحة لذلك لم تكن بكفه أية رائحة لنبات الريحان إلا ذلك اللص!

* * *

ـ ٤ ـ

لعلّ مما تحلو به بعض الروايات.. فكاهة تهش لها النفس.. ويروق بها الخاطر.. أن يذوب بين تضاعيفها الرمز.. مغزى دقيقاً بدهي الاستخلاص..

وطغيان الطمع.. أنانية وشرهاً في بعض الأفراد يفرض عليهم استغلال جهد الآخرين.. مساومة تزيد أحياناً على الحق الأصلي.. لصاحبه!!

يحكى.. أن بعض الولاة القدماء أرق ذات ليلة فقال لوزيره.. إنني أرقت الليلة.. وضاق صدري.. ولم أعرف ماذا أصنع؟.. وكان خادمه الخاص واقفاً أمامه.. فضحك.. فقال له.. ماذا يضحكك؟ أاستهزاء بنا؟.. أم استخفافاً بمقامنا؟.. فقال.. لا والله.. ما فعلت ذلك عمداً.. ولكنني خرجت بالأمس.. أتمشى بظاهر القصر إلى جانب النهر.. فوجدت الناس مجتمعين.. فوقفت فرأيت رجلاً واقفاً يضحك الناس ويقال له ابن المغازلي.. فتفكرت الآن في شيء من حديثه وكلامه.. فضحكت.. وإنني أطلب العفو مما فعلت.. يا مولاي.. فقال له الوالي.. لا!.. بل اذهب إليه وائتني به الساعة.. فذهب الخادم إلى ابن

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٤هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٥م.

المغازلي.. وقال له.. أجب الوالي الآن، أجاب.. سمعاً وطاعة.. فقال الخادم الخاص تأتي معي بشرط.. هو أنه إذا أنعم عليك الوالي بشيء يكون لك أنت منه الربع.. والبقية.. أي الثلاثة الأرباع لي أنا؟.. قال له الرجل.. بل اجعل لي النصف ولك النصف.. فأبى.. فقال.. إذاً فالثلث لي ولك الثلثان فوافق الخادم الخاص.. بعد جهد عظيم.

فلما دخل الرجل على الوالي سلم.. وترجم.. فأحسن.. ووقف بين يديه.. فقال له الوالي.. إن أنت أضحكتني أعطيتك خمسمائة دينار.. وإن لم تضحكني أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات.. فقال المضحك في نفسه.. وماذا عسى أن تكون ثلاث ضربات بجراب كهذا.. وظنه فارغاً لا شيء فيه..

فأومأ بالموافقة..

ثم وقف.. وأخذ يتكلم.. ويتفكّه.. ويتمسخر.. وفعل أفعالاً عجيبة تضحك الجلمود.. ولكن الوالي لحالته النفسية الخاصة.. لم يضحك.. بل ولم يبتسم.. فتعجب الرجل.. ثم ضجر.. ثم خاف.. ثم صمت نهائياً.

فقال له الوالي.. الآن استحقيت الضرب.. وتناول الجراب ولفه.. وكانت فيه أربع زلطات.. كل واحدة منها وزنها رطلان.. فضرب المضحك ضربة واحدة لم تكد تقع على رقبته حتى صرخ صرخة عظيمة منكرة.. وافتكر الشرط الذي شرطه عليه خادم الوالي.. فالتفت للوالي قائلاً: اسمع مني كلمتين.. قال قل ما بدا لك.. قال.. إن خادمك هذا شرط علي شرطاً.. واتفقت معه على مصلحة.. وهو أن ما سيحصل لي من هبتك يكون له فيها الثلثان.. ولي أنا فيها الثلث فقط.. وما وافقني

على ذلك إلا بعد جهد عظيم.. وحيث إنك فرضت عليّ ثلاث ضربات فيكون نصيبي منها واحدة.. ونصيبه منها اثنتين.. وقد أخذت نصيبي.. وبقي نصيبه هو..

هنالك.. ضحك الوالي.. ودعا بخادمه فضربه واحدة.. فصاح يا مولاي.. لقد وهبت ما بقي من نصيبي للمضحك!.. فضحك الوالي.. ثانية.. وأمر لكل منهما بخمسمائة دينار!

* * *

ـ ٥ ـ

لـكـل داء دواء.. يُسـتـطـبُّ بـه إلا الـحـماقة.. أعيت من يداويها

ولقد أعيتنا فعلاً.. وقبل حلول ضرب مدفع الإفطار بوقت قصير.. حيث كنا في سيارة أجرة.. وأتينا مفرق طريق على رأس زقاقين وقف في منتصفهما سائق يصلح عطلاً في سيارته.. وبعض السيارات وراءه لا يلتفت إليها.. ولا يقبل مساعدة أحد لإزاحة سيارته عن الطريق.. فضرب له سائق الأجرة البوري مثنى.. وثلاث.. ورباع.. فقال له: عد من حيث أتيت فلا طريق لك من هنا.. ولا درب معك كما ترى.. فأبى ـ وكرر النفير.. فكرر عليه السائق ما قال. وزاد.. إن خراب سيارتي هو مانعي.. فكيف أستطيع أن أفسح لك الطريق.. وهذا حالي.. ولا أريد مساعدة أحد لإزاحتها عنه.

فطلبت من سائق التاكسي أن يعود بنا لندرك البيت في وقت معقول.. فالدنيا رمضان.. فأصر إلا أن يمر من هذا الزقاق بالذات.. مهما طال به الوقوف.. ولما كان الوقت ضيقاً جداً.. فقد نزلت من التاكسي ولم أدفع له أجراً ـ وبدأت السعي والسير الطويل داخل الأزقة.. لا ينتهي المشوار.. ولا تساعدني قدماي..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٥هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٦م.

ومضيت أفكر في السائق الخصوصي الذي وقف في منتصف الطريق بسيارته يصلحها ولم تسمح له حماقته بمساعدة الناس له على إزاحتها من الدرب.. وفي سائق الأجرة الذي أصر على الوقوف للمرور من الزقاق نفسه مهما طال به الوقوف.. وفي نفسي.. أبيت إلا أن أقطع المشوار زحفاً على الأقدام!

وهنا.. تذكرت حكاية قصيرة.. في المعنى المماثل من كل الوجوه تقول:

يحكى.. أن أحمقين اصطحبا في طريق.. فقال أحدهما.. تعال نتمنى على الله.. فإن الطريق تقطع بالحديث.. فقال أولهما.. أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها.. وبلحمها.. وبصوفها.. وقال ثانيهما.. أما أنا فإني أتمنى قطائع ذئاب.. أرسلها على غنمك.. حتى لا تترك منها شيئاً..

فصاح الأول.. ويحك.. أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة.. فتصايحا.. واشتدت بينهما الخصومة حتى تماسكا بالأطواق.. وتعاركا..

ثم تراضيا في النهاية على أن يكون حكماً بينهما أول من يطلع عليهما من الدرب.. فطلع عليهما شيخ يركب حماراً عليه زقان من عسل.. فأوقفاه.. حيث حدثاه بحديثهما.. وكيف أن أحدهما تمنى أن تكون له غنم ليستفيد منها.. والآخر تمنى أن تكون له ذئاب لتأكل تلك الغنم.

فمضى الشيخ إلى حماره ـ ثم فك الزقين من على ظهره.. وجاء بهما للرجلين حيث فتحهما وأسال ما بهما من العسل على التراب.. قائلاً بعظمة وبزهو في تؤدة تامة.. وفي تعقل رزين:

صب الله دمي.. مثل هذا العسل.. إن لم تكونا أحمقين!!

* * *

ـ ٦ ـ

وفي مجال الحب الطاهر.. والافتخار بالعفاف.. صوناً عن ارتكاب محرم.. أو إهدار كرامة.. فقد كانت للعرب مواقف ووقائع تدل على الحظ الكبير لديهم في ذلك.. حتى بلغ بهم الأمر قطعاً لدابر الشبهات والتقول أن كانوا يحولون دون زواج بناتهم ممن يتغزل أو يتشبب بهن في شعره.. وما قصص قيس بن الملوح وجميل.. وسواها.. إلا بعض من كل..

وما ورد من الشعر.. وهو سجل من سجلات حياتهم.. يشير بصراحة إلى ما سلف.. ومن أشهر ما يروى.. صدا لحرام دعي إليه صاحبه:

أما الحرام.. فالحمام دونه
والحل.. لا نأبى.. ولا نستدينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه
يحمي الكريم.. عرضه.. ودينه..

وكذلك:

ما إن دعاني الهوى لفاحشة
إلا نهاني الحياء.. والكرم

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٦هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٧م.

فلا إلى فاحش مددت يدي
ولا مشت بي.. لزلة.. قدم!

وأيضاً:

حور حرائر.. ما همن بريبة
كظباء مكة.. صيدهن حرام
يُحسَبن من لين الكلام.. فواسقاً
ويصدهن عن الخنى.. الإسلام!

ومدار التقدير لموقف الحب الطاهر.. لا يقوى صاحبه على أداء لازمه المادي.. وتنفعل النفس النبيلة تسبقها أريحيتها لما يجب عليها.. صورة في ذلك الإطار العام:

ويحكى.. أن أحد السراة النبلاء.. وكان من المغرمين بسماع الشعر وبروايته.. قد نذر على نفسه لمناسبة خاصة به أنه لن ينشد شعراً أبداً.. وإنه متى أنشده فعليه عتق رقبة عن كل بيت.. ومر على نذره هذا حين طويل من الزمن..

وفي أحد الأيام.. وبينما هو مار في مكان عام.. إذ نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه.. فقال له: يا هذا.. اتق الله.. أفي مكان عام كهذا المكان؟ فقال الشاب: والله ما ذاك لخنى.. أو لشيء لا يليق.. ولكن حديثنا خاص بنا وفي حدود الصون والعفاف.. إن هذه التي تراها وأكلمها هي ابنة عمي.. وأعز الناس علي.. وإن أباها منعني من تزويجها لفقري.. ولفاقتي.. فقد طلب مني مائة ناقة.. ومائة أوقية من الذهب.. ولم أقدر من ذلك على شيء!

هنالك.. اهتز الرجل النبيل وتأثر.. وما كان منه إلا أن صحب الشاب لدار عمه ـ والد الفتاة ـ ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه.. ولم يقم من مقامه.. حتى عقد له عليها..

وهكذا.. عاد الرجل إلى داره.. مسروراً بما فعله من صنيع طيب.. ولم يشعر بنفسه.. وقد غمرته الفرحة.. إلا وهو يترنم ببيت من الشعر.. فقالت له جاريته: أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر أفنسيت ما نذرت أم تراك قد هويت؟

فأنشد:

تقول وليدتي: لما رأتني طربت.. وكنت قد أنسيت.. حينا
أراك اليوم.. قد أحدثت عهداً وأورثك الهوى.. داء دفينا
بحقك.. هل سمعت لها حديثاً فشاقك.. أو رأيت لها جبينا
فقلت: شكا إلي أخ محب كمثل زماننا.. إذ تعلمينا
وذو الشجو القديم.. وإن تعزى مشوق.. حين يلقى العاشقينا!!

ثم عد الأبيات.. فإذا هي خمسة أبيات.. فأعتق خمس رقاب قائلاً: لله درّك من خمسة.. أعتقت خمسة.. وجمعت بين رأسين في الحلال!

* * *

ـ ٧ ـ

تضطر الظروف الداعية إلى كسب العيش.. أحياناً.. أن يفارق الزوج زوجته بحثاً عن المعاش لا يستطيعه في بلدته.. وبجوارها.. وتأبى عليه رجولته أن يبقى حيث هو عاطلاً لا حول له ولا طول في أمرها.. وفي أمره.. فيسافر إلى غير بلده لغرضه.. بينما تعتقد الزوجة أنه سلاها.. وأنه فارقها من سأم أو ملل عشرة!..

والموضوع من بعض جوانبه.. وأهم أركانه يرويه إسحاق الموصلي عن أبيه إبراهيم الموصلي.. وهو في الأصل إبراهيم بن ميمون.. وجاءه لقب الموصلي بسبب أنه لما نشأ واشتد وأدرك.. صحب أنداده واشتهى الغناء فطلبه.. فاشتد أخواله عليه في ذلك وبلغوا منه.. فهرب منهم إلى الموصل.. فأقام بها نحواً من سنة فلما رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان.. مرحباً بالفتى الموصلي.. فلقب به..

وكان إبراهيم وولده من بعده أصحاب حظوة لدى الخلفاء العباسيين.. وذوي بصر بالشعر واختيار الجيد منه.. ويروي إبراهيم أنه رأى يحيى بن خالد خارجاً من قصره الذي عند باب الشماسية يريد قصره الذي بباب البردان وسمعه يتمثل:

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٨هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٩م.

هوى بتهامة.. وهوى بنجد   فأبلتني التهائم والنجود!

فزاده عليه:

أقيم بذا.. وأذكر عهد هذا   فلي ما بين زين هوى جديد!

ويحكي إسحاق عن أبيه إبراهيم:

بينما أنا بمكة أجول في سككها إذا أنا بسوداء قائمة.. ساهمة.. باكية.. فأنكرت حالتها.. وأدمنت النظر إليها.. فبكت وقالت:

أعمرو.. علام تجنبتني   أخذت فؤادي.. وعذبتني

فلو كنت يا عمرو خبرتني   أخذت حذاري.. فما نلتني!

فقلت لها.. يا هذه.. من عمرو؟ قالت.. زوجي .. قلت. وما شأنه؟ قالت.. أخبرني أنه يهواني وما زال يطلبني حتى تزوجته.. فلبث معي قليلاً.. ثم مضى إلى جدة.. وتركني.. فقلت.. صفيه لي.. قالت.. أحسن من أنت رائيه سمرة.. وأحلاهم حلاوة وقدا..

قال.. فركبت رواحلي مع غلماني وصرت إلى جدة.. فوقفت في موضع المرفأ أتبصر من يحمل من السفن.. وأمرت من يصوت.. يا عمرو.. يا عمرو.. وإذا أنا به خارجاً من سفينة.. وعلى عنقه صرة.. يعني سلة فيها طعام وخبز.. فعرفته بصفته ونعت الزوجة إياه.. فقلت:

أعمرو.. علام تجنبتني   أخذت فؤادي.. وعذبتني

فقال.. هيه!.. أرأيتها.. وسمعت منها؟.. قلت.. نعم.. فأطرق هنيهة يبكي ثم اندفع فغنى بالبيتين أملح غناء سمعته.. ورده علي حتى

أخذته منه.. فقلت له.. ألا ترجع إليها؟ .. فقال طلب المعاش يمنعني.. فقلت كم يكفيك معها في سنة تدبر أمورك فيها.. فقال.. ثلاثمئة درهم فدعوت به معي وأعطيته ثلاثة آلاف درهم وقلت له.. لعشر سنين على أن تقيم معها.. فلا تطلب المعاش إلا حيث هي مقيمة معك.. ويكون ذلك فضلاً.. ورددته معي إلى زوجته في مكة.

* * *

ـ ٨ ـ

وفي ليلة من ليالي سمر الجماعة.. أثيرت بيننا مسألة تربية الأبناء.. وهل من الحكمة أن يعترض الآباء طريق رغبات أبنائهم فيحولوهم عما يريد كل واحد منهم أن يكوّنه في مستقبل حياته ـ طبيباً ـ أو صحفياً ـ أو مهندساً ـ أو قانونياً؟.. أم أن من الأولى أن تترك لكل منهم الحرية في الاتجاه في الخط الذي يفضل السير فيه.. وألا يفرض الأب رأيه على ولده في دراسته الأولى أو في تجاربه ومزاولته نوع الهواية التي يرغبها؟..

واحتدم النقاش طويلاً بين فريق يقول.. إن الأبناء في سن الطفولة.. واليفاعة لا يعرفون صالحهم بمقدار ما يعرفه الآباء المجربون أولو الدراية بما هو أجدى وأنفع.. ولذلك فلا بد من فرض آرائهم.. بينما تمسك فريق آخر بأن من الأولى ألا يعترض الآباء أبناءهم في مجرى حياتهم سواء في نوع الدراسة التي يرغبونها ـ أو الهواية الشخصية التي يزاولونها.. وقد استشهد أحد أفراد هذا الفريق بحادثة وقعت له.. فقد روى أنه كان ميّالاً من أيام دراسته للشعر.. وإن أباه كان يستيقظ في وقت متأخر من الليل ويرى صغيره لا يزال يعالج هوايته على ضوء اللمبة نمرة ٤ أو الفانوس.. فيقول له في تأنيب لا تخلو لهجته من الشفقة عليه من السهر والإجهاد.. كفى.. قم لتنام يا ابني.. وبلاشي حكاية الشعر

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٩هـ ـ ١٩٦٧/١٢/١٠م.

هادي تضيع أوقاتك فيها وصحتك.. يعني هو الشعر راح يأكلك عيش لما تكبر.. فيجيبه الصغير بتمتمة فيها الرجاء وبها الإصرار.. سوف أقوم للنوم.. بعد قليل..

وتمضي الأيام والأعوام.. فإذا هذا الولد الصغير اليوم شاعر من كبار الشعراء في بلاده يعزّها حيث تعتز به.. وهنا تنحنح شيخ الجماعة كعادته وقال.. وإن من مستطرفي تطابق واقع هذا الصغير.. وإن اختلف دافع الوالد في اعتراض طريق ابنه.. بحكم الفاقة الملحة.. قلنا هات.. قال:

يحكى.. أن ابن الدقاق البلنسي الشاعر المشهور كان يعشق الأدب.. يسهر الليل في سبيل هوايته.. قارئاً معالجاً للمعرفة والاطلاع.. ولما كان أبوه حداداً فقيراً.. فقد كان يلومه.. ويقول له:

يا ولدي ـ نحن فقراء ـ ولا طاقة لنا بقيمة وبمعرفة الزيت الذي تسهر عليه!

ومرت السنون.. واتفق أن برع الولد الصغير بعد أن كبر في العلم.. وفي الأدب.. وبالشعر خاصة.. وصادف أن عمل في مطلع حياته في أبي بكر بن عبد العزيز قصيدة مطربة أولها:

يا شمس خدر ما لها مغرب … وبدر تم.. قط.. لا يحجب
ناشدتك اللّه نسيم الصبا … أين استقرت.. بعدنا.. زينب؟
لم تسر إلا بشذا عرفها … أولاً.. فماذا النفس الطيب؟

فوصله أبو بكر بثلاثمائة دينار.. فجاء إلى أبيه الحداد.. وهو جالس في حانوته فوضع المبلغ كله في حجره.. وقال له:

خذ هذه.. وابتع بها زيتاً.. يا أبتاه!!

* * *

ـ ٩ ـ

ومن مزايا المؤمن الصادق الصبر على المكاره.. والجلد عند الشدائد.. والاستعانة بذكر الله.. وبالإيمان به على ما تأتي به الأيام من فقد مؤلم.. أو حادث مكرب.. أو مصيبة لا تطاق..

ولقد قيل من قبل إن الهموم التي تعرض للقلوب كفارات للذنوب.. وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر.. لا رأيت مكروهاً.. فقال كأنك دعوت عليه بالموت.. فإن صاحب الدنيا لا بد وأن يرى مكروهاً فيها..

وتقول العرب.. ويل أهون من ويلين.

ومما يسلي في هذا الباب رغم اسوداد إطاره.. أن مغنياً تزوّج بنائحة.. فسمعها يوماً تقول.. اللّهم أوسع لنا في الرزق.. فقال لها.. يا هذه.. إنما الدنيا فرح وحزن.. وقد أخذنا بطرفيْ ذلك.. فإن كان فرح دعوني له.. وإن كان حزن دعوك إليه..

ولا شك أن الحوادث الممضّة مكسبة لحظوظ جليلة.. إما ثواب مدخر.. أو تطهير من ذنب.. أو تنبيه من غفلة.. أو تعريف لقدر

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١٠هـ ـ ١٩٦٧/١٢/١١م.

النعمة.. وقال أبو بكر الخوارزمي.. لمعزول.. الحمد لله الذي ابتلى في الصغير.. وهو الحال.. وعافى في الكبير.. وهو الحال.. وأنشد:

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عاراً أن يزول التحمل

والحياة كما يقول شوقي.. في عجز بيت له.. على جانبها الأسى والطرب.. وفي ذلك كله من جانب تصويراً لجلد المؤمن الصادق الصابر الصبور.. ومن جانب تأييداً لمثلنا الشعبي القائل.. مين شاف بلاوي غيره هانت عليه بلواه.. يحكى:

يحكى أن عروة بن الزبير عندما خرج إلى الوليد بن يزيد وطئ عظماً وهو في طريقه إليه.. فما إن وصل إلى دمشق حتى بلغ به الألم كل مذهب.. فجمع له الوليد الأطباء.. فاجتمع رأيهم على قطع رجله.. وقالوا له اشرب مرقداً ـ ما مقابل البنج الآن ـ فقال ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى.. فأحمي له المنشار وقطعت رجله.. فقال ضعوها بين يدي.. ولم يتوجع.. ثم قال.. لئن كنت قد ابتليت في عضو.. فقد عوفيت في أعضاء.. فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها.. فمات.. فقال الحمد لله على كل حال، لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة..

وصادف في هذه الأثناء أن قدم على الوليد وفد من عبس.. وفيهم شيخ ضرير.. فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره.. فقال خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مال وعيال.. ولا أعلم عبسياً يزيد ماله عن مالي.. ففرشنا في بطن واد.. فطرقنا سيل فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبعير.. فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض

ومضيت فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه.. فرجعت إلى البعير فحطم وجهي برجليه فذهبت عيناي.. فأصبحت.. كما ترى بلا عينين.. وبلا ولد.. وبلا مال.. وبلا أهل..

فقال الوليد عند ذلك:

اذهبوا به إلى عروة.. ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه!!

* * *

ـ ١٠ ـ

لفظ الفكاهة في ذاته يعطينا فكرة لازمة إيجابية من ناحية المحادثة الأخوية الضاحكة.. والضاحكة ذاتها لنادرة.. أو لنكتة.. أو ما شابههما.. كما يعطينا فكرة متعدية سلبية من ناحية المفهوم الدال على أن التفكه في ذاته تناول وتجريح لأعراض ولعيوب ولمفارقات الناس..

ورغم تباين الصور في معنى الفكاهة تجني عليه اللفظة تعريفاً لغوياً.. أو علمياً.. أو مفهوماً شائعاً مع غموض المؤدَّى الواحد في اشتقاقه.. أو وضوحاً عرفاً سائداً ومتداولاً بين الناس.. فإنها ـ الفكاهة ـ محطة إنسانية يقف بها الفرد مزوّداً بطاقة نفسية جديدة تعينه على هضم أسى.. أو إشاعة فرحة.. أو غسيل قلب..

والمبالغة أحياناً أساس لها.. لكن مع تجاوز المعقول فإننا نرتاح للصورة متى جاءت فنية محبوكة في بابها.. فمثلاً.. قالوا.. إن جماعة شاهدوا مؤذناً يؤذن من ورقة مكتوبة.. فقالوا له.. أما تحفظ الأذان.. قال.. سلوا الإمام.. فأتوه.. فقالوا السلام عليكم.. فأخرج دفتراً وتصفحه.. ثم قال.. وعليكم السلام.. فعذروا المؤذن!

والركوب على أكتاف الأغبياء الحمقى.. أحياناً.. مرقاة طبيعية

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١١هـ ـ ١٩٦٧/١٢/١٢م.

للوصول للفكاهة.. اختراعاً أو تلفيقاً يصوّر الأساس كيفما كان.. فمثلاً: دخل رجل من النوكى ـ الحمقى ـ على الشعبي وهو جالس مع امرأته.. فقال: أيكما الشعبي ـ فقال: هذه! فقال ما تقول أصلحك الله في رجل شتمني أول يوم من رمضان.. هل يؤجر؟.. قال.. إن قال لك: يا أحمق فإني أرجو له..

ومثلاً.. قال أبو دمية الفاص.. كان اسم الذئب الذي أكل يوسف «هملاج».. فقالوا له إن يوسف لم يأكله الذئب.. قال: فهذا اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف..

وأخونا العتابي الشاعر المسترسل البليغ.. واسمه كلثوم.. وهو صاحب المحاورة القصيرة بينه وبين الموصلي الذي أخبره أن اسمه هو الآخر.. كل بصل.. صاحب نوادر طريفة.. ومنها ما حكاه عثمان الوراق قال:

رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب مدينة مشهورة.. فقلت له: ويحك أما تستحي؟.. فقال لي.. أرأيت لو كنا في دار فيها بقر.. أكنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟.. قلت: لا. قال: فاصبر.. حتى أعلمك أنهم بقر..

فقام.. فوعظ.. وقص.. ودعا.. حتى كثر الزحام عليه.. ثم قال لهم:

روى لنا غير واحد.. إنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يطأ النار!..

فما بقي واحد منهم إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه.. ويقدر هل يبلغها أم لا؟..

فلما تفرقوا.. التفت العتابي لصاحبه ـ قائلاً: ألم أخبرك أنهم بقر..

* * *

ـ ١١ ـ

وفي تاريخنا الشعبي.. رغم محدوديته.. وضيقه.. بعض الحكايا.. أو الأقاصيص.. أو الحواديت.. ولكنها للأسف لا تعبر إلا تعبيراً جسدياً محضاً.. لا رمزياً.. أو معنوياً.. رقيق الدلالة.. رشيق المضمون..

كما أن أغلب ما يتناوله.. هو موضوع الجن.. والعفريت.. والدجيرة.. وذلك بحكم الظلام الدامس لا تقوى.. على تبديده.. شهقات الفوانيس.. أو آلات الشموع.. أو أنفاس لمبات الغاز.. والمشاعل.. فالعفاريت والجن والأشباح عامة.. رفقاء الظلام.. طريد النور.

ويحكى أنه كانت هناك.. بالقرب من سوق العلوي بمحلة اليمن بمدينة جدة.. طاحونة.. وبها ملحق يعتبر سكناً خاصاً وهو مؤلف من غرفة.. وبيت ماء.. ولقد دأب مالكها على عرضها للإيجار لمن يرغب.. متكتماً عيبها.. وسبب العزوف عنها أول الأمر.. حتى استفاض الخبر.. وتواترت الرواية.. وعرف الناس عنها ما جهد صاحبها في أن يجعله سراً مكتوماً..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١٢هـ ـ ١٩٦٧/١٢/١٣م.

ذلك أنه لا يكاد يستأجر تلك الطاحونة أحد من الناس.. ويقضي ليلته الأولى بها حتى يصبح اليوم الثاني.. وهو إما أصيب بلوثة في عقله ـ أو بعاهة في جسمه.. أو بذهول وبخرس لا يفهم معهما ماذا جرى عليه..

وعم الخبر أهل الحارة جميعاً.. وبقيت الطاحونة مهجورة.. بل وأطلق عليها اسم «الطاحونة المسكونة» حيث تحاشى معظم الأفراد المرور من جانبها وبالأخص في الليل.. زيادة في التحوط.. وإمعاناً في الخشية.

وسمعت بالأمر الست «ظريفة» وهي عجوز وحيدة.. ورقيقة الحال.. تأوي في طرف من أطراف خرابة كبيرة.. حيث تبيع الدنجوه.. واليوبر.. وبعض الحلويات وألعاب الأطفال.. فتقدمت لمالك الطاحونة تسأله أن يسمح لها بالسكنى بطاحونته.. وباستغلالها تجارياً من قبلها بعد تصفية موجوداتها.. على شرط أن تسكنها مجاناً لعام واحد.. ثم تفرض لها أجرة معقولة.. فقبل المالك شاكراً لها هذا العرض الكريم.. وهكذا انتقلت الست ظريفة للطاحونة المسكونة.. وكان ذلك حدثاً هاماً في تاريخ الحارة.. وتحدياً لم تقدر عليه الرجال..

وبدأت ظريفة ليلتها الأولى.. بعد إكمال نهارها.. فبعد أن صلت المغرب.. هيأت العشاء، ثم تناولته.. ولم تلاحظ أي شيء.. حتى إذا صلت العشاء، وتهيأت للنوم ولم يكد يستغرقها برز لها عفريت مشوّه الوجه والملامح.. عملاق.. قوي البنية.. وصرخ فيها قائلاً: شغليني.. شغليني.. شغليني.. وليكن معلوماً لديك أنه إذا عجزت عن إيجاد شغلة جديدة لي فسيحصل لك ما لا تحمد عقباه.

فقالت له الست ظريفة.. نظف الطاحونة.. فأتم نظافتها في لمح

البصر فطلبت منه أن يبني الجزء المتهدم من الحوش.. فأكمله حالاً.. فسألته أن يحل محل الدابة ويطحن الموجود من أكياس الحب وسواها.. فأنهى ذلك في دقائق معدودات.. وصرخ بها.. شغليني.. فركبها الذعر أول الأمر.. ثم فكرت.. واستراحت لفكرتها..

وهنالك.. انطرحت أرضاً.. ونامت على جنبها الأيمن.. وأعطت العفريت مروحة يد تكروني.. وأشارت له إلى أذنها اليسرى.. وقالت له:

روح على هذا الخرق.. حتى تسده وأخذ العفريت يروح.. ويعاين فتحة الأذن بين ساعة وأخرى فيجد الخرق على حاله.. لم ينسد.. وابتدأ يتململ ثم أدركه التعب وهو لا يزال مستمراً في الترويح.. دون انقطاع.. بينما استغرقت الست ظريفة في نومها المتصل العميق..

وعلى وجه الفجر.. وقد بلغ الإعياء والضجر بالعفريت منتهاهما.. انقلبت الست ظريفة فجأة على جانبها الأيسر.. مرسلة بطبيعتها ريحاً ذا صوت عالٍ.. وممطوط.. فشهق العفريت.. وصرخ ما هذا؟..

فأشارت إلى فتحة أذنها اليمنى وأجابته:

هادا خرق.. ثاني.. يا الله.. روح.. روح..

هنالك.. أطلق العفريت ساقيه للريح.. وصاح بها:

وداعاً.. وداعاً.. فلن أعود إليك.. أبداً.. لأنه لا علم لي ولا قدرة لدي .. على سد الخروق..

* * *

ـ ١٢ ـ

هناك مثل شعبي يقول.. بنت تخرب بنت.. وولد يخرب ولد.. ويعنون بذلك تأثير رفاق السوء.. في مجال العشرة اليومية.. حيث تقذفه المصادفة السيئة بالشباب السقيم أصلاً في طريقهم.. فيكون بدء سقوطه في الهاوية.. مناسبة طارئة.. أو معرفة عابرة..

ويساعد على الخراب السلوكي.. دائماً وكعامل هام.. حنان الأم في غير محله.. والأداة البسيطة تكون.. وتبقى.. مدار الانحراف المتصل..

ويحكى أنه كانت هناك منذ ربع قرن صداقة قوية ربطت أواصر الولاء والحب بين كل من هلال وصالح.. زميليْ دراسة بفصل واحد.. من مدرسة واحدة.. وقد اعتاد كل منهما في كل ليلة.. أن يكون في بيته.. قبل غروب الشمس.. عادة درج عليها الصبيان والشباب في الأجيال الماضية.. وإلى عهد غير بعيد.. لا ينحرفون عنها.. ولا يتهاون أولياء أمورهم في الإصرار على المواظبة عليها.

ومرت الأيام والشهور والأعوام.. وهما كذلك.. حتى تعارفا ببعض الشباب بمناسبة مدرسية عامة.. ولم يمض على هذا التعارف حين من الوقت حتى دعاهما إلى حفلة سمر.. فيها سماع.. وائتناس.. ومتاع..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١٣هـ ـ ١٩٦٧/١٢/١٤م.

فأما صالح فقد رفض الدعوة إطلاقاً.. وأما هلال فقد أغرته أخيلة اليفاعة.. ورؤى المتعة في ألوان جديدة من حياة جديدة فاستجاب للدعوة.. وذهب إلى تلك السهرة..

وكان أبوه صاحب متجر لا يتأخر أبداً عن الحضور لداره بعد صلاة العشاء جماعة في المسجد.. ولما وصل البيت ولم يجد ابنه فيه كالعادة.. بقي هو وزوجته والدة هلال قلقين كل القلق على ابنهما.. يذهب بهما الحب والخيال والفزع كل مذهب.. خشية حدوث مكروه له.. ولهذا فما إن عاد هلال بعد مضي جزء من الليل حتى انهار عليه والده لأول مرة شتماً وتقريعاً.. فضرباً مبرحاً وضع فيه كل آثار مخاوفه السابقة عليه.. وزلزلته.. وحرق دمه وأعصابه في انتظاره.. وقامت الأم بدور الشفيع.. والحامي..

وفي اليوم التالي.. ومع الأيام بدأت الجفوة تأخذ طريقها بين صديقي العمر هلال الذي يؤمن بأنه لا بد للشاب من معرفة الحياة الجديدة.. والتعامل مع الجوانب السرية والسردابية منها.. وصالح الذي أصر على أن في طلب هذه المعرفة.. وذلك التعامل.. بدء الانهيار.. وإن من الخير لصاحبه أن يبتعد عن قرناء السوء.. ونصحه.. بما يستشهد به تقليدياً في هذا الباب.. مثل:

عن المرء لا تسأل.. وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ومثل: قل لي من صاحبك.. أقل لك من أنت؟.. وهكذا افترقا..

وتكررت الدعوات لهلال ـ فالسهرات.. وساقه الإغراء وضعف المقاومة إلى قبولها.. فالمواظبة عليها.. وحينذاك لم يجد بداً من اللجوء لوالدته يرجوها ويتوسل إليها تيسير الخروج والعودة دون علم الأب..

فهداها حنانها الأعمى إلى المشاركة في ترتيب وتدبير الخطة.. فقد أعطته مفتاح الباب الخارجي للبيت.. وأوصته أن يحضر قبل المغرب في ميعاده حتى إذا أوى أبوه إلى فراشه.. وهو إلى غرفته.. تسلل ثانية منها للخارج.. وسمر.. ثم عاد على خفة وهدوء ففتح الباب.

وسارت الخطة سيرتها.. وبقي المفتاح الخارجي مع هلال.. وسرى الفساد في دمه.. وأدمن الانحراف.. ومات أبوه.. واستلم المتجر. فنقل السمر علانية إلى الدار حيث يقيم هو وأمه.. وأفنى في سهراته الحمراء والسوداء ما خلفه أبوه.. بين دموع والدته.. دعاء عليه مرة.. ودعاء له مرات..

ومالت رقاب الأيام.. ودارت طواحين الهواء.. أياماً.. فشهوراً.. فأعواماً.. فإذا هلال في نهاية المطاف يصبح سائق سيارة.. ثم عاملاً في محطة بنزين..

ومنذ شهرين مر صالح الصديق القديم بالمحطة ليملأ خزان سيارته الخاصة بنزيناً فإذا هو أمام زميل الصبا.. ورفيق الشباب.. فما إن رآه حتى تحرك الماضي.. كعقارب الساعة ثم وقف حيث تقابلا وجهاً لوجه.. وتعانقا.. وتحادثا.. ثم اتفقا على أن يعمل هلال سائقاً خاصاً لدى صالح على شرط واحد. هو:

ألا يكون لبيت هلال إلا مفتاح واحد.. لا ينام إلا بعد وضعه تحت الوسادة. تحت رأسه.. وذلك بعد أن يتمم ليلياً على وجود ابنه الطالب بالإعدادية محمد هلال.. بالدار..

وركبا سوية أحدهما أمام الدريكسون وثانيهما بجواره.. وهما يتذكران ويضحكان..

❊ ❊ ❊

ـ ١٣ ـ

لقد تذكرت وأنا أهم الآن بسرد حكاية قصيرة تعطي المثال عن الغفلة والمغفلين.. نادرة واقعية حدثت في أول رحلة قديمة لنا إلى مصر في أعقاب الحرب العالمية الثانية.. وكنا أصدقاء ثلاثة من شباب هذا البلد.. في ذلك الوقت.. وصادفنا في شارع فؤاد أحد المواطنين وكان مثلنا يزور القاهرة لأول مرة، في حياته.

وأود أن أقرر قبل ذكرها أنه كان شاباً من أبناء البيوتات القديمة.. ثرياً.. أنيقاً.. لطيف المعشر.. صافي السريرة نقي القلب.. إلا أنه مع الأسف الشديد أمي العقل والفكر عاش في بلده لا يعرف إلا الخروج من باب الدار لباب المدرسة.. ليعود إليه كما ذهب منه وكما رجع منها ـ أبيض الذاكرة مقفل الذهن.. بكر البصيرة لم يفتضها علم.. أو يثبتها فهم..

الخلاصة أنه سلم علينا بحكم قرابته البعيدة لأحدنا.. وأنه من بلدنا.. ولما عرف أننا سندخل أحد المعارض الكبيرة لشراء حاجيات تلزمنا أبدى الرغبة في صحبتنا.. وحين وصلنا.. ودخلنا المعرض

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١٥هـ ـ ١٩٦٧/١٢/١٦م.

الكبير.. رأى دمية تمثل فتاة عليها بعض الأزياء النسائية للعرض.. كموديل غير بشري لها.. فأبى سلمه الله.. إلا أن يتمسك بالسنّة المباركة في إفشاء السلام.. فسلم عليها باعتبارها إحدى بنات آدم وأخواتنا في البشرية.. وطبعاً لم يظفر منها بجواب.. فبان على وجهه الضيق.. ولما سألته ماذا به.. وما دهاه؟ قال: تصور الأخلاق هنا.. لقد سلمت على هذه.. وأشار إلى الموديل ولكنها لم تتنازل لرد السلام علي.. فقرصته في كتفه.. ووشوشته.. قائلاً له.. إنها امتنعت عن ذلك لوجود محرم بجانبها.. وأشرت إلى موديل بجانبها.. يمثل شاباً عليه بعض الملابس.. لعرضها كأزياء حديثة للرجال..

ولقد تداولنا الرواية فيما بعد بيننا باعتبارها مثلاً محسوساً.. وبرهاناً مادياً على صدق بعض النوادر القديمة جداً.. والمبثوثة في بعض الكتب التي ربما حين يقرأها أحدنا يستنكر المبالغة فيها.. وعدم جواز ورودها عن أنماط من الناس اختلطت لديهم البلادة الذهنية.. باهتزاز الذاكرة.. بالتسريح.. رغم الطيبة.. وسلامة النية..

فمثلاً.. كان أحدهم قائماً يصلي.. فأخذ قوم بجواره في المسجد يصفونه بالصلاح وبالتقوى.. فقطع الصلاة.. وقال: وأنا مع هذا صائم اليوم..

ومنهم.. من دعا.. فقال اللّهم اغفر لي.. ولأمي ولأختي، ولامرأتي.. فقيل له.. لم تركت ذكر أبيك.. فقال: لأنه مات وأنا صبي لم أدركه.

ومنهم.. من جاء إليه جماعة يسألونه المساعدة في كفن جار له مات.. فقال.. ما عندي الآن شيء.. ولكن تعالوا في يوم آخر فربما

تيسر عندي شيء مما تطلبونه.. فقالوا له:

فهل نملحه.. إلى أن يتيسر عندك شيء؟..

وعلى ما سلف ذكره..

يحكى أن مغفلاً كان يسوق عشرة حمير.. فركب واحداً منها وعدها.. فإذا هي تسعة حمير.. ونزل فعدها فوجدها عشرة حمير.. فركب وعاود الكرة.. فوجدها حسب حسابه.. تسعة حمير.. حتى إذا نزل أخيراً وعدها فإذا هي عشرة حمير.. بالتمام وبالكمال.

فقال: لا.. الأحسن لي أن أمشي على قدمي وأربح حماراً.. خير كثيراً من أن أركب وأخسر حماراً..

وهكذا.. قطع المسافة على قدميه حتى بلغ قريته متعباً.. محموماً.. مشرفاً على الهلاك..!!

* * *

ـ ١٤ ـ

ووصلاً لما سبق عن الغفلة والمغفلين.. مزيجاً مركباً مختلطاً بعضه ببعض.. من البلاد، والكسل العقلي.. والراحة الذهنية لا يجهد صاحبها في تنشيط مراكز الإدراك واللمح واستحضار البديهة.. أو قد يكون كل ذلك من الناحية الفسيولوجية.. مرضاً مادياً.. أو شيئاً متصلاً ببعض العقد والإصابات العضوية المجهولة منا.. والمعلومة في دنيا الطب..

ومن الإصابات الخفيفة في هذا الأمر أو التسريح.. كما نقول ما يروى من أنه.. سأل رجل رجلاً.. كم اليوم في هذا الشهر؟.. فنظر إليه.. ثم قال: والله لست من أهل هذه المدينة.. فاسأل أحداً من أهلها ـ فإني غريب هنا!.. ويحكى.. أنه تسور أحد اللصوص.. وكان مغفلاً.. روزنة أحد الدور.. والروزنة هي ما نسميه المنور.. فوجد رجلاً وزوجته يتحاوران.. وكان الزوج والزوجة قد أحسا بوجود اللص في المنور.. فسمع الزوجة تسأل زوجها.. وهي تقول له.. أقسمت عليك يا زوجي العزيز إلا شرحت لي كيفية اكتسابك هذا المال الوفير الذي نتمتع وننعم به وأنت الآن في مثل صنعتك البسيطة هذه لا تدر

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١٦هـ ـ ١٩٦٧/١٢/١٧م.

عليك كسباً وفيراً أو ربحاً معقولاً.. فأجابها زوجها سوف أفشي لك سراً عشت حياتي أحمله وحدي في صدري.. فإن الأسرار الخطيرة ينبغي ألا تذاع.. وألا يعلم بها إلا صاحبها.. وإنها أول مرة في حياتي أكشف فيها هذا السر الخطير.. قالت ـ ها.. نعم ـ قله ولا تخف على من أذعته بإفشائه لأحد.. قال: اعلمي أنني كنت يا زوجتي العزيزة فيما مضى من أيام حياتي لصاً.. وكانت لي طريقتي الخاصة التي آمن بها ومعها ألا أضبط.. وألا يعلم بي أحد كائناً من كان.. قالت وما هي طريقتك الخاصة هذه.. قال: كنت إذا تسورت روزنة بيت.. صبرت هناك إلى أن يطلع القمر.. فإذا طلع القمر وامتدت خيوط أنواره عانقت الضوء الذي في الروزنة وتدليت بدون حبل لأنني كنت أقول وأكرر ثلاثاً من البداية هذه الكلمة:

شولم!.. شولم!.. شولم!..

فأنزل إلى الأرض سليماً.. وآخذ جميع ما في البيت بحيث لا تبقى ذخيرة ولا مجوهرات ولا نفيسة من النفائس إلا وتظهر نفسها لي.. وبعد أن ألمّ الجميع مما خف حمله وغلا ثمنه أكرر ثانية.. كلمتي السحرية:

شولم!.. شولم!.. شولم!..

أقولها ثلاثاً.. وأنا صاعد بواسطة أضواء القمر وخيوطها السحرية.. فأحصل على ما أريد.. ولا ينتبه لي أحد من أهل البيت وأذهب بلا تعب.. وبلا ضجة .. أو كلفة..

جرى هذا الحديث بين الرجل وزوجته بصوت مسموع.. وكان اللص المغفل في وسط المنور يصغي بانتباه إلى ما يقولانه.. وهو معجب

بتعاليم أستاذ السرقة القديم زوج المرأة.. فصبر حيث هو بالروزنة إلى أن طلع القمر ونام أهل البيت.. فنادى: شولم.. شولم.. شولم!! ثم تعلق بضوء القمر.. فوقع على الأرض.. وتكسرت أضلاعه.. فقام إليه صاحب البيت وزوجته وقبضا عليه.. وسلماه إلى الشرطة.

* * *

ـ ١٥ ـ

اشتهرت بعض الحيوانات الأليفة ببعض الخلال النادرة المفتقدة.. ومن زمن ما عرف عن وفاء الكلب لصاحبه صفة ممتازة لاصقة به.. حتى لقد ضرب المثل بها كقولهم أوفى من الكلب لسيده.. وكقول الشاعر ابن الرومي يخاطب ممدوحه.. بصدر بيته المعروف.

أنت كالكلب في الوفاء!

وعناية العرب بكلاب الحراسة.. وبكلاب الصيد حفلت بها المسير.. واستفاض بها التاريخ.. استئناساً وألفة تشرق بهما العلاقة معنى إنسانياً.. حيوانياً رائع الصفحات عميق الأثر والمغزى..

ويحكى أن بعض الكتّاب الرحالين مر بمقبرة.. فإذا قبر مكتوب عليه.. هذا قبر الكلب، فمن أحب أن يعلم خبره فليمض إلى قرية كذا.. وكذا.. فإن فيها من يخبره.. فسأل الرجل عن القرية فدلوه عليها.. فقصدها.. فقيل له ما يعلم ذلك إلا شيخ هنا قد جاوز المائة سنة.. فسأله.. فقال: كان هنا والٍ عظيم الشأن.. وكان يحب التنزه والصبر.. وكان له كلب قد رثاه لا يفارقه أبداً..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١٧هـ ـ ١٩٦٧/١٢/١٨م.

وخرج الوالي يوماً إلى بعض منتزهاته وقال لبعض غلمانه.. قل للطباخ يصلح لنا ثريدة بلبن.. فجاؤوا باللبن إلى الطباخ.. وقد نسي أن يغطيه بشيء.. واشتغل بالطبخ.. فخرجت من بعض الشقوق أفعى فكرعت في ذلك اللبن ومجته في الثريدة.. هذا.. والكلب رابض يرى ذلك ولكنه لم يجد له حيلة يصل بها إلى الأفعى.. وكانت هناك.. كذلك.. جارية زمنية خرساء قد رأت أيضاً ما صنعته الأفعى!..

ووافى الوالي من الصيد آخر النهار.. فقال: يا غلمان أدركوني بالثريدة.. فلما وضعت بين يديه أومأت الجارية الخرساء فلم يفهم ما تقول.. ونبح الكلب.. وصاح.. فلم يلتفت إليه.. ولكن الكلب بح في الصياح والنباح.. فلم يعلم مراده.. بل قال صاحبه الوالي للغلمان.. نحوه عني.. ومد يده إلى اللبن بعدما رمى إلى الكلب ما كان يرمي إليه عادة.. فلم يلتفت الكلب إلى شيء من ذلك.. ولم يلتفت إلى غير سيده.. فلما رآه يريد أن يضع اللقمة من اللبن في فمه.. وثب الكلب إلى وسط المائدة وأدخل فمه.. وكرع في اللبن.. فسقط ميتاً وتناثر لحمه.. وبقي سيده متعجباً من الكلب ومن فعله.. فأومأت الخرساء إليهم.. فعرفوا حينذاك مرادها.. وفهموا صنيع الكلب.. ومقدار تضحيته النبيلة..

حينذاك.. قال سيده لحاشيته.. هذا الكلب فداني بنفسه وقد وجب أن أكافئه بنفسي.. فما يحمله ويدفنه غيري.. أنا..

فدفنه.. ها هنا.. ووضع تذكار التقدير الذي تراه.. ويراه سواك!

* * *

ـ ١٦ ـ

.. للفكاهة لدى العرب أسوة بسواهم من الأمم تاريخها المروي مبعثراً بين الكتب وأمهاتها في روايات شتى.. ولقد ضحكوا ـ كغيرهم.. من فكهين هواة ـ أو محترفين وجدوا بالطبيعة للترفيه بعد عناء أعمال.. وفي أعقاب مهام ومشاكل..

ومجالس الخلفاء وأخبارها تحفل بهذه الطائفة.. بل لقد ظهروا في المجتمع العربي الإسلامي في وقت مبكر.. فقد ورد خبر نعيمان المزاح الذي أضحك النبي ﷺ والصحابة وكان من البدريين.. ومنهم أبو علقمة وقد أضحك الناس بتقعره اللغوي، فإنه كان يستعمل لغة غريبة على أسماع الناس.. وأبو العير الذي يمثل إلى حد كبير فئة من المكتسبين بفكاهتهم وبحمقهم.. وكذلك أبو العيناء المشهور بسرعة خاطره وحسن جوابه ولطافة معشره.

ومن المشاهير في هذا الباب أبو دلامة.. زند بن الجون.. وهو كوفي أسود مولى لبني أسد.. كان أبوه عبداً لرجل منهم فأعتقه.. وأدرك آخر أيام بني أمية.. ولكنه في أيام بني العباس.. فقد مدح أبا جعفر

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١٨هـ ـ ١٩٦٧/١٢/١٩م.

المنصور ذاكراً قتله أبا مسلم الخراساني بقصيدة منها هذان البيتان:

أبا مسلم.. خوفتني القتل.. فانتحى
عليك بما خوفتني الأسد الورد
أبا مسلم.. ما غير اللّه نعمة
على عبده.. حتى يغيرها العبد!

ومن أخباره.. أنه دخل على المهدي وهو يبكي فقال له.. ما لك؟.. أجاب: ماتت أم دلامة!.

وأنشد لنفسه رثاء فيها:

وكنا كزوج من قطا في مفازه لدى خفض عيش ناعم مونق رغد
فأفردني ريب الزمان بصرفه ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد

فأمر له بثياب وطيب ودنانير.. وكان ذلك في نفس الوقت الذي دخلت فيه أم دلامة على الخيزران فأعلمتها أن أبا دلامة قد مات.. فأعطتها مثل ذلك.. وخرجت..

فلما التقى المهدي والخيزران عرفا حيلة الزوج والزوجة.. وجعلا يضحكان لذلك ويعجبان..

ولتمثيل حسن التخلص من مأزق حرج.. وبديهة الملكة الساخرة تقتص من نفسها حين يصعب عليها النيل من غير ذاتها يُحْكَى الآتي:

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن محمد.. وموسى بن عيسى.. والعباس بن محمد.. ومحمد بن إبراهيم الإمام.. وجماعة من بني هاشم.. فقال له أنا أعطي الله عهداً لئن لم تهج واحداً ممن في

البيت لأقطعن لسانك.. فنظر الجالسون إلى أبي دلامة.. فكان كلما بادل واحداً منهم النظر غمزه بعينه بأن عليه رضاه.. إن تجاوزه لسواه..

قال أبو دلامة.. فعلمت أني قد وقعت وأنها عزمة من عزمات المهدي لا بد منها.. فلم أر أحداً أحق بالهجاء مني ـ ولا داعي للسلامة من هجاء نفسي باعتباري واحداً ممن في البيت.. كما قال.. فقلت:

ألا أبلغ إليك أبا دلامة ... فليس من الكرام.. ولا كرامة
إذا لبس العمامة؛. كان قرداً ... وخنزيراً.. إذا نزع العمامة
جمعت دمامة.. وجمعت لؤماً ... كذاك اللؤم تتبعه الدمامة
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا ... فلا تفرح.. فقد دنت القيامة!؟

فضحك القوم.. ولم يبق أحد منهم إلا أجازه.. وقد تخلص هو من مطب عميق الهوة!

* * *

ـ ١٧ ـ

.. ومن غير البيئة العربية نلاحق.. في بساطة تامة.. الفكرة رمزاً.. والهدف إيحاء.. والخيال ضرباً من الاستحالة ننساق لتقبلها.. توصلاً إلى الغرض.. وختاماً للنهاية غير المرفوضة.

يحكى أن إحدى المدن الألمانية البائدة في عهد موغل في القدم عاشت تعاني مشكلتها الكبرى لا يشغل بال سكانها سواها.. ذلك أن بها من الفئران ما لا يعد ولا يحصى.. كميات آخذة دائماً في الزيادة.. وكيفيات متعددة متنوعة بالفأر الأبيض والأسود والضئيل والجسيم والطويل والقصيرة والأنثى والذكر وما بينهما والمسالم والمشاكس إلى آخر الأنواع والأصناف..

ولقد تسببت كثرة الفئران في جعل سكان المدينة لا يهنأون بطعام أو بشراب.. ولا بجلوس أو بنوم.. أو بأي نوع من أنواع الراحة وهدوء البال.. وحين أصبحت حياتهم جحيماً فأرياً لا يطاق تجمهروا أمام دار العمدة طالبين منه أن يجمع أعضاء مجلس المدينة ليتدبروا الأمر للوصول لحل يريح المدينة وأهلها من عناء وإرهاق الفئران المشاركين لهم في حياتهم.. أو أن يعتزلوا مناصبهم لتختار البلدة عمدة جديداً وأعضاء مجلس جدداً سواهم.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/١٩هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٢٠م.

وعلى ذلك.. دعا العمدة الأعضاء وعقدوا مجلساً فوق العادة.. وبدأت الاقتراحات تتوالى.. فمن قائل لا بد من إيجاد مصائد كبيرة وحديثة.. ومن قائل لا بد من الحصول على نوع من السموم الفتّاكة. ومن قائل.. ينبغي تجنيد فرقة من الأهالي تخصص لمطاردة الفئران وقتلها بكل مكان.. وبينما العمدة يستعرض الآراء ويقدح زناد الفكر إذ طلب الإذن منه للمقابلة شخص غريب عن البلدة.. غريب في زيه وفي أطواره.. وحينما قابله واستنكر زيه عرف أنه زمار. وأنه سمع عن المشكلة الفأرية الكبرى.. وأنه على استعداد تام لتخليص المدينة وأهلها من فئرانها دفعة واحدة وبأقصر وقت وأسرع وسيلة.. ولكنه يطلب مقابل ذلك خمسمائة قطعة ذهبية من عملة البلدة.. فابتدأ العمدة المساومة من خمسين فما فوق.. والزمار مصر على الرقم الذي فرضه وحينذاك فكر العمدة في استحالة الإبادة السريعة وليست لدى الزمار أية آلة سوى مزماره.. فوافق على المبلغ.. وأعطى كلمته للزمار بتسليمه إياه حال إنهاء مهمته بالقضاء على الفئران كافة.

وعاد العمدة إلى المجلس المنعقد.. وخرج الزمار ينفخ في مزماره بنغمات خاصة.. ما راع الناس من تأثيرها إلا رؤيتهم للفئران تنصب من كل بيت وشارع وزقاق.. وكل جحر وركن وشق.. تنتظم جماعات وراء جماعات خلف الزمار الذي استمر ينفخ في مزماره بتلك النغمات الخاصة.. والقوافل الفئرانية بكل أشكالها وبجميع أصنافها وراءه.. حتى وصل إلى البحر وخاضه فعلاً.. فدخلته الفئران وراءه.. لتغرق آحاداً ومئات وآلافاً.. حتى لم يبق منها فأر واحد.

وبذلك أخذ السكان رجالاً ونساء وأطفالاً في الاحتفال بخلاصهم من

مشكلتهم الكبيرة أروع احتفال.. ولكن حينما أتى الزمار إلى العمدة مطالباً بالخمسمائة قطعة ذهبية المتفق عليها أصر العمدة على دفع الخمسين فقط ولم يبال بتهديدات الزمار ولا بوعيده.. عائداً ثانية إلى المجلس المنعقد.. إلا أنه لم يكد يستقر به الجلوس حتى سمع نغمات جديدة من الزمار وقد انساب الأطفال من بنات وبنين وراءه يدقون الأرض بأقدامهم الصغيرة ويتابعون الأنغام بصفيرهم حتى تجاوز الزمار وجميع أطفال المدينة من ورائه حدود البلدة وأوغلوا في الخلاء.. هذا والعمدة يطمئن الأهالي على أطفالهم وأنهم سوف يعودون حتماً!

ولكن ما كان أشد هلع الناس وحزنهم حين غاب الزمار ووراءه كل أطفالهم بين جبل انشق من وسطه.. ثم عاد كما كان.. حيث كوّن هؤلاء الأطفال بعيداً.. بعيداً.. مدينة جديدة حديثة.. يسكنها جيل جديد.. لا صلة بينه وبين أهله في مدينتهم القديمة بكل ما فيها.. من ناس.. وعادات.. ومجالس.. وفئران.

* * *

ـ ١٨ ـ

وكانت للشعر في المجتمع العربي صيرورة وانتشار تولدت عنهما حيثية أدبية يستغلها ذو الجاه أو الشأن.. دعاية تطير بها شهرته ويثبت بها مركزه بين الناس.. أو يستعملها سلاحاً يشهره على أعدائه ومنافسيه ينتصر به عليهم بمقدار ما يؤثر ذلك في أقدارهم..

كما كان الشاعر العربي القديم يشعر في نفسه لنفسه بما يعود عليه.. ويجديه من شعره يعيش به بعضهم للتكسب وللارتزاق.. بينما يصعد به بعضهم.. نباهة قدر.. وذيوع صيت..

ويحتل الشعر فيما كان عليه إلى حد ما مكان الصحافة في دور من أدوارها الماضية.. رواية وصيرورة.. حل فيها حينذاك الصحفيون مكان أولئك الشعراء.. مراقي ومهابط مختلفة بالطبع!

ومثالنا اليوم على ما سلف ـ أعشى همدان ـ واسمه عبد الرحمن ابن عبد الله بن الحارث.. ويكنى المصبح.. وهو شاعر كوفي فصيح.. وكان في صدر حياته أحد القرّاء للقرآن.. ولما كان عديلاً للشعبي عامر بن شراحيل زوج أخت زوجته فقد أتاه يوماً وقال له.. إنني رأيت كأني أدخلت بيتاً فيه حنطة وشعير.. وقيل لي..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٢٠هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٢١م.

خذ أيهما شئت.. فأخذت الشعير، فقال: إن صدقت رؤياك.. تركت القرآن وقراءته.. وقلت الشعر فكان ما قال..

وكانت نهايته أنه خرج مع ابن الأشعث فأتى به إلى الحجاج أسيراً في الأسرى.. فقتله صبراً.. وهو موضوعنا في أثر الشعر حينذاك ذاتياً لقائله.. وتأثيراً في سواه..

ويحكى ـ أن شجرة بن سليمان القبسي كان والياً من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي على بعض أعمال السواد.. وكان شجرة خياطاً في بدء حياته العملية..

وصادف أن عرضت لأعشى همدان حاجة فأتى إلى شجرة وسأله أن يعينه على قضاء حاجته هذه.. فردّه عنها ولم يستجب لطلبه ـ ولا لرجاله في قضائها.. فقال الأعشى يهجوه.. معيراً إياه بما فيه جرياً على العادة آنذاك.. باحتقار الصانع:

لقد كنت خياطاً.. فأصبحت فارساً تعد.. إذا عد الفوارس من مضر
فإن كنت قد أنكرت هذا.. فقل كذا وبين لي الجرح الذي كان قد دثر
وإصبعك الوسطى عليه شهيدة وما ذاك إلا وخزها الثوب بالإبر!

ومرت فترة من الزمن.. حتى إذا قدم شجرة على الحجاج ذات يوم لاستلام عطائه قال له الحجاج.. أرني إصبعك لأنظر إليها.. فقال شجرة أصلح الله الأمير. وما تصنع بها؟ قال أنظر إلى صفة الأعشى ووصفه إياها.. فخجل شجرة.. فقال الحجاج لحاجبه.. من المعطى أن يعطى الأعشى من عطاء شجرة كذا.. وكذا.. ثم التفت إليه وقال:

يا شجرة.. إذا أتاك امرؤ ذو حسب ولسان.. فاستر عرضك منه!

***

ـ ١٩ ـ

وغاب عن سمرنا ذات ليلة أحد أفراده.. فسألنا عنه.. فقيل لنا إنه مسجون.. لأنه.. وكان من ذوي المروءة.. ضمن شخصاً لا تستطيع أن تسميه رجلاً فإنه لم يرع للضامن حق ضمانه فتسبب في سجن زميل سهرتنا لأداء ما على ذلك الشخص التافه يتسكع على الناس ليضمنوه وهو مقرر في نفسه ألا يفي بما عليه.. وأن جهده أن يجد كبش الفداء يزج به في محله..

وأثارت الحادثة الموضوع.. والرأي فيه.. وهو هل يتأخر أصحاب المروءات عن الضمان يسبب سجناً؟ أو عن الشهادة تؤدي إلى حرج وتعطيل؟ أو عن التوسط في قضية تروى من صاحبها كطرف بغير حقيقتها الكاملة لدى الطرف الآخر؟.. إلى آخر ما تقضي به التزامات المجتمع بين الناس.. تسبب أنانية البعض بعدم الثقة فيهم أو في رواياتهم سقوط الواجبات.. والخوف من التورط في نجدة.. أو في فك ضيق..

وعند ذلك.. تنحنح شيخ الجماعة قائلاً.. لست أدري هل بدل الله الناس غير الناس.. والعادات غير العادات.. والطبائع غير الطبائع.. والرجال غير الرجال تبديلاً كاملاً تاماً بغير ما كان عليه من كان؟..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٢٢هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٢٣م.

قلنا.. وكيف كان من كانوا؟.. قال لقد كان السلف يضمنون حتى على ما يوجب القتل فيوفون حيث يجدون الرجل يقدّر بأخلاقه ورجولته ما يفرضه عليه رد الجميل بمثله.. أو بأحسن منه مما لا يكاد يصدق الآن.

قلنا.. وما لديك في ذلك.. فأطرق هنيهة ثم قال:

يحكى أن النعمان بن المنذر جعل لنفسه يومين.. يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه.. ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه.. وكان رجل من طيء قد رماه حادث الدهر بسهام فاقته وفقره فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئاً لصبيته ولصغاره.. فبينما الطائي في سبيل غايته إذ صادفه النعمان في يوم بؤسه.. فلما رأى الطائي النعمان وعرف أن هذا هو يوم بؤسه وأنه مقتول لا محالة وأن دمه مكلول.. قال حيا الله الملك أن لي صبية صغاراً وأهلاً جياعاً وقد أرقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم وقد أقدمني سوء الحظ فصادفتك في يوم بؤسك وأنا في طريقي إليهم فإنهم قريب من هنا وأنهم على شفا تلف من الطوى ولن يتفاوت الحال في قتلي بين أول النهار وآخره.. فإن رأيت أن تأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت وأوصي بهم أهل المروءة من الحي لئلا يهلكوا ضياعاً ثم أعود إليك وأسلم نفسي.

فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رقّ له ورثى.. غير أنه قال له.. لا آذن لك حتى يضمنك رجل منا.. فإن لم ترجع أنت قتلناه.. وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه.. فالتفت الطائي إلى شريك.. وقال له:

يا شريك بن عدي ما من الموت انهزام

من لأطفال ضعاف عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار وافتقار.. وسقام
يا أخا كل كريم أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جد لي بضمان.. والتزام
ولك الله بأني راجع.. قبل الظلام

فقال شريك بن عدي أصلح الله الملك.. على ضمانه.. فمر الطائي مسرعاً.. وصار النعمان يقول لشريك إن صدر النهار قد ولى ولم يرجع الطائي.. وشريك يقول ليس للملك على سبيل حتى يأتي المساء.. فلما قرب المساء قال النعمان لشريك.. قد جاء وقتك.. قم فتأهب للقتل.. فقال شريك.. هذا شخص قد لاح مقبلاً.. وأرجو أن يكون هو الطائي.. فإن لم يكن.. فأمر الملك ممتثل..

قال.. فبينما هم كذلك وإذا بالطائي قد اشتد عدوه في سيره.. مسرعاً حتى وصل.. وقال خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي.. ثم وقف قائماً وقال.. أيها الملك مر بأمرك..

فأطرق النعمان.. ثم رفع رأسه وقال.. والله ما رأيت أعجب منكما.. أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً يقوم فيه.. ولا ذكراً يفتخر به.. وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء.. فلا أكون أنا ألأم الثلاثة..

ألا وأني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس.. ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي ولكرم شريك.. فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فعددت قولهمو من الإضلال
إني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضال!

فقال له النعمان.. ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك.. فقال:

ديني!.. فمن لا وفاء له.. لا دين له..

فأحسن إليه النعمان.. ووصله بما أغناه.. وأعاده مكرماً إلى أهله.. وأناله ما تمناه!..

* * *

ـ ٢٠ ـ

.. وعلى منوال.. وبضدها تتميز الأشياء.. واستنفاراً للسماح عطاء وجوداً.. عن هذا السبيل.. فإن في الحديث عن البخل وإبرازه تنفيراً ضمنياً منه.

وفي الخط الكبير المقابل للآية الكريمة في البر.. لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون.. فقد قال الله تعالى.. ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ (النساء: ٣٧)..

وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه.. إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم.. ويذكر عن أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز قولها إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته.. أو كان طريقاً ما سلكته..

وقيل.. بخلاء العرب أربعة: الحطيئة.. وحميد الأرقط.. وأبو الأسود الدؤلي.. وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة فمر به إنسان وهو على باب داره وبيده عصا فقال.. أنا ضيف فأشار الحطيئة للعصا وقال.. لكعاب الضيفان أعددتها..

وأما حميد الأرقط.. فكان هجاء للضيفان مخاشا عليهم.. ونزل به

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٢٣هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٢٤م.

مرة أضياف فأطعمهم.. وهجاهم.. وذكر أنهم أكلوه.. بنواه..

وأما أبو الأسود.. فتصدق على سائل بتمرة.. فقال له جعل الله نصيبك من الجنة مثلها.. وكان يقول.. لو أطعمنا المساكين من أموالنا كنا أسوأ منهم حالاً..

وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه.. يا عيار.. كم تعير.. وكم تطوف.. وتطير لأطيلن حبسك.. ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه.. وقيل له لم لا تنفق ومالك عريض.. فقال الدهر أعرض منه..

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً جداً.. أصابه القولنج في بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في الطست.. فقال لغلامه اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة وأسرج به المصباح..

وقال بعضهم في بخيل:

لو عبر البحر بأمواجه ... في ليلة مظلمة باردة
وكفه مملوءة خردلا ... ما سقطت من كفه واحدة!

وقال آخر في بخيل آخر:

يا قائماً في داره قاعداً ... من غير معنى.. لا، ولا فائدة
قد مات أضيافك من جوعهم ... فاقرأ عليهم ـ سورة المائدة

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو.. ويقال إن من عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعوا اللحم كله في قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى جرّ كل منهم

خيطه.. وأكل لحمه.. وتقاسما المرق بالسوية.. وبالعدل في التقسيم..

وحكى خاقان بن صبح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً.. فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة وقد علّق فيها عوداً بخيط.. فقلت له.. ما بال هذا العود مربوطاً؟ قال.. قد شرب الدهن وتروى منه.. وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عوداً عطشاناً.. ونخشى أن يشرب الدهن.

قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود وقال.. يا فلان لقد فررت من شيء ووقعت فيما هو شر منه.. أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء؟ فهما ينشفان بالطبع هذا العود.. لم يا صاحبي لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف.. والعود أيضاً ربما تتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقعها..

فقال له الرجل الخراساني.. أرشدك الله.. ونفع بك.. فلقد كنت يا أخي.. في استعمال العود بدل الإبرة الحديد.. من المسرفين..!!

* * *

ـ ٢١ ـ

بالرغم من أن الجبان لا يمكن أن يكون شجاعاً في الواقع.. إلا أنه مغرم الغرام كله.. بحكم مركب النقص.. بالتظاهر بالشجاعة والإنصاف بها.. وقصر حديثه عنها.. وعن أفعال الجرأة ورواية الحوادث الجسام التي تثبت خيالاً شجاعته فيها.. حتى يؤكد لسامعيه أبداً أنه من الشجعان حقيقة يعيشها بين الرواية.. والخيال.. والكذب..

ولذلك.. فلن تجد جباناً إلا وهو كاذب.. لأن استلاف صفة ليست له تتطلب منه.. والحالة كذلك.. الاختلاف.. والاختراع.. والكذب المساعد نفسياً على توهم وجودها فيه..

ومثلنا اليوم على ذلك أبو حية النميري.. وهو شاعر مجيد مقدم من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.. وقد مدح الخلفاء فيهما.. وكان فصيحاً مقصداً.. راجزاً.. كما كان أهوج جباناً بخيلاً كذاباً معروفاً بذلك أجمع..

.. حدث يوماً.. أنه يخرج إلى الصحراء فيدعو الغربان فتقع حوله.. فيأخذ منها ما شاء.. فقيل له: يا أبا حية أرأيت إن أخرجناك إلى الصحراء فدعوتها فلم تأتك.. فما نصنع بك؟ قال.. إذاً فقد أبعدها

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٢٤هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٢٥م.

الله عنا وعنكم.. فأراحنا وأراحها..

وروى مرة.. قائلاً.. عن لي ظبي يوماً فرميته.. فراغ عن سهمي فعارضه السهم.. ثم راغ فعارضه السهم.. فما زال.. والله.. يروغ الظبي ويعارضه السهم.. حتى صرعه ببعض المقابر..

وأظرف من تلك وهذه.. أنه قال يوماً.. رميت ظبية.. فلما نفذ سهمي عن القوس.. ذكرتني الظبية بحبيبتي.. فعدوت خلف السهم حتى قبضت على قذذه قبل أن يدرك الظبية..

فهو بما مر.. أبو لمعة الأصلي.. الأول!!

وكان لأبي حية النميري سيف يسميه لعاب المنية.. وليس بينه وبين الخشبة فرق.. ويحكي جار له قائلاً:

رأيته ذات ليلة حينما شعر أن لصاً دخل بيته.. فأشرفت عليه.. وقد انتفى سيفه لعاب المنية.. وهو واقف في وسط الدار يقول:

أيها المغتر بنا.. والمجترئ علينا.. بئس والله ما اخترت لنفسك.. خير قليل.. وسيف صقيل.. لعاب المنية الذي سمعت.. مشهورة ضربته.. لا تخاف نبوته.. أخرج بالعفو عنك.. قبل أن أدخل بالعقوبة عليك.. إني والله إن أدع قيساً إليك تقم لها.. وما قيسي؟.. تملأ والله الفضاء خيلاً ورجلاً.. سبحان الله.. ما أكثرها وأطيبها..

وبينما هو كذلك مستمر في تخويفه للص، وفي تهديده إياه.. وفي استرساله في اصطناع مواقف الجرأة والشجاعة إذ خرج الطارق من مخبئه.. وعندما تبينه وجده.. كلباً.. فقال:

الحمد لله الذي نجاك مني.. حين مسخك كلباً.. وكفاني حرباً!!

* * *

ـ ٢٢ ـ

وجرى الحديث بيننا في سهرتنا ممتداً إلى الكلام عن الصداقة وأنها في مستواها الفعلي بين الأصدقاء الأخلاء مقياس صادق للرجولة.. للمروءة.. للوفاء.. وقال أحدهم.. إننا لا نراها اليوم كما كنا نراها بين ظهرانينا من قبل.. محبة.. والتزاماً.. وأداء واجبات.. وصدقاً في السر وفي العلن.. وإنما نرى قشوراً للصداقة لا لباب فيها. حتى أصبحنا لا نستغرب حين نسمع أن فلاناً صديق فلان الذي ائتمنه حين غيابه أن يكون وكيلاً عنه في عمله مشرفاً على عائلته وعلى مصالحه الخاصة والعامة قد ضربه من ورائه الضربة القاضية ربما يتورّع عن الإتيان بها عدو سافر.. وذلك كما حدث بين فلان.. وفلان!..

وأكد بعضهم.. أن دنيانا لا تزال بخير.. وأن للصداقة حرمتها. وأنه يجب ألا ينتظر في هذا العصر المادي أن تكون هناك مثالية في هذا الباب.. اكتفاء بأن يكون الصديق جليس سمر.. أو رفيق رحلة.. أو أنيس حديث مستطاب.. باعتبار كل تلك الحالات محطات استراحة شخصية.. ليس إلا!

وهنا صرخ شيخ الجماعة بأنه لا بد وأن تظل للصداقة ضرائبها

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٢٥هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٢٦م.

الإنسانية المباشرة. وبالأخص في أوقات الضيق.. فقد قالت أمثالنا: رب أخ لك لم تلده أمك.. وقال شاعرنا:

جزى اللّه الشدائد كل خير عرفت بها عدوي.. من صديقي!

وأن من مستظرفي.. بمناسبة قرب العيد.. وغيثاً من فيض.. حكاية تاريخية وردت على لسان الواقدي.. يقول:

كان لي صديقان ـ أحدهما عربي الأرومة وثانيهما نبطي الأصل.. وكنا ثلاثتنا في صداقتنا وكأنما نحن نفس واحدة فعلاً.. وكان إن قرب حلول عيد الفطر وكنت في ضائقة شديدة. فقالت امرأتي، أما أنا وأنت فنصبر على البؤس والشدة وما ترتب عليهما.. وأما صبياننا هؤلاء فقد تقطع قلبي رحمة عليهم لأنهم يرون صبيان جيراننا وقد أخذ أهلوهم لشراء الملابس الجديدة يتزينون بها في عيدهم وهم فرحون.. ولا بأس في الاحتيال فيما نصرفه في كسوتهم.. فكتبت ورقة صغيرة إلى صديقي العربي الأرومة أسأله التوسعة علي بشيء.. فوجه إليّ كيساً فيه ألف درهم.. فما استقر قراره حتى وردت إليّ رقعة من صديقي الآخر النبطي الأصل يشكو إلي فيها ما شكوته إلى صديقي عربي الأرومة. فما وسعني إلا أن وجهت إليه بالكيس على حاله.. وخرجت إلى المسجد وأنا مستح من امرأتي.. فلما دخلت عليها لم تعنفني لعلمها بالحال.

فبينما أنا كذلك إذ أقبل علي صديقي العربي الأرومة ومعه الكيس بختمه.. يقول اصدقني عما فعلته فيما وجهته إليك.. فأعلمته بالخبر. فقال إنك حين كتبت إلي لم أكن أملك إلا ما بعثت به لك.. وكتبت لصديقنا أسأله المواساة فما راعني إلا أنه وجه إلي كيسي بنفسه وبختمه كما بعثت به إليك.

حينذاك أخرجنا للمرأة مائة درهم للعيال.. وتقاسمنا الباقي أثلاثاً.. ونما الخبر إلى الوالي فأحضرني وسألني عن الخبر فشرحته له.. فأمر لنا نحن الأصدقاء الثلاثة بسبعة آلاف دينار.. فأعطينا للمرأة ألفاً لقضاء حوائج العيد الجديدة للصبيان.. ونال كل واحد منا بعد ذلك ألفين!!

❊ ❊ ❊

ـ ٢٣ ـ

أعينوا ذوي المروءات على مروءاتهم الكريمة.. وبالأخص في أوقات محنتهم.. وزمن شدتهم.. حين يعجزون عن الوفاء بعادة شريفة..

هذا مبدأ يقرِّره النبل.. ويقدره حق قدره كذلك ذوو المروءات العالية دون حض.. أو حث.. أو تذكير.. ولقد تلقفه الوليد بن عقبة وإلى الكوفة في سبيل استمرار عادة سابقة لكريم من كرام العرب وأجوادهم.. هو لبيد بن ربيعة بن مالك.. عادة استمسك بها طبيعة في النفس.. وسرياناً مع الدم.. والمزاج.

ولبيد هذا.. هو أحد شعراء الجاهلية المعدودين فيها والمخضرمين ممن أدرك الإسلام.. ويعد من أشرف الشعراء المجيدين الفرسان القرّاء والمعمرين.. يقال إنه عمر مائة وخمساً وأربعين سنة.. منها تسعون سنة في الجاهلية.. وبقيتها في الإسلام..

وكان يقال لأبيه.. ربيع المعترين.. لجوده ولسخائه ـ وعمه أبو براء ـ عامر بن مالك ملاعب الأسنة.. لقول أوس بن حجر فيه:

فلاعب أطراف الأسنة عامر فراح له خط الكتيبة أجمع

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٩/٢٦هـ ـ ١٩٦٧/١٢/٢٧م.

قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني كلاب بعد وفاة أخيه أربد وعامر بن الطفيل.. فأسلم وهاجر وحسن إسلامه.. ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.. ومات بها هناك في آخر خلافة معاوية..

أليس في مائة قد عاشها رجل وفي تكامل عشر بعدها.. عمر؟

فلما جاوزها.. قال:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس.. كيف لبيد؟

ويقال.. إنه لم يقل.. في الإسلام.. إلا بيتاً واحداً.. وهو:

الحمد للّه إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

والحكاية.. في جوهرها مثلٌ للمبدأ الطيب.. أعينوا ذوي المروءات.. وللرجل الكبير يعرف للمبدأ قيمته.. ووقته.. تقول:

كان لبيد من أجواد العرب.. وقد آلى على نفسه في الجاهلية ألا تهب صبا إلا أطعم ـ ثم كانت له جفنتان يغدو بهما ويروح كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم فهبت الصبا يوماً.. والوليد بن عقبة على الكوفة.. فصعد الوليد المنبر فخطب في الناس.. ثم قال:

.. إن أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر في الجاهلية ألا تهب صبا إلا أطعم.. وهذا يوم من أيامه.. وقد هبت صبا فأعينوه.. وأنا أول من يفعل.. وبعد أن نزل عن المنبر أرسل إليه بأبيات قالها:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه إذا هبت رياح بني عقيل
أشَمُّ الأنفِ.. أصيدُ.. عامِريٌّ طويل الباع.. كالسيف الصقيل

وفي ابن الجعفري بملفتيه على العلات والمال القليل
بنحر الكوم إذ سحبت عليه ذيول صبا تجاوب بالأصيل!

فلما بلغت أبياته لبيداً.. قال لابنته.. فلعمري لقد عشت برهة، وما أعيا بجواب شاعر.. فقالت ابنته:

إذا هبت رياح بني عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
أشم الأنف أروع عبشميا أعان على مروءته.. لبيدا
بأمثال الهضاب.. كأن ركباً عليها من بني حام.. قعودا
أبا وهب جزاك اللّه خيراً نحرناها.. فأطعمنا الثريدا
فعد.. إن الكريم له معاد وظني.. يا ابن أروى.. أن تعودا!

فقال لها أبوها.. أحسنت.. لولا أنك استطعمته.. فقالت.. إن الملوك لا يستحيا من مسألتهم.. فقال:

وأنت يا بنية.. في هذه.. أشعر!!

* * *

ـ ٢٤ ـ

.. وفي أبواب الحماقة والتغفيل ترد حكايات كثيرة تدل على أن المراتب والدرجات تتفاوت كذلك بين عقول الناس وأذهانهم تفاوتاً كبيراً جداً. ولقد كنا ونحن صغار نسمع عن طائفة معروفة من الحمالين.. في الحلقة.. وهي السوق الصباحي العام تباع فيه أصناف الخضروات.. والفواكه.. والبهائم.. وأكياس الفحم.. وقوداً أساسياً لكل البيوت آنذاك.. وقبل أن نعرف الغاز ومشتقاته حل محل الفحم في الطهي والمتمهل.. والمتعجل.. وتلك نعمة حضرية علمية من نغميات العصر.. وما سيرد بعد.. كان مروياً في حينه وليس من صنع الخيال.. أو التشنيع.

يحكى أن أحدهم ذهب يوماً إلى الحلقة واشترى كيس فحم.. ثم أشار للحامل إياه.. لنقله فسأله الحامل.. بيتك وين؟ قال.. في محلة المظلوم بجوار مسجد الشافعي.. ولم يفتح الله على الحامل أو صاحب كيس الفحم أن يتعرض أي منهما لأجرة الحمالة بشيء.. فقد اكتفى الحامل بأن أحنى قامته ومد يديه ووضع الكيس على رأسه.. وتقدم صاحبه.. وهو يمشي وراءه.. وعندما وصلا الدار وضع الحامل الكيس

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/٨هـ ـ ١٩٦٨/١/٨م.

بالدهليز.. تمهيداً لوضعه في حنية الفحم.. المخصصة له.. وهنا تذكر الحامل أنه لم يحدد أجر النقل مع صاحبه.. فالتفت إليه.. ولكن قبل أن يتفوّه بكلمة.. سارع الرجل ووضع يده في كيس جيبه وأخرج للحامل قرشين ناوله إياهما في صمت.. وبزغرة عين.. وفي تحدٍ متحفز.. مترقب.

هنالك هاج الحامل وماج.. وطالب أن يدفع له الرجل ربع ريال لا يرضى بأقل منه.. وذلك على أقل تقدير.. فأجابه صاحبه أنه طالما نقل إلى بيته من الحلقة نفسها أكياس الفحم بهذه الأجرة ذاتها.. فأصر الحامل على الربع ريال أجرة عادلة.. في الحين الذي تشبث فيه صاحب الكيس بأجرة المثل.. قرشين اثنين.. للكيس الفحم من الحلقة لمحلة المظلوم..

وهكذا.. تعالى صياح الرجلين.. وكل منهما يدافع عن وجهة نظره.. واجتمع الجيران وتحلقوا حولهما يريد كل منهم أن يحل الخلاف بزيادة بسيطة على القرشين ونقصان مناسب عن الربع ريال.. فلم يصل أي منهم إلى أية نتيجة في الأمر..

وما راع الجميع في النهاية شيء بقدر ارتياعهم عندما انحنى الحامل على الكيس الفحم ورفعه من الأرض على رأسه.. وصاح صاحب الكيس مع الجيران.. ماذا تفعل يا رجل؟.. وما هذا؟ وعلى فين؟

فقال له.. ولهم.. أما وإنك لم تنصفني ولم تدفع لي الأجرة العادلة.. وأما وإنكم لم تفلحوا إلى إرجاعه للحق وللصواب.. فإنني سوف أعيد هذا الكيس إلى الموضع الذي نقلته منه.. وعليه أن يجد الحامل الذي يقبل أن ينقله ثانية إلى هذا البيت البعيد.. بقرشين..

ومضى الحامل وكيس الفحم فوق رأسه لا يلوي على شيء قاطعاً المشوار ثانية إلى الحلقة.. وصاحب الكيس خلفه.. والجيران وراءهما كأنما يمشون في جنازة عقلية صامتة.. حتى إذا وصل الحامل للموضع الذي حمل منه الكيس بالحلقة.. رماه بعنف.. وأعطى الجماعة ظهر أكتافه.. وأنظار الرجل والجيران تتفحص قفاه العريض..

هنالك التفت صاحب الكيس يقول لجيرانه:

شكر الله مسعاكم.. ولا غفر لهذا الأحمق.. فلقد جعل اليوم مشوارنا مشوارين.. على الريق!

* * *

ـ ٢٥ ـ

يقولون إن الحاجة أم الحيلة.. وقد تعني الحجة الغرض أياً كان ومهما كان.. كماً أو كيفية.. فالوصول إليه يستدعي من الأمل الراغب فيه استنباط الوسيلة لغرضه.

ومدارنا من طرف بسيط.. هذه الفكرة تمتزج فيها النادرة بالسخرية.. بالمرح البريء تسلية وإضحاكاً.. رغم انحدار مبناها ومؤداها في كيانه الغرضي الدنيء.

وصاحبنا.. شخصية طريفة.. هو حمزة بن بيض ـ جمع أبيض ـ الحنفي شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية.. وقد سبب له اسم أبيه حرجاً كبيراً في مناسبات عديدة.

عندما قال له السحيمي رداً على بيت سابق له:

أنت ابن بيض.. لعمري لست أنكر
حقاً يقيناً.. ولكن من أبو بيض؟!

وجم حمزة وقطع به.. فقيل له.. ويلك.. مالك لا تجيبه؟ قال:

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/٩هـ ـ ١٩٦٨/١/٩م.

وبم أجيبه؟ والله لو قلت له.. إن أنبل الناس فلان بن فلان هو أبو بيض ما نفعني ذلك.. بعد قوله.. ولكن من أبو بيض؟!

أما الحكاية عنه.. في ورود استنباط الحيلة أياً كانت دناءتها في سبيل الغرض كيفما كان طلابه وثمنه.. فإنها بلسانه هو تقول:

دخلت يوماً على عبد الملك بن بشر بن مروان.. وكان له غلام خادم لم ير الناس شماً بالطبع أنتن باطاً منه. فقال لي عبد الملك.. سابق غلامنا هذا حتى يفوح صنانكما.. فأيكما كانت صنته أنتن فله مائة دينار.

قال حمزة.. فطمعت في المائة دينار. ولكنني في الواقع يائس جداً من الحصول عليها.. لما أعلمه ويعلمه الكل من نتن إبط الغلام ورائحته الخبيثة المنكرة طارت شهرتها فزكمت الآناف..

ومع ذلك فقد تماسكت وتجعدت.. فغامرت وقلت.. قبلت.. سأفعل ما طلبت.. وأسابق هذا الغلام على هذا الشرط.

وعلى ذلك. فقد خصص للسباق مجال للبداية وللنهاية.. كما كان عبد الملك قد جعل بيني وبين الغلام حكماً ليخبره بالقصة.. وبالفائز منا.. لتسليمه الجائزة.

وابتدأ السباق.. فتعادينا للغاية.. فسبقني الغلام طبعاً.. إلا أنني سلحت في يدي.. ثم لطخت إبطي ببعض السلاح.. ومضيت في العدو..

وأنهينا.. فلما دنا الغلام أخيراً من الحكم ليشمه.. حتى يقر رأينا الأشد صناناً بعد هذا الجري.. فما كاد يشمه حتى وثب.. وقال هذا

والله لا يساجله شيء.. فصحت بالحكم.. أصبر ولا تعجل بالحكم. مكانك.. ثم دنوت منه.. فألقمت أنفه إبطي الملطخ بالسلاح حتى علمت أنه قد خالط دماغه.. وأنا ممسك برأسه تحت يدي ضاغط عليها.. فصاح.. الموت.. هذا والله بالكنف أشبه منه بالآباط!!

فقال عبد الملك. أفحكمت له.. قال الحكم.. نعم.. فما هذا بباط رجل. بل كنيف بيت!!

فضحك عبد الملك.. وأخذت المائة دينار.

❊ ❊ ❊

ـ ٢٦ ـ

تواترت بعض الحكايات والأمثلة تحض على عدم الاستخفاف بالمرء لم تزينه الثياب والملابس في الزي الحسن.. فقد يكون صاحب الهيئة الرثة عالماً إدارياً.. أو أضيق ذا عراقة إلى آخر هذه الصفات ينطبق عليها المثل المتداول بيننا والقائل إن.. الناس مخابر.. لا مناظر.

ولقد ثارت بين الجماعة في سمرنا ذات ليلة هذه القضية الاجتماعية الأدبية وتحمس فريق منا للنظرية السابقة.. بينما أصر الفريق المخالف على أن البوهيمية لا ينبغي أن تصل بصاحبها إلى حد البهدلة والزراية.. وسوء المظهر.. فكما أن هناك حكايات وأمثلة على المخبر والمنظر.. فإن هناك مبدأ أساسياً يربط بين حرمة الشخص وشكله العام.. فإن القياس المبدئي يجب أن يتساوق مع قاعدة ـ اللي ما يعرفك ينكرك ـ ثم إن النظافة من الإيمان. ومن مستلزمات الأناقة الهندام الحسن.. بالإضافة إلى قوة الدلالة والإقناع في صيرورة المثل العتيد المركب في بيت شعري صدره بلدي قح وعجزه منظوم متفاصح.

تقمش بالقماش وعش فقيراً   يحيوك الرجال بالاعتبار!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/١٠هـ ـ ١٩٦٨/١/١٠م.

وهكذا طال الجدال بين دعاة البوهيمية المطلقة حتى في السمت والشكل العام.. وبين القائلين بأن احترام الشخص لذاته يلزمه باحترام هندامه.. ومظهره الدال عليه.

وحين أورد الساخرون بالمظهر يغاير المخبر الحادثة المعاصرة المشهورة في أوساطها والموجزة في أن موظفاً من المولعين بالأبهة في الملبس وفخامة السمت والهندام دخل على مسؤول رسمي كبير المقام وقد أصبح اليوم من سكان القبور.. وكان الموظف بالإضافة إلى مظهره ذا بسطة في الجسم وحده.. فأكسبته فخفخة المظهر هيبة وجلالاً ظن المسؤول الكبير معهما أن القادم شخصية ذات مركز ومقام فما كان منه إلا أن وقف له وأدناه من مجلسه وقربه إليه وطلب له القهوة مضاعفة الطلب وبالغ في الاحتفاء به.. وكان الموظف الضخم الفخم المرتدي أحسن حلة وأبهاها قد جاء لشرح حاجته للمسؤول الكبير ورغبته في العطف عليها وعليه.. فعندما بدأ يهمس بقوله ـ أيها العم الكريم إن لي ملتمساً بسيطاً على مثلك عزيز عندي، بادره المسؤول لشعوره بما وقع فيه من لبس وخطأ بطلب العودة إليه في وقت آخر وبإيقاف آخر طلب له للقهوة!

هنالك تنحنح شيخ جماعتنا كعادته قائلاً.. نعم.. يجوز هذا.. ولكن رب جوهرة في مزبلة كما يقولون.. وإن من مستظرف في المستطرف الحكاية التالية:

يحكى أن الشيخ ابن كثير صاحب التاريخ المشهور كانت له صفة على باب داره يجلس إليها ليطالع فيها استئناساً بالمارة لسآمة الوحدة.. وكان إلى جواره جار له رث الثياب.. وكان إذا رأى الشيخ جالساً على الصفة يجيء ويركب أكتافه فتفوح منه رائحة يتأذى منها الشيخ ولكنه

يستحي أن يصرفه.. إلى أن اشتد غيظه يوماً من الأيام، فعندما جاء جاره الرث الهيئة كعادته راكباً أكتافه صرخ فيه:

يا شيخ.. أما تستحي من نفسك ومن حالتك ومن عملك.. وإلى متى كلما تراني جالساً تجيء لتركب أكتافي وأنت لست تعرف ما أطالعه.. ولا لك شعور به.. فلما أخجله بهذا التعنيف قال له الجار.. يا سيدي الشيخ ما هذا الذي تطالع فيه من العلوم.. فقال إنه شيء في الاقتباس.. فقال له أسمعني منه شيئاً.. ففكر ابن كثير ساعة واقتبس في مطالعة الحال وقال:

كيد حسودي وهنا ولي سرور وهنا
الحمد لله الذي أذهب عنا الحزنا

فلما فرغ من إنشاده.. قال له أهذا الذي فكرت فيه.. وتتكثر منه اسمع ما أقوله لك ابن القريحة وأنشد ارتجالاً من غير وقفة:

قلبي إلى الرشد يسير وعنده النظم يسير
الحمد لله الذي فضلنا على كثير!

حينذاك قام الشيخ له إجلالاً.. وأجلسه.. واعتذر.. فقال له الجار.. إياك أن تزدري بأحد.. فإن مواهب الله تعالى في الصدور.. لا في الثياب!

وهنا قال أحدنا لشيخ الجماعة.. وإن لنا حكاية بلدية نرد بها على حكايتك التاريخية وموعدنا سهرة الغد إن شاء الله.

* * *

ـ ٢٧ ـ

وعندما اكتملت حلقة جماعة السهرة.. ومنا المصر على نظرية العبرة بالمخبر لا بالمنظر.. والمتمسك بمبدأ تقمش بالقماش.. التفت صاحبنا إلى شيخ الجماعة وراوي قصة ابن كثير وجاره رث الثياب وقال:

يحكي أن فقيهاً من الفقهاء على تعبيرنا.. ومقرئاً من القرّاء كما يجب أن أقول ذهب إلى وليمة مدعواً فيها بصفته قارئاً.. وكذلك بصفته ذا قرابة بعيدة جداً بالداعي صاحب الدار..

وكان الفقيه بخيلاً.. أكولاً.. بوهيمياً يلبس ما تأتّى له من الثياب معينة له على الاقتصاد في المصرف ومحققة له مزاجه في استعمال السهل التناول من الملابس.. ولهذا فعندما أقبل على البرحة أمام البيت يقف بها المرحبون كالعادة القديمة نيابة عن صاحب الدار لانشغاله في الداخل بما هو أهم.. ولم يكونوا يعرفون الفقيه شخصياً استنكروا حضور مثل هذا الشخص في زيه المزري.. وبثيابه الرثة.. وأيقنوا أنه طفيلي أو ثقيل أو سائل.. فمنعوه من الدخول إلى البيت وفيه من أصحاب الوجاهة والمكانة والمراكز من فيه.. مشيرين له بما قد ساورهم فيه من رأي من طرف

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/١١هـ ـ ١٩٦٨/١/١١م.

خفي.. وبتلميح بلغ آخر الأمر حد التصريح بعدم السماح بمثله بدخول مثل هذه الدار..

فلم يسعه إلا العودة من حيث أتى.. وكان ظريفاً في أفكاره.. وفي مداعباته.. فذهب من توه إلى الحلاق فأزال له فضول شعر رأسه وشاربه وشذب له لحيته.. فذهب بعد ذلك إلى الحمام مزيلاً ما كان عالقاً بجسده من وسخ ووضر.. ثم عمد إلى بدلة فخمة جداً جاءته ذات مرة هدية فاخرة من عظيم من سراة البلد الأثرياء فارتداها على أكمل وجه وأحسن زينة.. وبعد أن تهيأ.. وتطيب برائحة زكية يسبقه شذاها بمسافة تعرب عن قيمة ومقدار المتطيب بها والمسرف فيها.. ذهب إلى دار الوليمة إياها..

فما إن أقبل حيث جاء من قبل على رأس الزقاق حتى خف إليه من البرحة مستقبلو المدعوين.. وكلهم يحفه ويبجله ويحتفي به ويحييه بمختلف التحايا الكريمة اللائقة بمثله.. حتى دخل البيت ليستقر به المقام في صدر المجلس الذي أصر الموجودون به أن يكون فيه..

وحين حان وقت الطعام كان أول المدعوين إليه والجالسين على رأس المائدة.. ولعدم ارتدائه عادة مثل هذه البدلة ولألفته السابقة على تناول الطعام بطريقته الحرة الخاصة.. فقد أخذ كم ثوبه يسقط في كل صحن يتناول منه طعامه.. فيعلق به شيء من الدهن والزفر.. حتى استغرب الآكلون.

* * *

ـ ٢٨ ـ

تختلف تصرفات الزوجات.. تتزوج إحداهن رجلاً سبق أن تزوج سواها وماتت تاركة له بعض البنين منها.. فبينما نجد الزوجة الثانية الجديدة تحفظ حقوق الرجل في واجب رعايته لأبنائه ممن توفت عنهم وتقدر حب الوالد لبنيه فتحدب عليهم كأنما هي والدتهم فعلاً.. نجد أن البعض من زوجات الأب يضيق بالولد أو بالبنت من زوجته المتوفاة.. بل إن تصرفاتهن تقتصر على إيغار صدر الأب والكيد للولد أو للبنت.. فتكون.. وحالتها هذه مستحقة لما قد ينزل بها من جفوة أو انفصال ينشأ كلاهما عن أثر الأبوة في الأب حين يندفع حنانه الجارف في مناسبته المؤثرة المتأثرة..

وصاحبنا في هذا الموضوع اليوم.. أبو دواد الأيادي وهو شاعر قديم من شعراء الجاهلية وقد قيل في وصفه إنه أوصف الناس للفرس في الجاهلية والإسلام.. ويأتي بعده طفيل الفنوي.. والنابغة الجعدي..

واسم أبي دواد الأيادي جويرية بن الحجاج وكانت له ناقة يقال لها الزبّاء، فكان بنو إياد يتفاءلون بها فحيث توجهت اتبعوها إذا أرادوا نجعة.. فخرجت بهم مرة حتى بركت بفناء الحارث بن همام وكان أكرم

المصدر: جريدة عكاظ ١٣/١٠/١٣٨٧هـ ـ ١٣/١/١٩٦٨م.

الناس جواراً.. وهو جار أبي دواد المضروب به المثل.. والذي يقول قيس بن زهير في جواره لأبي دواد:

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى جار كجار أبي دواد

والحكاية خاصة به موضوعاً فيما أسلفنا عن معاملة الزوجة لأبناء زوجها توفت عنهم أمهم تاركة إياهم لأبيهم ولمروءة وأخلاق من يتزوج به بعدها.. تقول:

تزوج أبو دواد امرأة من قومه.. فولدت له دواداً ثم ماتت.. فتزوج أخرى.. لم تلبث أن بدأت تضيق بالولد طالبة من والده أن يجفوه وأن يبعده عنها.. وبالرغم من حب الوالد لها الحب الشديد إلاّ أنه راح في موضوع إبعاد ابنه يتغاضى عن طلبها، ويهمل ما تقول.. ولكنها لم تفتر عن ملاحقة غرضها كل حين.. ودون انقطاع.. فلما أكثرت عليه قولها أخرج ابنك دوادا عني.. ابتدأ يفعل في نفسه مثلنا الشعبي القائل.. الدوى يغلب السحر..

وهكذا أصبح أبو دواد ذات يوم وقد هيأ بعيره لرحلة بعيدة.. ونادى ولده لصحبته متهيئين للرحلة بما يلزم من زاد ومتاع ثم ركب بعيره وأردف ابنه دوادا خلفه حتى انتهيا أخيراً إلى أرض جرداء قاحلة ليس فيها شيء فألقى سوطه متعمداً من يده على الأرض وقال إلى دواد.. أنزل فناولني سوطي.. فقال.. لبيك يا أبي ونزل ليلتقط السوط من الأرض ويناوله أباه.. فما إن وقف دواد على الأرض وذهب لالتقاط السوط.. حتى سارع أبوه.. فدفع بعيره بعيداً ونادى على ابنه قائلاً:

أدواد!.. إن الأمر أصبح ما ترى

فانظر.. دواد.. لأي أرض تعمد؟

فقال له دواد.. على رسلك.. قف واسمعني.. فوقف له والده.. بعيداً عنه يسمعه يقول:

وبأي ظنك.. أن أقيم ببلدة   جرداء.. ليس بغيرها متلدد؟

هناك رجع الوالد إلى ولده متصوراً ما سيؤول إليه حاله.. وقد تحركت كل مشاعر الأبوة فيه.. وقال له:

أنت واللّه ابني حقاً..

ثم رده إلى منزله

وطلق امرأته!..

* * *

ـ ٢٩ ـ

صفة التطفيل والطفيليين حالة لا يجيدها إلا طفيلي بالطبع وبالفطرة والمران وهو فن يتعمق في دراسته ليكون في الصنعة بصيراً بها.. وبما تتطلبه من معرفة بنفوس الناس وطبائعهم.. وبحقيقة المناسبات التي يختارها الطفيلي وبمكان الحفلات والولائم والدعوات يغشاها بقدم ثابتة وعلم راسخ..

وقد اخترنا لحكايتنا اليوم ابن دراج الطفيلي واسمه عثمان.. وقبل أن نسردها لا بد أن نتزوّد بشيء من أخباره.. وبملح من طرائفه ونوادره في هذا الباب.. حتى نكوّن عن شخصيته الصورة الكاملة له بقدر الإمكان..

ومن تلك.. أنه قيل لعثمان بن دراج أتعرف بستان فلان؟ قال نعم والله.. وإنه لَلْجَنَّةُ الحاضرة في الدنيا.. قيل له.. فلم لا تدخل إليه فتأكل من ثماره تحت أشجاره وتسبح في أنهاره؟ قال لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال!

وقيل له مرة.. كيف تصنع بأهل العرس إذا لم يدخلوك حفلتهم.. قال أنوح على بابهم فيتشاءمون بذلك فيدخلوني ليكتفوا هذا الشر الوبيل.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/١٤هـ ـ ١٩٦٨/١/١٤م.

وقال له رجل.. ما هذه الصفرة في لونك؟.. قال من الفترة بين الوجبتين.. ومن خوف كل يوم من نفاد الطعام قبل أن أشبع.

هذا.. وإن عثمان بن دراج هو القائل مشيداً بطبيعة فن التطفيل فيه:

لـــذة الـــتـــطـــفـــيـــل دومـــي   وأقـــيـــمـــي لا تـــريـــمـــي
أنـــت تـــشـــفـــيـــن غـــلـــيـــلـــي   وتـــســـلّـــيـــن هـــمـــومـــي!

أما الحكاية عنه.. فتقول:

حكي أن ابن دراج سار إلى باب علي بن زيد.. أيام كان يكتب للعباس ابن المأمون فمنعه الحاجب.. وقال.. ليس هذا وقتك.. قد رأيت القوّاد يحجبون فكيف يؤذن لك أنت؟.. قال.. ليست سبيلي سبيلهم.. لأنه يحب أن يراني.. ويكره أن يراهم.. فلم يأذن له الحاجب.. فبينما هما على ذلك إذ خرج علي بن زيد فقال ما منعك يا أبا سعيد أن تدخل؟ قال: منعني هذا البغيض.. فالتفت إلى الحاجب.. فقال: بلغ بك بغضك أن تحجب هذا؟ ثم قال.. يا أبا سعيد.. ماذا أهديت إلي من النوادر.. قال:

مرت بي جنازة ومعي ابني سعيد.. ومع الجنازة امرأة تبكي الميت تقول.. بك يذهبون إلى بيت لا فرش فيه ولا وطاء.. ولا ضيافة ولا غطاء.. ولا خبز فيه ولا ماء.. فالتفت إلي ابني قائلاً: يا أبت.. إلى بيتنا والله يذهبون بهذه الجنازة.. فقلت له.. وكيف ويلك.. قال لأن هذه صفة بيتنا.. فضحك علي وقال لابن دراج قد أمرت لك بثلثمائة درهم.. قال قد وفّر الله عليك نصفها مقابل أن أتغدى معك.. لأنه كان مع تطفيله أشره الناس.. فقال له علي بن زيد.. عليك موفرة كلها وتتغدى معنا!

* * *

ـ ٣٠ ـ

وفي مرة من المرات.. وكان ذلك قبل سنوات عديدة ماضية سألني أحد الكبار سؤالاً حبياً.. كما نقول.. عن نصيب الحقيقة في إشاعة راجت.. وتقول إنني وصديقاً لي كنا بطليْ رواية جرت بمكة.. وفي ليلة جمعة..

فأجبته.. يكفي لدحضها بل ونسفها من أساسها أنني في تلك الليلة بالذات كنت أبيت في جدّة.. بينما كان صديقي هذا يبيت في الطائف.. وذلك ثابت بشهود.. بوجودي هنا ـ وبوجوده هناك!

فقال.. إنني أميل إلى تصديقك.. فلقد عانيت شخصياً من الإشاعات ألوان كيد مختلفة.. فما هو تعليقك لهذه الظاهرة المتفشية ولمرض الغيبة المزمن والمنتشر بيننا بشكل مزعج مخيف؟

ثم لماذا يقع الاختيار دائماً على صنف بذاته من الناس.. طعاماً سائغاً ـ لم يكن بالهنيء ولا بالمريء إلا على هذه المائدة؟ فأجبت إنها محنة قديمة جداً.. ورثها بعض القوم منا كمزاج فني.. أو كفنٍّ من فنون حديث المجالس.. والخلوات.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/١٥هـ ـ ١٩٦٨/١/١٥م.

وقد ألف هذا البعض ألا يمارسها عادة متأصلة.. وطبيعة ثابتة بالنسبة لكل من هب ودب.. بل قد ارتقى به التخصص حتى أصبح ذوّاقة ممتازاً لا ينتقي في الفرائس إلا ما طاب لحمها.. وشاع ذكرها.. وحلا السمر على المزمزة في أعضائها ـ شأنه في هذا الاختيار شأن الأكول الفنان ذي المزاج والخبرة يختار من الخروف مشارب الماء.. وما جاورها متجاوزاً الأجزاء النكرات المجهولة.. العادية المذاق والطعم.

واقتضى المقام أن أروي له بتلك المناسبة حكاية تاريخية قصيرة تقول:

كان أبو عبد الرحمن غيّاباً كبيراً.. قل أن يحضر مجلساً.. أو أن يختلي من الجلساء بثانيهما بعد أن يذهب ثالثهما إلا اغتاب المفارق للمجلس.. أو تناول الثالث بدوره من الجماعة في حينه.. فسلقه بلسانه.. وظل هذا دأبه وديدنه حتى أصبح ذا شهرة واسعة في ميدان الغيبة ـ وعلماً من أعلام أبوابها الواسعة.

ثم إن أبا عبد الرحمن هذا تاب عن الغيبة توبة صادقة، ساعده على الإصرار عليها كبر السن.. وضيق المجال.. وتبدل الأحوال.. فأضرب تماماً عن تناول اللحم الآدمي مهما كان ممتازاً لذيذ الطعم.. وأكثر من تلاوة الآية الكريمة ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢).. وذلك لتقوية الإرادة في نفسه على التوْبة كاملة غير منقوصة..

ولكنه رغم ما فعل.. فقد بقيت في نفسه لها صبابة قديمة.. وحنين متطور.. فقد صادف أن قابله عند باب المسجد شخص من عارفي طول لسانه في اغتياب الصنف المختار منه من الناس.. فقال له.. يعني الغيبة:

أو تركتها. . يا أبا عبد الرحمن؟!

فقال:

نعم. . ولكني أشتهي أن أسمعها!

* * *

ـ ٣١ ـ

من شيم الرجال أقوياء العقيدة والخلق ميزة الاعتراف بالخطأ والإقرار بالذنب طبيعة نفوس لا تطيق المداورة ولا المداراة في تبرير عمل صدر أو حادث ارتكب.. ومما يزيد في قيمة هذا الاعتراف بالخطأ أو الإقرار بالذنب أن يأتي في مستواه العالي يتناسب وجلال موقفه الخطير فصاحة تعبير وبيان أسلوب يقعان من نفس العظيم المسؤول موقع القبول والرضا والتقدير، يجزي صاحبه بما هو أهل له سماحة نفس ورقة جانب وبصراً ثاقباً بطبيعة الحوادث والأنفس والأهواء. والحكاية في هذا المدار صورة جانبية لما مر وفي نطاقه العالي من المقر بذنبه ومن مالك حق العفو عنه.. تقول مروية عن أحمد بن داود القاضي:

حكى أحمد أنه قال: ما رأيت رجلاً عرض على الموت فلم يكترث به مثل تميم بن جميل الخارجي كان قد خرج على المعتصم ورأيته قد جيء به أسيراً فأدخل عليه في يوم موكب وقد جلس للناس مجلساً عاماً ودعا بالسيف والنطع، فلما مثل تميم بين يديه نظر المعتصم فأعجبه شكله وقده ورؤيته إياه يمضي إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكرة فيه ثم استاء لينظر في عقله وبلاغته فقال يا تميم إن كان لك عذر فأت به..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/١٦هـ ـ ١٩٦٨/١/١٦م.

فقال أما إذا أذن أمير المؤمنين جبر الله به صدع الدين ولم به شعث المسلمين وأخمد شهاب الباطل وأنار سبيل الحق فالذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة، وأيم الله لقد عظمت الجريمة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا العفو وهو الأليق بشيمتك الطاهرة ثم أنشد:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحقني من حيث لا أتلفَّت
وأكثر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى اللَّه يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت وأنني ... لأعلم أن الموت شيء موقَّت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتلفّت
كأني أراهم حين أنعى إليهمو ... وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا
وإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا
وكم قائل لا يبعد اللَّه داره ... وآخر جذلان يسر ويشمت

قال فتأثر المعتصم وقال إن من البيان لسحراً ثم قال كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل وقد وهبتك لله ولصبيتك وأعطاه خمسين ألف درهم.

* * *

ـ ٣٢ ـ

الحكاية التالية على أنها في دائرة الكرم طبيعة في صاحبه لا ينفك عنها ولا تجيز له إلا حيث هو من طبعه والاستجابة له في كل ما يأتيه.. إلا أنها كذلك تصور في الخط الموازي للكريم طبيعة الطامع في كرم الكريم إلى الحد الذي يجعله يرى ماله نهباً مباحاً لا يتورع عن الوقوف في الأخذ منه عند حد.. وبذلك فهو مثال صالح لأن ينصب عليه وعلى أمثاله للردع والزجر اللطيفين مثلنا الشعبي القائل: إن كان حبيبك عسل لا تلحسه كلو..

وبطلها الأول مثالاً في الكرم سجية وطبيعة هو عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أمه أسماء بنت عميس الخثعمية وأمها هند بنت عمر امرأة من جرش يقال لها الجرشية وأنها أكرم الناس أحماء.. فأحماؤها رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وحمزة والعباس وجعفر ذو الجناحين لأنه كان لها أربع بنات: ميمونة بنت الحارث زوج الرسول وأم الفضل زوج العباس وسلمى زوج حمزة وأسماء بنت عميس أختهن لأمهن كانت عند جعفر بن أبي طالب.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/١٧هـ ـ ١٩٦٨/١/١٧م.

أما الثاني فهو رجل لم يكتف أن أتى إليه لفك ضائقته وحين قبل استشرى به داء الطمع فلم يقف عند الحد المعقول وهي في ذاتها.. مقابلة طبعين متخالفين تقول:

يحكى أن رجلاً جلب إلى المدينة المنورة سكراً فكسد عليه ولم يجد سوقاً لبيعه فتضجر وشكى وتألم.. فقيل له: لو أتيت ابن جعفر قبله منك وأعطاك الثمن.. فكان أن ذهب الرجل فعلاً إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر.. فأخبر خبره فأمر بإحضار السكر.. وبسط له بساطاً وضعه عليه.. ثم قال للناس انتهبوا.. فبادر كل منهم يأخذ نصيبه منه، فبينما رأى الرجل صاحب السكر ذلك قال: جعلت فداك آخذ أنا معهم: قال: نعم ـ فجعل الرجل يهيل في غرائزه السكر. ثم قال لعبد الله أعطني الثمن فقال له عبد الله كم ثمن سكرك؟ فقال أربعة آلاف درهم.. فأمر له بها.. ثم جاءه بعد ذلك فطلب ثمن سكره من جديد.. فأعطاه عبد الله أربعة آلاف درهم أخرى.. فقال الرجل: والله إن هذا الشخص لا يدري ما يفعل.. أعطى أم أخذ.. لأطالبنه بالثمن مرة ثالثة، وفعلاً عدا عليه فقال: أصلحك الله أين ثمن سكري..

فأطرق عبد الله ملياً.. ثم رفع رأسه إلى رجل من حاشيته فقال ادفع إليه أربعة آلاف درهم.. فلما ولى ليقبضها.. قال له ابن جعفر اسمع يا هذا.. إن هذه هي تمام اثني عشر ألف درهم.

فانصرف الرجل بعد أن قبض الثمن لثالث مرة.. وهو يعجب من فعل ابن جعفر وكرمه مع علمه بما سبق أن أعطى وأن كرر العطاء..

* * *

ـ ٣٣ ـ

.. ولا يمكن للكبير أن يكون صغيراً.. ولا للأريحية في الجواد أن تقف عند حد، وموضوعنا رجل كان له في الجاهلية شأن وبصر وعقل. ذلكم هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب.

وكان سيداً ممدحاً في قريش وهو ابن عم أبي قحافة والد أبي بكر الصديق.. رضي الله عنه. وقد أدركه النبي ﷺ وحضر مأدبته قبل النبوة.

وقال ابن أبي الزناد ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية حتى ترك الخمر استحياء مما فيها من الدنس.. وابن جدعان من الجاهليين الذين حرموها على أنفسهم لما يلحق شاربها من الدنس والسفاهة والهوان والحماقات وذلك بعد أن كاد يودي بعين صديقه.. وقال فيها:

شربت الخمر حتى قال قومي ... ألست عن السفاه بمستفيق
وحتى ما أوسَّد في مبيت ... أنام به سوى الترب السحيق
وحتى أغلق الحانوت رهني ... وآنست الهوان من الصديق!

وذكر أنه وفد على كسرى فأكل عنده الفالوذ فسأل عنه فقيل له هذا الفالوذ، فقال وما هو؟ قالوا لباب البر يلبك مع عسل النحل.. فقال

المصدر: جريدة عكاظ ١٨/١٠/١٣٨٧هـ ـ ١٨/١/١٩٦٨م.

أبغوني غلاماً يصنعه.. فأتوه به فابتاعه ثم قدم مكة معه.. فصنع له الفالوذ بمكة فوضع الموائد من الأبطح لباب المسجد ثم نادى مناديه: ألا من أراد الفالوذ فليحضر.. فحضر الناس.

وكانت له كذلك أمتان تسميان الجرادتين.. وقد سماهما.. جرادتي عاد. والحكاية تتصل به في باب الجود الأصيل لا تمنع العلة الرجل أن يكون هو عند نفسه.. ولدى الناس.

يحكى أن أمية بن أبي الصلت الثقفي قدم على عبد الله بن جدعان فلما دخل عليه.. قال له عبد الله.. أمر ما أتى بك؟ فقال أمية.. كلاب غرماء قد نبحتني ونهشتني.. فقال له عبد الله قدمت علي وأنا عليل من حقوق لحقتني ولزمتني.. فانظرني قليلاً يجم ـ يعني يكثر ويجتمع ـ ما في يدي وقد ضمنت قضاء دينك.. ولا أسألك عن مبلغه.. فأقام أمية أياماً ثم أتاه.. فقال:

أأذكر حاجتي؟.. أم قد كفاني ... حياؤك.. إن شيمتك الحياء
وعلمك بالأمور.. وأنت قرم ... لك الحب المهذب والسناء
كريم.. لا يغيره صباح ... عن الخلق السني ـ ولا مساء

إلى آخر القصيدة.. فلما أنشد أمية هذا الشعر كانت عند عبد الله أمتاه الجرادتان.. فقال لأمية خذ أيهما شئت.. فأخذ إحداهما وانصرف.. فمر بمجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها.. وقالوا له.. لقد لقيته عليلاً.. فلو رددت عليه. فإن الشيخ يحتاج إلى خدمتها كان ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كل حق ضمنه لك.. فوقع الكلام من أمية موقعه وندم فرجع إليه ليردها عليه.. فلما أتاه بها قال ابن

جدعان: لعلّك إنما رددتها لأن قريشاً لاموك على أخذها.. ووصف لأمية ما قال القوم له.. فقال أمية.. والله ما أخطأت يا أبا زهير.. فقال عبد الله.. فما الذي قلت في ذلك؟ قال أمية:

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببذل.. وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك.. كما بعض السؤال يشين!

فقال عبد الله بن جدعان لأمية الثقفي حينذاك.. خذ الأمة الأخرى.. فأخذها.. وخرج!

* * *

ـ ٣٤ ـ

كانت الست الكبيرة ـ وهذا هو لقبها اليوم ـ تسكن في ماضي أيامها بمحلة المظلوم بمدينة جدة القديمة.. تعيش عيشة أهل الحي المتواضعة.. وتشرف على خدمة أخواتها وأخوانها الصغار معينة والدتها في ذلك وفي خدمات البيت من كنس وطبخ وغسيل.. عادة درجت عليها طبقتها لا ترى فيها غضاضة أو عيباً ولا تملك لها دفعاً، فحتى لو اشتهت شيئاً غير هذا لما تحقق لها مشتهاها.. فدخل الوالد السبحي محدود.. وتكاليف معيشة العائلة بنسبة الدخل.. باهظة ومتنوعة..

وكانت لها جارة في مستواها الطبقي وفي سنها تقريباً وقد اقتضى الجوار والوحدة وبعض الفراغ أن تصبحا رفيقتي جلسة يومية أو أسبوعية خاصة تتبادلان فيها شتى الأحاديث والأمنيات المكبوتة، ولهذا أصبح جل ما تتركّز عليه الأحاديث بينهما أخبار زواج فلانة وسعدها وعدم زواج الأخريات ممن هن أولى منها.. وهما يعنيان نفسيهما ضمناً في مضمون الأحاديث ومغزاها..

وأخيراً.. تزوجت أولاهما زواجاً موفقاً انتهت بعد سنوات طويلة من توالي الثراء والرغد أن حازت لقب الست الكبيرة بحكم سيادتها على كل

المصدر: جريدة عكاظ ١٨/١٠/١٣٨٧هـ ـ ١٨/١/١٩٦٨م.

أهل البيت والأولاد والخلف المتواتر.. والعيش الرغيد..

أما جارتها فبالرغم من أنها تزوجت بعدها مباشرة إلا أن حظها كان سيئاً فلم تهبها أمواج الحياة المتقلبة بين العسر والشدة حياة الرفاهية والاستقرار مع زوجها الذي توفي وترك لها بنتاً وحيدة أصبحت لديها أعز ما وهبته لها الحياة الضنينة فباتت الابنة مصدر عزائها.. ومدار وجودها.. واضطرت لاحتراف مهنة الدلالة من أجلها تحمل بقجاتها للطواف على البيوت محترفة تجارة الملابس واللوازم النسوية بكافة أشكالها كمعرض متنقل وذلك قبل انتشار أو وجود المعارض الحديثة.. قانعة بربحها الضئيل يقيم أودها وأود ابنتها الصغيرة والوحيدة..

ودارت عجلة الأيام فالشهور فالأعوام وكبرت البنت.. وكانت جميلة مشتهاة.. وجاءها عريس من أبناء الحي من الجيران، وتحددت ليلة الزفاف، وكالعادة الموشكة على الانقراض التام كان لا بد لها من استئجار المصاغ العث في هذه المناسبة.. واضطرها رقم المهر المحدود ومدخرها الضئيل أن تفكر في استعارة المصاغ لابنتها بدلاً من استئجاره.. للتجمل به في ليلة الزفاف..

وهنا تذكرت جارتها القديمة والتي أصبحت الست الكبيرة.. فذهبت إليها.. ولم تخيب الست رجاءها.. فقدمت إليها مطلوبها بعد أن جعلتها تبصم على بيان بمفرداته.. وكررت عليها ضرورة المحافظة على كل قطعة منه.. مع سرعة إعادته بعد انتهاء الغرض منه.. واستلمته أم العروس.. وتم الزواج.. وأعادته بالوفاء.. وبالتمام مقدرة لجارتها القديمة صنيعها الكبير.

ولكنها أصبحت بعد ذلك.. دائمة الحزن.. مكتئبة.. ثائرة الأعصاب.. ناقمة على جارتها القديمة الست الكبيرة ما تقوم به.. فقد

باتت لا تدخل بيتاً لمزاولة مهنتها كدلالة متجولة إلا وتسمع حكاية المصاغ.. وإعارتها إياه من الست الكبيرة مضافاً إلى الحكاية ذيول.. وفروع.. منها أنها جاءتها باكية متضرعة في سبيل الاستعارة.. وأنها يوم أن أعطتها المصاغ أضافت إليه مبلغاً محترماً كصدقة.. يسمونها رفداً.. والأنكى من كل ذلك أن المصاغ أعيد للست الكبيرة ناقصاً خاتماً صغيراً إلا أنه يساوي مبلغاً محترماً من المال..

وفي كل مرة كانت تسمع الدلالة هذه الرواية.. كانت تقسم بأغلظ الأيمان وتلك هي الحقيقة.. بأنها لم تبك ولم تتضرع.. وبأنها لم تستلم أي مبلغ باسم الصدقة أو الرفد.. وأنها أعادت المصاغ كاملاً لم ينقص منه خاتم.. أو زقره!

وفر الزمان ـ وأصبحت الدلالة عجوزاً شمطاء تطارد فلوله في ركن من أركان غرفة حقيرة في بيت يسمونه ـ وقف آل فلان ـ وشاءت المصادفة أن أقابلها من أيام لتروي لي روايتها مختتمة إياها بقولها.. ومع ذلك فإنني لا أزال أقول جزى الله الست الكبيرة عني خير الجزاء على كل حال.. ولكن ليتها لم تلوث صنيعها بما فعلت مِنْ مَنٍّ وافتراء.. وتردد عن الست الكبيرة.. في إيجاز وإعجاز.. هذه الأبيات:

ولا عيب فيها.. غير أن لسانها طويل.. وإن الصدق فيه قليل
مبيح لأسرار الأنام.. مدلدل يلسوع كالكرباج.. بل هو تيل
تلتُّ كما تهوى.. وتعجن ما اشتهت فسلوتُها قال.. يطول.. وقيل
إذا استبلشت في الناس شخصاً فإنه سيمسي حديث الناس.. حيث يميل
فيا ليت.. يا ربي.. تبطِّل طبعها فليس لها.. بين النساء.. مثيل!!

* * *

ـ ٣٥ ـ

والحديث عن الحب.. عاطفة كونية متواترة.. حديث لا يمل.. وصاحبنا فيه اليوم كثير عزة.. وهو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر.. من فحول شعراء الإسلام.. وكان من أتيه الناس وأذهبهم بنفسه على كل واحد.. حتى إن أناساً من المدينة كانوا يلعبون به فيقولون وهو يسمع.. إن كثيراً لا يلتفت من تيهه.. فكان الرجل يأتيه من ورائه فيأخذ رداءه فلا يلتفت من الكبر ويمضي في قميصه..

على أنه كان قصيراً دميماً.. حتى كان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول:

طأطئ رأسك.. لا يصبه السقف..

وفي ذلك يقول كثير:

وإن أك قصداً في الرجال فإنني إذا حل أمر ساحتي ـ لطويل!

ويبالغ الوقاص في الأمر مبالغة ملحوظة ساخرة حين يقول: رأيت كثيراً يطوف بالبيت.. فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبه!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/٢١هـ ـ ١٩٦٨/١/٢١م.

هذا.. وقد قال عنه محمد بن سلام الجمحي ـ كان كثير شاعر أهل الحجاز.. وهو شاعر فحل.. ولكنه منقوص حظه بالعراق.. ونسب كثير لكثرة تشبيبه بعزة الضميرية إليها ـ وعرف بها.. فقيل: كثير عزة.. وهي عزة بنت جميل بن وقاص.. وكان ابتداء عشقه إياها أنه خرج من منزله يسوق جلب غنم إلى الجار على ثلاث مراحل من المدينة بساحل البحر.. فلما كان بالخَبْت وقف على نسوة من بني ضمرة فسألهن عن الماء فقلن لعزة وهي جارية حين كعب ثدياها.. أرشديه إلى الماء فأرشدته وأعجبته، فبينما هو يسقي غنمه إذ جاءته عزة بدراهم.. فقالت تقول لك النسوة.. بعنا بهذه الدراهم كبشاً من ضأنك.. فأمر الغلام فدفع إليها كبشاً وقال: ردي الدراهم وقولي لهن: إذا رحت بكن اقتضيت حقي.. فلما راح بهن قلن له.. هذا حقك فخذه.. فقال: عزة غريمي.. ولست أقضي حقي إلا منها.. فمزحن معه.. وقلن ـ ويحك.. عزة جارية صغيرة وليس فيها وفاء لحقك.. فأحله على إحدانا فإنها أملأ به منها وأسرع له أداء.. فقال: ما أنا بمحيل حقي عنها.. ومضى لوجهه.. ثم رجع إليهن حين فرغ من بيع جلبه فأنشدهن فيها:

نظرت إليها نظرة.. وهي عاتق ... على حين أن شبت وبان نهودها
وقد درعوها وهي ذات مرصد ... مجوب ولما يلبس الدرع ريدها
نظرت إليها نظرة ما يسرني ... بها حمر أنعام البلاد وسودها
وكنت إذا ما جئت سعدي أزورها ... أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة.. لو تعيدها!

كما قال لهن:

قضى كل ذي دين فوقي غريمه ... وعزة ممطول معَنَّى غريمها

فقلن له: أبيت إلا عزة.. وأبرزنها إليه.. وهي كارهة.. ثم أحبته هي بعد ذلك أشد من حبه إياها..

أما الحكاية عنهما في دائرة الحب ترعاه النجوم.. ولا تتلبد حوله الغيوم.. فهي عن إبراهيم بن أبي عمرو الجهني عن أبيه.. قال:

سارت علينا عزة في جماعة من قومها.. فنزلت حيالنا.. فجاءني كثيّر ذات يوم فقال لي: أُريد أن أكون عندك اليوم ـ فاذهب إلى عزة.. فصرت به إلى منزل.. فأقام عندي حتى كان العشاء.. ثم أرسلني إليها وأعطاني خاتمه وقال: إذا سلمت فستخرج إليك جارية.. فادفع إليها خاتمي وأعلمها مكاني.. فجئت بيتها فسلمت فخرجت إلي الجارية فأعطيتها الخاتم فقالت: أين الموعد؟.. قلت: صخرات أبي عبيد الليلة.. فواعدتها هناك.. فرجعت إليه فأعلمته.. فلما أمسى قال لي: انهض بنا.. فنهضنا فجلسنا هناك نتحدث حتى جاءت من الليل فجلست.. فتحدثا وأطالا.. فذهبت لأقوم.. فقال لي: إلى أين تذهب؟.. فقلت: أخليكم ساعة لعلّكما تتحدثان ببعض ما تكتمان.. فقال لي: اجلس! فوالله ما كان بيننا شيء قط.. فجلست وهما يتحدثان وإن بينهما لثماثة عظيمة.. نبت شبيه بالخوص.. وهي جالسة من ورائها حتى أسحرا.. ثم قامت.. فانصرفت.. وقمت أنا وهو.. فظل عندي حتى أمسى.. فانطلق!

* * *

ـ ٣٦ ـ

من زمان.. زمان.. كان لنا صاحب يسمى حمدان.. وفيّ لأصحابه حبيب لإخوانه.. طيب القلب.. نقي السريرة.. وصاحب صاحبه باختصار..

ثم فرقت بيننا الأيام والأعوام.. ومن أسبوع مضى تقريباً حكمت الصدفة وحدها أن نقابل ذلك الخليل القديم.. فرأيناه في حالة يرثى لها من الغم.. والغيظ.. والنكد.. فقررنا أن نرفه عنه نزولاً على قرار الأخ العزيز والشاعر الزميل القديم القائل:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك.. أو ينسيك.. أو يتوجع

ولذلك تجرأنا بالوصول إلى غرضنا رأساً.. فسألناه: إيش الحكاية؟ قال.. وقد فض فوه فعلاً من الزعل:

ليكن معلوماً لديك أيها الأخ العزيز.. والصديق الأثير.. إنني كنت ولا زلت للأسف الشديد.. أسكن في شقة متواضعة أنت ولا شك تتذكرها.. فقد عزمتك على الغدا فيها مرة.. في العمر..

وصادف بعد سكنانا هناك بحوالي خمسة شهور أن أصبح لنا جار..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/٢٢هـ ـ ١٩٦٨/١/٢٢م.

وللجار زوجة.. وبعد حوالي تسع سنوات.. وسبعة أشهر من تلك الجيرة الكريمة أن صار للزوجين تسعة أطفال.. وأن صار تدريجياً لكل طفل من هؤلاء الأطفال التسعة برنامج خاص في بيتهم.. ثم في شقتنا المتواضعة بالذات.. فمن فاتح بزبوز الحنفية الخاصة بنا.. دون قفله.. ومن خالع زر الكهرباء.. ومن مبعثر لكتبنا العزيزة ومن ممزق بأظافره الصغيرة الحادة طقم كنب الصالون.. ومن متخذ من حوائط الشقة سبورات يتمرن فيها على كتابة اسمه بالفحم.. وعلى شتم إخوانه وأخواته كتابة بما يقال وما لا يقال..

وهكذا أصبح بالاعتياد وبالممارسة لكل طفل من أطفال جارنا حمدان عمل ووظيفة.. بشقتنا.. وأصبحت والحالة هذه لا أهنأ بطعام.. أو بقراءة أو بكتابة.. أو بنوم.. أو براحة ما.. وصبرت على ما أنا فيه صبر الكرام.. مراعاة لحقوق الجوار الشرعية والمرعية.

ومنذ عام وشهر تقريباً تكلمت مع والد التسعة الأخ حمدان بأنني إكراماً لخاطره وخاطر أم عياله سوف أحدد برنامجي على أساس وجود التسعة فقط.. وعلى عدم انزعاجي من تأدية كل منهم لوظيفته المعتادة لاعتيادي عليهم وعليها، إلا أنني أرجو مقابل ذلك أن يقف الأمر عند هذا الحد.. وألا يجدَّ جديد بعدها..

فوعدني الرجل خيراً.. وقد أوعزت إليه من طرف خفي أن يتفضل بإحاطة الست علماً بذلك.. حتى تكف عن شتمي كلما أرشدت طفلاً إلى ضرورة التقيد بحدود وظيفته في شقتي.. فلا يتعدى الكاتب على الحائط على حقوق مكسر الأطباق.. أو خالع الأفياش.. فوعدني بذلك..

وعلى ذلك.. فقد رتبت شؤوني.. وهكذا مر العام كأحلى ما

يكون.. فقد محت الألفة للأولاد ولما يفعلونه كل ما كان غير مستساغ.. ولكنني في الليلة الماضية.. وعلى حين غرة سمعت ضوضاء وجلبة ممتزجتين بغطاريف متواصلة في بيت صاحبنا حمدان.. واضطررت أن أذهب بمباذل البيت بالفوطة وبالقميص ليس إلا، إلى شقتهم حيث يسكنون قبالتي تماماً لأستعلم عن الجديد في الموضوع.. وكان الجديد خلافاً للمتفق عليه.. مولوداً جديداً.. تكملة عشرة أطفال..

فتصور حالتي وما آلت إليه؟..

هنا. قلت مطيباً خاطر الصديق سوف ننشر حكايتك هذه خدمة للتاريخ وللجيل الصاعد.. شعراً نأمل باطلاع السيد حمدان والسيدة حرمه عليه أن يحصل الخير إن شاء الله.. وقلنا:

اللَّه أكبر.. يا بلد	حمدان.. جاء له ولد
سماه «عشرى» هاتفاً	اليوم كملنا العدد
عشرا.. فمن ذا مثلنا	في شغلنا هادا؟.. مدد
فرنت إليه.. فخورة	مبسوطة.. أم السعد
ومضت تحصن طفلها	من كل أصناف الحسد
ببخوره.. بحجابه	وبكل شيخ معتمد!
وجرى المحافيظ الكبا	ر.. مع الصغار.. بلا عدد
فرحين بالنونو الجد	يد.. وقد تمطع.. وانفرد
حتى أنا.. جار الهنا..	أقبلت بالفوطا.. وقد
مالت.. فقالت جارتي:	هو أنت.. يا وجه النكد؟

* * *

ـ ٣٧ ـ

والحكاية اليوم ـ هدية طيبة من أب ثاب إلى رشده بعد أن عرف بالتصريح ما لم يعرفه بالتلميح.. ومن أم صابرة مطيعة لزوجها.. ومن بنات طيبات.. وترد في مجالها صورة ناطقة عن تعطيل الآباء تزويج بناتهن.. دون مبرر.. وعن صبر الأمهات لا يجدي.. وعن كشف البنات أخيراً عن رغبتهن في الزواج.

وصاحبها شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية وله غارات كثيرة في العرب ووقائع مشهورة.. وهو حرثان بن الحارث الشهير بذي الأصبع العدواني.. وتقول:

كان لذي الأصبع أربع بنات.. وكن يخطبن إليه فيعرض ذلك.. فيستحين ولا يزوجهن.. وكانت أمهن تقول في خفوت.. لو زوجتهن! فلا يفعل.. ثم إنه خرج ليلة إلى جوار غرفة تجتمع فيها البنات.. وهي خاصة بهن يتحدثن فيها بحرية وبانطلاق.. فاستمع إليهن.. وهن لا يعلمن عن مكانه هناك.. فقلن لبعضهن.. تعالين نتمنى.. ونصدق.. فقالت الكبرى:

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/٢٤هـ ـ ١٩٦٨/١/٢٤م.

ألا ليت زوجي من أناس ذوي غنى
حديث الشباب.. طيب الريح والعطر
طبيب بأدواء النساء.. كأنه
خليفة جان.. لا ينام على وتر!

فقلن لها ـ أنت تحبين رجلاً ليس من قومك.. فقالت الثانية:

ألا هل أراها ليلة.. وضجيعها
أشم كنصل السيف غير ملبد
لصوق بأكباد النساء.. وأصله
إذا ما انتمى.. من سر أهلي ومحتدي!

فقلن لها ـ أما أنت فتحبين رجلاً من قومك.. فقالت الثالثة:

ألا ليته يملا الجفان لضيفه
له جفنة يشقى بها النيب والجزر
له حكمات الدهر من غير كبرة
تشين.. فلافان ولا ضرع غمر

فقلن لها ـ أنت تحبين رجلاً شريفاً.. وقلن للصغرى.. تمني.. فقالت ما أريد شيئاً.. قلن.. والله لا تبرحين حتى نعلم ما في نفسك.. قالت:

زوج من عود خير من قعود!!

فلما سمع أبوهن ذلك عاد إليه صوابه وتنازل عما كان يتشبث به.. ولم يعد يخدعه حياؤهن المصطنع.. فزوجهن أربعتهن..

ومكثن برهة.. ثم اجتمعن إليه في دعوة أقامها لهن.. فقال للكبرى.. يا بنية ما مالكم؟ قالت الإبل.. قال فكيف تجدونها.. قالت خير مال.. نأكل لحومها مزعاً.. ونشرب ألبانها جرعاً.. وتحملنا وضيفنا معال.. قال فكيف تجدين زوجك؟ قالت.. خير زوج يكرم الحليلة.. ويعطي الوسيلة.. قال مال عميم وزوج كريم.. ثم قال للثانية.. يا بنية ما مالكم؟.. قالت.. البقر.. قال.. فكيف تجدونها؟ قالت خير مال.. تألف الغناء.. وتودك السقاء.. وتملأ الإناء.. ونساء في نفساء.. قال.. فكيف تجدين زوجك؟ قالت خير زوج يكرم أهله وينسى فضله.. قال.. حظيت.. ورضيت.. ثم قال للثالثة ما مالكم؟ قالت.. المعزى.. قال فكيف تجدونها؟ قالت لا بأس بها نولدها فطما.. ونسلخها أدما.. قال فكيف تجدين زوجك؟ قالت لا بأس به.. ليس بالبخيل الحكر.. ولا بالسمح البذر.. قال.. جدوى مضنية.. ثم قال للرابعة يا بنية ما مالكم؟ قالت.. الضأن.. قال وكيف تجدونها؟ قالت شر مال.. جوف لا يشبعن.. وهيم لا ينفعن.. وأمر مغويتهن يتبعن.. قال فكيف تجدين زوجك؟ قالت.. شر زوج.. يكرم نفسه.. ويهين عرسه!!

* * *

ـ ٣٨ ـ

ربما تكشف المناسبة الطارئة لصاحبها عن طاقة خبيثة في نفسه.. أو عن موهبة كامنة لم يسبق له أن مارسها فيما هي له.. فإذا هو بتلك المناسبة يملك زمام أمرها.. ويحمد للمناسبة الطارئة أثرها المحفور في ذهنه باعتبارها فرصة غيّرت مجرى حياته العملية أو الذهنية.

وصاحبنا في هذا المدار هو النعمان بن بشير بن سعد.. وأمه عمرة بنت روّاحة أخت عبد الله بن رواحة التي يقول فيها قيس بن الخطيم:

أجد بعمرة غنياتها فتهجر؟ أم شأننا شأنها

وعمرة من سروات النسا .. تنفح بالمسك أردانها

وأبوه بشير بن سعد أول من قام يوم السقيفة من الأنصار إلى أبي بكر فبايعه.. ثم توالت الأنصار تبايع.. وشهد بشير بيعة العقبة وبدراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلها.. واستشهد يوم عين التمر مع خالد بن الوليد.

وللنعمان بن بشير.. كأبيه.. صحبة بالنبي.. وكان عثمانياً وشهد مع معاوية صفين.. وكان كريماً عليه رفيعاً عنده يزيد ابنه بعده.. وعمر

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/٢٥هـ ـ ١٩٦٨/١/٢٥م.

إلى خلافة مروان بن الحكم وكان يتولى حمص.. وقد قتله أهلها حين دعا إلى ابن الزبير.. وخالف على مروان واجتزوا رأسه.. فقالت امرأته.. ألقوا رأسه في حجري.. فأنا أحق به.. فألقوه في حجرها فضمته إلى جسده وكفنته..

كما أن النعمان بن بشير أول مولود من الأنصار ولد بالمدينة بعد قدوم الرسول ﷺ .. إليها..

أما الحكاية عنه في سبيل اكتشاف الموهبة من صاحبها تقوده إليها مناسبة لم تكن في حسبانه.. فإذا هو معروف بها متمسك بما تبين له.. فتقول:

خرج النعمان بن بشير في ركب من قومه وكان يومئذٍ حديث السن حتى نزلوا بأرض من الأردن يقال لها حفير وحاضرتها بنو القين.. فأهدت إليهم امرأة من بني القين يقال لها ليلى هدية.. فبينما القوم يتحدثون ويذكرون الشعراء إذ قال بعضهم.. يا نعمان هل قلت شعراً؟.. قال.. لا والله ما قلت.. فقال شيخ من الحرث ابن الخزرج يقال له ثابت بن سماك.. لم تقل شعراً قط.. قال لا.. قال.. فأقسم عليك لتربطن إلى هذه السرحة.. فلا تفارقها حتى يرتحل القوم أو تقول شعراً.. فنطق عند ذلك بأول شعر له.. وقال:

يا خليلي ودعا دار ليلى ... ليس مثلي يحل دار الهوان

إن قينية تحل محباً ... وحفيراً.. فجنبتي ترفلان

لا تواتيك في المغيب إذا ما ... حال من دونها فروع قنان

إن ليلى.. ولو كلفت بليلى ... عاقها عنك عائق غير وان!

ثم ضرب الدهر على ذلك.. وأتى عليه زمان طويل.. وأصبح

النعمان أميراً على حمص.. وإذا بليلى القينية قد قدمت عليه واستأذنت للدخول شأنه شأن سواها.. فما إن رآها حتى عرفها.. فأنشأ يقول:

ألا استأذنت ليلى.. فقلنا لها.. لجي
وما لك ألا تدخلي بسلام
فإن أناساً زرتهم.. ثم حرموا
عليك دخول البيت.. غير كرام

وتذكر هديتها لهم.. وإن مناسبتها هي التي هيأت له اكتشاف موهبة الشعر لديه.. فأحسن صلتها.. ورفدها طول مقامها.. إلى أن رحلت عنه.

* * *

ـ ٣٩ ـ

كان لأحد أصدقائنا القدامى.. بشبش الله عظامه في الجنة.. خادم أراه التعب أصنافاً.. والغلب أشكالاً.. وقد رأى.. فيما يراه التعبان الغلبان.. أن يخصصه لقضاء حوائج أفراد.. المركاز.. لتربيتهم على يديه حتى يقللوا من طلباتهم.. فكان له ما أراد.. فلا يكاد أحدهم يرسله في قضاء غرض بسيط حتى ينطلق للسوق الكبير بدلاً من سوق الندى تحرياً لشراء الأحسن.. ولكنه لا يعود إلا بعد أن يسأم صاحب الطلب في طلبه.. إلا أنه يعود مزوّداً بعدة أخبار.. إما عن مضاربة وقعت.. أو سرقة ضبطت.. أو وفاة حصلت.. فأطلقنا عليه.. البريد الطواف.. ولا ينتهي تعريف خيبته عند حد!

هذا.. وإن للرسول الحاذق مكانة هامة يتحدث عنها مثلنا الشعبي المشهور بإيجاز.. بقوله.. أرسل رسول.. ولا ترسل فلوس.. كما يزكيها في براعة وحكمة الشاعر القديم القائل:

إذا كنت في حاجة مرسلاً ... فأرسل.. لبيباً.. ولا توصه
وإن بأب أمر عليك التوى ... فشاور.. حكيماً.. ولا تعصه

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١٠/٢٧هـ ـ ١٩٦٨/١/٢٧م.

وفي هذا الموضوع الخطير رغم تفاهته.. أو بساطته لدى النظرة العابرة حكاية قصيرة السياق.. عميقة المغزى.. تمثل صورة كاريكاتورية فيه.. تقول:

كان لرجل غلام من أكسل وأخيب الناس.. فأرسله عمه يوماً ليشتري له عنباً وتيناً.. فأبطأ عليه.. حتى عيل صبره.. فقد نضج الطعام.. وجهزت المائدة.. ولم تبق إلا الفاكهة.. يرتقيها والمدعوون .. بفارغ الصبر..

وأخيراً جاء الغلام بالعنب وحده ولم يأت بالتين.. فضربه الرجل ضرباً مبرحاً أفرغ فيه كل غضبه وثورة أعصابه.. ثم توجه إليه بالنصيحة التالية لاتخاذها قانوناً وشعاراً مرعيين باستمرار.. وقال:

ينبغي عليك أن تلاحظ أنه إذا استقضيتك حاجة في مرة ثانية أن تقضي حاجتين.. بدلاً من أن تفعل كما فعلت اليوم..

ومر حين من الزمن طويل.. ثم مرض الرجل.. فأمر غلامه أن يذهب ليأتيه بطبيب يرى ما به.. فغاب الغلام مدة طويلة.. ثم جاء بالطبيب.. ولكن معه رجل آخر.. فسأل العم غلامه عن الشخص الثاني الذي أتى به مع الطبيب من يكون؟!.. فأجابه:

أنسيت؟! أما ضربتني من قبل.. وأمرتني أن أقضي لك حاجتين في حاجة.. قال.. وماذا عملت .. قال.. لقد جئتك بالطبيب ومعه من رأيت.. فإن شفاك الله تعالى كان بها.. وإلا فسوف يحفر هذا لك قبرك.. فهذا الطبيب.. وذلك حفار القبور!

* * *

ـ ٤٠ ـ

في عصرنا الحاضر.. تقوم مصالح الأرصاد الجوية بدورها اليومي في مهامها المختلفة.. ومن ضمنها إعطاء نشرة جوية تتعلق بالحرارة وبالبرودة.. وبهطول الأمطار الخفيفة أو الثقيلة على الساحل الشرقي ـ أو على اللسان الغربي ـ وقد تجيء الأحوال الجوية أحياناً كما تقول ـ ولكنها تجيء حيناً مكذبة لما سجلته الأرصاد الدقيقة ـ فتكون مصدر تفكهة.. وتعليق من الأفراد أو من الصحف اليومية ترديداً للصدى العام..

وربما تذكر أحدنا في هذا المجال البشر عطلته الآلة.. فقارن بينها وبين معرفة الأعرابي بالوراثة وبالخبرة وبالفطنة حالات الجو من ظواهره الطبيعية يدرك بها هذا الخبير الفطري بالممارسة ما نعرفه بالآلات المجهرية والسيارة في الفضاء.. لاعتياده على المواجهة السافرة في الداء الجو.. وعلمه بالأنواء.. وحاجته الملحة للمعرفة بحكم تنقله في الصحراء.. وتمتعه فضلاً عن ذلك وسواه بنظر حاد قوي ممتد الرؤية إلى بعيد.. بعيد..

والحكاية اليوم مع إشارتها لما فات.. فإن فيها عنصراً غريباً وجديداً في الموضوع.. فإن صاحبها رجل مكفوف البصر.. لكنه مبصر القلب والغريزة.. أما زميلته ففتاة صغيرة السن لكنها لمّاحة.. دقيقة الملاحظة..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/١هـ ـ ١٩٦٨/١/٣٠م.

ماهرة في نقل الصورة واضحة تكاد تلمس.. وتحس.. وإن كنا نأسف فإنما نأسف لورود الحكاية بلهجة العقنقل.. والطخا.. والدردبيس.. وفي ألفاظ أثرية بائدة.. إلا أنها لا تطمس جلاء وحلاوة الصورة.. وهي تقول:

يحكى أن أعرابياً مكفوفاً خرج ومعه ابنة عم له لرعي غنم لهما.. فقال الشيخ للفتاة.. أجد ريح النسيم قد دنا.. فارفعي رأسك فانظري.. فقالت.. أراها كأنها ربرب معزى هزلى.. قال.. ارعي واحذري.. ثم قال لها بعد ساعة.. إني أجد ريح النسيم قد دنا.. فارفعي رأسك وانظري.. قالت.. أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها.. قال.. ارعي وأحذري.. ثم مكث ساعة.. ثم قال.. إني لأجد ريح النسيم قد دنا.. فانظري.. قالت.. أراها كأنها بطن حمار أصحر.. فقال.. ارعي واحذري.. ثم مكث ساعة.. فقال.. إني لأجد ريح النسيم نفسه فما ترين.. قالت أراها كما قال الشاعر:

وإن مسف فويق الأرض هيدبه	يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه.. وأسفله	ربط منشرة.. أو ضوء مصباح
فمن بمحفله كمن بنجوته	والمستكن كمن يمشي بقرواح!..

فقال.. أسرعي.. فانجي لا أبا لك.. فما انقضى كلامه حتى بدأت السماء تهطل.. مصداقاً لما أنذر به الأعرابي!

* * *

ـ ٤١ ـ

ومن الحكايات الشعبية التي كان الناس يعقدون لها المراكيز لسماع فصولها كل ليلة يقف بهم الراوي عند موقف مشوق.. أو لدى مأزق حرج للبطل ليضمن حضورهم الليلة التالية.. حكايات عنترة بن شداد.. وأبي زيد الهلالي.. والزير سالم.

والحكاية اليوم تمس الأخيرة منها.. وتعتبر من ملاحم العرب التاريخية.. وتقول:

كان كليب بن ربيعة واسمه وائل قد عز وساد في ربيعة فبغى بغياً شديداً وكان هو الذي ينزلهم منازلهم ويرحلهم فلا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره حتى بلغ من عزّه وبغيه أنه اتخذ جرو كلب فكان إذا نزل منزلاً به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه.. أو من آذن بحرب.. فضرب به المثل في العزة حتى قيل.. أعز من كليب وائل..

وكان يحمي الصيد ويقول.. صيد ناحية كذا.. وكذا في جواري فلا يصيد أحد منه شيئاً.. وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس.. ولا

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/٢هـ ـ ١٩٦٨/١/٣١م.

يحتبي في مجلسه أحد غيره.. وكان لمرة بن ذهل عشرة بنين جساس أصغرهم.. وكانت أختهم عند كليب.. ولهم خالة تسمى.. البسوس.. وكانت قد جاءت فنزلت على ابن أختها جساس.. فكانت كذلك جارة لبني مرة وكان معها ابنها ولها ناقة خوارة وفصيل.. وهذه الخالة هي التي قيل فيها.. أشأم من البسوس!

ويحكى.. أنه بينما كانت امرأة كليب بن ربيعة وهي أخت جساس.. تغسل رأس زوجها في يوم من الأيام وتسرحه التفت إليها قائلاً.. من أعز وائل؟.. فصمتت.. فعاد عليها.. فصمتت.. فلما كرر ذلك وأكثر عليها.. قالت له.. أخواي جساس وهمام.. فنزع رأسه من بين يديها.. وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس خالة جساس فقتله.. فأغمضوا على ما فيه وسكتوا.. ثم لقي كليب ابن البسوس فقال.. ما فعل فصيل ناقتكم؟.. قال قتلته وأخليت لنا لبن أمه.. فأغمضوا على هذه أيضاً.

ثم إن كليباً أعاد على امرأته في يوم آخر قوله.. من أعز وائل؟.. فقالت.. أخواي.. فأضمرها وأسرها في نفسه.. وسكت.. حتى مرت به إبل جساس أخيها فرأى ناقة البسوس.. فقال ما هذه الناقة؟ قالوا لخالة جساس.. قال.. أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير علي بغير إذني!.. ارم ضرعها يا غلام.. فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها.. وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر.. فقال.. احلبوا لخالتي مكيالي لبن بمحلبها ولا تذكروا لها من هذا شيئاً.. ثم أغمضوا عليها أيضاً..

وحدث فيما بعد.. أن هطلت الأمطار فخرج كليب يتمطر ـ أي

يتنزه في الخلاء ـ فركب جساس ابن مرة وابن عمه عمرو بن الحرث بن ذهل.. حتى أتيا كليباً وهو واقف على غدير الذئاب فقال له جساس طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً.. فقال كليب.. ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون.. فناداه جساس.. هذا كفعلك بناقة خالتي.. فقال له كليب.. أو ذكرتها!.. أما إني لو وجدتها في غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل..

عند ذلك.. عطف عليه جساس فرسه وطعنه برمح فانفد حضنيه وهما ما دون الإبط والكشح.. فلما تداءمه الموت قال.. يا جساس أسقني من الماء.. قال ما عقلت استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه.. وعطف عليه عمرو زميل جساس.. فاحتز رأسه..

وفي ذلك.. يقول المهلهل:

قتيل ما قتيل المرء عمرو — وجساس بن مرة ذو ضرير
ولو نبش المقابر عن كليب — فيعلم بالذنائب أي زير؟!

* * *

ـ ٤٢ ـ

ومن الزوجات من قد ترى الاستخفاف بزوجها في حداثة الزواج لثراء أهلها.. أو لسبب آخر.. أسلوباً نفسياً يصطنعه البعض منهن مع الزوج للاستدراج.. فالتدريب عليه.. فالتعود.. فالتدجين.. وقد يبلع الزوج الطعم فيصبح للزوجة كما أرادت.. تابعاً مطواعاً لما توجهه إليه.. كما تشتهي وتريد دون مراعاة لرأيه.. أو محاباة لاتجاهاته.. دلدولاً كما يطلقون على أشباهه.. في التعبير البلدي..

على أن هذا الأسلوب من بعض الزوجات رد فعل عكسي إن كان الزوج من نمط غير النمط المقدر.. والمفروض.. أو إن كان من الصنف المكايد بطبعه ورد الفعل البالغ عادة ودائماً هو الضرة!..

والزوج في الحكاية اليوم هو محمد بن بشير الخارجي.. ويكنى أبا سليمان.. شاعر فصيح مطبوع من شعراء الدولة الأموية.. وهو ممن عاش التجربة الزوجية السابقة.. وخرج منها بنجاح.. وتقول الحكاية:

كان محمد بن بشير الخارجي من أهل المدينة.. وكانت له بنت عم سرية جميلة قد خطبها غير واحد من سروات قريش فلم ترضه.. فقال

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/٣هـ ـ ١٩٦٨/٢/١م.

محمد بن بشير لأبيه.. زوجنيها.. فأجابه كيف أزوجكها وقد رد عمك عنها أشراف قريش.. فذهب إلى عمه بنفسه فخطبها إليه.. فوعده بذلك وقرب منه.. فمضى محمد إلى أبيه فأخبره فقال له.. ما أراه يفعل.. ثم عاوده فزوجه إياها..

حينذاك غضبت الفتاة وقالت لأبيها.. خطبني إليك أشراف قريش فرددتهم وقبلت زواجي من هذا الغلام الفقير.. فقال لها هو ابن عمك وأولى بك.. فلما بنى بها محمد ابن عمها جعلت تستخف به وتستخدمه.. وتبعثه في غنمها مرة.. وإلى نخلها مرة أخرى.. إلى غير ذلك.. فلما رأى أن ما تفعله معه إنما تريد به محق رجولته.. ومركزه كزوج.. أضمر في نفسه أشعارها بما يجب.. فقال شعراً في الموضوع.. ثم تخير الوقت المناسب.. فخلا على مقربة من الغرفة التي كانت بها.. وأخذ يترنم بالشعر.. يسمعها إياه دون أن تراه.. وكأنه لا يعلم أنها على مقربة منه.. ويقول:

تثاقلت إن كنت ابن عم نكحته

فملت وقد يشفى ذوو الرأي بالعذل

فإنك ألا تدركي بعض ما أرى

تنازعك أخرى.. كالقرينة في الحبل

تلزك ما استطاعت إذا كان قسمها

كقسمك حقاً.. في التلاد وفي البعل

متى تحمليها منكِ يوماً لحالة

فتتبعها.. تحملك منها على غل!

فما إن سمعت هذا التهديد المستور بابتلائه إياها بضرة لها.. حتى صلح حالها.. واحترمته كزوج.. لا كدلدول!

وتعميماً للفائدة فقد رأينا ترجمة الفصحى من الزميل الموقر إلى الشعبية في جوها البلدي المفهوم في الآتي:

لقد قريفتني في الحقيقة زوجتي
بدون لزوم للتسلط والأمر
تعال يميناً.. رح شمالاً.. ألا تقف
لقد جيت وخرى اليوم لازم تجي بدر
فقلت لها.. سمعاً إليك.. وطاعة
ولكن بلاش النز.. في الصبح في الظهر
فإن عشت مني يا ابنة العم هكذا
فسوف أسويها.. وحقك في الجهر
سأخطب بنتاً من بنات كدردش
أوطي لها كتفي.. وركبها ظهري
فما قصرت بنت الحلال.. ترهونت
وقالت.. على عيني.. فأنت مُنى عمري!

* * *

ـ ٤٣ ـ

واختلفت جماعة السهرة مرة.. في ليلة.. فتعصب فريق منها لما شاع وذاع من أن القناعة كنز لا يفنى.. وتحصن فريق آخر وراء الشعر المدافع عن الفكرة المضادة.. واستشهدوا بقوله عما يعتقد ويعتقدونه:

قالوا القناعة كنز قد طاب في النفس.. غرسا
أغلى الحياة.. وأزجى بها السعادة.. همسا
فقلت.. هذا عزاء يدسه الضعف.. دسا
ما كل من كان يرضى بأن يكون الأخسا

والحكاية اليوم بروحها الشعبية.. وبجوها البلدي ذبذبة بين الفكرتين وإن انتصرت بتقليديتها لرأي القنوعين.. وتقول:

يحكى أن جزاراً كان يسكن وزوجته بيتاً أرضياً وبه حوش كبير.. وإن تاجراً وزوجته كانا يسكنان داراً عالية تطل على بيت الجزار الأرضي وحوشه المتواضع.. فهما يكشفان منه ومن حياة ساكنيه كل صغيرة وكبيرة.

وكان الجزار يذبح خروفاً كل صباح.. حتى إذا انتهى من بيع لحمه

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/٦هـ ـ ١٩٦٨/٢/٤م.

بدكانه بسوق الجزارين وعاد آخر النهار لبيته تلقته زوجته من وسط الحوش ضاحكة مهللة مرحبة به.. فيبادلها الضحك والتهليل والترحيب.. مبادراً إلى إبدال ثوبه الملطخ بدم الصنعة وعرقها.. بالفوطة والعراقية النظيفتين.. حيث يعمدان بعد ذلك إلى الجلسة الحلوة أمام السموار يحضران بفنهما البلدي براد الشاي المضبوط.. يرشفان أكوابه وهما يتبادلان الحديث والتعليق على زبائن اليوم وحوادثه.. وبعد أن يصليا المغرب يتعاونان سوية في تحضير طعام العشاء ليتناولا اللقمة الطيبة الحلال هانئين حامدين المولى على نعمائه. فإذا صليا العشاء وما يطيقانه من نوافل عمدا إلى النوم المبكر واتخاذ الليل من أوله لبس صحة وهناء وسعادة.. ويكاد هذا المنوال اليومي يشكل عيشة الجزار وزوجته اليومية.. في بيتها الأرضي المتواضع ذي الحوش الكبير..

أما جارهما التاجر في داره العالية تطل عليها وتكشفهما فقد كان يعود كل ليلة بعد الغروب ووراءه خادم يحمل له دفاتر الحساب.. ليلج البيت صامتاً .. ساهماً مطرق الرأس والفكر يراجع في نفسه حساب الأرباح والخسائر وما يجب أن يرصده في دفاتره من أرقام.. وتقف زوجته صامتة مثله إلا من كلمات روتينية نادرة وباردة.. يتبادلانها فيما يشبه الهمس.. حيث يقتعد التاجر مجلساً من الروشن وأمامه بعض المساند قد وضعت عليها دفاتر الحساب ليستعيد بها كل ليلة ما يريده من أرقام.. عادة درج عليها لا تنقطع ووقتاً محسوباً لا يضيع.. حتى إذا تهيأ العشاء تناوله هو وزوجته وفي تنوع خانات الآحاد والعشرات والمئات منها.. وزوجته مشتغلة بأحاسيسها وتمنياتها.. مبدية ومعيدة في استرجاع وفي تشكيل صورة حياة الجزار وزوجته جاريهما.. حيث ألفت كل يوم

أن تراقبهما من فجوات الشيش وأن تتبع جزئيات حياتهما في فضول وتطلع وغبطة راجية لو تهيأت لها نفس الحياة الضاحكة اللاهية.. حتى لقد أصبحت من إدمانها على مراقبة جاريْهما تعرف بالدقيقة موعد وصول الجزار.. وتتوقع سلفاً ما سيقوم به الزوج وما ستعمله زوجته من استقبال حار.. ولهو بريء.. ومرح.. واستمتاع بالأكل.. ثم ما يدل عليه إطفاء نور اللمبة داخل الغرفة..

ومن كل ذلك ـ ففي ذات ليلة ـ كان زوجها قد اقتعد مكانه بالروشن أمام دفاتره التجارية.. فقد انفجرت عواطفها المكبوتة.. وأحاسيسها المصفدة فصرخت في زوجها أن يقوم من مكانه.. وأن يأتي إليها حيث هي مطلة من ثقوب الشيش على الجزار وزوجته وأشارت إليهما وقالت لزوجها التاجر:

انظر!.. كيف يحيا هذا الجزار وزوجته كل يوم في هذا الهناء العائلي البسيط.. حتى تعرف كيف تمر عيشتنا الروتينية دون تبديل.. فجاء التاجر وجلس بجانبها ورأى.. وراقب.. وتابع حياة الجزار وزوجته في بيتهما الضاحك السعيد إلى أن أويا إلى غرفتهما.. وانطفأ نور اللمبة..

ثم انسل التاجر صامتاً إلى فراشه.. وأوى إليه مفكراً مقلباً الرأي موازناً بين الحياتين حياته هو وزوجته.. رابطاً بين العلة والمعلول فيما يشبه الفلسفة.. ونام أخيراً.. وزوجته إلى جواره لا تشاركه ما في رأسه.. ولا ما في نفسه التي بيت فيها شيئاً ليعمله غداة غد.. كما عبر وقدر..

فإلى غد.. حيث نتابع ما كان من أمر التاجر والجزار.. وما انتهى إليه الصراع بين لونين رئيسيين من ألوان هذه الحياة الدنيا..

* * *

ـ ٤٤ ـ

وتقول الحكاية في مجال المقارنة بين القناعة والتطلع.. إن التاجر بعد أن شاهد بعينه مع زوجته وحسب طلبها حياة جاره الجزار وزوجته وبات وقد قرر في نفسه أمراً.. بعث خادمه حالما استيقظ من النوم ليستدعي جاره الجزار إليه.. وقد أقبل مستغرباً الدعوة وأسبابها فلم يسبق لجاره التاجر أن حادثه أو دعاه أو شعر بوجوده.. وعندما حيا كل منهما الآخر بأسلوب المجاملات المعتاد.. دار بينهما الحوار الآتي:

قال التاجر للجزار: باعتباري جارك.. وقد أوصى النبي على الجار.. فإن أمرك يهمني.. كما تهمني نصيحتك وإرشادك ولعلّ لك خيراً فيهما.. وإنني أرجو أن تخبرني بصدق.. كم خروفاً تذبح كل نهار؟..

فأجاب الجزار: إنني يا سيدي أذبح خروفاً واحداً فقط.. وأحمد الله وأشكره، ففي ربحي من هذا الخروف الواحد ما يكفيني وأهلي وأنا قانع به وبحياتي الحاضرة..

قال التاجر: ولكن يا جاري العزيز.. ألا تعلم أنه لا بد لليوم

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/٧هـ ـ ١٩٦٨/٢/٥م.

الأسود من القرش الأبيض.. وإن كل شخصٍ معرّضٌ للمرض.. وللحوادث.. وللتبطل.. فلو أنك ذبحت ثلاثة خرفان كل نهار لتضاعف ربحك ثلاث مرات.. ولادخرت الربح الزائد عن ربحك اليومي المعتاد.. للطوارئ..

فقال الجزار: ولكني لا أملك رأس المال، وليس لدي إلا رزق يوم بيوم..

فأجابه التاجر: إنني على استعداد لإدانتك بعض المال.. على أن تسدده على أقساط بسيطة جداً من أصل ربحك الجديد.. وهنا أشار التاجر لخادمه فقدم للجزار كيس نقود.. بصم بعد استلامه على سند استلام المبلغ.. وخرج من بيت التاجر.. فاشترى ثلاثة خرفان.. واستمر في بيعها بدكانه إلى وقت متأخر جداً عن ميعاد عودته المعتادة إلى بيته وزوجته.. لأول مرة..

وحينما وصل البيت.. وجد الزوجة مكوّمة في ركن من الحوش.. وقد غفت من الانتظار وخمدت نار السموار.. وبرد طعام العشاء.. فأيقظها.. وللمرة الأولى في حياة هذا البيت السعيد يختلف الوضع.. فقد تلاشت الضحكات.. وغابت أسباب الأحاديث المرحة.. فلم ترن لهما في الحوش قهقهة.. ولم تسمع لهما أصوات طروبة رنانة.. فقد أخذ الجزار في حساب وارده اليومي الكبير.. مستعيناً بأصابع يديه العشر.. ثم أصابع قدميه.. ليعرف بعد حساب ثمن الخرفان الثلاثة.. والمصاريف الطارئة ماذا حقق من ربح.. وماذا يجب أن يدفعه كقسط أول للتاجر من دينه.. وماذا سيدخر؟.. بينما أخذت زوجته تتثاءب وترنو إليه في هلع وسكون.. وهكذا باتا ليلتهما الكئيبة الأولى.. وكل منهما

في وادٍ.. وفي شغل بهواجسه وبأفكاره..

وتكرر نفس الوضع.. وتشاكلت الحالة في ليلتهما الثانية.. والثالثة.. واختفت مظاهر حياتهما السابقة.. كل هذا وزوجة التاجر تراقب.. وترى.. وتنكر مستغربة ما جد على الجزار وزوجته.. بينما زوجها التاجر صامت شامت في سره.. يرفع عينيه إليها من وقت لآخر.. وهي لا تعلم أن زوجها السبب في إفساد حياة ذينك الزوجين السعيدين.

أما زوجة الجزار.. فقد سألته أخيراً بعد أن ضاقت بحياتهما الجديدة الطارئة بقولها له.. تعال.. قل لي ما الخبر؟ وماذا جرى لك؟.. فسكت ثم سرد لها ما عمله معه التاجر.. وما قدمه له من دين.. ورغبها في أنه سيكون لهما ربح يمكّنه أن يشتري لهما بعض الملابس والحلى الجديدة في المستقبل القريب.. إنه سيعيد تأثيث البيت على النحو الذي رآه في بيت التاجر.. وأخذ يمنّيها.. ويقنعها بالصبر.. ليقنع نفسه عن هذا الطريق بصحة ما هو آخذ به..

إلا أن زوجته صرخت في وجهه.. إنني قانعة بما كنا فيه من حياة الخروف الواحد.. وأنها ضائقة كل الضيق بحياة الخرفان الثلاثة مهما كان الربح منها ما دام سيكون على حساب تبديل الحياة الضاحكة اللاهية.. ولا زالت به تؤزره وتغريه على أن يكون قنوعاً.. فالقناعة كنز لا يفنى.. وكنزنا الحي هو ما كنا فيه.

فنام.. وقد بيّت هو الآخر في نفسه شيئاً.. حتى إذا أصبح الصباح ذهب إلى جاره التاجر وقال له.. إليك دينك أيها الجار العزيز كله كاملاً.. وإن شئت قاسمتك أرباح الخرفان الثلاثة.. للثلاثة أيام..

وهرول خارجاً من بيت التاجر.. واقتصر على شراء خروف واحد.. كما كان وعاد في ميعاده.. ليجد زوجته مهللة ضاحكة.. والسموار منصوب.. والبراد حاضر.. والفوطة والقميص مكويّان نظيفان.. وتبسى العشاء.. على جنب.. ورائحة من العودة تفوح من غرفة النوم..

ومع الضحكات.. والمرح.. والسهرة القصيرة الحارة كانت هناك عينان تبصبصان من ثقوب الشيش..

إنها عينا زوجة التاجر.. في مجلسها المعتاد للمراقبة.. وقد التفتت بعد أن شاهدت المناظر المعتادة.. وبعد أن عرفت أن زوجها كان السبب في التغيير الطارئ للأيام الثلاثة السالفة على حياة الجزار وزوجته.. قائلة لزوجها:

ألا يمكنك أن تقيم حياتنا على ما يعادل ربح خروف واحد؟..

❊ ❊ ❊

ـ ٤٥ ـ

والحكاية اليوم.. لا تحتاج إلى تمهيد أو ترشيح.. فإنها تزكي نفسها بنفسها.. هدية طيبة من زوجة عاقلة.. وفتاة رشيدة.. وأب حليم شريف.. وزوج كفء.. كريم:

حكي عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان أترى أخطب إلى أحد فيردني؟ قال نعم.. قال: ومن هو؟ قال أوس بن حارثة بن لام الطائي.. قال أركب بنا إليه فركبنا حتى أتينا أوس بن حارثة في بلاده فوجدناه في فناء منزله.. فلما رأى الحارث بن عوف قال مرحبا بك يا حارث ثم قال ما جاء بك؟ قال جئت خاطباً. قال: لست هناك.. فانصرف ولم يكلمه.. فدخل أوس على امرأته مغضباً.. فقالت له من الرجل الذي سلم عليك فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه.. فقال ذلك سيد العرب الحارث بن عوف فقالت: ما لك لا تستنزله.. قال إنه استهجنني. قالت وكيف؟ قال: لأنه جاءني خاطباً قالت: ألست تزعم أنه سيد العرب؟ قال: نعم. قالت: إذا لم تزوج سيد العرب في زمانه فمن تزوج.. قال قد كان ذلك.. قالت: فتدارك ما كان منك. قال: فبماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده.. قال: وكيف؟ وقد فرط مني إليه ما فرط؟

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/٨هـ ـ ١٩٦٨/٢/٦م.

قالت: تقول له: إنك لقيتني وأنا غاضب لأمر.. فلك المعذرة فيما فرط مني فارجع ولك عندي كل ما طلبت.. فركب في أثرهما. قال خارجة.. فوالله إنا لنسير إذ حانت مني التفاتة فرأيته.. فقلت للحارث وهو ما يكلمني هذا أوس في أثرنا.. فقال: ما أصنع به.. فلما رآنا لا نقف.. قال يا حارث أربع علي فوقفنا له.. وكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً.. قال خارجة: فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته نادي لي فلانة، أكبر بناته.. فأتته فقال: أي بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءني خاطباً وقد أردت أن أزوجه منك فما تقولين؟.. قالت لا تفعل. قال ولم؟ قالت لأن في خلقي رداءة.. وفي لساني حدة.. ولست بابنة عمه.. فيراعي رحمي، ولا هو بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون علي بذلك مسبة.. فقال لها قومي بارك الله فيك.. ثم دعا بابنته الوسطى فقال لها مثل قوله لأختها فأجابته بمثل جوابها.. فقال لها قومي بارك الله فيك.. ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهن سناً.. فقال لها مثل ما قال لأختيها فقالت له: أنت وذاك.. فقال لها إني عرضت ذلك على أختيك فأبتاه.. ولم يذكر لها مقالتهما. فقالت: والله إني الجميلة وجهاً الرفيعة خلقاً.. الحسنة رأياً.. فإن طلقني فلا أخلف الله عليه.. فقال لها: بارك الله فيك.. ثم خرج إليه فقال: زوجتك يا حارث بابنتي هئيسة. قال: قد قبلت نكاحها.. وأمر أمها أن تهيئها له.. وتصلح شأنها.. ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه.. ثم بعثها إليه فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج إلي فقلت له أفرغت من شأنك؟! قال لا والله.. فقلت له وكيف ذلك؟ قال لما مددت يدي إليها قالت مه أعند أبي وأخوتي.. هذا لا يكون.. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معاً.. وسرنا ما شاء الله قال لي تقدم.. فتقدمت فعدل عن

الطريق فما لبث أن لحقني فقلت أفرغت من شأنك؟ قال لا والله.. قلت ولم؟ قال: قالت تفعل بي كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي.. فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً فقال: صدقت. قال وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة.. فوردنا إلى بلادنا فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إلي فقلت أفرغت من شأنك؟ قال لا والله.. قلت ولم ذاك؟ قال دخلت عليها.. فقلت لها أحضرت من المال ما تريدين.. قالت: والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس بك.. قلت ولم ذاك؟ قالت أتستفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضاً.. وكان ذلك في أيام حرب قيس وذبيان.. قلت فماذا تقولين؟ اخرج إلى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد.. فقلت والله إني لأرى عقلاً ورأياً سديداً، قال فاخرج بنا.. فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح.. فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم تؤخذ الدية فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير فانصرفنا بأجمل ذكر.. ثم دخل عليها فقالت له أما الآن فنعم.. فأقامت عنده في ألذ عيش وأطيبه.. وولدت له بنين وبنات وكان من أمرهما ما كان!

* * *

ـ ٤٦ ـ

والحكاية اليوم تكملة لحكاية ماضية تتصل بحرب البسوس وتروي مآل القاتل يأخذ بثأر قتيله أقرب الناس إليه نخوة جاهلية تضى عليها الإسلام ديناً سمحاً رب القصاص وطريقه.. كما تصور العقلية العربية للنساء الفضليات وحالة فزعهن الدائم من دوام سفك الدماء.. بسبب قتل جر إلى ثأر فقتل سلسلة لا تنتهي أو تنتهي لحرب لا يعلم مداها إلا الله نشأ عن سبب واهٍ أو بسيط.. سنة بشرية لا تزال طبعاً للإنسان.. تحذرنا مغبتها النتائج المروعة للمجازر البشرية.

وتمهيداً لها. يقال إنه لما قتل جساس بن مرة كليب بن ربيعة وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب اجتمع نساء الحي للمأتم.. فقلن لأخت كليب رحلي جليلة عن مأتمك فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب فقالت لها: يا هذه.. اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا.. فخرجت وهي تجر أعطافها.. فلقيها أبو هامرة فقال لها: ما وراءك يا جليلة كليب.. رحلة المعتدي وفراق الشامت.. ويل حليل.. وقتل أخ عن قليل. وبين ذين غرس الأحقاد.. وتفتت الأكباد.. فقال لها أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/١٠هـ ـ ١٩٦٨/٢/٨م.

فقالت جليلة: أمنية مخدوع ورب الكعبة! أبا لبدن تدع لك تغلب دم ربها!.. ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب.. رحلة المعتدي وفراق الشامت.. دين غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة.. فبلغ قولها جليلة فقالت.. وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها!

أما الحكاية ذاتها في غلبة الوراثة. ومنطق الدم.. وعنجهية الجاهلية الأولى.. وفعل الإثارة.. فتقول:

يحكى أنه لما رجعت جليلة إلى أهلها.. ووقعت الحرب فكان من الفريقين بكر وتغلب ما كان ثم صاروا إلى الموادعة بعدما كادت القبيلتان تتفانيان.. وكانت جليلة حاملاً من زوجها كليب الذي قتله أخوها جساس فولدت في حينه غلاماً سمته الهجرس ورباه خاله جساس قاتل أبيه فكان لا يعرف أباً غيره فلما كبر الهجرس زوَّجه جساس ابنته.. وفي يوم من الأيام وقع بين الهجرس وبين رجل من بني بكر بن وائل كلام فقال له البكري: ما أنت بمنته حتى نلحقك بأبيك. فأمسك عنه ودخل إلى أمه كئيباً فسألته عما به فأخبرها الخبر، فلما أوى إلى فراشه ونام إلى جنب امرأته ابنة خاله تنفس وزفر زفرة أفزعت الزوجة فقامت فزعة حتى دخلت على أبيها فقصت عليه حالة الهجرس زوجها.. قال جساس.. ثائر ورب الكعبة.

وبات جساس قلقاً من ذلك حتى أصبح.. فأرسل إلى الهجرس فأتاه.. فقال له: إنما أنت ولدي ومني بالمكان الذي قد علمت.. وقد زوجتك ابنتي وأنت معي.. وقد كانت الحرب في أبيك زماناً طويلاً حتى كدنا نتفانى.. وقد اصطلحنا وتحاجزنا.. وإنني أرى أن تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح.. وأن تنطلق حتى نأخذ عليك مثل ما أخذ علينا

وعلى قومنا. فقال الهجرس: أنا فاعل.. ولكن مثلي لا يأتي قومه إلا بلأمته وفرسه.. فحمله جساس على فرس وأعطاه لأمة ودرعاً.. فخرجا حتى أتيا جماعة من قومهما.. فقص عليهم جساس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا إليه من العافية. ثم قال: وهذا الفتى ابن أختي قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ويعقد ما عقدتم.. فلما قربوا الدم كعادتهم وقاموا إلى العقد أخذ الهجرس بوسط رمحه. ثم قال: وفرسي وأذنيه. ورمحي ونصليه.. وسيفي وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه.. وهو ينظر إليه.. ثم طعن خاله جساساً فقتله.. ثم لحق بقومه.. فكان جساس آخر قتيل في بكر بن وائل!!

* * *

ـ ٤٧ ـ

جمع بينهما كرسي خشبي مستطيل.. أمامه تختة خشبية سوداء ذات خمسة أدراج في فصل مدرسي واحد.. أحدهم أبيض الوجه شريف الحسب والنسب.. وثانيهما أسمر من أبناء الطندباوي.. لا يستطيع أن يعد من أجداده أكثر من جدين اثنين بمكة..

ولقد ربطت بينهما حياة الفصل الواحد بالمدرسة الواحدة برباط يعلو على الحسب وعلى النسب في حينه كله الود والألفة زادتهما الحياة المدرسية وزمالتها قوة وائتلافاً على مر الأيام والشهور والأعوام.

وظلا على علاقتهما الوطيدة حتى في العام الدراسي الذي كان لثانيهما كرسي مستطيل وتختة خشبية سوداء تتصدر صفوف الفصل ولأولهما مثلها.. وإن كانت في نهاية الفصل.. وكانا معروفين بالبرنجي والإفرنجي.. بل لقد تلازما أكثر وأكثر وبلغت الصداقة بينهما مرتبة ما يطلق عليه.. رب أخ لم تلده أمك..

ورغم أنهما كانا صديقين حميمين متآلفين.. فقد كانت لكل منهما صفة ومزاج.. وطبع.. فالأول مرح مندفع فكه في كل ما يمارسه أو

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/١٢هـ ـ ١٩٦٨/٢/١٠م.

يتصل به من شؤون وشجون.. والثاني هادئ رزين جاد في سلوكه.. وبحياته اليومية..

وتخرجا من المدرسة في عام واحد.. واستقبل كل منهما الحياة.. وسلك بدربه في خطه فيها.. ومع ذلك ظلا يتقابلان مع جماعة لهما في أول الأمر وبكل أمسيات.. البشكة.. في دوريات معتادة يقضون بها ليالي السمر بالتناوب المرتب.

ثم سافر ابن الطندباوي الهادئ الرزين إلى بلاد تركب الأفيال.. وعاش ما عاش فيها سنوات طويلة جداً.. كان في بدايتها يكتب لصديقه المقيم في البلاد وصديقه يجيبه على رسائله أو يهملها.. حتى وقفت المكاتبات.. وانقطع الاتصال على بعد كما انقطع على قرب.

وفي غضون هذه السنوات انقلب الصديق العريق الحسب الفكه المرح المهذار إلى كهل عصفت بنضارته وبروحه وبحياته الأحداث.. وأحالته التجاعيد والأرزاء شخصاً غير الشخص.. فقد أصبح عصبياً حزيناً سوداوي المزاج.. كل ميزاته أنه يحسب لنفسه ولزملائه الموظفين حساب العلاوات والدرجات والمراتب.. وحساب اليوم الأكبر.. يوم التقاعد عن الوظيفة الحكومية.

ولما كان أرنبي الطبيعة فقد أصبح له من الأبناء الذكور والإناث عدد يبيح له ارتكاب الخطأ في أسمائهم بعضهم البعض والخلط بينها.. وقد ركبته بعض الديون الثقيلة كما تركب العفاريت أصحاب اللطف.. على أنه بقي محتفظاً بوجاهته.. وبفنجرته.. المسمى بها والمعروفة عنه.

ومرت الأعوام.. وعاد من غيبته صديقه القديم وزميله الغائب..

وقد أصبح من أرباب الأعمال البارزين.. ولم يلعب القصد ولا الصدفة دوراً في أن يلتقي أحدهما بالآخر.. فالتاجر مزدحمة أيامه بأعماله.. والموظف ذو برنامج يومي محددة كل فقرة من فقراته ببرنامج الدوام.. والدوام لله..

ولكن رجل الأعمال لم ينس صاحبه.. ولكنه لما يعرف عنه من عزة نفس وأنفة فقد رتب بحذق التاجر خطته المرسومة.

وذات صباح.. وبعد أن وقع الموظف على دفتر الدوام ناداه فراش المصلحة.. وأخبره أن رئيسه الأعلى يريد مقابلته.. ولما كان على طريقته الخاصة قد حسب المدة الباقية على تقاعده واستبعد أن يكون اليوم الأكبر.. كما يسميه.. قد حان أوانه، فقد أخذ يضرب أخماساً بأسداس في سبب الدعوة.

وأمام رئيسه وقف بأدب وتهيب.. حتى أذن له بالجلوس وأخذ في تهدئة خاطره.. والثناء عليه وعلى عمله.. ثم تدرج إلى حب الخير له.. وأنه يرى أن يسوي حالته الوظيفية لأن صاحب مؤسسة تجارية كبرى ورجل أعمال بارز طلب إليه التوسط في أن يكون مدير مكتبه لما عرف عنه من دقة وترتيب ونظام.. لقاء راتب ضخم وحيثية محترمة.. ومع ذلك لم يسمه له. مكتفياً بموافقته على ما يراه صاحب السعادة.. رئيسه الطيب الشهم.

وفي صباح اليوم الأول من الأسبوع الماضي.. وحسب الوعد.. كان هو ورئيسه أمام البناية التي تشغل دوراً بحاله منها مكاتب رجل الأعمال.

وفي لحظة هائلة تدانت رقاب الأيام.. والأعوام.. وتتابعت مرائي

الذكريات على الشاشة القصيرة أمام ناظريه.. وانحنى التاريخ الحديث للتاريخ القديم.. فإذا هو.. هو أمام زميل دراسته الصديق الصدوق.. وانطبق فم أبيض على ثغر أسود.. وطال طيلة أيام الفراق.. العناق.. والرئيس يردد بطول المشهد وبعرضه:

وقد يجمع الله الشقيقين.. بعدما يظنان كل الظن.. ألاَّ تلاقيا

وهكذا.. جمعتهما من جديد بناية واحدة.. في غرفتين متجاورتين كل منهما بجوار الآخر ـ فوق كرسي دوّار.. سمياه من الأسبوع الأول.. كرسي الحياة الدوار!

* * *

ـ ٤٨ ـ

وفي مجال يجمع بين المنظر والمخبر.. وبين طول اللسان أداة إرهاب.. وبين أثر المعذرة والعتاب عن خطأ وقع.. وشر دفع به.. ثم التفكه دون رصيد أو حساب.. فإن حكايتنا اليوم عن أحد أولئك البوهيميين لا يملكون إلا أن يكونوا حيث وضعتهم طبيعتهم.. وسلوكهم الاجتماعي في الحياة..

وصاحبنا فيها هو الشاعر محمد بن حازم بن عمرو الباهلي.. ويكنى أبا جعفر.. وهو من شعراء الدولة العباسية.. شاعر مطبوع.. إلا أنه كان كثير الهجاء للناس.. وكان ساقط الهمة إلا أنه مثقل جداً.. يرضيه اليسير.. ولا يتصدى لمدح ولا لطلب.. والحكاية تقول:

كان بالأهواز رجل يعرف بأبي ذؤيب من التتار وكان مقصد الشعراء وأهل الأدب.. فقصده محمد بن حازم.. فدخل عليه يوماً وعليه ثياب قديمة.. وهيئة رثة.. ولم يعرفه نفسه.. وصادفهم بالمجلس يتكلمون في شيء من معاني الشعر.. وأبو ذؤيب يتكلم محققاً بالعلم بذلك..

فسأله محمد بن حازم عن بيت من شعر الطرماح.. جهله.. فردّ

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/١٣هـ ـ ١٩٦٨/٢/١١م.

عليه أبو ذؤيب جواباً محالاً. .كالمستصغر له وازدراه لما تدل عليه هيئته. . فلما خرج قيل لأبي ذؤيب ماذا صنعت بنفسك. . وفتحت عليها من الشر؟. . أتدري لمن تعرضت؟. . قال ومن ذاك؟. . قيل محمد بن حازم الباهلي. . أخبث الناس لساناً وأهجاهم. .

فما وسع أبا ذؤيب إلا أن وثب حافياً حتى لحق ابن حازم. . فحلف له أنه لم يعرفه. . واستقاله. . فأقاله. . ولكنه حلف أنه لا يقبل له رفداً. . على أنه كذلك لا يذكره بسوء أبداً. . وكتب إليه بعد أن افترقا:

أخطأ. . ورد على غير جوابي ... وزرى علي. . وقال غير صواب

وسكت من عجب لذاك. . فزادني ... فيما كرهت بظنه المرتاب

وقضى علي بظاهر من كسوة ... لم يدر ما اشتملت عليه ثيابي

من عفة وتكرّم. . وتحمل ... وتجلد لمصيبة. . وعقاب

وإذا الزمان جنى علي وجدتني ... عوداً لبعض صفائح الأقتاب

ولئن سألت. . ليخبرنك عالم ... إني بحيث أحب من آدابي

وإذا نبا بي منزل خليته ... قفراً. . مجال ثعالب وذئاب

وأكون مشترك الغنى مبتذلا ... فإذا افتقرت قعدت عن أصحابي. .

لكنه رجعت عليه ندامة ... لما نسبت. . وخاف مض عتابي

فأقلته لما أقر بذنبه ... ليس الكريم على الكريم بنابي!

وللفنّية في الموضوع. . ولما عرف عن صاحبنا. . فقد أغرانا بعض الأحباب بالتعقيب على قصيدته نظراً لعدم قدرة المرحوم على التعقيب عليها. . فقلنا محلمشين إياها في الآتي:

أخطأ. . ورد على غير جوابي ... وزرى علي. . وقال غير صواب

فمسحتها في ذقن أقرب جالس   في جنب حضرة حضرتي.. وجنابي

وبلعتها بلع المريض دواءه   من غير ما أكل.. ودون شراب

لكنني بالرغم من ذا كله   لا زلت محتفظاً بذا الجلباب

فأنا وحقك كالفقيه وكمه   وفم الفقيه بأكلة الأحباب

فإذا استدار العصر بعد زماننا   للعصر.. في زمن الفضا الجواب

فلسوف تعرف للرجال حقوقها   مهما بدوا في بزة.. وثياب

في بنطلون بالزيوت ملطخ   أو غترة مدهونة بهباب

فالعلم.. يحيا العلم.. في تطبيقه   بالنحو.. أو بالصرف والإعراب

ليس المحرك للمحرك.. طائراً   مثل المقشر حبة العناب

فتفقهوا.. وتعلموا.. وتشطروا   فالعصر عصر العلم.. لا الأحساب

* * *

ـ ٤٩ ـ

والحكاية اليوم تجمع أشتاتاً من الصور الإنسانية من الوفاء.. لحالة المنهزم الهارب ليعيش ليله ونهاره مذعوراً.. وللمتستر عطفاً على طريد لا يعلم أمره.. ومن حلاوة العفو يتقدم به لمالكه أعز الناس عليه.. إلى تبدل البغضاء حباً للمتفضل واعترافاً بجميل العفو عنه.

وهي على لسان صاحبها عبيد الله بن قيس الشاعر الملقب بالرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة اسم كل واحدة منهن رقية.. وأمره من الزبيريين معروف:

قال عبيد الله.. خرجت مع مصعب بن الزبير حين بلغه شخوص عبد الملك بن مروان إليه.. فلما نزل مصعب بمسكن وهو موضع قريب من نهر دجيل وقد رأى معالم النور به ممن معه دعاني ودعا بمال ومناطق فملأ المناطق والأحزمة من ذلك المال وألبسني منها.. وقال لي انطلق حيث شئت فإني مقتول.. فقلت له لا والله لا أريم حتى أرى سبيلك فأقمت معه حتى قتل.. ثم مضيت إلى الكوفة فأول بيت صرت فيه دخلته فإذا امرأة طيبة ما إن رأتني وحالة ذعري حتى رقت بي في درجة لها إلى غرفة.. فقعدت فيها حيث أمرت لي بالطعام والفرش والماء

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/١٤هـ ـ ١٩٦٨/٢/١٢م.

للوضوء فأقمت كذلك عندها أكثر من حول تقيم لي ما يصلحني وتغدو علي في كل صباح فتسألني كيف أصبحت.. وما حاجتك؟.. ولا تسألني من أنا.. ولا أسألها من هي.. وأنا في ذلك أسمع الصياح في والجعل..

فلما طال بي المقام وانقطع الطلب وضجرت من بقائي أخبرتها ذات صباح أنني أريد الشخوص إلى أهلي.. فقالت لي: نأتيك بما تحتاج إليه إن شاء الله.. فلما أمسيت وضرب الليل بأرواقه صعدت إلي وقالت إذا شئت فنزلت وقد أعدت راحلتين عليهما ما أحتاج وأعطت العبد نفقة الطريق.. حتى جئت منزلي بمكة فدهش أهلي وقالوا ما فارقنا الطلب عنك إلا هذا الوقت فأقمت عندهم حتى أسحرت ثم نهضت ومعي العبد حتى قدمت المدينة فجئت عبد الله بن جعفر وهو يعشي أصحابه فجلست معهم وجعلت أتعاجم وأقول: يار يار بن طيار بالفارسية.. ومعناها الصاحب والمعين.. فلما خرج الناس كشفت له وجهي.. فقال لا حيلة في أمرك.. إلا أنني سأكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فهي زوجة الوليد بن عبد الملك.. وعبد الملك أرق شيء عليها.. فكتب إليها يسألها أن تشفع له إلى عمها.. وكتب إلى أبيها يسأله أن يكتب إليها كتاباً يسألها الشفاعة..

فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعل وسألها.. هل من حاجة؟.. قالت نعم لي حاجة. فقال قد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات.. فقالت: لا تستثن علي شيئاً.. فنفح بيده أي ضرب بها ضربة خفيفة.. فأصاب خدها فوضعت يدها على خدها.. فقال لها: يا بنيتي ارفعي يدك فقد قضيت كل حاجة لك.. وإن كانت ابن قيس الرقيات

فقالت إن حاجتي ابن قيس الرقيات تؤمنه فقد كتب إلى أبي يسألني ذلك.. قال فهو آمن.. فمريه أن يحضر مجلس العشية.

فحضر ابن قيس.. وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك فأخر الإذن.. ثم أذن للناس.. وأخر إذن ابن قيس الرقيات حتى أخذوا مجالسهم ثم أذن له.. فلما دخل عليه قال عبد الملك.. يا أهل الشام.. أتعرفون هذا.. قالوا: لا.. فقال: هذا عبيد الله بن قيس الرقيات الذي يقول:

كيف نومي على الفراش ولما ... تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي ... عن خدام العقيلة الزهراء

فقالوا: اسقنا دم هذا المنافق.. قال الآن وقد أمنته وصار في منزلي وعلى بساطي.. لقد أخرت الإذن له لتقتلوه.. فلم تفعلوا.

فاستأذن ابن قيس الرقيات أن ينشده مديحه فأذن له.. فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

عاد له من كثيرة الطرب ... فعينه بالدموع تنسكب
كوفية نازح محلتها ... لا أمم دارها ولا صقب
واللّه ما إن صبت إلي ولا ... إن كان بيني وبينها سبب

حتى قال فيها:

إن الأعز الذي أبوه أبو العاصي ... عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه ... على جبين.. كأنه الذهب!

* * *

ـ ٥٠ ـ

يردد بعض الناس الشكوى من أنهم هم الذين يقومون فعلاً بالأعمال ذاتها حين يتولى غيرهم نسبتها إلى أنفسهم.. فيعيشون حياتهم دائماً مغمورين أو خيال ظل لسواهم..

ويستعجل البعض من هؤلاء نصيبه فيجأر بالصراخ ويجهر بما هو فيه وبما ينبغي أن يصير إليه مغفلاً قانون الحياة وطبيعة الكون.. ناسياً الجملة الشعبية الشائعة.. كل شيء في وقته مليح.. وإن الله جعل لكل شيء سبباً وأن الوصول للسطح يستدعي الصبر على صعود درجات السلم.

والحكاية اليوم عن جوانب هذه الظاهرة تشتمل كذلك على شهادة طيبة تزكي المثل البلدي القائل.. صنعة في اليد أمان من الفقر.. وهي عن هذه وتلك تقول:

يحكى أن رجلاً كانت له يد ماهرة في صناعة الصياغة. وكان أوحد أهل زمانه ثم ساء حاله وافتقر.. فكره الإقامة في بلده وانتقل لبلد آخر.. فسأل عن سوق الصاغة فوجد دكاناً لمعلم السلطنة وتحت يده صنّاع كثيرون يعملون الأشغال للسلطنة.. وله سعادة ظاهرة ما بين خدم وحشم

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/١٥هـ ـ ١٩٦٨/٢/١٣م.

وأبهة وغير ذلك.. فتوصل الصائغ الفتان الغريب إلى أن أصبح واحداً منهم في دكان المعلم الكبير.. وأقام عنده يعمل مدة وكلما فرغ النهار دفع له المعلم المستغل درهمين من فضة في الوقت الذي تكون أجرة عمله الحقيقية تساوي عشرة دراهم فيكسب المعلم عليه ثمانية دراهم يومياً.

وهكذا سار العمل والعامل والمعلم على هذا المنوال.. حتى اتفق في يوم أن السلطان طلب المعلم وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص في غاية من الحسن قد عملت في غير بلاده ولكنها انكسرت فقال للمعلم ألحمها بحيث لا يظهر موضع الكسر فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه عملها.. فلما أراها للصنّاع الذين عنده وعند غيره لم يقل له أحد منهم إنه يقدر على عملها فازداد غماً.. ومضت مدة وفردة السوار عنده لا يعلم ما يصنع واشتد طلب السلطان لها.. وقال هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة وهو لا يحسن أن يلحم سواراً.

فلما رأى صاحبنا الصانع الفنان الغريب شدة ما نال المعلم قال في نفسه هذا وقت المروءة أعملها ولا أؤاخذه ببخله علي واستغلاله إياي وعدم إنصافه لي.. ولعلّه يحسن إلي بعد ذلك.. فحط يده في درج المعلم وأخذ فردة السوار وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت ونظم عليها جواهرها فعادت أحسن مما كانت عليه.. فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً ثم مضى بها إلى السلطان.. فلما رآها استحسنها فادعى المعلم أنه هو الذي صنعها بنفسه فأحسن إليه وخلع عليه خلعاً سنية.. فجاء وجلس مكانه في دكانه.. وبقي الصانع الغريب ينتظر مكافأته عما عامله به فما التفت المعلم إليه.. بل إنه في نهاية النهار لم يزده على

الدرهمين المقررين أية علاوة جديدة!

ولم تمض أيام قلائل حتى رغب السلطان أن يعمل زوجين من الأساور على تلك الصورة فطلب المعلم وأخبره بما يحتاج إليه مؤكداً عليه إتقان الصنعة وسرعة العمل ـ فجاء المعلم للصانع الغريب وكلفه بطلب السلطان فامتثل وباشر العمل بهمة وتفانٍ وإخلاص حتى أكمل زوج الأساور والمعلم لا يزيده على الدرهمين المقررين يومياً أي شيء بل ولا يشكره ولا يعده بخير ولا يتجمل عليه بجديد.

لذلك.. فقد رأى الصائغ الغريب أن ينقش بموضع خفي من أحد السوارين أبياتاً يشرح فيها حاله ليقف عليها السلطان.. فنقش في باطن أحدهما نقشاً خفياً هذه الأبيات:

مصائب الدهر.. كفى ‏ ‏ ‏ ‏ إن لم تكفي.. فعفي

خرجت أطلب رزقي ‏ ‏ ‏ ‏ وجدت رزقي توفي

فلا برزقي أحظى ‏ ‏ ‏ ‏ ولا بصنعة كفي

كم جاهل في الثريا ‏ ‏ ‏ ‏ وعالم متخفي!

وقرر الصائغ أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم ورآها شرح له وضعه.. وإن غم عليه ولم يرها كان ذلك سبب توصله للسلطان.. ثم لفهما في قطن وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بدقة الصنعة ولما سبق في حكم القضاء بل مضى بهما فرحاً للسلطان وقدمهما إليه فلم يشك أنهما من صنعه فخلع عليه وشكره.

وهكذا عاد المعلم فرحاً فجلس مكانه بالدكان ولم يلتفت للصائغ الغريب ولم يزده آخر النهار شيئاً على الدرهمين.. فلما كان اليوم الثاني

خلا خاطر السلطان فطلب السوارين وأعاد النظر فيهما وفي دقة وحسن صياغتهما.. واكتشف الأبيات المنقوشة فقرأها وتعجب جداً.. وقال لا شك أن هذا شرح حال صائغهما، وإذاً فالمعلم كذاب وليس هو بصائغهما على كل حال.. وغضب عند ذلك وأمر بإحضار المعلم فلما حضر قال له من صاغ هذين السوارين؟ قال: أنا أيها السلطان.. قال فما سبب نقش هذه الأبيات؟ قال لم يكن عليها أبيات.. قال كذبت ثم أراه النقش وقال إن لم تصدقني الحق لأضربن عنقك.. فاعترف!

حينذاك أمر السلطان بإحضار الصائغ الغريب وبسؤاله عن حاله روى له قصته كلها وما عامله به المعلم.. فأمر بعزل المعلم وجعله مكانه وخلع عليه الخلع السنية.. فلما نال ذلك وتمكّن تلطف لدى السلطان في العفو عن المعلم بل وجعله شريكاً معه حامداً المولى على ما أسبغه عليه. ولسان حاله يقول: إذا كان سعد المرء في الدهر مقبلاً تدانت له الأشياء.. من كل جانب!

* * *

ـ ٥١ ـ

والعبرة تأتينا اليوم من عالم الحيوان.. عظة لعالم الإنسان.. ومثالاً صادقاً ومؤكداً.. أن المكر لا يحيق إلا بأهله.. حتى في دنيا الحيوانات.

ويحكى.. أن ثعلباً كان يسمى.. ظالماً.. وكان له جحر يأوي إليه وكان مغتبطاً به.. فخرج يوماً يبتغي ما يأكل.. ثم رجع فوجد في جحره حية فانتظر خروجها منه فلم تخرج فعلم أنها استوطنته.. وذلك أن الحية لا تتخذ جحراً.. بل إنها إذا ما أعجبها جحر جاءته فاغتصبته وطردت من به من الحيوان.. ولهذا قيل.. فلان أظلم من حية..

فلما رأى الثعلب ظالم أن الحية قد استوطنت جحره ولم يمكنه السكن معها ذهب يطلب لنفسه مأوى آخر.. فانتهى به السير إلى جحر حسن الظاهر في أرض منيعة ذات أشجار ملتفة وماء معين.. فأعجبه وسأل عنه ـ فقالوا ـ هذا الجحر يملكه ثعلب اسمه.. مفوض ـ وأنه ورثه عن أبيه ـ فناداه ظالم فخرج إليه ورحب به وأدخله إلى جحره وسأله عن حاله فقص عليه خبره مع الحية فرقَّ له قلب مفوض وقال له.. الموت في طلب الثأر خير من الحياة مع العار. والرأي عندي أن تنطلق معي إلى مأواك الذي أخذته الحية غصباً حتى أنظر إليه لعلّني أهتدي إلى مكيدة

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/١٦هـ ـ ١٩٦٨/٢/١٤م.

تخلص بها مأواك.. فانطلقا معاً إلى ذلك الجحر، فتأمله مفوض وقال لظالم.. اذهب معي فبت الليلة عندي لأنظر ليلتي هذه فيما يسنح من الرأي والمكيدة.. ففعلا ذلك.

وبات مفوّض مفكراً في الموضوع مهتماً بأمر زميله في إخلاص وحسن نية بينما أخذ ظالم يتأمل مسكن مفوض فرأى من سعته وطيب هوائه وحصانته ما أطمعه فيه واشتد حرصه عليه.. وطفق يدبر في حيلة اغتصابه لنفسه بدلاً من جحره.. ونفي مفوض عنه..

فلما أصبحا.. قال مفوّض لظالم إنني رأيت ذلك الجحر الذي اغتصبته منك الحية بعيداً عن الشجر والماء فاصرف نفسك عنه.. وهلمّ أعينك على احتفار جحر في هذا المكان المشتهى فقال ظالم هذا غير ممكن لأن لي نفساً تهلك لبعد الوطن حنيناً إليه.. فلما سمع مفوض ما قاله ظالم وما تظاهر به من الرغبة في وطنه.. قال له إني أرى أن نذهب يومنا هذا فنحتطب حطباً ونربط منه حزمتين، فإذا جاء الليل انطلقنا إلى بعض تلك الخيام فأخذنا قبس نار واحتملنا الحطب والقبس إلى مسكنك فنجعل الحزمتين في بابه ونضرم النار فإن خرجت الحية احترقت. وإن لزمت الجحر قتلها الدخان!

فقال له ظالم.. هذا نعم الرأي.. فذهبا واحتطبا حزمتين.. ولما جاء الليل انطلق مفوض إلى ظاهر تلك الخيام فأخذ قبساً فعمد ظالم إلى إحدى الحزمتين فأزالها إلى موضع غيبها فيه ثم جر الحزمة الأخرى إلى باب مسكن مفوض نفسه فسده بها سداً محكماً وقدر في نفسه أن مفوضاً إذا أتى جحره لم يمكنه الدخول إليه لحصانته فإذا يئس منه ذهب فنظر لنفسه مأوى جديداً.. وكان ظالم مع هذا قد رأى ببيت مفوض طعاماً

ادخره لنفسه فعوّل على أن يقتات به إن حاصره مفوض وهو من داخل.. وأذهله الشره والحرص عن فساد هذا الرأي..

أما مفوض فحين جاء بالقبس ولم يجد ظالماً ولا وجد الحطب فقد ظن أن ظالماً قد حمل الحزمتين تخفيفاً عنه وأنه سبقه إلى مسكنه هو الذي فيه الحية إشفاقاً عليه وعدم تكليف له فشق ذلك عليه وظهر له من الرأي أن يبادر لمعونته فوضع القبس بالقرب من الحطب ولم يشعر أن الباب مسدود لشدة الظلمة فما بعد عن الباب إلا وضوء النار وشدة الدخان قد لحقا بالجحر وغطيا مدخله..

فعاد وتأمل الباب.. فرأى الحطب قد صار ناراً.. وحينذاك علم مكيدة ظالم وأنه أراد اغتصاب بيته منه بما عمل.. فاحترق داخل الجحر وحاق به مكره.. فقال مفوض عن ظالم:

هذا هو الباحث عن حتفه بظلفه.. وصبر حتى انطفأت النار.. فدخل جحره وأخرج جثة ظالم فألقاها.. واستوطن مأواه.. آمناً.. مطمئناً قرير العين!..

❊ ❊ ❊

ـ ٥٢ ـ

وحكاية اليوم لا تحتاج إلى دهليز.. فإنها فترة من فترات الترفيه.. لإرخاء الأعصاب المشدودة.. وإن دهليزها منها فيها كما يقال وهي عن الهيثم بن عدي نقلاً عن إسحاق بن إبراهيم عن عبد الله بن عبد البر قال:

كان في المدينة رجل من بني هاشم وله قينتان تسمى إحداهما رشا وتسمى الأخرى جواذر.. وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين.. فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به.. وقد دس له في عصير تفاح مسهلاً شديد المفعول فما إن مضى بعض الوقت وتناول المضحك العصير حتى تحرك عليه بطنه.. فتناوم الهاشمي وغمز جارتيه عليه.

فلما ضاق الأمر بالمضحك واضطر إلى التبرز قال في نفسه.. ما أظن هاتين المغنيتين الإيمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض.. فقال لهما يا حبيبتي أين المرحاض؟ فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا؟ قالت.. يقول غنياني:

رحضت فؤادي.. فخليتني   أهيم من الحب في كل وادي!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/١٧هـ ـ ١٩٦٨/٢/١٥م.

فاندفعتا تغنيانه.. فقال في نفسه والله ما أظنهما فهمتا عني وما أظنهما إلا مكيتين.. وأهل مكة يسمونها المخارج.. فقال يا حبيبتي أين المخرج؟ فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا؟.. فقالت يقول غنياني:

خرجت لها من بطن مكة بعدما أقام المنادي بالعشيّ.. فأعتما!

فاندفعتا تغنيانه.. فقال ما أظنهما فهمتا عني.. وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب.. فقال يا حبيبتي أين المذهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول حبيبنا؟ قالت يقول.. غنياني:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب!

فغنتاه الصوت.. فقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني وما أظن الفاعلتين إلا مدنيتين.. وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء.. فقال.. يا حبيبتي أين بيت الخلاء فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غنياني:

خلا عليَّ بقاع الأرض إذ ظعنوا من بطن مكة واسترعاني الحزن!

قال: فغنتاه.. فقال إنا لله وإنا إليه راجعون وما أظن الفاسقتين إلا بصريتين وأهل البصرة يسمونها الحشوش.. فقال يا حبيبتي أين الحشوش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا؟ قالت يقول.. غنياني:

أوحشوني.. وعز صبريَ فيهم ما احتيالي؟ وما يكون فعالي؟

قال فاندفعتا تغنيانه.. فقال ما أراهما إلا كوفيتين.. وأهل الكوفة يسمونها الكنف.. فقال لهما يا حبيبتي أين الكنيف؟ فقالت إحداهما لصاحبتها.. يعيش سيدنا.. ما رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل، قالت ما يقول؟ قالت يسأل أن تغني له:

تكنفني الهوى طفلاً   فشيبني.. وما اكتهلا!

فقال واويلاه.. وأعظم مصيبتاه.. هذا والهاشمي المتناوم يتقطع ضحكاً.. فقال لهما.. يا فاعلتان إن أنتما لم تعلماني بالمكان الذي أريد.. أنا أعلمكما به.. ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش!..

فانتبه الهاشمي.. وصاح به ويلك ما هذا؟ تسلّح على وطائي؟ فقال الرجل.. حياة نفسي أعز علي من وطائك.. ثم أنشد:

تكنفني الملاح وأضجروني   على ما بي.. بنيات الزواني
فلما قلّ عن ذاك اصطباري   قذفت به على وجه الغواني!

* * *

ـ ٥٣ ـ

والحكاية اليوم شعبية الجو.. بلدية الروح.. ترد رمزاً ساخراً بأولئك الذين تنقصهم الشجاعة فيتظاهرون بها معادلة طبيعية لمركب النقص فيهم.. وهي توازي في خط سيرها هذا شقيقتها الحكاية المعروفة عن صاحبنا الذي.. خلى الدبان الأزرق يأكل من غائط عدوه.. وتقول: كان رجل حطاب يعيش على الخروج إلى ظاهر البلدة التي يسكنها هو وزوجته ليحتطب وليعود ليبيع ما جمعه بما يقيم أوده وأهله..

وكان يقتني مجموعة من النبابيت في بيته.. وقد سمى كل نبوت منها بعدد من غالبهم بها وغلبهم على حد زعمه.. فهذا نبوت الواحد.. وهذا النبوت أبو خمسة.. وذلك نبوت أبو عشرة.. و.. إلى آخر الأعداد يكفي بتسميتها العددية عن ضحايا نبابيته.. أو هزائمهم منه بواسطتها..

فكان عندما يتهيأ كل صباح إلى الذهاب لمحل احتطابه يطلب إلى زوجته شامخ الرأس.. نافخ الصدر أن تعطيه نبوتاً يسميه لها.. فيوماً يقول هاتي «أبو خمسة».. أو «أبو سبعة».. أو سواهما.. ويخرج لعمله

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/١٩هـ ـ ١٩٦٨/٢/١٧م.

ثم يعود آخر النهار ليصف لها ما لاقاه في يومه.. ومن لاقوه فغلبهم أو تركهم يفترشون الأرض منكسرين صاغرين.. وذلك في خيال ساحر ووصف رقيق كأنما هو في استرساله وعدم لعثمته ودقة وصفه يروي واقعاً فعلاً.. ويقول الصدق لا ريب ولا شبهة فيه.. وما هو من ذلك كله في شيء..

وعاشت زوجته معه عيشة الهجص.. وصبرت طويلاً على هذا الفشر المتواصل.. وكانت ذكية أريبة.. ولكن استمرار هذه الحالة ضايقها وودت لو وضعت حداً لها.. فقررت في نفسها أمراً..

فعندما أصبح الصباح ذات يوم وتهيأ زوجها الحطاب للخروج طلب منها النبوت «أبو عشرين».. فأعطته إياه.. وتظاهرت بعجلتها لانشغالها في أمور البيت من كنس وطبخ وخلافهما.. حتى إذا خرج ذهبت هي إلى جارة لها.. زوجها ضابط مرموق.. فسألتها أن تعيرها بدلة من بدلات زوجها وفرسه لمقدار ساعة من النهار ثم تعيد كل ذلك إليها.. فسلمتها ما طلبت حيث عادت إلى بيتها ووقفت أمام المرآة وارتدت البدلة وتلثمت بفضلة من لباس الرأس.. وارتدت القفاز.. وركبت الفرس.. وقصدت إلى حيث يحتطب زوجها في المنطقة التي وصفها لها وسماها عند خروجه.

وحينما رأته صاحت به.. مقلدة صوت الرجال.. في صوت أجش لكنه صارم مهيب.. فخف الحطاب مذعوراً ملبياً نداءها وهو يظنها ضابطاً من الضباط الكبار.. فقالت له: ما الذي جاء بك لهذه المنطقة أيها الحطاب الحقير؟.. ومن الذي أذنك بالاحتطاب فيها أيها الصعلوك؟ فتوسل.. وبكى واستعطف.. وحلف أنه لن يكرر هذه الغلطة الشنيعة..

وما زالت به تشتمه.. وتركله.. وتتوعده.. وهو يبكي متوسلاً نادماً.. وبجواره نبوته «أبو عشرين» ملقى على الأرض..

حتى إذا قبلت توبته في النهاية على ألا يعود لهذا التعدي.. أخذ يقبل قدمها في الركاب.. وما لحقه من أطراف جسدها في تذلل وخضوع.. فخلعت القفاز ومدت إليه يدها فجعل يقبلها والدمع يغشي عينيه ظهراً لبطن مرتبكاً لا يكاد يصدق بالنجاة من العقاب.

وأخيراً أدارت له ظهرها وسارت بفرسها حتى بيتها.. ثم بيت جارتها حيث أعادت إليها البدلة والقفاز والفرس.. ورجعت لدارها في انتظار زوجها البطل الشجاع.. قتال القتلا.. كما يحلو له أن تسميه.. وحين أقبل في ميعاده كعادته.. ابتدأ يحدثها بما صادفه في نهاره هذا على الأخص.. يقول لها:

أما اليوم.. أما اليوم.. فقالت ها.. ها.. قال..

لقد كان عصيباً جداً.. بس على مين؟.. على جوزك اللي تعرفيه.. إنني بعد أن تخلصت من المشاغبين العاديين.. ما أصحى إلا وواحد ضابط كبير.. وراكب فرس.. جاني وابتدا يتبجح في الكلام ويشتم.. فتناولت «أبو عشرين» من سكات وناولته به.. فإذا هو طريح الأرض.. ففضلت الانتقال لمنطقة أخرى وتركته مكانه.. بين الرجا واليأس.. لأني ما حبيت أخلي الضربة جامدة كتير.. راجل رسمي.. ولابس بدلة.. وراكب فرس.. على كل حال..

وهنا قالت له الزوجة ـ هو جالك راكب فرس أسود.. قال طبعاً.. طبعاً.. وهو شتمك.. وقال كذا.. وكذا.. ونت جاوبتو بقولك كذا.. وكذا.. واستمرت تسرد رؤوس أقلام مما تم في تخابث.. وباستنتاج

مصطنع ولكنه يصور الحقيقة التي تعرفها.. حتى انتهت إلى نقطة خلعه القفاز ومناولته له الكف ليسلم على يد الضابط وصرخت به.. ألم تسلم على هذه الكف مراراً.. وتكراراً..

فشهق.. وأدرك ما حصل.. ولكنه قلب يدها مازحاً معها.. بقوله: هو أنت؟.. أتاريني جالس طول النهار أفكر.. وأقول:

أنا شايف ـ يا واد ـ هادي اليد.. فين؟.. فين؟.. فين؟..

* * *

ـ ٥٤ ـ

والحكاية اليوم في مجال استخدام الحيلة.. تؤدي الغرض خاصاً مباحاً.. وتجيز الضرورة والحاجة استعمالها في حدود اللزوم لهما لا يتعدى إلى أذى الغير.. خدعة شريفة مرخصاً بها من ذي الشأن.. وتقول:

يحكى أن الحجاج بن علاط السلمي.. وكان حديث الإسلام.. جاء إلى النبي ﷺ لما فتح خيبر وأعرس بصفية.. وفرح المسلمون بالنصر.. فقال: يا رسول الله إن لي بمكة ما لا عند صاحبتي أم شيبة.. كما أن لي مالاً متفرقاً عند تجار مكة فاذن لي في العودة لمكة قبل أن يصلهم خبر إسلامي فتضيع أموالي.. فأذن له الرسول.. فقال: إني أحتاج أن أقول ما يتناسب وموقفي مما يقتضيني الانتفاع به وإن غاير الحقيقة.. فقال له قل.. وأنت في حل..

قال الحجاج.. فخرجت فلما انتهيت إلى الثنية.. ثنية البيضاء.. وجدت بها رجالاً من قريش يتنسمون الأخبار وقد بلغهم خروج الرسول إلى خيبر.. فلما أبصروني قالوا:: هذا لعمر الله عنده الخبر.. أخبرنا يا حجاج فقد بلغنا أن القاطع ـ يعنون محمداً ﷺ ـ قد سار إلى خيبر.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/٢٠هـ ـ ١٩٦٨/٢/١٨م.

قلت: إن عندي من الخبر ما يسركم.. قال: فأحدقوا حول ناقتي يقولون إيه يا حجاج.. قلت لقد هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط.. وأسر محمد.. وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان قد أصاب من رجالهم.. قال: فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما منتظرون أن يقدم به عليكم..

قال: فحينذاك قلت لهم أعينوني على جمع مالي من غرمائي فإنني أريد أن أقدم خيبر فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك. فقاموا معي فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب..

فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل علي حتى وقف إلى جانبي وأنا في خيمة من خيام التجار.. فقال يا حجاج.. ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قلت: وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله.. قلت: استأخر عني حتى ألقاك على خلاء.. فإني في جمع مالي كما ترى.. فانصرف عني.. حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة وأزمعت على الخروج لقيت العباس على انفراد فقلت له: احفظ على الأمر ثلاثة أيام ثم قل ما شئت.. قال: لك على ذلك..

قلت: والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة زعيمهم.. يعني صفية.. وقد افتتح خيبر.. وغنم ما فيها.. وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قلت: أي والله.. ولقد أسلمت وما جئت إلا مسلماً لآخذ مالي خوفاً من أن أغلب عليه.

فلما كان اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب وأخذ عصاه.. ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها.. فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة.. قال: كلا. والذي حلفتم به

لقد افتتح محمد خيبر وترك عروساً على ابنة رئيسهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه.. قالوا من جاءك بهذا الخبر؟ قال الذي جاءكم بما جاءكم به ولقد أخذ أمواله حيث دخل عليكم مسلماً وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم.. قالوا:

تفلت عدو الله.. أما لو علمنا به لكان لنا وله شأن.

* * *

ـ ٥٥ ـ

والحكاية اليوم تمس شاعرة شهيرة.. وزوجاً غيوراً.. وذكر محب لها معروف. وطارق ليل ذي نخوة وشجاعة.. وبطلتها الأولى ليلى الأخيلية.. وهي ليلى بنت عبد الله بن الرحال الأخيل من النساء المتقدمات في الشعر من شعراء الإسلام.. وكان توبة بن الحمير وهو شاعر أيضاً.. يتعشقها.. فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياها حسب عادة العرب بمن يشهر ببناتهم في شعره. وزوجها لرجل من بني الأدلع..

وكان توبة إذا أتى ليلى الأخيلية خرجت إليه في برقع.. فلما شهر أمره شكوه إلى السلطان فأباحهم دمه إن أتاهم.. فكمنوا في الموضع الذي كان يلقاها فيه.. فلما علمت به خرجت سافرة حتى جلست في طريقه.. فما إن رآها سافرة حتى فطن لما أرادت وعلم أنه قد رصد.. وأنها بسفورها إنما تحذره.. فركض فرسه فنجا.. وذلك قوله من قصيدة له:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها.. الغداة.. سفورها

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/٢١هـ ـ ١٩٦٨/٢/١٩م.

وقيل عنهما: إن الحجاج قال لليلى الأخيلية.. إن شبابك قد ذهب واضمحل أمرك وأمر توبة.. فأقسم عليك ألا صدقتني.. هل كانت بينكما ريبة قط أو خاطبك في ذلك.. فقالت: لا والله أيها الأمير.. إلا أنه قال لي ليلة وقد خلونا كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر.. فقلت له:

وذي حاجة قلنا له.. لا تبح بها فليس إليها.. ما حييت.. سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب.. وخليل

فلا والله ما سمعت منه ريبة بعدها.. حتى فرق بيننا الموت بموته.. فقال لها الحجاج.. فما كان منه بعد ذلك؟ قالت وجه صاحباً له إلى حاضرنا فقال: إذا أتيت الحاضر من بني عباءة بن عقيل فاعل شرفاً ثم أهتف بهذا البيت:

عفا اللّه عنها.. هل أبيتن ليلة من الدهر.. لا يسري إلي خيالها

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى.. فقلت له:

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه عزيز علينا حاجة.. لا ينالها

والحكاية بالإضافة لما سلف تخص زوجة لرجل لزوجته مما نستقبحه كلية هذا البيت.

اعتاد ضربها.. وترفرف بالذاكرة بمناسبة ضرب الرجل:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلت يميني يوم أضرب زينبا

وهي في هذا المسار تقول:

خرج رجل من بني كلاب ثم من بني الصحمة يبتغي إبلاله حتى أوحش وأرمل ثم أمسى بأرض فنظر إلى بيت بوادي.. فأقبل حتى نزل حيث ينزل الضيف.. فأبصر أمراء وصبياناً يدورون بالخباء فلم يكلمه أحد.. فلما كان بعد هدأة من الليل سمع جرجرة إبل رائعة.. وسمع فيها صوت رجل حتى جاء بها.. فأناخها على البيت.. ثم تقدم فسمع الرجل يناجي المرأة ويقول.. ما هذا السواد هناك؟.. قالت راكب أناخ بنا حين غابت الشمس ولم أكلمه.. فقال لها.. كذبت.. ما هو إلا بعض خلانك.. ونهض يضربها.. وهي تناشده..

قال الرجل الصحمي.. فسمعته يقول: والله لا أترك ضربك حتى يأتي ضيفك هذا فيغيثك.. فلما عيل صبرها قالت: يا صاحب البعير.. يا رجل! فأخذ الصحمي هراوته ثم أقبل يعدو حتى أتاها وزوجها يضربها.. فضربه ثلاث ضربات أو أربعاً.. ثم أدركته المرأة.. فقالت: يا عبد الله مالك.. ولنا.. نج نفسك!

فانصرف.. فجلس على راحلته وأدلج ليلته كلها وقد ظن أنه قتل الرجل وهو لا يدري من الحي.. ولا من الرجل.. حتى أصبح في أخبية من الناس ورأى غنماً فيها أم مولدة فسألها عن أشياء حتى بلغ به الذكر.. فقال: أخبريني عن أناس وجدتهم بشعب كذا.. فضحكت وقالت.. إنك لتسألني عن شيء وأنت به عالم.. قالت.. ذاك خباء ليلى الأخيلية وهي أحسن الناس وجهاً وزوجها رجل غيور فهو يغرب بها عن الناس فلا يحل بها معهم.. والله ما يقربها أحد ولا يضيفها.. فكيف نزلت أنت بها؟ قال: إنما مررت فنظرت إلى الخباء ولم أقربه.. وكتمها الأمر..

وتحدث الناس بعد ذلك عن رجل نزل بها فضربها زوجها.. فضربه الرجل ولم يعرف من هو؟ فلما أخبر أخونا الصحمي هذا باسم المرأة وأقر على نفسه تغنى بشعر دلّ فيه على نفسه فقال:

ألا يا ليلى أخت بني عقيل أنا الصحمي.. إن لم تعرفيني
دعتني دعوة.. فحجزت عنها بصكات رفعت بها يميني
فإن تك غيرة أبوئك منها وإن تك قد جننت.. فذا جنوني

* * *

ـ ٥٦ ـ

ومن أشيع العادات الموروثة لعدم قيام الحكومة المستتبة ذات السلطان والدين القويم تتولى بهما تنظيم القصاص العادل ما كان شائعاً في الجاهلية منتشراً بين العرب يعايرون من لم يتصف بها.. ومن لم ينهض لأداء واجبها الدموي المقدس المفروض.. ألا وهي عادة الأخذ بالثأر من القاتل لأب أو أخ أو جد أو من إليهم.

ولا تزال في بعض الأرياف والبدو بقية من رواسبها المنتهية حتماً للزوال الكلي.. والحكاية اليوم للأسف أنموذج واحد منها وصاحبها هو قيس بن الخطيم بن عدي، وكان من صفاته البدنية أنه مقرون الحاجبين أدعج العينين برّاق الثنايا.. وتقول:

كان من حديث قيس بن الخطيم من يثرب أن جده عدي بن عمر قتله رجل من بني عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقال له مالك.. كما قتل أباه الخطيم بن عدي رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر.. وكان قيس صبياً صغيراً يوم قتل أبوه.. كما أن أباه الخطيم كان قد قتل قبل أن يثأر لأبيه عدي.. فخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطلب بثأر أبيه وجده.. فيهلك.. فعمدت إلى كومة من تراب عند باب

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/٢٢هـ ـ ١٩٦٨/٢/٢٠م.

دارهم فوضعت عليها أحجاراً جعلت تقول لقيس.. هذا قبر أبيك وجدك معاً.. فكان قيس لا يشك أن ذلك.. على ذلك..

ونشأ قيس أيداً شديد الساعدين.. فنازع يوماً فتى من فتيان بني ظفر فقال له ذلك الفتى والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك من أن تخرجها علي.. فقال ومن قاتل أبي وجدي.. قال: سل أمك تخبرك.. فأخذ السيف ووضع قائمة على الأرض وذبابة بين ثدييه وقال لأمه.. أخبريني من قتل أبي وجدي؟ قالت ماتا كما يموت الناس وهذا قبرهما بالفناء.. فقال: والله لتخبرينني عمن قتلهما أو لأتحاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري.. فقالت: أما جدك فقتله رجل من بني عمرو ابن عامر بن ربيعة يقال له مالك. وأما أبوك فقتله رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر.. إن مالكاً قاتل جدك من قوم خدش ابن زهير ولأبيك عند خداش نعمة هو شاكر لها.. فأته فاستشره في أمرك واستعنه يُعِنْك..

فخرج قيس من شقه حتى أتى بعيره وهو يسقي فضرب الحبل بالسيف فقطعه فسقطت الدلو في البئر وأخذ برأس البعير فحمل عليه غرارتين من تمر وقال: من يكفيني أمر هذه العجوز.. يعني أمه.. فإن أناحت ينفق عليها من هذا الحائط.. البستان.. حتى تموت ثم هو له.. وإن أنا عشت فما لي عائد إلي وله منه ما شاء أن يأكل من تمره.. فقال رجل من قومه أنا له.. فأعطاه الحائط..

ثم سافر يسأل عن خداش بن زهير حتى دلّ عليه بمر الظهران.. وادي فاطمة.. فصار إلى ضبائه فلم يجده فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافه ثم نادى امرأة خداش هل من طعام؟ فقالت والله ما عندنا من نزل

نرضاه لك إلا تمراً.. فقال لا أبالي.. فأرسلت إليه بقباع فيه تمر فأخذ منه تمرة فأكل شقتها ورد شقها الباقي ثم ذهب لبعض حاجاته.. ورجع خداش فأخبرته امرأته خبر قيس فقال هذا رجل له عندنا حرمة وذمة وأقبل قيس راجعاً فلما رأى خداش رجله وهو على بعيره قال لامرأته هذا ضيفك؟ قالت نعم.. قال كان قدمه قدم الخطيم صديقي اليثربي فلما دنا منه وقرع طنب البيت بسنان رمحه واستأذن.. فأذن له خداش فدخل إليه فنسبه فانتسب وأخبره بالذي جاء له وذكر نعمة أبيه عنده.. فقال إن هذا الأمر كنت أتوقعه منك منذ حين.. فأما قاتل جدك فهو ابن عم لي وأنا أعينك عليه. فإذا اجتمعنا في نادينا جلست إلى جانبه وتحدثت معه فإذا ضربت فخذه فثب إليه فاقتله.

قال قيس.. فأقبلت معه نحوه حتى قمت على رأسه لما جالسه خداش. فحين ضرب فخذه ضربت رأسه بسيف يقال له «ذو الخرصين» فثار إلى القوم ليقتلوني فحال خداش بينهم وبيني وقال: دعوه والله ما قتل إلا قاتل جده..

ثم دعا خداش بجمل من إبله فركبه وانطلق مع قيس إلى العبدي الذي قتل أباه.. حتى إذا كان قريباً من هجر.. أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه فإذا دلّ عليه قال له إن لصاً من لصوص قومك عارضني فأخذ متاعاً لي.. فسألت من سيد قومه هنا فدلوني عليك فانطلق معي حتى نأخذ متاعي منه فإن اتبعك وحده فستنال ما تريد منه وإن خرج معه غيره فاضحك.. فإن سألك مم ضحكت فقل: إن الشريف عندنا لا يصنع كما صنعت.. إذا دعي إلى اللص من قومه إنما يخرج وحده بسوطه دون سيفه، فإذا رآه اللص أعطى كل شيء أخذه هيبة له. فإن أمر

أصحابه بالرجوع فسبيل ذلك.. وإن أبى إلا أن يمضوا معه فأتني به..

ففعل قيس ما أشار به خداش حتى إذا انفرد بالعبدي طعنه قيس صاحب الثأر فقتله ثم اتخذا مأوى إلى أن كف الطلب عنهما فعادا سوية.. ثم اتخذ كل منهما سبيله إلى أهله..

وفي موضوع الحكاية يقول قيس:

تذكر ليلى.. حسنها وصفاءها ... وبانت.. فما أن يستطيع لقاءها
ومثلك قد أصيبت لست بكنة ... ولا جارة أفضت إلي ضباءها
ثأرت عدياً والخطيم.. فلم أضع ... ولاية أشياخ جعلت إزاءها
ضربت بذي النرجين ربقة مالك ... فأبت بنفسي قد أصبت شفاءها
وسامحني فيها ابن عمر بن عامر ... خداش.. فأدى نعمة وأفاءها
طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر ... لها نفذ لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفي فأنهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها

* * *

ـ ٥٧ ـ

والحكاية اليوم.. تنتشر بها حلاوة الإيمان عقيدة تطرب ببشرى اعتزاز الإسلام.. كما يتمادى بها خزي الشرك إصراراً لا تزيده الهزيمة إلا ضراوة وتشبثاً بالعناد درباً لنهاية أليمة.. وفاجعة مريرة.. يتحامى صاحبها الناس.. ويتحاشاه حتى الأقربون من أهله وأولاده.. وتقول:

حكى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ.. قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب.. وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت فأسلمت أم الفضل وأسلمت.. وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر.. وبعث مكانه رجلاً.. وبقي معنا في مكة..

فلما جاء الخبر عن مصاب أهل بدر من قريش كبت الله أبا لهب وأخزاه وكان رجلاً ضعيفاً.. وكنت أعمل القداح أنحتها في حجرة زمزم.. فوالله إني لجالس فيها أنحت القداح وعندي أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاءنا من الخبر عن هزيمة قريش ببدر إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه يسير حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره إلى ظهري.. فبينما هو جالس إذ قال الناس.. هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم.. فقال أبو لهب.. هلمّ إلي يا ابن أخي.. فعندك

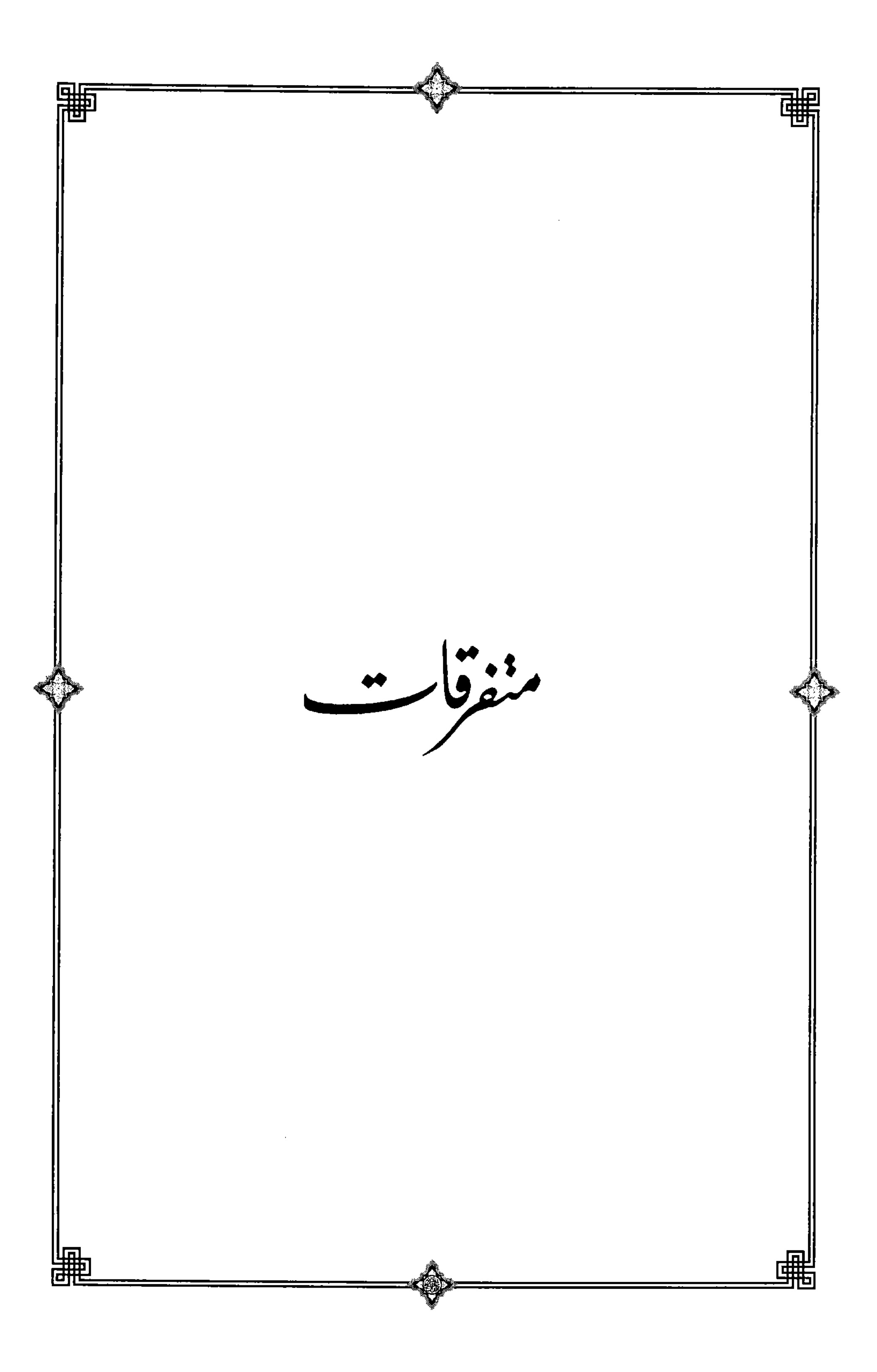
المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/١١/٢٨هـ ـ ١٩٦٨/٢/٢٦م.

لعمري الخبر اليقين.. فجلس إليه والناس قيام عليه.. فقال يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء والله.. إن كان إلا أن لقيناهم فأبحناهم أكتافنا.. يقتلون ويأسرون كيف شاءوا.. وإيم الله مع ذلك ما لمت الناس.. لقين رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء..

قال أبو رافع.. فمن فرحتي رفعت طنب الحجرة بيدي.. ثم قلت.. تلك والله الملائكة.. فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة.. قال: فساورته فاحتملني فضرب بي الأرض.. ثم برك علي يضربني.. وكنت رجلاً ضعيفاً.. فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فشجت في رأسه شجة منكرة.. وقالت.. أتستضعفه إن غاب سيده.. تعني العباس بن عبد المطلب.

❊ ❊ ❊





متفرقات



أين القارئ حتى يكون الكاتب

على الكتكوت والبيضة البيزنطية القديمة ـ ومع قليل من التحرير.. لسفسطتها في سؤالها المشهور: هل البيضة أصل الكتكوت؟ أم الكتكوت أصل البيضة؟.. فقد آن الأوان لأن نتبزنط نحن كذلك، لنسأل أنفسنا هل يقتضي وجود الكاتب القارئ؟ أم يقتضي وجود القارئ الكاتب؟ وتساؤلنا اليوم إنما يجئ في وقته.. فقد بدأت الرعشات الأولى تمهيداً لقدوم الحمى الفكرية.. الأدبية في ارتفاع درجة حرارتها ـ وانصباب عرقها الغزير.. حيث شاع التساؤل.. بين الفينة والفينة ـ كما تقول وكالات الأنباء.. أين الكاتب والمضمون الممطوط في هذا السؤال، أين هو الكاتب الجيد الذي يأتينا كل يوم بجديد؟

وتلك مغالطة من السائل المحتاس.. فقد سقط عليه سهواً في حوسته الكبرى الشق الثاني لتكملة السؤال الضائع.. ليقول في الوقت نفسه: وأين القارئ؟ والمضمون الممطوط هنا أيضاً وأين هو القارئ الجيد يبعث على إتيان الكاتب كل يوم بجديد؟

فالعدل يلزمنا أن نثبت حق وجود الشق الثاني من السؤال.. وحق البحث عن الجواب عنه.. والتعقيب عليه.

وبأسلوب المحاضر.. وافتتاحيات بعض الصحف.. يجوز لنا أن

المصدر: جريدة البلاد ١٤٢١/١٢/٢١هـ ـ ٢٠٠١/٣/١٦م.

نقول أين هو القارئ؟ نوعاً.. وعدداً.. وقد علمنا أن موارد قراءته الطبيعية لا تتعدى الصحف السيارة، والكتب المقعدة المشلولة.. سواء أكانت مجلدة مذهبة.. أم صُفَّت بغير تجليد أو تذهيب.

إننا أمة يبلغ تعدادها الملايين تقارب عدد أصابع الكف الواحد أو تتجاوزها تجاوزاً محموداً في التقدير.. لا في التقرير.. ومع حذف عدد الأميين.. ومع إغفال إحصائية القارئين في غير المدن الكبرى والحواضر الصغرى وباحتساب الذين يفكّون الحرف فكاً يصل بهم في النهاية ولو إلى حد قراءة العناوين والأخبار البارزة الحروف لا المضمون.. فإننا يجب أن نقلل عدد الجرائد والصفحات وأن نقفل المطابع والأوراق.. ليتسنى لنا أن نتنادى بالويل والثبور وعظائم الأمور.

لماذا كل هذا؟

١ ـ لأن النسبة المئوية من المهيئين للقراءة ـ نظرياً ـ من الضآلة بمكان لا تؤمن حالة الوقوف أو الجلوس فيه.

٢ ـ ولأن عدد القارئين حالياً.. من تلك النسبة تجيئ بنسبة الشعرة البيضاء في الثور الأسود.

٣ ـ ولأن عدد القارئين من هؤلاء لما يستحق القراءة التي تدعو إلى وجود الكاتب المطالب بوجوده.. لا يستحق الذكر أو الإشارة إليه باسم إشارة.. أو بضمير مستتر أو بارز، ولضعفي في الحساب والرياضيات من أيام الدراسة فإنني أترك لغيري من أخوان الأرقام عمل جدول إحصائي.. يشمل ما ذكرت بالإضافة إلى تعداد صحفنا المحلية المطبوع منها والرجيع، والمقروء فيها، والقارئين له..

وأؤكد سلفاً لسيدنا المحاسب القانوني الكفء أنه سيجد أن حساب الخسائر عدا المرحل منها للأعوام القادمة مرعب ومخيف.

وتحاشياً للغة الأرقام وليست صنعتنا. وتوخياً للمشاركة في الأخذ والعطاء.. ونزولاً على رأي الأقلية من البقية الباقية من القرّاء.. وقطعاً لدابر المكابرة والتهويل.. فإن في استعراض بعض الحقائق البارزة.. ما يغني عن الحساب والمحاسبة في الموضوع.

ولدينا أولاً المجال واسع في حالة صحفنا المحلية.. وزبائنها من القرّاء الكرام والأجلاّء، فمن من الطبقة النظيفة القارئة موظفين.. طلاباً.. وتجاراً، وأصحاب فكر وعلم وسواهم يستطيع أن يقول إنه يقرأ ما فيها ـ بصرف النظر مؤقتاً عما فيها؟

إن العدد الذي يمكنه أن يرفع صدره بحق.. ويشير إلى نفسه مؤكداً ذلك.. لا يمكن لنا بنسبته الضئيلة أن نستشهد به في هذا المجال.. فهو الزبون المألوف المعتاد.. السمك يأكل السمك.. يضاف إليه في الآونة الأخيرة الحاضرة.. بعض قراء الأخبار المحلية.. وفي مقدمتها أسماء المسافرين والقادمين.. من.. وإلى الرياض.. جدة.. بيروت.. وفي الصيف.. الطائف..

لقد حضرت كثيراً من مجالس هؤلاء.. وأولئك من الطبقات التي ذكرت ـ ورأيت الجرائد ـ ينتهي مآلها المحزن بعد الهجران، إلى أحضان الرفوف، أو إلى أيدي بعض السعاة آخر المطاف.. وإنني بهذه المناسبة لأحيي بالنيابة وباسم مبدأ القراءة للقراءة هذه الطائفة من السعاة والقهوجية والفراشين.

كما أن لدينا ثانياً المجال ضيقاً ـ في حالة الكتب عامة.

ومؤلفات ودواوين بعض كتابنا وشعرائنا بصفة خاصة..

كما يقال التعميم والتخصيص ولكنه مع ضيقه وضيق ذات اليد قابل للمقارنة وللاستشهاد في مجال البحث عن القارئ وفي هذا المجال وعلى طريقة المأسوف على شبابه ولسانه الشيخ جحا شهاب الدين خوجا، فليخبر

منكم من يعلم من لا يعلم.. ولولا أن الأستاذ العامودي ـ والأستاذ الرفاعي يطالعانا بعد الأسبوعين.. بأسبوع بملخص أو بنقد وتقديم كتاب جديد لقلنا فضلاً عن أنه لن يقرأ.. لم يرد إلينا كتاب جديد.

ولا يدخل في حسابنا طبعاً لقراءة الكتب.. هواة القراءة من العلماء والمؤرخين والأدباء الذين تتنقل الأفواه لندرتهم سيرتهم باعتبارهم أصحاب مكتبات أو أحلاس كتب للقراءة.. لا للزينة.. واستكمال طقوم البيت.

ونأسف بعد شرح هذا الحال المؤسف أن نقول لأصحاب معركة الفصحى والعامية.. وإلى بين.. بين.. إنه لا ميدان اليوم حتى نشتبك فيه وإن من يقرأون لمن يكتب بالعامية الأمس واليوم إنما هم أولئك العابرون على الجسر للذهاب حتماً فيما بعد إلى الميدان الكبير.. يوم يقوم.

وأن نقول استطراداً للناعين على أغانينا تفاهة معانيها.. وترابية ألفاظها.. صبراً صبراً ـ على مجامر الكرام فلكل حلق.. أذن!

وأن نقول أخير جواباً على السؤال المتكرر يومياً.. أين الكاتب؟ بل أين القارئ؟.. وإنني أتعهد باسم رؤساء البلديات أن أنصب له تمثالاً من ورق.. نضعه باشتراك كافة الأميين والقرّاء على باب المكتبة الجديدة المقترحة لمدينة جدة.. والمكتبات سواها في مدن المملكة.

بقي بعد هذا.. وسيبقى السؤال البيزنطي المحور الحائر.. هل أصل الكاتب القارئ.. أم أصل القارئ الكاتب؟

وربما كانت لنا أو لسوانا عودة ـ وجواب عليه..

❋ ❋ ❋

أين القناديل

(قناديل رمضان) مسلسل تلفزيوني في ثلاثين حلقة سبق تقديمها في شهر رمضان الماضي، وقد لاقت هذه القناديل استحساناً من جميع الطبقات والفئات حسب ميولهم ورغباتهم.. المرحوم أستاذي أحمد قنديل قال لي: سترى قناديلنا الجديدة وبعد مرور خمسة أيام من رمضاننا الحالي أيقنت أن القناديل لم ولن تعرض بالرغم من تصويرها فلماذا؟.. هل أدرجت هذه القناديل ضمن البرامج التي ستعرض في شهر رمضان المبارك فإذا كان الجواب بنعم فلماذا لم تعرض؟ أما إذا كان هناك نفي بأنها لم تدرج ضمن برامج رمضان إذاً فكيف تسنى تصويرها كاملة وكيف أعطى صاحبها رحمه الله الاستديو لتنفيذها.. مجرد استفسارٍ أرجو أن لا يحرَّف لمعنى آخر.

* * *

المصدر: جريدة البلاد ١٣٩٩/٩/٦هـ ـ ١٩٧٩/٧/٣٠م.

حديث الذكريات

أحمد قنديل الكاتب والأديب والشاعر.. الذي امتازت كتاباته بالسخرية وبالنقد وأطلق عليه البعض «الكاتب الشعبي» الذي نقل الصورة الشعبية إلى أذهان القرّاء بأسلوب فكاهي ساخر.. كما يمتاز شعره الفصيح برقة ونقاوة صافية تلتهمه النفس دون عناء.. عندما تجالسه لا تمل مجلسه ينقلك إلى مراتع الصبا اللاهي حيث الذكريات الخوالي ويبعث في نفسك الطمأنينة بحديثه.. فيجول بخاطرك من مرتع إلى مرتع ومن موقع لآخر جعبته مليئة بالذكريات.

وهو ابن حارة أصيل، يهوى ويحن دائماً إلى منازله القديمة، خدم بلاده كرئيس تحرير لجريدة الحجاز عام ١٣٥٠هـ وبشغله عدة مناصب بوزارة المالية ثم أخيراً مديراً عاماً للحج لثلاث عشرة سنة وذلك بعد أن تخرج من مدرسة الفلاح حيث درس وقام بالتدريس، فتخرج على يديه بعض أبناء بلدته جدة، والذين أصبح منهم الوزير والرئيس والمدير العام والرياضي الكبير والاقتصادي الناجح.

سوف ينقلك عزيزي القارئ أستاذنا في هذه الحلقة الأولى من حديث ذكرياته إلى أماكن صباه وجو تحبه وتهواه. لا أطيل، فالجعبة مليئة

المصدر: جريدة عكاظ ١٠ / /١٣٩٩هـ ـ ١٠/١٢/١٩٧٨م.

بأشياء وأشياء، فإليك عزيزي القارئ الأستاذ أحمد قنديل.

نشأت.. وسط الناس:

ـ ولدتَ ونشأتَ وتربيتَ بين بيوت جدة القديمة.. بين أزقتها وشوارعها وحاراتها.. فأحببتها كوجود ومن ثم ألفتها كموجود. فهل لنا بذكرياتك عن تلك الحقبة من الزمن؟

ـ إن ذكريات المرء جزء لا يتجزأ من حياته بل هي أساس كبير أو هي سنن الحياة إذا أردت بتعبير حديث.. لقد كانت ولادتي بمدينة جدة في حي العلوي. هذا الحي يقع بين محلتي اليمن والمظلوم.. والنشأة الشعبية دائماً تقوم على الانطلاق والاختلاط والتفاعل مع الحوادث واليوميات سواء في المدرسة أو مع الزقاق أو في الحارة، هذه ميزات لا بد وأن نقف عندها قليلاً لكي نرسم للحاضر صورة عن تلك الفترة. الآن أولادنا محرومون مما كنا نحن نتمتع به من انطلاق ومن احتكاك ومن تجارب وإن كانت تجارب طفولية لكنها تعمل رصيداً للحياة.. نعود لما نحن فيه، لقد كانت نشأتي كأي من أبناء الطبقة الشعبية.. نشأة شعبية متواضعة في منزل وسط وكان ترددي بين المدرسة والزقاق والمنزل والسوق والبرحة وهذه الأماكن تمثل مختلف الحياة.. لقد كانت مدينة جدة عبارة عن عائلة كبيرة يجمعها مكان واحد يحيط بها سور واحد، فالعائلة هذه، وأعني بها أبناء جدة، كانوا جميعهم معروفين لبعضهم البعض سواء منهم الناشئة أو كبار السن أو العوائل. كان الجميع متعارفين ويشكّلون أسرة واحدة يجمعهم الحب والوفاء والإخلاص والتضحية وإنكار الذات.. وكما تعلم إن النشأة الشعبية تقوم على الاحتكاك والالتصاق بالتراب وبالزقاق وبالشارع.. بالبرحة وغيرها، لا شك أن لها مقومات تظهر في مستقبل حياة الشخص. وأنا وأمثالي نشأنا هذه النشأة، ومن هنا

كان الالتصاق الأكثر الذي ولد منه الحب الأعمق للأماكن وعلى قول ابن الرومي:

وحـــب أوطـــان الـــرجـــال إلـــيـــهـــمـــو
مـــآرب قـــضّـــاهـــا الـــشـــبـــاب هـــنـــالـــكـــا

إذا ذكـــروا أيـــامـــهـــم ذكـــرتـــهـــم
عـــهـــود الـــصـــبـــا فـــيـــهـــا فـــحـــنـــوا لـــذلـــك

فهذا بالتأكيد هو الأساس

الاستغماية.. وألعاب أخرى!

ـ إذاً كيف كنتم تقضون أوقاتكم في الأماكن التي ذكرتموها؟

ـ في المنزل ننام ونأكل ونجتمع مع العائلة، وفي المدرسة نقوم بالواجبات المدرسية تحصيلاً وفيما بعد مذاكرة في المنزل.. أما في الأزقة وفي الشوارع والبرحات فكنا نمارس الألعاب الشعبية وهي كثيرة على أيامنا وإن كانت بدائية بالنسبة للألعاب الحديثة الحاضرة والمستوردة.. فهناك لعبة تسمى الكيت والبرجوه والمدوان والاستغماية ويا أبونا جانا الديب.. إلخ هذه الألعاب المعروفة في تلك الحقبة من الزمن. ولا بد أن أكرر دائماً في حديثي معك بكلمة أيضاً لأربط بين الماضي والحاضر.. طالما طلبت في كتاباتي السابقة النثرية أو الهزلية أن يتصدى شباب اليوم والدارسون منهم على الأخص لتكوين لجنة أو جماعة لترجع أو تعود إلى ألعابنا الشعبية بمختلف أنواعها وتسجلها أولاً ثم تطورها بمقتضيات العصر الحديث.. ولا أكتمك أن بعض ألعابنا القديمة تماثل الألعاب العصرية مثلاً أعطيك فكرة عن لعبة «القتال» وكان يلعبها الشباب وهي تساوي الآن لعبة «الجولف».. «الاستغماية» لعبة تكاد تكون عالمية.. لعبة «اليدس»

وهي لا شك لعبة ظريفة وطريفة.. ألعاب كثيرة متعددة لا بد من حصرها في قائمة أولاً تحت عنوان الألعاب الشعبية ومن ثم يبحث في أمر تهذيبها أو تطويرها في الوقت الحاضر فنمارس ألعاباً تتصل غي حاضرنا بماضينا وقد تنقل عنا لأن في بعض ألعابنا طرافة وحلاوة وجمالاً.. وبطبيعة الحال كنت في منزلي أقوم بالمذاكرة لدروسي اليومية، وليحمد الله جيلُ اليوم، لقد كنا في الماضي نجلس على الأرض لمذاكرة دروسنا أو على حصيرة قديمة أو حنبل هندي أو مفرشة عتيقة وكنا ننسدح على بطوننا أو نجلس ولم تكن هناك كهرباء لنتحكم في الإضاءة بل كنا نستخدم الفوانيس أو لمبة نمرة ٢ أو لمبة نمرة ٤.. هذه الحالات بما فيها من كد لا شك أنها تربي.. تربي الرجال وتنمي الملكة والإحساس.. أنا لا أدعو إلى العودة إليها بل بالعكس فإن إنجازات الحضارة الآن من كهرباء ومكيفات ومن ومن.. الخ ينبغي أن نستفيد منها استفادة كبرى فهي معين أكبر.. لأننا في الماضي كنا نعاني على حساب أجسادنا ونظرنا وأعصابنا.. أما في المدرسة فكانت الحياة الاجتماعية الحلوة الإنسان فيها يتلاقى مع أنداده ومع أترابه من الصغار وتنشأ علاقات. وبهذه المناسبة أذكر أن لي صداقات من أيام الدراسة إلى يومنا هذا استمرت مع بعضهم حتى قضى الله أجل البعض منهم وودعوا دنياهم، ومن أصدقاء مدرسة الفلاح المرحوم محمد سعيد العتيبي، الأخ سراج زهران، الشيخ عمر عبد ربه، الأستاذ عبد الحميد مطر، ومحمد علي مغربي. ولا تزال صداقتنا قائمة حتى اليوم ـ ولا أحب حصر الأسماء حتى لا يفوتني أسماء بعضهم ولكن أحببت أن أذكرك أن الصداقة التي نشأت بيننا ونحن أطفال أو زملاء دراسة لا تزال حتى اليوم لم تتبدل ولم تتغير ولم ينقطع بعضنا عن بعض؛ هذه ميزة أوصي بها شباب اليوم، إذ ليس هناك أحلى ولا أمتع من الصداقة القائمة على الحب والاحترام والوفاء والإخلاص والتضحية

ونكران الذات. فالصداقة مرادفة للحب بل هي أعمق وابقى منه لأن الحب قد تخمد جذوته أما الصداقة فهي شعلة دائمة.

جيلنا هو الأفضل:

ـ قلت: لي معك حديث طويل عن الألعاب الشعبية وتاريخ مدرسة الفلاح.. لكن هل تعتقدون أن جيلكم قد حظي بكثير من الاهتمام من الوالدين مما هو عليه جيل اليوم، وهل هناك فوارق مما كان ومما هي عليه التربية اليوم؟

ـ الرابطة العائلية أو الأسرية في ذلك الوقت كانت أقوى بكثير مما هي عليه اليوم، والسبب في هذا ليس امتيازاً وإنما بحكم الضرورة وبحكم الظرف، فالوقت طويل وممتد، فالأب أو الأم أو الأخ أو الأخت يكونون عائلة واحدة دائمة الرؤية لبعض وليس هناك انفصام أو انفصال بل بالعكس تنشأ علاقة ووشائج مستديمة بعكس ما يحدث في هذه الأيام.. الحياة الآن حارة وسريعة جداً ومتعددة الأشكال ومتناثرة ومتباعدة، وهذا بحكم التطور العصري، ونحن لا نعيب هذا وإنما نقارن بين ما كانت عليه حالة الأسرة في ذلك الوقت وما أصبحت عليه الآن.

الحضارة.. جنت علينا!

ـ الحياة المادية التي طغت على نفوس البعض يعلّلها بعض علماء الاجتماع بأنها المعول الذي هدم بعض التقاليد والعادات التي كانت سائدة في تلك الفترة من تاريخنا.

ـ الحقيقة إذا أردت أن تفلسف أو تدرس الأمر فالمسألة مردها إلى مشابه عامة، مثلاً، الإنسان مع الطبيعة في القرية غيره في المدينة الصغيرة وغيره في المدينة الكبيرة أو العاصمة حيث الاستقلال الذاتي و التباعد

وغيره فيما وصلت إليه الحضارة في المدن أو في الحكومات الكبيرة.. أنا أذكر أنني قرأت ذات مرة لكاتب فرنسي وطبعاً كانت الكتابة مترجمة للعربية.. يقول إن الأبنية المتشابهة لناطحات السحاب كتمت على صدورنا وحرمتنا من الهواء الطلق ومن المناظر اللطيفة..! وطبعاً أنت تعلم أن هناك شعراء كباراً وكتّاباً وفلاسفة دعوا إلى العودة إلى الطبيعة، وهذا حلم أو أمنية مثل اليوديبيا.. لكن يدلك على مقدار الضيق بالأشياء المادية لأنها تكرب العصب والسعي وراء المادة أمر وجد له الإنسان لكن التغالي في هذا إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه هذا لا شك أنه العيب ذاته.

جدة.. حبيبتي الأولى!

ـ ذكرت أن مدينة جدة أثَّرت في حياتك.. بل هي كل حياتك، فيها ذكريات الصبا والشباب.. الصبا اللاعب اللاهي.. والشباب الضاحك الحالم.. تلك الذكريات التي كلما ضاقت حلقات الحياة لجأت إليها فامتزج الماضي بالحاضر كجزء لا يتجزأ. فمن أنت فيها بعد هذا العمر ومن أنت بين ذلك الماضي وهذا الحاضر!؟

ـ لقد كتبت كثيراً ونظمت كثيراً وتحدثت كثيراً عن جدة.. ليس افتعالاً إنما هو شيء نابع من القلب لأنها بلدتي كان ارتباطي بها وما زال سواء بالذكريات أو بالحوادث سواء بالحنين إليها كلما غبت عنها أتحسس وجودي بوجودها.. أنت تعلم الاستغراق في الحب، وأنا بالنسبة لجدة في حالة حب دائم لأنه بطبيعة الإنسان الشاعر عندما يستهويه شيء ويستغرق فيه قد يبالغ ولكن هذه المبالغة هي أصل من أصول المحبة، ولا تنفرد جدة في حبها في نفسي، بل هناك مدن كثيرة بالمملكة أعشقها وأحبها لكن كما يقولون ما الحب إلا للحبيب الأول..

ولهذا سألني كثيرون لماذا تقصر في القناديل الشعرية وأحاديثك

وكتاباتك عن مدينة جدة ولا تتعرض لكثير من المدن الأخرى؟ فقلت لهم: عندما أتحدث عن مدينة أبها وأنا لم أقم بزيارتها أو لم أمكث فيها لأيام أو شهور أو أحتك بها، بعاداتها وتقاليدها أو حتى لمدن أخرى من مدن المملكة.. عندما أكتب عن ذلك أكون كاذباً لأنني لم أنقل الحقيقة عنها لأنه بقدر ما يكون الاستغراق وبقدر ما يكون الإحساس والعلم بكل صغيرة وكبيرة عما تتحدث عنه وعن الواقع فيه بدون تكلّف وبدون عناء بقدر ما يكون الإخلاص لهذا الشيء.. لكنني لا أستطيع أن أستعيد شعور شخص آخر من أبها أو جيزان أو من الشمال أو من المنطقة الشرقية فأتحدث عن تلك المدن. لا شك أن الحديث سيصبح حديثاً جغرافياً حديثاً جافاً لا معنى له.. فمدينة جدة رافقتني ولا تزال تقر في نفسي منذ أن كنت طفلاً وصبياً وفتى ويافعاً وشاباً ورجلاً وكهلاً وشيخاً الآن، فجدة رافقتني في جميع أطوار حياتي وأنا مرتبط بها وبطبيعة الحال ما ذكرته عنها سواء بالفصيح مثال:

لـك يـا جـدة الـحـبـيـبـة فـي الـقـلـب
مـــكـــان مـــحـــبـــب مـــألـــوف
طـار فـيـه صـدى الـجـديـديـن بـالأمـس
ومـــا زالـــت الـــحـــيـــاة تـــطـــوف

كما قلت لها بالبلدي يوماً وأيضاً لا زلت أقول:

أنـــا ابـــن جـــدة أيـــاً كـــان مـــوقـــفـــهـــا
مـــن الـــحـــيـــاة وأيـــاً صـــار مـــعـــنـــاهـــا
لا لـــن أفـــرط يـــومـــاً فـــي مـــحـــبـــتـــهـــا
لـن يـخـرج الـضـفـر مـن لـحـم بـه تـاهـا

أو بالتعبير القناديلي دائماً بلا انقطاع.. ولهذا كنت حريصاً دائماً على أن أتلمّس النقص في مدينة جدة وأحاول أن أجذب المسؤولين إليه بطريق العرض أو بطريق النقد الذي يخدش ولا يدمي للتنبيه وللإثارة. فهناك حالات كثيرة رافقتني وكنت من سنوات طويلة «أزن» كما يقولون بالبلدي مثل المطالبة بتسمية الشوارع بعد هذا الاتساع مثل ترقيم المنازل والدكاكين، ولقد عرضت هذا الأمر مراراً سواء في الصحف فيما أنشره أو أكتبه أو مع المسؤولين من رؤساء البلديات السابقين أو مع رئيس بلدية جدة حالياً أو حينما كان صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز مسؤولاً عن هذا، وأخيراً كذلك مع صاحب السمو الملكي الأمير ماجد بن عبد العزيز باعتباره وزير الشؤون البلدية والقروية. لقد قابلت سموه آنذاك وشرحت له الأشياء الهامة التي هي دائماً محل تركيز من قبلنا ومن زمان مثل تقسيم البلدية إلى بلديات وكل بلدية تعطى اختصاصها بل أن يتكوّن من كل حارتين أو محلة أعضاء لمجلس بلدي للحارة نفسها.. وكذلك بالنسبة للترقيم ولتسمية الشوارع وعن المراكز الصحية وتوسيعها وتنويعها، الحمد لله الآن تم بعض من كل. وكشاعر وكاتب أترصد هذه الأشياء ومن ثم أكررها وأكررها. وكما تعلم، عندما يكون الإنسان محباً لشيء، لمدينة ما، أو لشخص ما، دائماً يسعى للتنويه وللتركيز على ما فيه الصالح له. وعلى كل حال فنحمد الله أنه قد تحققت لمدينة جدة أشياء كثيرة غير منتظرة وغير متوقعة وأخذت النسبة بنسبة المملكة.. لقد طفرت بلادنا طفرات وتطورت تطوراً كبيراً جداً في مدة قصيرة خيالية وهي مستمرة في هذا الطريق، فمثلاً في مدينة جدة تحققت بعض الأشياء أو الأحلام أو التمنيات التي كنت أدعو لها أن تتحقق ولا شك أن الباقي آتٍ:

ولــم أر فــي عــيــوب الــنــاس نــقــصــاً
كــعــجــز الــقــادريــن عــن الــتــمــام

والحمد لله لدينا استطاعة مادية ولدينا كفاءات بشرية، والاستعداد موجود، وماذا يمنعنا أن نستكمل كل شيء كما يجب أن يكون..

فجدة وحبي لها كما ذكرت لك هذا شيء طبيعي وبإرادتي المطلقة، وأنا شخصياً أعتبره واجباً عليَّ لأن كل إنسان له وطن كبير كالمملكة، وله وطن صغير كبلده، وله وطنه الأصغر وهو منزله، ويحب زقاقه وشارعه ثم يحب حارته وبلدته، ثم يحب وطنه الذي يحوي كل ما ذكرت.

ومدينة جدة من هذا الوطن الغالي والحبيب في قلوبنا أنها قطعة منه.

البحر.. جزء من حياتي!

ـ جدة رافقتك ولم تزل ترافقك.. فبماذا خرجت من حصيلة هذه الصحبة الطويلة؟..

ـ خرجت من حصيلة هذه الصحبة أنني ما أزال معها وسأظل معها، لأنك تعلم أن الحب الذي لا يتعلق أو لا يرتبط بالمادة حب سرمدي ودائم.. يستغرب كثيرون مما يعتبرونه إفراطاً أو كما سموني مجنون جدة.. أعطيك مثالاً فرعياً: البحر.. بحر مدينة جدة.. عندما أسافر خارج المملكة وأحضر لجدة أول شيء أتحسسه أن أذهب إلى البحر فأجلس أمامه الساعات والساعات لأن البحر جزء من حياتي سواء من أيام صباي أو شبابي أو كهولتي، علماً بأنني لا أحسن العوم وأخاف جداً من الماء على طريقة ابن لرومي:

وأيــســر إشــفــاقــي مــن الــمــاء أنــنــي
أمــر بــه فــي الــكــوز مــرّ الــمــجــانــب

لكن رؤية البحر وسماع هدير الأمواج والتمتع به حب ذاتي ولي في بحر جدة بالذات قصائد كثيرة منها الفصيح أو بالشعر الدارج «قناديل».. وهنا أذكر لك بعضاً من نزهاتنا القديمة أيام سور جدة الذي كان يشتمل على عدة أبواب منها الباب الشمالي (باب جديد) وهذا الباب كان أهالي جدة يخرجون منه قبل المغرب يعني الساعة ١١ بالتوقيت الغروبي أو العربي، ويقومون بالنزهة بالقرب من البحر من جهة الغرب ومن جهة الشمال الذي كانت توجد فيها بعض التلال، وهذه التلال كانت مجلساً طبيعياً لبعض شيوخ جدة وكبارهم عند خروجهم للنزهة أمثال الشيخ علي سلامة رئيس البلدية وقائمقام جدة أو عميد أسرة قابل وكانوا يطلقون على هذه التجمعات أندية الشباب أو نادي الشباب، وهي تسمية ظريفة وبها مفارقة، والآخرون أمثالنا من الشباب كنا نتنزه أمام البحيرة الواقعة أمام الخارجية الآن.

وعلى سبيل ذكر التلال كانت تمتد من القَشْلة حتى سقالة الإنجليز (سقالة تنشن) والتي بها حالياً أعتقد خفر السواحل أو البحرية.. وكانت تمتد نزهاتنا وسمرنا حتى الساعة الواحدة عربي، ولي في هذه التلال ذكريات ومنها المقطوعة الشائعة التي غنيت التي أحفظها رغم أنني لم أتعود أن أحفظ شيئاً من شعري إلا القليل، ومن هذا القليل هذه القطعة لأنها تربطني بذكريات وذكريات طويلة جداً، واسم هذه القطعة الجواب الضائع:

قال لي والتلال قد لفها الصمت

كما لفنا الهوى بردائه

ويميني تحيط عطفيه

والبدر مطل

واللحظ في اللحظ تائه

كيف أحببتني؟

وفسر ما قال

فتضاحكت.. حائراً مستزيدا

سؤله المشتهى برغم خفائه

فرنا ناعسا..

يشاركني الضحك

ابتساماً ينوب عن إصغائه

واستحى!! والحياء فن من الحسن

وضاع الجواب في استحيائه

فهذا من ذكريات التلال التي كان يتناثر عليها بعض الشباب فكانوا يقضون ساعة أو ساعتين ثم يعودون إلى داخل المدينة قبل قفل باب جديد.. وفيما بعد كانت لي صحبة دائمة بتلك المنطقة وخصوصاً بأطراف القشلة بعد تعارفي بالمرحوم الأستاذ حمزة شحاته كما نقضي يومياً أكبر وقت ممكن فكنا نخرج بعد قضاء السمرة الخفيفة في منزل العتيبي أي في المركاز إلى الصخرة أو التل القشلة وأعطيك صورة صغيرة عن موقع تلك التلة فلقد كانت القشلة تقع على تلة تبعد عن سور جدة بقليل وكان يزين مدخلها صفان من الأشجار الوارفة زرعت على جانبي الطريق وبعد موقع القشلة كانت هناك تلال مبعثرة وبعض الصخور، وعلى أحد جانبيها كنت أنا والأستاذ حمزة شحاته نقضي الساعات والساعات بين شعر وأدب

وقصص ومجالسات أدبية طريفة، فكنا نأخذ معنا شربة الماء الفخار الباردة وبعض قليل من (الدقة) وجبنة وشريك وكانت تمتد سهرتنا إلى ما قبل صلاة الفجر ثم نعود إلى بيتنا.

الأسماء.. لها حكاية!

ـ هناك تسميات لبحر جدة.. من هذه التسميات بحر الطين وبحر الحجر وبحر أبو العيون هل لكم أن تحدثونا عن هذه التسميات ومسبباتها..

ـ فلنبدأ من الناحية الشمالية، فالبحر المقابل لوزارة الخارجية أو هذه البحيرة كان يطلق عليها بحر الطين، وكان فعلاً يستخرج منها الطين لبناء بيوت جدة. بالمقابل لهذه البحيرة كانت هناك منطقة والتي هي الآن حي الشرفية وفي جهات أخرى كانت هناك المناقب وكانت تستخرج منها أحجار البناء أو الحجر المنقبي، بالمقابل أيضاً فخلف فندق البحر الأحمر ومقر البلدية الآن من جهة الغرب كان يطلق على بحر هذه المنطقة بحر الحجر أما البحر الذي بعده أيْ مقابلَ معرض الأخ محمد علي مغربي من جهة الغرب فكان يطلق عليه بحر أبو العيون، وكانوا يستخرجون منه الملح ويضعونه كالأكوام، وهذا البحر له قصة طريفة؛ فلقد كانت النساء العواقر اللاتي لم يلدن ينزلن لماء هذا البحر على نية أنها ستنجب وهذا لا شك خرافة وجهل كان سائداً.. وبعد ذلك يمتد البحر بعرضه تقابله الجزر الثلاث: جزيرة أبو سعد وجزيرة الواسطه وجزيرة الجن.. وكان أهالي جدة يقضون المناسبات أو الويك اند (الإجازة الأسبوعية) أو في المناسبات أو الأعياد في إحدى هذه الجزر أو قل معظمها كل حسب مقدرته، وكذلك كان بعض الأهالي يقضون إجازاتهم وبالأخص في الخليف لمن لم يحج في بعض البواخر التي كانت ترسو في عرض البحر حيث لم تكن هناك

ميناء متصلة بالباب.. وكانوا يلعبون الكيرم أو الكوتشينة، وكانت الجزيرة المستعملة في الدرجة الأولى هي جزيرة أبو سعد ثم الواسطة. أما جزيرة الجن فنادراً ما كان الأهالي يذهبون إليها.. ويقابل هذا قضاء الوقت في البر.. فكان هناك قصر يسمى قصر السقاف والذي محله الآن فندق قصر الكندره وكانت هناك أيضاً مربعة الهنود لبعض التجار فكان بعض الأهالي ممن يحبون قضاء وقتهم في البحر يذهبون لأصحاب هذه المربعة ويأخذون منهم المفتاح الخاص بها ثم يقضون نهارهمُ وليلتهم وقد أخذوا معهم أكلهم وأغراضهم ثم يعودون بعد ذلك وهكذا.. وكذلك كان يوجد بيت المشاط عند القوزين في حي السبيل أو في مرابيع النزلة أو في بني مالك أو في الرويس.. أو السرحة في الليل في البحر للاصطياد. كانت هذه الأشياء بعضاً من مراتع النزهة لأهالي جدة القديمة.. والبحر على عمومه له تسميات يحفظها أصحابها ولا بد أن نتتبع هذه المنازل من أين ابتداؤها وأين نهايتها. إنه تاريخ ويجب أن يكتَب ويحافَظ عليه.. وهذه المنازل تبتدئ بعد بحر الطين حيث توجد فيه عشرة ثم القحاز، وهذه المنطقة من البحر دائماً أتغنى بها وكانت هناك مقهى صغيرة عبارة عن عشة متواضعة كنا نجلس فيها ونتسامر حيث كان يصاحبنا أفلاطون والمعري وغيرهم في جلساتنا الشعرية أو الأدبية عندما كنا نستعرض أعمالهم والتي كانت تتلى من بعضنا.. ثم بعد ذلك المنازل، ويمتد هذا البحر إلى مشارف أبحر وإلى ما بعد أبحر ولها مسميات كثيرة وعديدة ويوجد لديَّ مسلسلة خاصة لهذه المسميات. ومن هذه المسميات قد تستغرب أنه يوجد منزل اسمه عكاظ وهو عبارة عن قرية صغيرة للصيادين تشرف على البحر فسمي البحر باسمها.. فهذه مسميات ولكل جزء من هذا البحر اسم خاص به أو لكل منطقة بحرية اسمها..

وبحر الطين سمي بذلك لأنه كان يستخرج منه الطين وهذا الطين، كان المعلمون أو البناؤون يستخدمونه في عملية بناء المنازل والقصور وسمي بحر الحجر بهذه التسمية لأنه كان يستخرج منه الحجارة البحرية أما تسمية بحر العيون بذلك فأعتقد أنه تسمية لشخص اسمه أبو العيون ولا أستطيع تحليل أو تحديد شخصيته.

ـ سوق العلوي وتأثيره في شخصيتي..

ـ بم يذكرك بيتك القديم الكائن بسوق العلوي في أطراف العيدروس والواقع على حدود محلتي اليمن والمظلوم.. وهل ما زال فؤادك يحن إليه؟

ـ إنه جزء لا ينفصل من نفسي.. نحن عائلة كبيرة منقسمة إلى قسمين: قسم يسمى عائلة قنديل والآخر عائلة عبيد وهما أولاد عمومة.. وكان البيت في تلك الفترة يحتوي على حوالي مائة نسمة على أقرب تحديد أو أكثر إن لم تخني الذاكرة، وله مطلعان بدرجاتهما المستقلة وكل درجة تؤدي إلى فرع من فرعي العائلة، وكانت هناك تقاليد في العوائل الكبيرة بمدينة جدة فكان لمعظم المنازل مطلع أو دكة أو قل مصطبة كان يجلس بها كبار العائلة، وكانت هناك برحة اسمها برحة القنديل وهي معروفة وكنا نلعب بها، وبطبيعة الحال فكل صغيرة أو كبيرة في البيت أو كل ركن من أركانه أو كل جزء من أجزائه متصل بحوادث معينة وبذكريات سواء منها ما تعلق بالأماكن التي كنت أذاكر فيها وأنا صغير السن أو ما يحدث من اتصال مع أهلي وأقراني أو الاجتماع على المائدة مع العائلة.. واجتماعات العائلة أيام زمان حلوة وجميلة. كان هناك ما يسمى بالطبلية وكان يوضع عليها الآكال وكان آخرون يفترشون الأرض ويضعون الغذاء فوق مفارش أو سفرة، وكان بطبيعة الحال يتصدر المائدة

رب العائلة وبجانبه الأم والأخوان والأخوات، وطيلة مدة الأكل يجري الحديث، وكنت منذ حداثتي فكاهياً أحب السخرية فكنت دائماً أروي أشياء رغم حداثة سني فترى الجميع يضحك عليها وكنا نقضي وقت الغذاء أو العشاء أو الفطور في أجمل وقت، وكانت العادة أن الكبير من أولاد العائلة هو الذي يتولى شراء الحاجيات ـ أو المقاضي ـ وكان منزلنا يشرف على العلوي ومن رواشن المنزل كنت أتطلع إلى صور الحياة جميعها على الزلباني أي بائع الزلابية واللقيمات وعلى بائعي المعصوب والمطبق.. وكذلك على شاعر الليل أي الراوي الذي كان يقرأ سيرة أبو زيد الهلالي وعنترة والظاهر بيبرس بالتوالي في المقهى وأمام البشك التي كانت تفقد مستمعه لذلك في إصغاء ومتابعة وتشوق.. ومن هنا تلوّنت في مخيلتي الصور الشعبية التي لا تنتهي وبطبيعة الحال فمنزلنا القديم أيضاً يربطني بذكريات وثيقة، ففي العادة كنا أيام الصيف نطلع السطوح واللي ما يطلع السطوح كان ينام في الخارجة حتى أنه أيام الندى كنا نتلذذ بقطرات الندى المتساقطة على أجسادنا.. ولقد نظمت في «قناديل» بعضاً من هذه الذكريات التي أحنَّ إليها، ولا أنكر عليك لقد كنت أذهب مراراً لتلك الدار التي جمعتنا كأسرة كبيرة واحدة وكان يسمى البيت الكبير وإن كان اليوم تغير عما كان عليه في الماضي فقد تحوّل إلى شكل آخر وأصبح الدار ومن حوله أشبه بأطلال لذكريات خلت وأخصها الذكريات القلبية حيث التطلع من الروشان إلى مراكن الزرع المقابلة لدى بيوت الجيران.. وأخيراً فلا شك أن سوق العلوي وما جاوره من محلة اليمن حيث تنتسب العائلة إليها بأزقته وبرحاته وشوارعه الضيقة قد أثر في شخصيتي الأدبية والشعبية والشعرية.

* * *

فهرس المحتويات